سورة محمد

[٨٢٩] ك. . أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾(١) قال هم أهل مكة نزلت فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾(٢) قال هم الأنصار.

[٨٣٠] وأخرج عن قتادة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٣) قال ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد ورسول الله [ﷺ] في الشعب وقد نشبت فيهم الجراحات والقتل وقد نادى المشركون يومئذ أعل هبل ونادى المسلمون الله أعلى وأجل فقال المشركون إن لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله [ﷺ]: **«قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»**.

[٨٣١] وأخرج أبو يعلى(٤) عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله [ﷺ] تلقاء الغار نظر إلى مكة فقال: **«أنت أحب بلاد الله إليّ ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج عنك»** فأنزل الله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾(٥) الآية.

[٨٣٢] وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبي [ﷺ] فيسمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه ويسمعه المنافقون فلا يعونه فإذا خرجوا سألوا المؤمنين ماذا قال آنفاً فنزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾(٦) الآية.

[٨٣٣] وأخرج ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله [ﷺ] يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا

---

[٨٢٩] (١) سورة محمد ﷺ: الآية (١).
(٢) سورة محمد ﷺ: الآية (٢).
[٨٣٠] (٣) سورة محمد ﷺ: الآية (٤).
[٨٣١] (٤) ورواه ابن جرير (٢٦/٣١).
(٥) سورة محمد ﷺ: الآية (١٣).
[٨٣٢] (٦) سورة محمد ﷺ: الآية (١٦).

الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزل: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾(١) فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

* * *

[٨٣٣] (١) سورة محمد ﷺ: الآية (٣٣).

(٤٧) سورة محمد مدنية وآياتها ثمان وثلاثون

سورة محمد من السور المدنية ، التي تُعنى بجانب التشريع ، وتهتم بالأحكام التشريعية التي يقوم عليها نظام الإسلام ، في العبادات ، والآداب ، والأخلاق ، والمعاملات ، وسائر النواحي التشريعية .

سميت السورةُ الكريمة « سورة محمد » لأنَّ فيها تخليداً لذكر اسمه الشريف ﷺ ، وإعلاناً بأن هذا الرسول الذي ختم الله به الرسالات السماوية وختم به النبوة ، هو النبيُّ الصادق ، الهادي الأمين ، وأنه هو وأتباعه على المحجة البيضاء والصراط المستقيم ، وأنهم على نور وهداية من الله ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وآمنوا بما نُزِّل على محمد وهو الحقُّ من ربهم ، كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ ولذلك سميت سورة محمد ﷺ ، ولهذه السورة اسم آخر ، اسمها « سورة القتال » وهو اسم حقيقي لها مناسب لموضوعاتها وأهدافها ، فالقتال لأعداء الله هو موضوعها الأساسي ، والقتال هو العنصر البارز فيها ، وهو المحور الذي تدور عليه السورة الكريمة .

تبتدىء السورة الكريمة ببيان حقيقة الإيمان والكفر ، وتعريف الناس بصفات المؤمنين الأبرار ، وصفاتِ الكافرين الفجار ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيلِ اللهِ أضلَّ أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وآمنوا بما نُزِّل على محمدٍ وهو الحقُّ من ربهم كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ذلك بأن الذين كفروا اتبُعوا الباطل ، وأنَّ الذين آمنوا اتَّبعوا الحقَّ من

ربهم ، كذلكَ يضربُ اللهُ للناسِ أمثالَهم﴾ .
وتحدثت السورةُ عن الجهاد والقتال لإعلاء كلمة الله ، وتطهير الأرض من رجس المشركين ، واللهُ قادرٌ على الانتقام منهم دون أن يكلف المؤمنين بجهادهم وقتالهم ، ولكنه الابتلاء والاختبار ﴿فإذا القيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوَثاقَ ، فإمَّا مناً بعدُ وإمَّا فداء حتى تضع الحربُ أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لا نتصرمنهم ، ولكنْ ليبلوَ بعضكم ببعض ، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يُضلَّ أعمالهم ، سيهديهم ويُصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم﴾ .
وتحدثت السورة عن واجب المؤمنين في نصرة دين الله ، وردّ كيد الأعداء عنه ، وقد وعد الله المؤمنين بنصرهم على أعدائهم ، وتثبيت أقدامهم في المعركة ، إن هم نصروا دينه وأعزُّوا شرعه ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تَنْصُروا الله يَنْصُرْكُم ويُثبِّتْ أقدامَكُم . والذينَ كفروا فتَعْساً لهم وأَضَلَّ أعمالهَم﴾ .
وتنتقل السورة للحديث عن المكذبين وبيان عاقبتهم الوخيمة ، وفيها إنذار وإعذار لأهل مكة حيث يرون الآيات فلا يعتبرون ، ويشاهدون مصارع من سبقهم من الأمم الباغية ، كيف دمَّر الله عليهم كل ما حولهم لَمَّا تمادوا في الطغيان والعناد والتكذيب لرسل الله ﴿أفلمْ يسيُروا في الأرضِ فينظرُوا كيف كانَ عاقبةُ الذينَ من قبلِهِمْ؟ دمَّر اللهُ عليهم وللكافرين أمثالُها . ذلكَ بأنَّ اللهَ مَوْلَى الذينَ آمنوا ، وأن الكافرين لا مَوْلَى لهم﴾ .
وتوازنُ السورةُ بين المؤمنين والكافرين ، في أهدافهم وأغراضهم ، وحالهم ومآلهم ، فالمؤمنون يعبدون الله ، وهدفُهم رضوانُ الله ، ليفوزوا بالجوار الكريم في جنات النعيم ، ولذلك أنالهم الله ما يبتغون ، والكافرون على النقيض يجرون وراء الأهواء والشهوات ، كالبهائم السارحة التي لا

تفقه معنى للحياة إلا أن تملأ بطونها وتنال شهواتها البهيمية ، ولذلك كان مآلهم في دركات الجحيم ، لأنهم لم يكرّموا أنفسهم بل أهانوها فاستحقوا الذلّ والهوان ﴿ إن اللهَ يُدخلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ، والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكلُ الأنعامُ ، والنار مثوىً لهم ﴾ .

وتأكيداً للبونِ الشاسع بين الفريقين : المؤمنين والكافرين ، تقارنُ السورةُ بين نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار ، وهو المصيرُ المحتَّم لكلٍ من الفريقين ، فتصف نعيم أهل الجنة بما لا مزيد عليه من التشويق إلى نيله مع التكريم ، وتوازن بينه وبين مصير أهل النار ﴿ مَثَلُ الجنةِ التي وُعِدَ المتقون ، فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغير طَعْمُه ، وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربين ، وأنهارٌ من عسلٍ مصفًّى ، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرةٌ من ربهم ، كمن هو خالدٌ في النار ، وسُقُوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم ﴾ ؟

ثم تنتقل السورة للحديث عن المنافقين ، وهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين ، وقد كانوا بالمدينة المنورة يعيشون مع المسلمين ، ويتظاهرون بالإسلام على كُرهٍ وهم يضمرون الحقد والبغضاء ، ويتربصون بالرسول وأصحابه الدوائر ، وعلى رأسهم « عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول » رأس النفاق ، وقد تكرر ذكرُ المنافقين ووصفُ دسائسهم ، والتنديد بمؤامراتهم وأخلاقهم في السورة المدنية ، كما تكرر ذكر اتصالهم باليهود ، وهذه السورة إحدى المواضع التي وردت فيها الإشارة إلى المنافقين وإلى اليهود ﴿ إنَّ الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبيَّن لهم الهُدَى ، الشيطانُ سوَّل لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزَّل اللهُ سنطيعكم في بعض الأمر ، واللهُ يعلم إسرارهم ، فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم .

ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخطَ اللهَ وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ .
وتدعو السورة الكريمة المؤمنين إلى الجهاد في سبيل الله ، ومواصلة الجهاد بالنفس والمال ، وتصوِّر قيمة الحياة الفانية ، وما أعدَّ الله للمؤمنين الأبرار في دار القرار ﴿فلا تَهِنُوا وتَدْعوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلون ، واللهُ معكم ولن يترَكم أعمالكم . إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ وتختم السورة الكريمة بالدعوة إلى البذل والتضحية لإعلاء كلمة الله ، وتعقب على ذلك بالإنذار والوعيد لمن يبخلُ عن بذل ماله شحاً وبخلاً ﴿ها أنتم هؤلاء تُدعون لتنفقوا في سبيل الله ، فمنكم من يبخلُ ، ومن يبخلْ فإنما يبخلُ عن نفسه ، واللهُ الغني وأنتم الفقراء ، وإن تتولَّوْا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة محمد عليه الصلاة والسلام[1]

بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[١]

قوله عز وجل: **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله**، قال عامة أهل التأويل: هم أهل مكة؛ والأشبه أن تكون[2] الآية في كفار المدينة وهم أهل الكتاب، لأن السورة مدنية على ما قال بعض أهل التأويل. لكن جائز أن تكون[3] كما قال أهل التأويل بأنها نزلت في كفار مكة، لأن هذه السورة ذكرت على إثر خبرهم وعَقيب نبإهم في سورة الأحقاف. ثم إن كانت الآية في كفار المدينة وأهل الكتاب فيكون قوله تعالى: **الذين كفروا**، بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه؛ **أضلَّ أعمالهم**، أي أبطل إيمانهم الذي كان لهم بسائر الأنبياء وبمحمد عليهم الصلاة والسلام، لأنهم كانوا مؤمنين به قبل أن يبعث، فلما بعث كفروا به. يقول -والله أعلم-: قد أبطل إيمانهم الذي كان منهم قبل ذلك بما كفروا به إذا بُعث. وإن كانت الآية في كفار مكة على ما قال أكثرهم فيكون قوله: **الذين كفروا**، بوحدانية الله تعالى، أو كفروا[4] بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزل عليه الصلاة والسلام، أو كفروا بالبعث ونحو ذلك.

---

[1] ر – سورة محمد عليه الصلاة والسلام؛ ن: ذكر أن سورة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مدنية. ث: سورة محمد صلى الله عليه وسلم مدنية؛ م + مدنية.

[2] جميع النسخ: أن يكون.

[3] جميع النسخ: أن يكون.

[4] م: وكفروا.

أضل أعمالهم، أي أبطل[1] حسناتهم التي كانت لهم في حال كفرهم من نحو الصدقات وصلة الأرحام وفك الرقاب وغير ذلك من الأعمال التي كانوا يتقربون بها -والله أعلم- قد أبطل أعمالهم التي كانوا يتقربون بها ويرونها قربة عند الله. أو[2] يقول:[3] قد أبطل عبادتهم[4] التي كانوا يعبدون من الأصنام وغيرها لِتُقرّبهم[5] عبادتهم إلى الله زلفى، لقولهم: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى،[6] وقولهم: هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ،[7] يقول: قد أبطل ذلك ولم يكن على ما رجَوْا وطَمِعوا. ***والله أعلم.***

وقوله عز وجل: **وصدوا عن سبيل الله**، يحتمل[8] صدوا بأنفسهم، أي أعرضوا عن سبيل الله على ما ذكر من الكفر[9] عنهم. ويحتمل **وصدوا عن سبيل الله**، أي صدوا الناس عن سبيل الله، وقد كان منهم الأمران جميعا. **أضل أعمالهم**، أي أبطلها،[10] يقال: ضل الماء في اللبن إذا غُلِب فلم يتبين.[11]

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[٢]

والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد، يقول: والذين آمنوا بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وآمنوا بما نزل عليه وثبتوا على ذلك لم يُضلَّ أعمالهم و لم يبطل إيمانهم الذي كان منهم، بل يكفرَ سيئاتهم التي كانت منهم من الكفر وغيره من[12] السيئات. أو يقول: والذين أمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم كفر عنهم سيئاتهم،

---

[1] ر: وأبطل؛ م: أو أبطل.
[2] ن – والله أعلم قد أبطل أعمالهم التي كانوا يتقربون بها ويرونها قربة عند الله أو.
[3] ن + والله أعلم.
[4] ن: قد أبطل الله أعمالهم.
[5] ر ث م: ليقربهم.
[6] سورة الزمر، ٣٩/٣.
[7] سورة يونس، ١٠/١٨.
[8] ر م + أن؛ ن ث + أي. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٢و.
[9] جميع النسخ – من الكفر. والزيادة من المرجع السابق، ورقة ١٣٢و.
[10] ر م: أي أبطل؛ ن ث: أي أبطلنا. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ١٣٢و.
[11] انظر: غريب *القرآن* لابن قتيبة، ٤٠٩.
[12] ن: من الكفر والسيئات.

وهو الكفر والمساوئ التي كانت لهم في الكفر،[١] كقوله تعالى: إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ.[٢] إن كانت الآية في مؤمني مشركي[٣] العرب وأهل مكة فيكون قوله:[٤] **كفر عنهم سيئاتهم،** الشرك والمساوئ التي كانت لهم في حال الكفر؛ وإن كان في مؤمني أهل الكتاب فيكون قوله: **كفر عنهم سيئاتهم،** التي كانت لهم في حال إيمانهم. ***والله أعلم.***

[٧٢٧و] وقوله: **وهو الحق من ربهم،** هذا / يخرج على وجهين. أحدهما آمنوا بما نزل على محمد عليه الصلاة والسلام وهو الحق، أي[٥] من ربهم نزل، وكل شيء من الله تعالى فهو الحق. والثاني **وهو الحق من ربهم،** أي وهو الصدق من ربهم. وقوله عز وجل: **وأصلح بالهم،** أي حالهم وشأنهم فيما كان من قبلُ وفيما بعده.

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾[٣]

ثم أخبر أن الذي أبطل أعمالهم لأولئك الكفرة وما ذكَر وثبَتَ للذين[٦] آمنوا و لم يبطل أعمالهم وما ذكر من إصلاح حالهم هو ما قال: **ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل،** يحتمل الباطل الشيطانَ أو هوى النفس أو كلَّ باطل؛ وهو الذي يذم عليه فاعله ومُتَّبِعُه. وقوله عز وجل: **وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم،** يقول لهؤلاء ما ذكر لاتباعهم الباطل ولهؤلاء ما ذكر لاتباعهم الحق وقبوله. وقوله عز وجل: **كذلك يضرب الله للناس أمثالهم،** أي مثل الذي بيّن ما لهؤلاء[٧] وما لهؤلاء يُبيّن ما لكل متبع الباطل ومتبع الحق،[٨] وضربُ المثل هو أن يبين لهم ما خفي واشتبه عليهم بالذي ظهر عندهم وتقرر وتجلى لهم ليصير الذي خفي عليهم واشتبه ظاهرا متجلّيا. والله أعلم بالذي ذكر لهم من أمثاله ومَشَابِهه.[٩] ***والله أعلم.***[١٠]

---

[١] جميع النسخ: من الكفر. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٢و.
[٢] سورة الأنفال، ٣٨/٨.
[٣] ر م: ومشركي.
[٤] ن - قوله.
[٥] ر م - أي.
[٦] جميع النسخ: الذين. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ٢٤٥ظ.
[٧] ر: ما هؤلاء.
[٨] ر م: الباطل.
[٩] ن: مشابهة. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٢و. مَشابه، أي أشباه (*لسان العرب*، «شبه»).
[١٠] ر ث م - والله أعلم بالذي ذكر لهم من أمثاله ومشابهه والله أعلم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[٤] ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾[٥]

وقوله عز وجل: **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب**، وقال في آية أخرى: فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ.[١] جائز أن يكون قوله تعالى: **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب**، في القتال والحرب، وكذلك قوله تعالى: فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ، في القتال والحرب أيضا يضربون ويقتلون على ما يَظْفَرون ويقدرون بهم من المفاصل وغير المفاصل وفي كل موضع، ويكون قوله:[٢] فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ، في المفاصل التي ليس فيها كَسْرُ عِظَم[٣] ولا شيءُ[٤] ولكن إبانةٌ من المفصل. ***والله أعلم***. لما روى في الخبر: «إذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة»،[٥] وحُسن القتل هو أن يضرب ويبان[٦] من المفصل. ***والله أعلم***. فعلى هذا جائز أن[٧] يخرج تأويل قوله تعالى: فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ،[٨] وتأويل قوله: **فَضَرْبَ الرقاب**. وجائز أن يكون لا على التقديم والتأخير والإضمار، ولكنْ كلُّ آية على نظم ما ذكر. ***والله أعلم***؛ ثم إن كان على ما ذكرنا من التقديم والتأخير والإضمار فيكون كأنه قال تعالى: فإذا لقيتم الذين كفروا فاضربوا الرقاب حتى إذا أثخنتموهم وأَسَرْتمُوهم فاضربوا فوق الأعناق، لأن الإمام بالخيار عندنا إذا أخذهم وظفرهم: إن شاء قتلهم وإن شاء مَنَّ عليهم وتركهم بالجزية، لقوله: حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ،[٩] ويكون قوله: **فَشُدُّوا الوَثاق**، على هذا في المن يستوثقهم بالمواثيق وإن شاء فَادَاهُمْ. لكنهم اختلفوا في المفاداة؛

---

[١] سورة الأنفال، ٨/١٢.

[٢] ث – قوله.

[٣] ن ث: عظيم. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٢و.

[٤] ر م – وغير المفاصل وفي كل موضع ويكون قوله فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان في المفاصل التي ليس فيها كسر عظم ولا شيء.

[٥] جميع النسخ: القتل. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٢و. انظر: *مسند أحمد بن حنبل*، ١٢٣/٤، ١٢٤، ١٢٥؛ *وصحيح مسلم*، الصيد ٥٧؛ *وسنن ابن ماجة*، الذبائح ٣.

[٦] ر م: وبيان؛ ن: وبنان.

[٧] ن + يكون.

[٨] سورة الأنفال، ٨/١٢.

[٩] ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرِّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ (سورة التوبة، ٩/٢٩).

قال بعضهم: يُفدَون بالأموال وأُسَرَاء المسلمين منهم. وقال بعضهم: يفادون بالأسراء منهم ولكن لا يجوز أن يفادوا بالأموال، وهو قولنا. وقال بعضهم: لا يفادون بأسراء المسلمين ولا بالأموال، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله.[١] واختلفوا في قتل الأسراء منهم. قال بعضهم: لا يقتلون[٢] ولكن يُمَنُّ عليهم أو يفادون. وقال بعضهم: الإمام بالخيار: إن شاء قتلهم وإن شاء من عليهم وإن شاء فاداهم بالأسارى من المسلمين. أما القتل فلما ذكرنا من الاستدلال بقوله: فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ،[٣] ولما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه استشار أبا بكر وعمر وسائر الصحابة رضي الله عنهم في أسارى بدر فأشاروا إلى المن عليهم والترك وأشار عمر إلى القتل فيهم، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: «لو جاءت من السماء نار ما نجا منكم إلا عمر»، أو كلام نحوه.[٤] دل أن الحكم فيهم القتلُ، أعني في هؤلاء الذين حكم فيهم عمر رضي الله عنه بالقتل، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما نجا إلا عمر». فدل هذا الخبر أن للإمام[٥] أن يقتل أسارى أهل الشرك، وله أن يَمُنّ عليهم بالترك بالجزية في حق أهل الكتاب والعجم، فإنه لمّا جاز لنا في الابتداء أن نأخذ[٦] منهم الجزية إذا أبوا الإسلام ونتركَهم[٧] على ما هم عليه فعلى ذلك بعد الظفر بهم والقدرة عليهم. ثم قال بعضهم: هذه الآية -وهي قوله **فإما مَنًّا بعدُ وإما فِداءً**- منسوخة بقوله:[٨] فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ،[٩] ونحو ذلك. ولكن أمكن التوفيق بين الآيتين؛ هذه في قوم والأخرى في قوم آخرين، أو هذه في وقت والأخرى في وقت آخر. **والله أعلم.**

---

[١] انظر للأقوال حول هذه الآية: *أحكام القرآن* للجصاص، ٥/٢٦٨-٢٧٢.

[٢] ر م: لا تقتلون.

[٣] سورة الأنفال، ٨/١٢.

[٤] انظر للروايات في قصة أسرى بدر: مسند *أحمد بن حنبل*، ١/٢٥٣-١٥٤؛ وصحيح *مسلم*، الجهاد ٧١؛ وتفسير *الطبري*، ١١/٢٧٤-٢٧٥؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٧/٢٠١-٢٠٤.

[٥] ر: أن الإمام.

[٦] ر ث م: أن يأخذ.

[٧] جميع النسخ: وتركهم. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٢ظ.

[٨] جميع النسخ: الآية وهو قوله فإما منا بعد وإما فداء يخالف من حيث الظاهر لقوله. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ١٣٢ظ.

[٩] سورة التوبة، ٩/٥.

وقوله عز وجل: **حتى تضع الحرب أوزارها**، وقال بعضهم: حتى يخرج عيسى ابن[1] مريم عليه السلام فعند ذلك تذهب[2] الحروب والقتال، أي اقتلوهم وافعلوا بهم ما ذكر إلى وقت خروج عيسى عليه السلام. وقال بعضهم: **حتى تضع الحرب أوزارها**، أي حتى يضعوا[3] أسلحتهم ويتركوا[4] القتال. وقال بعضهم: حتى يذهب الكفر والشرك ولا يكونَ الدين إلا دين الإسلام، وهو كقوله تعالى: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ،[5] أي شرك وكفر. ***والله أعلم***.

قيل: الإثخان هو الغلبة والقهر بالقتل والجراح. وقال أبو عَوْسَجة: **أثخنتموهم**، أي أكثرتم[6] فيهم القتل والجِراحة، ويقال في الكلام: ضربته حتى أثخنته حتى لا يقدر أن يتحرك. **والوثاق** ما أوثقتَ به[7] يدي الرجل أو رجليه، يقال: أوثقته واستوثقت منه. وقوله: **أوزارَها**، أي أثقالها، واحدها وزر وهو الثِقل. وقال القُتَبِي: **حتى تضع الحرب أوزارها**، أي يضع[8] [٧٢٧ظ] / أهل الحرب السلاح، وأصل الوِزْر ما حملته، فسمى السلاح وزرا لأنه يحمل.[9] ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **ذلك ولو يَشاءُ اللهُ لانتصر منهم**، قوله: **ذلك**، أي ذلك الذي أُمِرتم[10] به من أول ما ذكر من قوله تعالى: **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب**، إلى قوله: **حتى تضع الحرب أوزارها**. ***والله أعلم***. وقوله عز وجل: **ولو يشاء الله لانتصر منهم**، تأويله -والله أعلم- ولو يشاء الله لانتصر[11] لأوليائه من أعدائه بلا قتال ولا نَصْبِ الحروب فيما بينهم. ثم انتصاره منهم يكون مرة بأن يُهلكهم إهلاكا ويَقْهَرهم قهرا، ومرةً ينتصر[12] منهم بأن يسلِّط عليهم أضعف خلقه وأخسِّهم فيَقهَرهم بأضعف خلقه.

---

[1] ن: عيسى بن.
[2] ر ث م: مذهب؛ ن: يذهب.
[3] ر م: حتى تضعوا.
[4] جميع النسخ: وتركوا. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٢ظ.
[5] سورة البقرة، ٢/١٩٣؛ وسورة الأنفال، ٨/٣٩.
[6] ن: أكثرتموهم.
[7] جميع النسخ + كل. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٢ظ.
[8] ر ن م: أي تضع.
[9] انظر: غريب *القرآن* لابن قتيبة، ٤٠٩.
[10] جميع النسخ: أمرتهم. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ٢٤٦ظ.
[11] ر ث م – منهم تأويله والله أعلم ولو يشاء الله لانتصر.
[12] ر م: ومرة ينصر.

وقوله عز وجل: **ولكن لِيَبْلُوَ بعضَكم ببعض،** أي يمتحن بعضكم بقتال بعض وبأنواع المحن، أنشأ[١] الله عز وجل هذا البشر في ظاهر الأحوال بعضَهم مشابها لبعض غيرَ مخالف بعضُهم بعضا، فإنما يظهر الاختلاف[٢] بالامتحان بأنواع المحن على اختلاف الأحوال، فعند ذلك يظهر المصدّق من المكذّب والمُحق من المبطل والموافق من المخالف والمتحقق من المضطرب والموقن من الشاك على ما ذكر تعالى: وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ،[٣] وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً،[٤] و[الَّذِي] خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً،[٥] وغير ذلك من الآيات التي ذكر الابتلاء[٦] والامتحان فيها باختلاف الأحوال التي عند ذلك يظهر ما ذكر من التصديق والتكذيب والتحقيق[٧] وغيره. ثم لو كان جل وعلا انتصر لأوليائه من أعدائه بما ذكرنا بأن ينصرهم على أعدائهم نصرا بلا امتحان وكُلْفة منه لأوليائه لكان التوحيد له والتصديق لرسله بحق الاضطرار لا بحق الاختيار، لأنهم إذا رأوا أنهم يُستَأصلون ويُهلَكون إهلاكا بخلافهم إياهم لكانوا لا يخالفونهم بل يوافقونهم مخافة الهلاك والاستئصال، فيرتفع الابتلاء والامتحان عنهم فلا يظهر المختار من غيره، لذلك كان ما ذكرنا. *والله أعلم.*

وقوله عز وجل: **والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضلَّ أعمالهم سيهديهم،** هذا يخرج على وجهين. أحدهما يقول: والذين قاتلوا في سبيل الله فَهُزِموا أو غُلبوا أو هَرَبوا في وقت أو في قتال، **فلن يضل أعمالهم،** أي لن يبطل أعمالهم[٨] التي كانت منهم من الجهاد مع الأعداء وغير ذلك من الأعمال التي كانت لهم. **سيهديهم،** أي[٩] يوفقهم ثانيا مرة أخرى للقتال والنصر لهم على أعدائهم في الدنيا ويُدخلهم في الآخرة الجنة.[١٠] والثاني أي والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم في الآخرة سيهديهم في الآخرة الجنة.[١١]

---

١ جميع النسخ: إن شاء. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٢ظ.
٢ جميع النسخ: اختلاف. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ١٣٢ظ.
٣ سورة الأعراف، ١٦٨/٧.
٤ سورة الأنبياء، ٣٥/٢١.
٥ سورة الملك، ٢/٦٧.
٦ جميع النسخ: الاختلاف. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ٢٤٦ظ.
٧ ر م: والتكذيب التحقيق.
٨ ر م – أي لن يبطل أعمالهم.
٩ ر م: أو.
١٠ ر م: لجنته.
١١ ر: لجنته.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[٦]

وقوله عز وجل: **ويدخلهم الجنة عرفها لهم**، قال بعضهم: أي يدخلهم الجنة التي بينها لهم في الدنيا ووصفها. وقال بعضهم: عرّفها لهم في الآخرة[١] حتى يَعرِفَ كلُّ منزله وأهله[٢] من غير أعلام وأدلة جعلت لهم كما يعرف كل أحد في الدنيا منزله[٣] وأهله وخَدَمَه. ***والله أعلم***.
وقال بعضهم: **عرفها لهم**، أي طَيّبها لهم، يقال: فلان مُعرِف، أي مُطيِّب، وطعام مُعرَّف،[٤] أي مُطيَّب،[٥] وهو قول القُتَبي.[٦]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٧]

وقوله عز وجل: **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم**، أي إن تنصروا دين الله ينصركم، أو[٧] إن تنصروا أولياء الله ينصركم على أعدائكم. ثم نَصْرُنا دينَ الله وأولياءه يكون مرة بالأنفس والأموال ببذلها في سبيله لابتغاء وجهه. والثاني يكون[٨] نصرا بالحجج والبراهين بإقامتها عليهم بما أُمِرنا من إقامة الحجج والآيات. ثم يكون نصر الله إيانا[٩] وجهين. أحدهما ينصرنا على أعدائه بما نغلبهم ونقهرهم؛[١٠] لكن إن كان هذا فيكون في حال دون حال وفي وقت دون وقت لا في كل الأحوال. والثاني يكون نصره إيانا بما يجعل العاقبة لنا،[١١] وإن كنا غُلِبنا وقُهِرنا في بعض الحروب والقتال وكانوا هم الغالبين علينا قاهرين لنا. ***والله أعلم***.
وقوله عز وجل: **ويُثَبِّتْ أقدامكم**، يحتمل في الحروب والقتال، أو يثبت أقدامكم[١٢] في الآخرة كيلا تزول. ***والله أعلم***.

---

[١] ن – التي بينها لهم في الدنيا ووصفها وقال بعضهم عرفها لهم في الآخرة.
[٢] ر: منزلة وأهله؛ ث: منزلة أهله.
[٣] ر: منزلة.
[٤] ر م: معروف.
[٥] ن – وطعام معرف أي مطيب.
[٦] انظر: غريب *القرآن* لابن قتيبة، ٤١٠.
[٧] ر ث م: أي.
[٨] ن: أن يكون.
[٩] ن + من.
[١٠] جميع النسخ: بما يغلبهم ويقهرهم. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٣و.
[١١] ر م – لنا.
[١٢] ر ن م: أقدامهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[٨]

وقوله عز وجل: **والذين كفروا فتعسا لهم**، أي بُعْدًا لهم؛ ثم يحتمل بعدا لهم عن النصر، ويحتمل بعدا لهم عن رحمته. وقال بعضهم: **فتعسا لهم**،[١] أي هلاكا لهم، وقيل:[٢] فَخَيْبَةً[٣] عند الهزيمة والقتل؛ وجائز أن يكون أريد به الهلاك. وأصل التعس هو العَثر والسقوط وهو الهلاك، فيرجع كله[٤] إلى ما ذكرنا. ***والله أعلم***.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[٩]

وقوله عز وجل: **ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم**، أي ذلك الذي ذَكَر لهم من التعس والهلاك وإبطال الأعمال بأنهم تركوا اتباع ما أنزل الله على رسوله، إذ كل من ترك اتباع شيء اعتقادا فقد كرهه. ***والله أعلم***. ويحتمل أن يكون قوله: **ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله**، أي كرهوا ما أنزل الله[٥] على غير بني إسرائيل؛ فإن كان هذا فالآية في أهل الكتاب لأنهم لم يروا الرسل من غير بني إسرائيل ولا إنزالَ الكتب على أحد من غير بني إسرائيل. ***والله أعلم***. وقوله: **فأحبط أعمالهم**، أي بتركهم اتباع ما أنزل الله وقبولَه. ***والله أعلم***.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[١٠]

وقوله عز وجل: **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم**، قد ذكرنا فيما تقدم أنه يخرج على وجوه ثلاثة. أحدها أي لو ساروا في الأرض / لعرفوا [٧٢٨و] ما نزل بأولئك بماذا نزل بهم، وهو تكذيبهم للرسل وكفرُهم بهم، ولعرفوا أن من نجا منهم بماذا نجا، وهو التصديق لهم والإيمان بهم.[٦] والثاني على الأمر، أي سيروا في الأرض

---

[١] جميع النسخ – أي بعدا لهم ثم يحتمل بعدا لهم عن النصر ويحتمل بعدا لهم عن رحمته وقال بعضهم فتعسا لهم. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٣و.

[٢] ر ث م + أي.

[٣] ر ث: محنته؛ ن: فحينة؛ م: محنة. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٣و.

[٤] جميع النسخ – كله. والزيادة من نسخة جار الله، ورقة ٢٤٧و.

[٥] ن – أي كرهوا ما أنزل الله.

[٦] ن: هم.

فانظروا ما الذي نزل بمكذِّبِي الرسلِ ومستهزئيهم ليكونَ ذلك مَزْجَرَةً[1] لهم عن مثل معاملتهم الرسول عليه السلام. والثالث أي قد ساروا في الأرض لكن لم ينظروا ولم يعتبروا فيما نزل بأولئك أنه بماذا نزل بهم، ولو تأملوا فيهم لكان ذلك زجرا لهم عن المعاودة إلى مثل ذلك. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها**، هذا يخرج على وجوه. أحدها أي دمر الله عليهم وللكافرين[2] سوى[3] هؤلاء الكفار الذين دمر الله عليهم أمثالُ مالَهم من الهلاك بتكذيبهم الرسل. والثاني[4] **دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها**، أي للكافرين من قومك أمثالها، وهذا وعيد لقومه. والثالث أن يقول لقومه: ولكل كافر أمثالُ ذلك. *والله أعلم*.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[١١]

وقوله عز وجل: **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم**، تأويله أي ذلك الذي ذكر لهم لِأَجْلِ أنّ الله ناصر الذين اتبعوا[5] أمره وآمنوا به وصدقوه فدفع العذاب عنهم باتباعهم أمره، وأن للكافرين[6] ذلك لما ليس[7] هو بناصر لهم لتركهم اتباع أمره[8] وتصديقهم إياه فلم يدفع العذاب عنهم؛ أو يقول: **ذلك**، أي دَفْعُ العذاب عن الذين آمنوا لما أن الله تولى[9] أمورهم وعصمهم، وأنه لم يتولَّ أمور الكفرة، أي لم يعصمهم وخذَلهم وتركهم على ما اختاروا، لعلمه باختيارهم ما يختارون[10] من التكذيب، وتوَلَّى[11] المؤمنين وعصَمهم لعلمه بما يختارون من التصديق والاتباع له. *والله أعلم*.

---

[1] ر م: من قوة؛ ن: من حرة.
[2] ن + أمثالهم.
[3] ن: استوى.
[4] جميع النسخ + أي. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٣ظ.
[5] ر م: اتبعوه.
[6] جميع النسخ: وأن الكافرين. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ٢٤٧ظ.
[7] ر م: لما بئس؛ ث: لما يئس.
[8] ر م: أمر.
[9] جميع النسخ: يتولى.
[10] ر م: ما اختارون.
[11] ث: ويتولى.

﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[١٢]

ثم ذكر عاقبة المؤمنين من الاتباع لأمره والتصديق لرسله عليهم السلام وهو قوله تعالى: **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار**، وبيّن ما لأولئك الذين اختاروا من الكفر به والتكذيب لرسله في العاقبة حيث قال: **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم**، أي مأوًى لهم بما اختاروا. *والله أعلم*. وذلك أن أهل الإيمان والتوحيد نظروا في جميع أحوالهم وأمورهم إلى ما فيه أمر الله تعالى وما يُعقِب لهم نفعا في العاقبة، لم ينظروا إلى ما فيه قضاء شهواتهم ومُنَاهُمْ، بل اختاروا أمر الله على جميع ما ذكرنا. وأولئك[١] الكفرة لم ينظروا إلى ما فيه أمر الله ولا ما يوجب[٢] لهم في العاقبة من النفع، بل اختاروا شهواتهم[٣] ومُناهم وما فيه هَواهم على ما فيه أمر الله ونهيه. فجعل للمؤمنين في الآخرة قضاء شهواتهم التي تركوا قضاءها في الدنيا وكَفُّوا أنفسهم عن مناها مكانَ[٤] ذلك في الجنة والبساتين التي وعد لهم في الآخرة؛ وجعل لأولئك الكفرة في الآخرة مكان ما قضوا في الدنيا من شهواتهم وإعطاءِ أنفسهم مناها النارَ وما يُنغِّصهم[٥] ما أَعطَوا أنفسَهم في الدنيا.

ثم قوله: **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام**، يحتمل تشبيه أولئك الكفرة بالأنعام في الأكل وجهين. أحدهما يخبر أنهم يأكلون وهِمَّتُهم في الأكل ليست إلا الشبع وامتلاء البطن وقضاء الشهوة، لا ينظرون إلى ما أمرهم الله به ونهاهم عنه[٦] كالأنعام التي ذكر، همتها ليست في الأكل إلا الشِّبَعُ وامتلاء البطن وقضاء الشهوة. *والله أعلم*. والثاني يخبر عنهم أنهم لا ينظرون في أكلهم وشربهم إلى عاقبة ولا إلى وقت ثانٍ، بل نظرهم إلى الحال التي هم فيها كالأنعام التي ذكر أنها تأكل ولا تنظر ولا تدخر شيئا لوقت ثان ولا تترك[٧] شيئا ما دامت تشتهي،[٨] فعلى ذلك أولئك الكفرة. *والله أعلم*.

---

[١] ث: أولئك.

[٢] ر ث م: ولا يوجب.

[٣] ر م: لشهواتهم.

[٤] ن: فكان.

[٥] ر م: وما ينقصهم. نَغَّص عليه عيشه تنغيصا، أي كدّره (*لسان العرب*، «نغص»).

[٦] ر: إلى أمر الله به ونهاهم منه؛ إلى أمر الله به ونهاهم عنه.

[٧] ر ن م: يأكل ولا ينظر ولا تدخر شيئا لوقت ثان ولا يترك.

[٨] ر م: يشتهي.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [١٣]

وقوله عز وجل: **وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم،** كأن سنة الله تعالى في الذين كانوا من قبل أنه إذا أُخرِج الرسل من بين أظهرهم أهلَكهم،[١] فيخبر أن أهل مكة قد استوجبوا العذاب -إذ أُخرجتَ من بين أظهرهم- كما يستوجب أولئك الكفرة. لكن الله تعالى بفضله ورحمته أخر ذلك عنهم لأنه بعثك إليهم رحمةً، كقوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؛[٢] أو أخر ذلك عنهم لما وعد أنه خاتم الأنبياء عليهم السلام لتبقى[٣] شريعته ورسالته إلى يوم القيامة، ولو أهلكهم واستأصلهم على ما فعل بأولئك لانقطعت رسالته وشريعته، وقد وعد أنها تبقى[٤] وأنه رحمة لهم وأنه[٥] لا يخلف الميعاد. ثم أخبر أن أولئك الكفرة[٦] أكثر أهلا وأشد قوة وبطشا من هؤلاء، ثم لم يتهيأ لهم دفع ما نزل بهم بقوتهم في أنفسهم[٧] وبطشهم، ولا كان لهم ناصر ينصرهم من عذاب الله ولا مانع يمنعهم عنه. فأنتم يا أهل مكة أولى أن لا تدفعوا[٨] عن أنفسكم العذاب إذا نزل بكم. ***والله أعلم.***

ثم قوله عز وجل: **أخرجتك،** أضاف الإخراج إلى قومه وهم لم يتولوا إخراجه بأنفسهم بل اضطروه حتى خرج هو بنفسه، لكنه أضاف الإخراج / إليهم لأن سبب خروجه من بينهم [٧٢٨ظ] كان منهم فكأن قد أخرجوه. وهو كما ذكر من إخراج الشيطان آدم وحواء عليهما السلام من الجنة بقوله: فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ،[٩] والشيطان لم يتول إخراجهما حقيقة؛ لكن لَمّا كان منه من أشياء حملهم ذلك على الخروج فكأنه وُجد الإخراجُ منه. وأصله أن الأشياء والأفعال ربما تنسب[١٠] إلى أسبابها وإن لم يكن لتلك الأسباب حقيقةُ الأفعال. ***والله أعلم.***

---

[١] ن: أملكهم.
[٢] سورة الأنبياء، ١٠٧/٢١.
[٣] جميع النسخ: ليبقى. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٣ظ.
[٤] ن: يبقى.
[٥] ن – لهم وأنه.
[٦] ن – الكفرة.
[٧] م: في نفسهم.
[٨] ر ث م: أن تدفعوا؛ ن: أن لا يدفعوا. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٣ظ.
[٩] سورة البقرة، ٣٦/٢.
[١٠] جميع النسخ: ينسب. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٤و.

وقوله عز وجل: **فلا ناصر لهم**، هو خبر من الله تعالى،[١] أي لا يكون لهم ناصر، وهو يحتمل وجهين. أحدهما لا يكون ناصر لهم[٢] في الآخرة. والثاني على إضمارٍ، أي لم يكن لهم ناصر وقت ما عُذِّبوا في الدنيا. *والله أعلم*.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[١٤]

وقوله عز وجل: **أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم**. لم يخرج لهذا الحرف جواب لما هم عرفوا بالبديهة[٣] أن ليس من كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله ويتبع هواه، يُعرَف ذلك بالبديهة، كمن يقول: ليس المحسن كالمسيء وليس من يحسن كمن يسيء ونحوه ذلك مما يعرفه كل أحد لا يحتاج إلى بيان وجواب، فعلى ذلك هذا. ثم في ذلك وجهان. أحدهما يذكر سفههم باختيارهم اتباع هواهم وما زُيّن لهم من سوء عملهم على اتباع من كان على بينةٍ منه وبيانٍ على علم منهم[٤] بذلك ويقين. *والله أعلم*. والثاني فيه ذكر دلالة البعث، يقول -والله أعلم-: لمّا عرفتم أن من كان على بينة من ربه ليس كمن يتبع هوى نفسه، وقد استويا في هذه الدنيا: انتفع هذا كما انتفع الآخر، وفي العقول لا استواء بينهما، فدل استواؤهما في هذه الدار على أن هناك دارا أخرى ثَمّ يُفرَق بينهما ويميز. *والله الموفق*.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[١٥]

وقوله عز وجل: **مثل الجنة التي وعد المتقون**، هذا يخرج على وجوه. أحدها أن قوله تعالى:[٥] **وعد المتقون**، على حقيقة المَثَل، كأنه يقول: مثل الجنة التي وعد المتقون من جناتكم هذه لو كانت جناتُكم في الدنيا على المثل الذي وَصَف في الآية، أليس كانت نفس كل أحد ترغب[٦] فيها

---

[١] ن: هو خبرا منه تعالى.
[٢] ر ث م – لهم؛ ن: لهم ناصر.
[٣] ر م: بالبديهية.
[٤] ر ث م – منهم.
[٥] ن + مثل الجنة التي.
[٦] جميع النسخ: يرغب. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٤و.

وتَحرِص[1] في طلبها لتكون[2] تلك الجنة له؟ فما بالكم لا ترغبون في تلك الجنة التي وعد المتقون في الآخرة، لا ترغبون فيها ولا تحرصون في طلبها؟ *والله أعلم*. ويخرج على هذا التأويل قوله تعالى: **كمن هو خالد في النار**، أي ليس من كان خالدا في جنة من جناتكم التي[3] وصفها كمن هو خالد في نار من نيرانكم.

والثاني يحتمل قوله تعالى: **مثل الجنة التي وعد المتقون**، أي صفة الجنة التي وعد المتقون[4] ما ذكر، فيخرج على الصلة لما تقدم من قوله تعالى: إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ،[5] ثم وصف ونعت الجنة التي أخبر أنه يُدخلهم فيها فقال: **مثل الجنة التي وعد المتقون**، أي صفتها فيها أنهار من كذا وكذا الآية. وعلى هذا ما ذكر في آخره من قوله: **كمن هو خالد في النار**، يحتمل أن يكون صلة قوله: مَثْوًى لَهُمْ،[6] ثم وصف تلك النار التي أخبر أنها مثوى لهم[7] ومأوى لهم فقال: **وسُقُوا ماءً حميما**، الآية.

والثالث يذكر على أن من وعِد له ما وُعِد للمتقين من الجنة وما فيها من النعم ليس كمن وعد له النار. ألا ترى أنه جل وعلا ذكر في آخر ما ذكر من وصف الجنة: **كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميما فقطّع أمعاءَهم**، أي ليس هذا كهذا ولا سواءَ بينهما، أي لا مساواةَ، وهو كقوله تعالى فيما تقدم من حيث قال: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ،[8] أي ليس هذا كهذا؛[9] فعلى هذا يحتمل ما ذكر من وصف الجنة ووصف النار، أي ليس من وَعد له الجنة التي وصفها ونعتها كمن وعد له النار التي وَصْفُها ما ذكر. *والله أعلم*.

ثم قال: **فيها أنهار من ماء غير آسن**، الآية، يخبر أن ما يكون في الجنة من المياه والخمور والألبان وما ذكر ليس كالتي في الدنيا، لأن المياه في الدنيا يتغير بأحد وجهين.

---

[1] جميع النسخ: ويحرص. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ١٣٤و.
[2] جميع النسخ: ليكون.
[3] جميع النسخ + ما ذكر. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ٢٤٩و.
[4] ر م – أي صفة الجنة التي وعد المتقون.
[5] الآية ١٢ من هذه السورة.
[6] الآية ١٢ من هذه السورة.
[7] ر ن م: له.
[8] الآية السابقة.
[9] ر م: كهكذا.

إما لنجاسة وآفة تصيبها[1] أو لطول الزمان والمكث، فيخبر أنْ ليس في الجنة شيء يغيّر مياهها؛[2] وكذلك اللبن في الدنيا يتغير ويَفسد عن قريب[3] إذا تُرك لما ذكر، فيخبر أن ألبان[4] الجنة لا يَفسُد للترك ولا يصيبها شيء فيفسدها ويُخرجها عن طعم اللبن. *والله أعلم*. وقوله عز وجل: **وأنهارٌ من خمر لذة للشاربين،** يخبر أن الخمر في الجنة مما يتلذذ بها أهلها عند الشرب ليس كخمور الدنيا يتكرّه[ها] أهلها عند شربها ويَعبِسون وجوههم عند التناول منها. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **وأنهار من عسل مصَفًّى،** أي أنهار من عسل خلق وأُنْشِئ[5] مصفى لا كدورة فيه، لا أنه كان كَدِرا فصُفِّي[6] أو كان خَلق بعضَه كَدِرا وبعضَه مصفى ولكن خلق كله مصفى من الابتداء، وهو كقوله تعالى: رَفَعَ السَّمَاوَاتِ،[7] أي خلقها في الابتداء مرفوعة لا أنها كانت موضوعة ثم رفعها. *والله أعلم*.

[٧٢٩و] وقوله عز وجل: **ولهم فيها من كل الثمرات،** يحتمل[8] / من كل الثمرات التي عرفوها في الدنيا ورأوها،[9] أو يقول لهم: فيها من كل الثمرات التي يريدون فيها. *والله أعلم*. وقوله عز وجل: **ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسُقُوا ماءً حميما فقطَّع أمعاءَهم،** أي ليس من وُعد له ما ذكَر من الجنة وهو خالد فيها متنعم بما ذكر من ألوان الثمار والنعم وما ذكر[10] من المياه والخمور والألبان كمن هو خالد في النار وما ذكَر. *والله أعلم*.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[١٦]

وقوله عز وجل: **ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا.** جعل الله عز وجل آيات رسالة رسوله عليه الصلاة والسلام

---

[1] جميع النسخ: يصيبها. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٤و.
[2] ن: أن ليس في الجنة تغير مياهها.
[3] ن: عن قرب.
[4] ن: أن النار.
[5] ر م: والشيء؛ ن: وأنسئ.
[6] ر م: مصفى.
[7] سورة الرعد، ٢/١٣.
[8] ر ن م + أي.
[9] ر م: ورادها.
[10] ر ث م: ما ذكر.

وحججه على المنافقين صنيعَهم وما أسرُّوا في أنفسهم من الخلاف له والعداوة، فأطلع الله رسوله على ما أسَرُّوا في أنفسهم وأضمروه ليكون ذلك آية لرسالته وحجة لنبوته، إذ علموا أن لا أحد يطّلع على ما في القلوب إلا اللهُ تعالى. فإذا أخبر رسول الله لهم بما أسروا وأضمروا علموا[1] أنه عرف ذلك بالله تعالى، كقوله: قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا،[2] وقوله: وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ[3] ونحو ذلك. ثم الناس في الاستماع[4] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يَفْتَنّ[5] إلى فرق ثلاث. فالمؤمنون كانوا يستمعون إليه للاسترشاد ولاستزادة الهدى،[6] *وهو كقوله تعالى: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى،[7] الآية. والكفرة كانوا يستمعون إليه ليقولوا لأتباعهم: إنه افترى بنفسه وإنه كَذِب وإنه سحرٌ، كيلا يقعَ في قلوب أتباعهم أن ما جاء محمد حق فيسمعوا منه، ويُزيّفوا[8] ذلك بين يدي أتباعهم، وهو كقوله: سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ،[9] الآية. والمنافقون كانوا يستمعون إليه لإظهار الموافقة له لئلا يتعرض لهم فيما أضمروه وأسروا منهم من العداوة والخلاف. *والله أعلم*. ثم قوله: **قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا**، هذا القول منهم في الظاهر ليس هو قولا يجب أن يذم قائله، لأن من خفي عليه أو أشكل أو ذهب عنه ما سمعه فالواجب عليه أن يسأل من حفظ ذلك وضبط، لكن أولئك إنما قالوا لهم ذلك ليعلموا أنهم على دينهم وأنهم يستمعون إليه ويحفظونه، وكانوا في الحقيقة[10] يستهزءون بهم، لذلك ذُمّوا بذلك القول.

ثم أخبر أنه طبع على قلوبهم بقوله: **أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم**، لما كان استماعهم إليه لما ذكرنا من إظهار الموافقة وإضمار الخلاف له والعداوة والاستهزاء. وقوله: **آنفا**، قال بعضهم: أي مستأنَفًا من الائتناف. وقال بعضهم: الساعة.

---

[1] ر م: واعلموا.
[2] سورة النور، ٦٣/٢٤.
[3] سورة البقرة، ١٤/٢.
[4] ر م: في الاستمتاع.
[5] ر م: يفرق. يَفْتَنّ: أي يتنوع.
[6] ر م: الاسترشاد واستزادة الهدى.
[7] الآية التالية.
[8] زيّف قوله أو رأيه: فَنّده وأظهر باطله، صغّره وحقّره (*المعجم الوسيط*، «زيف»).
[9] سورة المائدة، ٤١/٥-٤٢.
[10] ن + يستمعون.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[١٧]

وقوله تعالى: **والذين اهتدوا زادهم هدى،** لأنهم كانوا يستمعون إليه للاسترشاد واستزادة الهدى،* وهو كقوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ.[٢] وقوله تعالى: **وآتاهم تقواهم،** يحتمل قوله: **وآتاهم تقواهم،** أي أعطاهم ما اتقوا مخالفة أمره. ويحتمل **آتاهم تقواهم،** أي يوفقهم ما يتقون مخالفة أمره مِنْ بعدُ[٣] في المستأنَف. وقال بعضهم: أي أعطاهم الله ثواب أعمالهم في الآخرة. يقول: كلما جاءهم من الله أمر وأخذوا به[٤] فزادهم الله هدى وآتاهم تقواهم، أي أجْرهم. وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه: وأنطاهم تقواهم، أي أعطاهم،[٥] وهي لغة معروفة: أنطى، أي أعطى، وكذلك قرأ: إِنَّا أَنْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ.[٦]

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾[١٨]

وقوله عز وجل: **فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة،** كأن هذه الآية نزلت[٧] في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون إلا عند قيام الساعة، كأنه يقول: ما ينتظرون[٨] لإيمانهم إلا الساعة أن تأتيهم[٩] بغتة لكن لا ينفعهم الإيمان في ذلك الوقت، كقوله: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ،[١٠] وقوله: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا،[١١] كأنه -والله أعلم-[١٢] يُؤْيِس رسوله صلى الله عليه وسلم عن الطمع في إيمانهم قبل ذلك الوقت.

* ما بين النجمتين لا يوجد في نسخة ر، ونسخة م. انظر: ورقة ٧٢٩و/سطر ١١ من نسخة مهرشاه.
[٢] سورة التوبة، ٩/١٢٤-١٢٥.
[٣] ن - من بعد.
[٤] ر م: كلما جاء من الله وأخذوا به.
[٥] انظر: *معجم القراءات* لعبد اللطيف الخطيب، ٩/١٦.
[٦] سورة الكوثر، ١٠٨/١.
[٧] ر م - نزلت.
[٨] ر م: ما ينظرون.
[٩] جميع النسخ: أن يأتيهم. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٤ظ.
[١٠] سورة الأنعام، ٦/١٥٨.
[١١] سورة المؤمن، ٤٠/٨٥.
[١٢] ن - والله أعلم.

وقوله عز وجل: **فقد جاء أشراطها**، هذا يخرج على وجهين. أحدهما يحتمل [أن يكون] ما ذكر من مجيء أشراطها هو رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، لأنه خاتم الأنبياء وبه ختمت النبوة، وروى عنه أنه قال: «بُعثتُ والساعةُ كهاتَين»، وأشار إلى إصبعين جمع بينهما.[1] فإن كان التأويل هذا فهو على تحقيق مجيء أشراط الساعة، أي قد جاء أشراط الساعة حقيقة وتحققت. والثاني يحتمل أن يكون ما ذكر من مجيء أشراطها هي الأعلام والشرائطَ التي جعلت عَلَمًا لقيامها من نحو نزول عيسى وخروج دابة الأرض وخروج الدجال وغير ذلك، وقد مضى بعض تلك الأعلام. فيكون قوله: **فقد جاء أشراطها**، أي كأنْ قد جاء أشراطها، إذ كل ما هو آتٍ جاءٍ فكأنْ قد جاء، كقوله تعالى: أَتَى أَمْرُ اللهِ.[2]

وقوله عز وجل: **فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم**، يحتمل وجهين. أحدهما من أين[3] ينتفعون بإيمانهم في ذلك الوقت وكيف لهم منفعة الذكرى إذا جاءت والتوبة لا تقبل[4] حينئذ. والثاني من أين لهم الإيمان والتوبة إذا جاءتهم[5] الذكرى، أي ما يُذكّرهم، أي ما يؤمنون وقد ذكّروا[6] في الدنيا قبل ذلك فلم يؤمنوا ولم يتذكروا. *والله أعلم*.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾[١٩]

وقوله عز وجل: **فاعلم أنه لا إله إلا الله**، هذا يخرج على وجهين. أحدهما اعلم في حادث الوقت أنه لا إله إلا الله، كقوله تعالى: اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ،[7] وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ،[8] ونحو ذلك. والثاني يقول: فاعلم أن الإله[9] المستحق للعبادة والمعبود الحقّ هو الإله الذي لا إله غيره إذ الإله عند العرب هو المعبود، يقول: إن المعبود الذي يستحق العبادة

[1] صحيح *البخاري*، التفسير ٧٩، الطلاق ٢٦، الرقاق ٣٩؛ وصحيح *مسلم*، الجمعة ١٨، الفتن وأشراط الساعة ١٧٦-١٧٩، ١٨١.

[2] ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ (سورة النحل، ١٦/١).

[3] جميع النسخ: من أبى. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٥و.

[4] ن: لا يقبل.

[5] ر: إذا جاء بهم.

[6] جميع النسخ – أي ما يؤمنون وقد ذكروا. والزيادة من نسخة جار الله، ورقة ٢٥٠و.

[7] سورة الفاتحة، ٦/١.

[8] سورة النساء، ١٣٦/٤.

[9] ر ث م: أن لا إله.

هو الله تعالى لا الأصنام التي تعبدونها[١] دونه وتزعمون أن عبادتكم إياها تقربكم[٢] إليه زلفى. والثالث أَمَره أن يُشعر قلبه في كل وقت حالَ كلمة الإخلاص والتوحيد له والقول به. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **واستغفر لذنبك**، جائز أن يكون قوله: **واستغفر لذنبك**، إنما هو لافتتاح الكلام وابتدائه على ما يُؤمَر المرء أن يبتدئ بالدعاء لنفسه[٣] عند أمره بالدعاء لغيره،[٤] وكان حقيقة الأمر بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات دون نفسه، ولكن أُمِر بالدعاء لنفسه استحبابا.[٥] *والله أعلم*. وجائز أن يكون له ذنب فيأمره بالاستغفار له، لكن نحن لا نعلمه، وليس علينا أن نتكلف حفظ ذنوب الأنبياء عليهم السلام وذكَرها. وكل موهوم منه الذنبُ يجوز أن يؤمر بالاستغفار، كقول إبراهيم عليه السلام / حيث قال: وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ.[٦] [٢٢٩ظ]
لكن ليس ذنب الأنبياء وخطاياهم كذنب غيرهم، فذنب غيرهم[٧] ارتكاب القبائح من الصغائر والكبائر، وذنبُهم ترك الأفضل دون مباشرة القبيح في نفسه. **والله الموفق**.

ثم أرجى آية للمؤمنين هذه الآية، لأنه عز وجل أمر رسوله أن يستغفر لهم، فلا يحتمل أن لا يستغفر وقد أمره مولاه بالاستغفار؛ ثم لا يحتمل أيضا أنه إذا استغفر لهم على ما أمره به فلا يجيبُ له.[٨] وكذلك دعاء سائر الأنبياء عليهم السلام، نحو دعاء نوح عليه السلام: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ،[٩] وقول إبراهيم عليه السلام: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ،[١٠] ونحو ذلك.[١١]

---

[١] ر ث م: يعبدونها.
[٢] جميع النسخ: يقربون. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٥و.
[٣] ن: بنفسه.
[٤] أي حين أَمَره الله تعالى بالدعاء لغيره.
[٥] ر: استحبابا.
[٦] سورة الشعراء ٨٢/٢٦.
[٧] م – فذنب غيرهم.
[٨] ر ن + وكذلك دعاء سائر الأنبياء نحو دعاء نوح رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ونحو ذلك.
[٩] سورة نوح، ٢٨/٧١.
[١٠] سورة إبراهيم، ٤١/١٤.
[١١] ث: وكذلك دعاء سائر الأنبياء عليهم الصلاة السلام نحو دعاء نوح عليه الصلاة والسلام رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ونحو ذلك.

وكذلك[1] استغفار الملائكة لهم أيضا لقوله: وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ،[2] وقوله: فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ،[3] الآية. هذه الآيات أرجى آيات للمؤمنين، ودعوات الأنبياء عليهم السلام أفضلُ وَسائِلَ تكون[4] إلى الله تعالى وأعظمُ قُرَبٍ عنده. *والله الموفق.*

ثم قوله عز وجل: **واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات،** فيه دلالة نقض قول المعتزلة، لأنهم يقولون: إن الصغائر مغفورة لا يجوز لله تعالى أن يعذّب عباده عليها، والكبائرَ مما لا يحل له أن يغفرها لهم إلا بالاستغفار منهم والتوبة. فهذه الآية تنقض قولهم ومذهبهم، لأنه أمر رسوله أن يستغفر لهم. فلا يخلوا إما أن يكون صغائر وهي مغفورة عندهم فكأنه يقول: اللهم لا تَجُرْ،[5] لأنها مغفورة لا يسع له أن يعذب عليها، ولو عذب يكون جائرا؛[6] أو كبائرَ ولا يحل له المغفرة عنها، فيكون قوله: اللهم اغفر لهم، كأنه قال:[7] اللهم جُرْ،[8] لأن مغفرته إياهم عن الكبائر لا تجوز[9] وتكون[10] جورا ووضع الشيء في غير موضعه. فكيف ما كان ففيها نقض قولهم وحجةٌ لقولنا: إن له أن يعذبهم عليها وإن كانت صغائر وله أن يعفوَ عنها وإن كانت كبائرَ، إذ المغفرة عن الذنب تكون.[11] *والله الموفق للصواب.*

وقوله عز وجل: **والله يعلم مُتَقَلَّبَكم ومَثْواكم،** قال بعضهم: والله يعلم متقلبكم في النهار ومثواكم من الليل. وقيل: يعلم ما تتقلبون[12] بالنهار وما تسكنون[13] بالليل، وهما واحد.

---

[1] جميع النسخ: وكذا. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٥و.

[2] ﴿تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ والملائكة يُسبِّحون بحمد ربهم ويستغفرون لِمَنْ في الأرض﴾ (سورة الشورى، ٥/٤٢).

[3] ﴿الذين يحملون العرش ومَنْ حولَه يُسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وَسِعْتَ كل شيء رحمةً وعِلْمًا فاغْفِرْ للذين تابوا واتَّبعوا سبيلك وَقِهِمْ عذاب الجحيم﴾ (سورة المؤمن، ٧/٤٠).

[4] ر ث م: يكون؛ ن – تكون. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٥و.

[5] ن: لا تحر؛ ث: لا فحش.

[6] ر م – ولو عذب يكون جائرا.

[7] ن – اللهم اغفر لهم كأنه قال.

[8] ن: حر.

[9] ر م – لا تجوز؛ ن ث: لا يجوز. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٥ظ.

[10] جميع النسخ: ويكون. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ١٣٥ظ.

[11] جميع النسخ: يكون. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ١٣٥ظ.

[12] جميع النسخ: ما يتقلبون. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ١٣٥ظ.

[13] ر ث م: ويسكنون؛ ن: وما يسكنون. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ١٣٥ظ.

وقال بعضهم: والله يعلم متقلبكم في الدنيا ومثواكم في الآخرة، أي مُقامَكم فيها. وهو يخرج عندنا على وجوه. أحدها يحتمل أنه ذكر هذا لظن قومٍ[١] وتوهمهم أن الله تعالى يجهل عواقب الأمور حيث أنشأ هذا العالم فجحدوه وجحدوا نعمه، فلا يحتمل أن ينشئهم ويجعل لهم النعم وهو يعلم أنهم يجحدون[٢] وينكرون نعمه، لأن من فعل هذا في الشاهد فهو عابث غير حكيم. فعلى ذلك هذا على زعمهم، فقال تعالى جوابا لهم: **والله[٣] يعلم مُتَقَلَّبَكم ومثواكم**، أي على علم بما يكون منهم أنشأهم وخلقهم، لا عن جهل على ما ظنوا هم. لكن ما ينبغي لهم أن ينسُبوا الجهل إلى الله تعالى لجهلهم بحق الحكمة في فعله، لأن الله جل وعلا لم ينشئ هذا العالم لحاجة له أو لمنافع نفسه بل إنما أنشأه لمنافع أنفسهم ولحاجتهم، فإليهم يرجع منفعة الإجابة والطاعة وعليهم يكون مضرة الجحود والرد. فأما في الشاهد فمن يأمر أحدا أمرا أو ينهاه عن أمر أو أرسل إليه رسولا على علم منه بالرد والجحود فهو سفيه غير حكيم، لأنه إنما يفعل ما يفعل لحاجة نفسه ومنفعة له، فإذا[٤] علم منه الرد والإنكار فهو غير حكيم، فافترق الشاهد والغائب لافتراق وجه الحكمة. ***والله الموفق.***

والثاني قوله تعالى: **والله يعلم مُتَقَلَّبَكم ومثواكم**، أي يعلم[٥] جميع أحوالكم من حركاتكم وسكونكم وجميع تقلبكم لتكونوا[٦] أبدا على حذر ويَقَظَة. ***والله أعلم.***

والثالث **يعلم متقلبكم ومثواكم**،[٧] أي يعلم متقلبكم في الدنيا ويعلم إلى ماذا يكون مرجعكم في الآخرة. أي أنشأ كلا على ما علم أنه يكون منهم، كقوله تعالى: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ،[٨] وقال في آية أخرى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ،[٩] أي أنشأ مَن عَلم أنه يختار الكفر وعداوته لجهنم وأنشأ من علم أنه يختار التوحيد وولايته للجنة. ***والله الموافق.***

---

[١] ر م: يحتمل هذا الظن قوم؛ ن ث: يحتمل إنما ذكر هذا الظن قوم. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ١٣٥ظ.
[٢] ن: يجحدونه.
[٣] ن + أعلم.
[٤] ن + عمل.
[٥] ن: أي ليعلم.
[٦] ر ن م: ليكونوا. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٥ظ.
[٧] ث – أي يعلم جميع أحوالكم من حركاتكم وسكونكم وجميع تقلبكم لتكونوا أبدا على حذر ويقظة والله أعلم والثالث يعلم متقلبكم ومثواكم.
[٨] ﴿ولقد ذرأنا لجنهم كثيرا من الجن والإنس﴾ (سورة الأعراف، ١٧٩/٧).
[٩] سورة الذاريات، ٥٦/٥١.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾[٢٠] ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾[٢١]

وقوله عز وجل: **ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال**، إن الذين آمنوا كانوا يتمنون إنزال السورة ويقولون: "هلا نزلت سورة" لوجوه. أحدها لتكون[١] السورة حجة لهم وآية على أعدائهم في الرسالة والبعث والتوحيد. والثاني كانوا يستفيدون[٢] بإنزال السورة أشياء ويزداد لهم يقينا وتحققا في الدين، كقوله تعالى: وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ، إلى قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ،[٣] على ما ذكر. والثالث يتمنون نزول السورة ليتبين لهم المصدق من المكذب والمتحقِق من المُريب. هذه الوجوه التي ذكرنا تكون[٤] لأهل الإيمان في إنزال السورة، إذ[٥] لذلك يتمنون. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **فإذا أُنزلت سورة محكمة**، قال بعضهم: **محكمة**، أي[٦] محدَثة، والمحدثة ليست بتفسير للمحكمة إلا أن يعنوا بالمحدَثة الناسخ، والناسخُ هو المحدَث والمتأخر نزولا، [٧٣٠ر] وهو محكم لأنه يلزم العمل به. *والله أعلم*. وفي حرف / ابن مسعود رضي الله عنه: لو لا نُزِّلت سورةٌ محدَثة،[٧] والوجه ما ذكرنا. والمحكمة عندنا على وجهين. أحدهما أي محكمة بالحجج والبراهين، والثاني لِما أنزلت على أيدي قوم وتداولت[٨] فيما بينهم فلم يغيروه ولم يبدلوه[٩] بل حفظوه ليُعلَم أنه من عند الله جاء ومنه نزل. *والله أعلم*. وقوله عز وجل: **وذُكر فيها القتالُ**، جعل الله عز وجل في القتال خصالا. أحدها[١٠] كثرة أهل الإسلام وكثرة الأموال

---

[١] ر ن م: ليكون.

[٢] ر ث م: يستعدون؛ ن: يستبعدون. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٥ظ.

[٣] ﴿وإذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقول أيُّكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ (سورة التوبة، ٩/١٢٤-١٢٥).

[٤] ر ن م: يكون.

[٥] جميع النسخ – في إنزال السورة إذ. والزيادة من نسخة جار الله، ورقة ٢٥١ظ.

[٦] جميع النسخ – قال بعضهم محكمة أي. من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٥ظ.

[٧] انظر: *تأويل مشكل القرآن* لابن قتيبة، ٤٢٠؛ *والنكت والعيون* للماوردي، ٤/٣٠٠؛ *وفتح القدير* للشوكاني، ٥/٥٠.

[٨] ن: فداولت.

[٩] ن: ولا يدلوه.

[١٠] ن: إحداها.

وإن كان في ظاهر القتال إفناءُ الأنفس والأموال، لأنه قبل أن يُفرَض القتال كان يدخل في الإسلام[١] واحد واحد،[٢] فلما فرض القتال دخل فيه فوج فوج على ما أخبر: [وَرَأَيْتَ النَّاسَ] يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا.[٣] والثاني ليتبين المصدق منهم من المكذب لهم والمتحقِّق من المريب، لأنه لم يكن ليظهر ويتبين لهم المنافق من غيره إلى ذلك الوقت، فلما فرض القتال عند ذلك ظهر وتبين[٤] لهم أهل النفاق والارتياب من أهل الإيمان والتصديق. والثالث فيه آية الرسالة والبعث. أما[٥] آية الرسالة فلأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا عددا قليلا لا عُدَّةَ لهم ولا قوة. أُمروا بالقتال مع عدد لا يُحصُون ولهم عدة وقوة ليُعلم أنهم لا بأنفسهم يقاتلون ولكن بالله تعالى، أو لا يحتمل قيام أمثالهم لأمثال أولئك مع كثرتهم وقوتهم. ***والله أعلم***. وأما آية البعث فلأنهم أمروا بقتال[٦] أقاربهم وأرحامهم والمتصلين[٧] بهم، وفي ذلك قطع أرحامهم وقطع صلة قراباتهم ليعلم أنهم إنما يفعلون هذا بالأمر لعاقبة تُؤمل وتقصد،[٨] إذ لا يحتمل فعل ذلك بلا عاقبة تقصد[٩] وبلا شيء[١٠] يعمد.[١١] ***والله أعلم***. وقوله عز وجل: **رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عليه من الموت**، كان أهل النفاق يكرهون نزول ما ينبئهم[١٢] عما في ضميرهم من النفاق والارتياب، كقوله تعالى: يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ؛[١٣] وإذا أنزلت السورة يزداد لهم ما ذكر حيث قال: وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ.[١٤]

---

[١] ر م: من الإسلام.

[٢] ر م - واحد.

[٣] سورة النصر، ٢/١١٠.

[٤] ر: ويتبين.

[٥] ر م: وأما.

[٦] ر م: بالقتال.

[٧] ر ث م: والمتعلق.

[٨] ر م: ويقصد.

[٩] جميع النسخ: ويقصد. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٦و.

[١٠] ن: وتلا شيء.

[١١] جميع النسخ: يعتقد. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ٢٥١ظ.

[١٢] ر: ما بينهم؛ م: ما يبينهم.

[١٣] ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون﴾ (سورة التوبة، ٦٤/٩).

[١٤] سورة التوبة، ١٢٥/٩.

وقوله عز وجل: **فأَوْلَى لهم طاعةٌ وقول معروف**، قال أهل التأويل: هذا وعيد لهم كقوله: أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى،[1] الآية. لكنّ ظاهره ليس بوعيد ولا تهديد[2] إنما ظاهره أي أحرى لكم وأولى أن تطيعوه وأن تقولوا معروفا، فإذا تركوا ذلك فعند ذلك[3] يكون وعيدا. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **فإذا عزم الأمر**، اختلف في تأويله. قال بعضهم: هو صلة قوله: **فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال** وعَزَم الأمر فعند ذلك كان ما ذكر[4] من المنافقين[5] حيث قال: **رأيت الذين في قلوبهم مرض [ينظرون إليك نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عليه من الموت]**، وليس في نفس ذكر القتال ما ذكر من نظر المغشي عليه من الموت، إنما ذلك الوصف وتلك الحال عند وجوب القتال ولزومه وتأكيده[6] عليهم، وذلك في قوله تعالى: **فإذا عزم الأمر**، أي وجب وفُرِض فعند ذلك يكون حالهم ما ذكر، فأما بذكر[7] نفس القتال فلا. *والله أعلم*. وقال بعضهم: **فإذا عزم الأمر**، هو في الآخرة، أي فإذا تحقق وظهر ما كان أوعدهم الرسول عليه الصلاة والسلام من نزول العذاب بهم في الآخرة، **فلو صدقوا الله**، في الدنيا، **لكان خيرا لهم**، في الآخرة، حيث كان لا يزال العذاب بهم في الآخرة، أي لو صدقوا رسول الله فيما يوعدهم من العذاب أنه ينزل بهم في الآخرة وتركوا مخالفته في الدنيا لكان خيرا لهم في الآخرة. *والله أعلم*.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[٢٢]

وقوله عز وجل: **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم**، اختلف في تأويل هذه الآية؛ قال بعضهم: قوله تعالى: **فهل عسيتم**، أي فلعلكم، **إن توليتم**، أي وَلِيتم أمر هذه الأمة، **أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم**. قال ابن عباس رضي الله عنه: قد كان هذا، وهم بنو أمية وُلُّو أمر هذه الأمة ففعلوا ما ذكر من الفساد وقطع الأرحام، وكان لهم اتصال برسول الله وكان منهم ما ذكر.[8] *والله أعلم*.

---

[1] سورة القيامة، ٣٤/٧٥.

[2] ر: بتوعد ولا تعدد؛ م: بتوعد ولا تهدد.

[3] ر م – فعند ذلك.

[4] جميع النسخ: بما ذكر. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٦و.

[5] ن: من المناقض.

[6] م: وتأكده.

[7] ث: يذكر.

[8] لم أستطع أن أجد هذا التأويل في كتب الروايات والتفاسير لأهل السنة، ولكنها موجودة في كتب الروايات للشيعة. انظر مثلا: *الفروع من الكافي* للكليني، ١٠٣/٨.

وقال بعضهم: إن الآية في المنافقين كانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسمعون منه ما قال، ثم إذا تولوا منه كانوا يسعون في الأرض بالفساد وما ذكر، كقوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا -إلى قوله- وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ -إلى قوله- وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ.[1] وقال بعضهم: ما أُراه إلا نزلت الآية في الحرورية وهم الخوارج. وجائز أن يكون هذا ما ذكر في آية أخرى حيث قال: أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ،[2] وقد انقلبوا على ما أخبر، وهو في أهل الردة.[3] *والله أعلم*. وقال قتادة: فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ،[4] أي طواعية الله ورسوله، وقول المعروف عند حقائق الأمور خير لهم. **فهل عسيتم إن توليتم**، يقول: إن توليتم عن كتابي وطاعتي أن تفسدوا في الأرض، يقول: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله ألم يَسْفكوا الدماء / الحرام وقَطَعوا الأرحام [٧٣٠ظ]
وعصوا الرحمنَ وأكلوا المال الحرام؟[5] ويحتمل أن تكون[6] الآية في الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث، فلما بعث كفروا به. *والله أعلم*.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[٢٣]

وقوله عز وجل: **أولئك الذين لعنهم الله**، اللعن هو الطرد عن الرحمة، وهو كقوله لإبليس: وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ،[7] أي أنت مطرود[8] عن رحمتي. وقوله تعالى: **لعنهم الله**، أي طردهم الله[9] عن رحمته. وقوله عز وجل: **فأصمهم وأعمى أبصارهم**، أي أصمهم حتى لم يسمعوا سماعَ الاعتبار[10] والتفكر، **وأعمى أبصارهم**، حتى لم ينظروا فيما عاينوا نظرَ اعتبارٍ وتفكرٍ ما لو تفكروا وتأملوا ونظروا نظر مُعتَبِر لأدركوا. *والله أعلم*.

---

[1] ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في قلبه وهو أَلَدُّ الخِصام وإذا تولَّى سعى في الأرض ليُفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ سورة البقرة، ٢/٢٠٤-٢٠٥.

[2] سورة آل عمران، ٣/١٤٤.

[3] ر: في أهل الرد.

[4] الآية السابقة.

[5] انظر: *تفسير الطبري*، ٢١/٢١٣-٢١٤؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ١٣/٤٣٥.

[6] ر ن م: أن يكون.

[7] سورة ص، ٣٨/٧٨.

[8] ر م: مطرد.

[9] ر ث م - الله.

[10] ر: اسماع الاعتبار.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٢٤]

وقوله عز وجل: **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**،[١] فيه أنهم لو تدبروا وتأملوا[٢] فيه لأدركوا ما فيه. وفيه أيضا أنهم لو تدبروا العذاب لَفَتَح تلك الأقفال التي ذكر أنها عليها وذَهَب بها. ***والله أعلم***. وقوله عز وجل: **أم على قلوب أقفالها**، أي بل[٣] على قلوبٍ أقفالها. ثم يحتمل **أقفالها** الظلمة التي فيها وهي ظلمة الكفر؛ تلك الظلمة تُغطِّي[٤] نور البصر ونور السمع. وجائز أن يكون ما ذكر من الأفعال هي كنايةً عن الطبع. ***والله أعلم***.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾[٢٥]

وقوله عز وجل: **إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم**، وقوله: **سول لهم**،[٥] أي زين. أضاف التزيين مرة إلى الشيطان ومرة إلى نفسه، فما يفهم من تزيين الشيطان غير الذي يفهم من تزيين الله تعالى كالإضلال المضاف إلى الله تعالى والمضاف إلى الشيطان؛ فالمفهوم من إضلال الله غير المفهوم من إضلال الشيطان، فعلى ذلك التزيين. وقوله عز وجل: **وأملى لهم**، أي أخرهم وأمهلهم إلى أجل ووقت، كقوله تعالى: وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ [لِيَزْدَادُوا إِثْمًا]،[٦] الآية، أي يؤخرهم ليكون ما ذكر. ***والله أعلم***. ثم قوله عز وجل: **إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى**، الآية، جائز أن تكون[٧] الآية في اليهود لما ذكرنا أنهم كانوا آمنوا به قبل أن يبعث، كقوله: وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ،[٨] الآية، ارتدوا على أدبارهم من بعد ما آمنوا به واتبعوه. وجائز أن تكون[٩] في المنافقين، ارتدوا على أدبارهم وأظهروا الخلاف بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما أظهروا الموافقة لهم في حياته. ***والله أعلم***.

---

[١] ر ث م + الآية.

[٢] ر م: وقاتلوا.

[٣] جميع النسخ – بل. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٦ظ.

[٤] جميع النسخ: يعطي. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ١٣٦ظ.

[٥] ر ث م – وقوله سول لهم.

[٦] سورة آل عمران، ١٧٨/٣.

[٧] جميع النسخ: أن يكون. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٦ظ.

[٨] سورة البقرة، ٨٩/٢.

[٩] جميع النسخ: أن يكون. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٦ظ.

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾[٢٦]

وقوله عز وجل: **ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر،** قوله: **ذلك بأنهم**، إن كان راجعا إلى قوله: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ،[1] فإن[2] المراد بذلك اليهودُ؛ فالمعنى فيه غير المعنى لو كان في المنافقين، وإنّ[3] قوله: **ذلك بأنهم**، راجع إلى قوله: اَلشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ؛[4] فإذا احتمل ذلك الوجهين فلا نفسره أنه إلى ماذا يرجع. ثم قال بعضهم: **للذين كرهوا ما نزل الله**، هم المنافقون قالوا لليهود: سنطيعكم في تكذيب محمد والمظاهرة عليه. وقال بعضهم: هم اليهود ظاهروا سائر الكفرة على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم. ثم كراهة نزول ما أنزل الله تعالى على رسوله كان من اليهود وجميع الكفرة لقوله تعالى: مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ.[5] ***والله أعلم***. وقوله عز وجل: **والله يعلم إسرارهم**، هذا يدل على أنه[6] لا يفسر قوله: **ذلك بأنهم قالوا**، ولا يشار[7] على أنه أراد كذا ورجع إلى كذا لما أخبر الله تعالى أنه هو العالم بما أَسَرُّوا، ولم يبين ذلك. ***والله أعلم***.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[٢٧] ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[٢٨]

وقوله عز وجل: **فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه**، لا أحد يقصد قصدَ اتباع سَخَطَ الله ولا كراهةَ رضوانه، لكنهم لمّا اتبعوا الفعل الذي كان الله يَسْخَطَ ذلك الفعل فكأنهم اتبعوا سخطه، وكذلك إذا تركوا اتباع ما كان الله يرضاه وكرهوه[8] فكأنهم كرهوا رضوانه، وهو كقوله تعالى:

---

[1] الآية السابقة.
[2] جميع النسخ + كان. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ٢٥٣و.
[3] جميع النسخ + كان.
[4] الآية السابقة.
[5] سورة البقرة، ٢/١٠٥.
[6] ن: على أنهم.
[7] ن: ولا نشار.
[8] ن: وكرهوا.

[أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ] لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ،[1] ولا أحد يقصد قصد عبادة الشيطان، لكنهم لما اتبعوه فيما يأمرهم ويدعوهم إليه فكأنهم عبدوه، وهو تسمية الشيء باسم سببه، واللغة غير ممتنعة عن تسمية الشيء باسم سببه. *والله أعلم*. وقوله عز وجل: **فأحبط أعمالهم**، التي كانت قبل ارتدادهم في حال اتباعهم إياه. *والله أعلم*.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ﴾[٢٩]

وقوله عز وجل: **أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم**، أي حسب المنافقون أن لن يظهر الله عداوته وأن لن يُبديَ الله ما في قلوبهم من العداوة. جعل الله جل وعلا في إظهار ما أسر أهل النفاق وإبداء ما أخفَوه فيما بينهم آية عظيمة ودلالة ظاهرة على رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾[٣٠]

وقوله عز وجل: **ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول**، كأنه على التقديم والتأخير كأنه قال: ولو نشاء لأريناكهم[2] بسيماهم بالنظر إليهم بالبديهة ولتعرفنهم أيضا في لحن القول، أي لو نشاء لجعلنا لهم أعلاما في الوجه والقول لتعرفنهم، ولكن لم تجعل لهم. ولكن جَعَل معرفتهم بأعمال يعملون فيظهر نفاقهم بذلك -والله أعلم- كقوله: وَمِنَ النَّاسِ [٧٣١و] / مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،[3] وقال في آية أخرى: وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ [كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ]،[4] وقوله: رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ،[5] الآية، وقوله عز وجل: وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ،[6] وقوله: إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ،[7]

---

[1] سورة يس، ٦٠/٣٦.

[2] ن - فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول كأنه على التقديم والتأخير كأنه قال ولو نشاء لأريناكهم.

[3] ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهِد الله على ما في قلبه وهو أَلَدُّ الخِصام وإذا تولى سعى في الأرض ليُفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٠٤-٢٠٥).

[4] سورة المنافقون، ٤/٦٣.

[5] الآية ٢٠ من هذه السورة.

[6] سورة التوبة، ٥٤/٩.

[7] سورة التوبة، ٤٥/٩.

ونحو ذلك من الآيات مما كان يظهر نفاقهم وخلافهم بالأعمال التي كانوا يعملون. فدلت هذه الآيات على أنه كان لا يعرفهم بالسيماء والنطق والقول والأجسام وإنما يعرفهم بأفعال كانوا يفعلونها. *والله أعلم*. وقال بعضهم: **وَلَتَعْرِفَنَّهُم في لَحْنِ [القول]**، أي فحوى الكلام، فكان يعرفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تكلموا، فيخرج على هذا التأويل قولُه:[١] **ولتعرفنهم**، على الوعد، أي تعرفهم في حادث الوقت.[٢] *والله أعلم*. قال أبو عَوْسَجَة: يقال: رجل لَحِنٌ بحجته،[٣] ويقال: لَحَن يَلْحَن، إذا أخطأ، لَحْنا فهو لاحن، كأنه من العدول والميل عن الحق. وقال القُتَبِي: **في لحن القول**، أي في فحوى كلامهم.[٤] وقوله عز وجل: **والله يعلم أعمالكم**، يحتمل هذا وجهين. أحدهما والله يعلم[٥] ما تُسِرُّون[٦] من الأعمال وتخفونها. والثاني على الجملة، أي يعلم جميع أعمالهم ما أسروا وأعلنوا؛ يخرج على الوعيد، كقوله: إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.[٧] *والله أعلم*.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[٣١]

وقوله عز وجل: **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين**، هذا يخرج على وجوه. أحدها أي حتى يعلم أولياؤه المجاهدين منكم والصابرين من غير المجاهدين وغير الصابرين، فيكون المراد من إضافته العلم إلى نفسه عِلْمَ أوليائه، كقوله تعالى: إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ،[٨] وقوله عز وجل: يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ،[٩] ونحوه. فالمراد منه أولياؤه على أحد التأويلات. *والله أعلم*. والثاني يكون المراد بالعلم المعلومَ، وذلك جائز في اللسان واللغة كقول الناس: الصلاة أمر الله، أي مأمور الله، وكقوله عز وجل: حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ،[١٠] أي الموقَن[١١] به،

---

[١] ر م: وقوله.
[٢] ر م: الوعد.
[٣] ر م: ألحن بحجحه؛ ن ث: وألحن بحجته. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٧و.
[٤] غريب *القرآن* لابن قتيبة، ٤١١.
[٥] ر م: أعلم.
[٦] م: ما يسرون.
[٧] سورة هود، ١١/١١٢؛ وسورة فصلت، ٤١/٤٠.
[٨] الآية ٧ من هذه السورة.
[٩] سورة النساء، ٤/١٤٢.
[١٠] ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ (سورة الحجر، ١٥/٩٩).
[١١] ن: أي الموقر.

وقولِه: وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ،[1] أي بالمُؤمَنِ به، ونحو ذلك كثير. والثالث أي يعلم كائنا ما قد علمه أنه سيكون، إذ لا يجوز أن يوصف هو بعلمٍ ما سيكون يعلمه كائنا أو بعلم ما قد كان يعلمه أنه يكون كائنا، ولكن يوصف بما قد علمه كائنا أنه علمه كائنا[2] أو يعلم ما علم أنه سيكون أنه يكون، لأنه يوجب الجهل، ويكون التغير في ذلك في المعلوم[3] لا في علمه. ***والله الموفق.***

وقوله عز وجل: **ونَبْلُوَ أخباركم**، أي ونبلو في أخباركم التي أخبرتم عن أنفسكم، كقوله: يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ،[4] وقوله عز وجل: مَنْ عَاهَدَ اللهَ، إلى آخر ما ذكر؛[5] أُبتُلوا في تلك الأخبار التي[6] أخبروا عن أنفسهم. ***والله أعلم***. ويحتمل أن يكونوا ابتلوا في قولهم الذي قالوا وأعطوا[7] بلسانهم حيث قالوا: آمنا، كقوله تعالى: الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ،[8] فُتِنوا فيما قالوا وأخبروا، أي ابتلوا؛ فالفتنة والمحنة والابتلاء والبلاء واحد. ***والله أعلم***. وقال بعضهم: **ونَبْلُوَ أخباركم**، أي نُظهر[9] نفاقكم للمسلمين، إذ كان الله تعالى عالما قبل أن يبلوَهم. ***والله أعلم***.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾[٣٢]

وقوله عز وجل: **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله**، قوله: **كفروا**، أي كفروا بنعم الله، من الكفران، أو كفروا بتوحيد الله. وقوله: **وصدوا عن سبيل الله**، يحتمل قوله: **وصدوا**، أي أعرضوا بأنفسهم عن دين الله؛ ويحتمل **صدوا**، أي صرفوا[10] الناس عن دين الله. ***والله أعلم***.

---

[1] سورة المائدة، ٥/٥.

[2] ث - أنه علمه كائنا.

[3] جميع النسخ: في ذلك المعلوم. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ٢٥٤و.

[4] ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا﴾ (سورة التوبة، ٩/٧٤).

[5] ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لَنَصَّدَّقَنَّ ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولّوا وهم معرضون فأعْقَبهم نفاقا في قلوبهم إلى يومِ يَلْقَونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ (سورة التوبة، ٩/٧٥-٧٧).

[6] ن - التي.

[7] ر ث م: لو أعطوا.

[8] سورة العنكبوت، ٢٩/١-٢.

[9] جميع النسخ: أي يظهر. والتصحيح من الشرح، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٧و.

[10] ر م: أي صدفوا.

وقوله عز وجل: **وشاقُّوا الرسول**، أي عَادُوه وعاندوه من بعد ما تبين لهم الهدى. وقوله عز وجل: **لن يضروا الله شيئا**، يحتمل لن يضروا الله بكفرانهم نعمه أو كُفرهم بوحدانية الله تعالى. ومعناه -والله أعلم- أنه ليس يأمر بما يأمر أو ينهى عما[١] ينهى لدفع مضرة عن نفسه أو لجر منفعة إلى نفسه ولكن يأمر وينهى لحاجة أنفس أولئك ولمنافعهم؛ فهم بتركهم اتباع أمره والانتهاء عن نهيه ضَرُّوا أنفسهم. *والله أعلم*. وجائز أن يكون المراد من قوله: **لن يضروا الله شيئا**، أي لن يضروا[٢] أولياء الله بما كفروا وصدوهم عن سبيله بل ضروا أنفسهم، كقوله تعالى: إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ،[٣] أي إن تنصروا أولياء الله ينصركم. وقوله عز وجل: **وسيُحبط أعمالهم**، يحتمل حبطَ الأعمال بالارتداد بعد الإيمان وإحداث الكفر بعد الإسلام. ويحتمل سيحبط[٤] أعمالهم التي كانت لهم بالإيمان قبل بَعْثِه[٥] صلى الله عليه وسلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[٣٣]

وقوله عز وجل: **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم**، قال بعضهم: أي أطيعوا الله في الجهاد ولا تبطلوا حسناتكم بالرياء والسُّمْعة. وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأطيعوا الرسول.[٦] ويحتمل **ولا تبطلوا أعمالكم**، بالارتداد والكفر بعد الإيمان.[٧] / ويحتمل أي لا تبطلوا[٨] أعمالكم بالمن على الله [٣٧١ظ] أو على الرسول في الإسلام، أي تُسلمون[٩] فَتَمُنُّون[١٠] على الله أو على رسوله، كقوله تعالى: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ [إِسْلَامَكُمْ]،[١١] الآية. وقال قتادة: ولا تبطلوا أعمالكم بالرياء، وقال: فمن استطاع منكم أن لا يبطل عملا صالحا بعمل سَيِّء[١٢] فليفعل،

[١] ر م: مما ينهى.
[٢] ر: أن لن يضروا.
[٣] الآية ٧ من هذه السورة.
[٤] ر م - سيحبط.
[٥] ر م: قبل بعثة.
[٦] لم أجده في المراجع.
[٧] ر م + ويحتمل أي لا تبطلوا أعمالكم بالارتداد والكفر بعد الإيمان.
[٨] ن: ولا تبطلوا.
[٩] ر م: يسلمون.
[١٠] جميع النسخ: متمنون. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٧ظ.
[١١] سورة الحجرات، ١٧/٤٩.
[١٢] ر ث م: شيء.

إن الشر ينسخ[1] الخير، وإنما مَلَاك العمل بخواتيمه؛ فمن استطاع أن يختم بخير فليفعل. ولا قوة إلا بالله.[2] وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: ما كنا معشرَ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نرى شيئا يبطل أعمالنا حتى نزلت هذه الآية فعلمنا ما الذي يبطل أعمالنا، يبطل أعمالنا[3] الكبائرُ الموجبات[4] والفواحش، فكنا على ذلك حتى أنزل الله تعلى: إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ،[5] الآية، فلما نزلت هذه الآية كَفَفْنَا عن هذا القول.[6] وجائز أن يكون قوله تعالى: **ولا تبطلوا أعمالكم،**[7] قال هذا ليكونوا أبدا على اليقظة والحذر لئلا تَبْطُلَ[8] أعمالهم من حيث لا يشعرون، كقوله: أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ.[9] وفي حرف أُبَيّ رضي الله عنه: ولا تبطلوا إيمانكم.[10]

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾[٣٤]

وقوله عز وجل: **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم،** تأويلها ظاهر.

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾[٣٥]

وقوله عز وجل: **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم،** أي فلا تَضْعُفُوا[11] وتدعوا إلى الصلح، كذلك قال القُتَبِي.[12] وقال أبو عَوْسَجَة: السِّلم بكسر السين الصلح، ولا أعرف[13] بفتح السين هاهنا له معنى.

---

[1] ن: كمسح؛ ث: يكسح.

[2] انظر: تفسير *الطبري*، ٢١/٢٢٦؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ١٣/٤٥٠.

[3] ر م – يبطل أعمالنا.

[4] أي الكبائر الموجبات للنار. انظر: *النهاية في غريب الحديث* لابن الأثير، «وجب».

[5] سورة النساء، ٤/٤٨.

[6] انظر: *تعظيم قدر الصلاة* لمحمد بن نصر المروزي، ٢/٦٤٦؛ و*تفسير الطبري*، ٢٠/٢٢٩-٢٣٠؛ و*شرح مشكل الآثار* للطحاوي، ٥/٣٨٣.

[7] ر م + وأنتم لا تشعرون.

[8] جميع النسخ: لئلا يبطل.

[9] ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ (سورة الحجرات، ٤٩/٢).

[10] لم أجده في المراجع.

[11] ر ث م: أي لا تضعفوا؛ ن: إلى السلم ولا تضعفوا. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٧ظ.

[12] انظر: *غريب القرآن* لابن قتيبة، ٤١١.

[13] ن: وإلا عرف.

وقوله عز وجل: **وأنتم الأعلون**، أي وأنتم الغالبون. فيه النهي[١] عن الدعاء إلى الصلح إذا كانوا هم الأعلون أعني أهل الإسلام. ثم قوله تعالى: **وأنتم الأعلون**، يحتمل وجوها. يحتمل الأعلون بالحجج والبراهين، فإن كان أراد هذا فمعناه فلا تدعوهم إلى الصلح في كل وقت لأن أهل الإسلام هم الأعلون عليهم بالحجج والبراهين[٢] في كل وقت. ويحتمل وأنتم الأعلون بالقهر والغلبة في العاقبة،[٣] أي آخرِ الأمر لكم. ويحتمل وأنتم الأعلون في الدنيا والآخرة لأنهم وإن غُلبوا في الدنيا وقُتلوا كانت لهم الآخرةُ، وإن ظَفِروا بهم[٤] كانت لهم الدنيا والأموال. وقال بعضهم: **وأنتم الأعلون**، أي وأنتم أولى بالله منهم، وهو ما ذكرنا في الآخرة. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **والله معكم**، يحتمل[٥] معكم في النصر والغلبة، ويحتمل معكم في الوعد الذي وعد، أي يُنجز ما وعد لكم في الدنيا ويفي بذلك. وقوله: **ولن يَتِرَكم أعمالَكم**، اختلف فيه؛ قال بعضهم: أي لن يجعل الله للكافرين عليكم مَظلَمةً ولا تَبِعةً، وهو يحتمل في الدنيا والآخرة كقوله تعالى: وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً.[٦] وقال بعضهم: **لن يتركم أعمالكم**، أي لن يَنقصكم أعمالكم، وكذا قال أبو عَوْسَجَة: يقال: وَتَرْتُه، أي نقصته.[٧] وقال بعضهم: لن يظلمكم أعمالكم، يقال: وترني حقي، أي بَخَسَنيه، كذلك قال القُتَبِي.[٨] ولكن كلاهما واحد في المعنى، أي لا يَنْقُص من أعمالهم شيئا[٩] ولا يُظلَمون فيها ولا يُبخَسون. ***والله أعلم***.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾[٣٦] ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾[٣٧]

وقوله عز وجل: **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو**، أي الحياة الدنيا على ما عندهم[١٠] وعلى ما يُقدِّرون لعب ولهو، لأنهم كانوا يقولون: أَنْ لا بعث ولا حياةَ، فعلى ما عندهم

---

[١] ن: فيه التمني.
[٢] جميع النسخ – فإن كان أراد هذا فمعناه فلا تدعوهم إلى الصلح في كل وقت لأن أهل الإسلام هم الأعلون عليهم بالحجج والبراهين. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٧ظ.
[٣] ن: في الغلبة.
[٤] ن: وإن ظفر واتهم.
[٥] ر م: ويحتمل.
[٦] سورة النساء، ٤/١٤١.
[٧] ر م: أي نقصه.
[٨] انظر: غريب *القرآن* لابن قتيبة، ٤١١.
[٩] ن: شيء.
[١٠] ر م: على ما عدهم.

تكون[1] حياة الدنيا على ما ذكر من اللهو. ويحتمل أنه سماها لعبا ولهوا[2] لأنهم على ما يزعمون أنشأها للانقطاع والفناء لا لتُكتَسَب[3] بها الحياة الدائمةُ في الآخرة، وإنشاء الشيء للانقطاع والفناء خاصة بلا عاقبة تُقْصَد[4] يكون لعبا ولهوا. ثم اللعب واللهو يجوز أن يكونا[5] شيئا واحدا، ويجوز أن يكون أحدهما ما يُستَمتع بظاهر الأشياء والآخرُ ما يُستمتَع بباطن الأشياء؛ اللعب هو[6] ما يُستمتَع بظواهر الأشياء واللهو هو ما يُتلهَّى ببواطنها. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم**، أي وإن تؤمنوا بما أُمِرتم الإيمانَ به[7] وتتقوا[8] عما نُهيتم عن مخالفة أمره، **يؤتكم أجوركم**. جعل الله عز وجل بفضله ورحمته لأعمالهم التي يعملون لأنفسهم أجرا إذ لا أحد يعمل لنفسه ويأخذ الأجر من غيره، لأنهم بالأعمال[9] يُسقطون عن أنفسهم التكليف بالشكر لنعم الله تعالى حيث أسدى عليهم النعم ابتداء. لكنه جعل لأعمالهم أجرا كأنهم يعملون له ابتداء وإن كانوا عاملين لأنفسهم في الحقيقة، وإليهم[10] ترجع[11] منافع أعمالهم؛ ولأن أنفسهم وأموالهم في الحقيقة لله تعالى، فكيف يستحقون الأجر على مولاهم بأعمالهم؟ وهذا كما ذكر[12] من الإقراض له والشراء منهم،[13] كَأَنْ لا ملك له في ذلك وأن ليس له ذلك وإن كانت[14] حقيقة أملاكهم وأنفسهم لله تعالى، فضلا منه وكرما، فعلى ذلك هذا. ***والله أعلم***.

---

[1] جميع النسخ: يكون.
[2] جميع النسخ: لهوا ولعبا. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٨و.
[3] جميع النسخ: ليكتسب.
[4] ر ن م: يقصد.
[5] ث: أن يكون.
[6] ن – ما يستمتع بظاهر الأشياء والآخر ما يستمتع بباطن الأشياء اللعب هو.
[7] ر ث م – به.
[8] ر م: ويتقوا.
[9] ن + لأنهم بالأعمال.
[10] جميع النسخ: وإليه. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٨و.
[11] جميع النسخ: يرجع.
[12] جميع النسخ: كما ذكرنا. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٨و.
[13] ر م: من الاقتراض له والاستدانة منه. يشير المؤلف رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الذي يُقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٤٥)، وقوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ (سورة التوبة، ٩/١١١).
[14] جميع النسخ: وإن كان.

وقوله عز وجل: **ولا يَسْأَلْكم أموالكم**، هذا يخرج على وجهين. أحدهما أي ليس يسألكم الإنفاق من أموالكم وإنما يسألكم من ماله لِتَسْتَمْتِعُوا[١] بمال غيره لأنفسكم وتجعلون[٢] ذُخرا لأنفسكم بمال[٣] غيرٍ. [وقوله:] **إن يَسْأَلْكموها فَيُحْفِكُم تَبخلوا**، أي لو كان يسألكم من أموالكم لبخلتم وتركتم الإنفاق منها. والثاني **ولا يسئلكم أموالكم**، أي ولا يسألكم الإنفاق من جميع أموالكم ولكن يسألكم الإنفاق من طائفة من أموالكم. / **إن يسألكموها فيحفكم**، [٧٣٢ر] أي لو يسألكم جميع أموالكم لحملكم ذلك على البخل وترك الإنفاق. فإذ[٤] يسألكم الإنفاق من جزء من أموالكم فلماذا بخلتم وتركتم الإنفاق؟ وقوله: **فيحفكم تبخلوا**، يخرج على وجوه.[٥] أحدها أي يَحْملكم على البخل لو سألكم جميع الأموال. ويحتمل **فيحفكم**، أي يَجْعلكم حُفاة لا شيءَ يبقى عندكم. الإحفاء أن يأخذ كلَّ شيء عنده وهو من الاستئصال، ومنه إحفاء الشوارب. وقال أبو عَوْسَجَة: الإحفاء شدة المسألة، أي إن يُلِحَّ عليكم فيما[٦] يوجبه في أموالكم. **تبخلوا**، يقال: أحفى في المسألة[٧] وألحف[٨] وألحّ، واحد. ***والله أعلم.***

وقوله عز وجل: **ويُخْرِجْ أضغانكم**، أي لو أمر بالإنفاق من جميع أموالكم أو من أموالكم[٩] حقيقة يُظهر ذلك من أضغانكم التي في قلوبكم؛ لأن ذلك الأمر إنما يجري على ألسن الرسل فيوجب[١٠] ذلك إظهار ما في قلوبهم من الضغائن للرسل عليهم السلام. فإن كان التأويل هذا فهو في المنافقين فيكون الأمر بالإنفاق سببَ إظهار نفاقهم وضغائنهم وعداوتهم، فكان كالأمر[١١] بالقتال كان[١٢] سببا لإظهار نفاقهم. وإن كان في المسلمين فيحتمل أنه قال ذلك تحريضا لهم على الإنفاق والتصدق،[١٣]

---

[١] ر ث م: ليستمتعوا؛ ن: استمتعوا. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٨و.
[٢] جميع النسخ: ويجعلون. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ١٣٨و.
[٣] جميع النسخ - بمال. والزيادة من المرجع السابق، ورقة ١٣٨و.
[٤] م: فإن.
[٥] جميع النسخ: من وجوه.
[٦] ر م: فيها.
[٧] ن - أي إن يلح عليكم فيما يوجبه في أموالكم تبخلوا يقال أحفى في المسألة.
[٨] ر م: والخف.
[٩] ر م: ومن أموالكم.
[١٠] ر م: فوجب.
[١١] م: الأمر.
[١٢] ر م: كأنه.
[١٣] ر: والصدق.

أي إنه سبب إخراج الضغائن والعداوة لما فيه من التحبب[1] والتودد بإيصال[2] ما هو محبوب إليه. *والله أعلم*.

﴿هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[٣٨]

وقوله عز وجل: **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله**، أي ها أنتم يا هؤلاء تدعون لتنفقوا[3] في سبيل الله، أي في إظهار دين الله أو في طاعة الله أو في الجهاد، لأن الإنفاق في ذلك كله في سبيل الله. *والله أعلم*. وقوله عز وجل: **فمنكم من يبخلُ ومن يبخلْ فإنما يبخلُ عن نفسه**، جعل الله عز وجل الإنفاق لهم حقيقة إذا أنفقوا فيما أمرهم الله تعالى بالإنفاق في طاعته، عند ذلك يصير تلك الأموال لهم، لأنهم إذا أنفقوا فيما أمر الله تعالى انتفعوا بها في الدنيا بما استمتعتْ[4] أنفسهم بذلك وتلذذت، وانتفعوا بها أيضا في الآخرة وقت حاجتهم وفقرهم، بذلك تتحقق وتحصل[5] لهم تلك الأموال. فأما عند تركهم الإنفاق فيما أمروا بالإنفاق والبذلَ فلا تتحقق[6] لهم تلك الأموال المجعولة في أيديهم، لأنه إما أن تُجعَل[7] لوارثهم أو يأخذها منهم بلا سبب من غير أن يحصل لهم بذلك نفع، فيكون ما ذكرنا.[8] فذلك تأويل قوله تعالى: **ومن يَبخلْ فإنما يبخلُ عن نفسه**، -والله أعلم- لما يُهلِك نفسه بترك الإنفاق منها[9] ولم يتمتع ولم ينتفع به[10] وقت حاجته[11] إليه في الآخرة. وقال بعضهم:[12] فمنكم من يبخل عن الصدقة والإنفاق في طاعة الله،[13] ومن يبخل بالصدقة في طاعة الله فإنما يبخل عن نفسه بالجزاء في الآخرة.[14] *والله أعلم*.

---

[1] ر م: من التحبب.
[2] ن: باتصال.
[3] ر ن ث: لينفقوا.
[4] ر م: واستمتعت.
[5] جميع النسخ: يتحقق ويحصل.
[6] جميع النسخ: فلا يتحقق.
[7] جميع النسخ: أن يجعل.
[8] ن - فيكون ما ذكرنا؛ + والله أعلم.
[9] ن: بينهما.
[10] أي بماله.
[11] ن: وقت حاجتهم.
[12] ر ث م + قوله. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٨ظ.
[13] ن - وقال بعضهم فمنكم من يبخل عن الصدقة والإنفاق في طاعة الله.
[14] ر م - في الآخرة.

وقوله عز وجل: **والله الغني وأنتم الفقراء**، أي والله الغني عن إنفاقكم وعما يأمركم بالإنفاق وأنتم الفقراء إلى ما تنفقون،[١] أي أنتم المنتفعون بذلك الإنفاق الذي يأمركم به لا أنه ترجع[٢] منفعة ذلك إليه أو يأمر لحاجة نفسه ولكن إنما يأمركم بذلك لحاجتكم إليه يوما مّا.[٣] *والله أعلم*. ويحتمل أن[٤] يقول: والله الغني عنكم وعما في أيديكم وأنتم الفقراء إليه في كل وقت وكل ساعة في جميع أحوالكم وأوقاتكم، كقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.[٥] ويحتمل والله الغني عن أموالكم وأنتم الفقراء إلى مغفرته ورزقه وجنته ورحمته.

وقوله عز وجل: **وإن تَتَوَلَّوا يستبدلْ قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالَكم**، قال بعضهم: قد تولوا، وهم أهل مكة، واستبدل قوما غيرهم، وهم أهل المدينة. لكن هذا بعيد لأن السورة مدنية فلا يحتمل الخطاب به لأهل مكة بقوله: **وإن تتولوا**. ومنهم من يقول: الله عز وجل أخبر ووعد أهل المدينة أنهم إن يتولوا يستبدلْ[٦] غيرهم أطوع منهم لله تعالى فلا تَوَلَّوا هؤلاء ولا استبدل غيرَهم.[٧] وقال بعضهم: هو على وجهين. أحدهما قوله: **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم**، أي لم يتولوا ولم يستبدل قوما غيرهم.[٨] والوجه الآخر قد تولوا واستبدل بهم النَّخَع[٩] والحُمْس[١٠] وناسا[١١] من كندة[١٢] والذين تولوا حنظلةُ وأَسَدُ وغَطَفَان وبنو فلان. وقوله عز وجل: **ثم لا يكونوا أمثالكم**، أي لا يكونوا أمثالكم في الطاعة لله تعالى بل أطوع له وأخضع. *والله أعلم*.

---

[١] ر ن: إلى ما ينفقون.
[٢] جميع النسخ: يرجع.
[٣] جميع النسخ - ما. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٨ظ.
[٤] ر م + يكون.
[٥] سورة فاطر، ٣٥/١٥.
[٦] ر ن م: استبدل.
[٧] ن: فلا تولى ولا استبدل غيرهم؛ ث: فلا تولى استبدل غيرهم.
[٨] ر ن م: غيركم.
[٩] ر م: البخع. النَّخَع قبيلة من الأَزْد، وقيل: النَّخَع قبيلة من اليمن رهط إبراهيم النخعي (*لسان العرب*، «نخع»).
[١٠] جميع النسخ: وأحمس. والحُمْس: قريش ومن وَلَدَتْ قريش وكِنانة وجَديلةُ قَيْسٍ وهم فَهْمٌ وعَدْوَانُ ابنا عمرو بن قَيْس عَيْلان وبنو عامر بن صَعْصَعَة، هؤلاء الحُمْس، سُمّوا حمسا لأنهم تحمسوا في دينهم أي تشدّدوا. والأَحْمَس: الشديد الصُّلْب في الدين والقتال. وقد حَمِسَ، بالكسر، فهو حَمِسٌ، وأَحْمَسُ: بَيِّن الحَمَس (*لسان العرب*، «حمس»).
[١١] جميع النسخ: وناس. والتصحيح من الشرح، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٨ظ.
[١٢] ن: من كيده.

وذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله: **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم**، فضرب يده على فخذ سلمان الفارسي وقال: «والذي نفسي بيده لو كان الدين منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس».[١] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأيت غنما سُودا رَدِفَتْها غنم[٢] بيضٌ فاختلطَتْ بها فنَعَقْتُ[٣] بهن جميعا». قالوا: يا رسول الله! فما أوّلت؟[٤] قال: «العجم يَشْرَكونكم في دينكم وأنسابكم». قالوا: العجم[٥] يا رسول الله؟ قال: «نعم، لو كان الإيمان [٧٣٢ظ] معلَّقا بالثريا لناله رجال من العجم / وأسعَدُهم به أهل فارس».[٦] فإن ثبت هذا الخبر فجائز أن يستدل به على جعل العجم أكفاء العرب، لأنه قال: يَشْرَكونكم في أنسابكم؛ فإذا أشركوهم في أنسابهم صاروا أكفاء لهم. ويحتمل أن يكون قوله: «يشركونكم في أنسابكم»، لأنهم ينسبونهم فتلد[٧] منهم أولاد فشَرِكوا فيما ذكر.[٨] *والله أعلم*. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**، قالوا: ومن يستبدل قوما؟ قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مَنْكِب سلمانَ ثم قال: «هذا وقومه هذا وقومه».[٩] وقال في حديث آخر: «والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لناله رجال من فارس».[١٠] *والله أعلم بالصواب*.

---

[١] انظر: *سنن الترمذي*، التفسير ٤٧/٢-٣؛ و*تفسير الطبري*، ٢١/٢٣٤؛ و*شرح مشكل الآثار* للطحاوي، ٣٧٩/٥-٣٨٢؛ و*صحيح ابن حبان*، ٢٠٥/١٠؛ و*تفسير القرآن العظيم* لابن كثير، ٨٣/١٣. وزاد ابن كثير: تفرد به مسلم بن خالد الزنجي ورواه غير واحد، وقد تكلم فيه بعض الأئمة. وروى البخاري ومسلم والترمذي وغيره هذا الحديث حول تفسير الآية ٣ من سورة الجمعة؛ واللفظ في المتن للترمذي. انظر: *صحيح البخاري*، التفسير ١/٦٢؛ و*صحيح مسلم*، فضائل الصحابة ٢٣٠-٢٣١.

[٢] ر ث م: سوداء ردفها غيم؛ ن: سوداء رد فيها غيم. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٨ظ.

[٣] جميع النسخ: فتعقب. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ١٣٨ظ. ونَعَق الراعي بالغنم يَنْعِق، بالكسر، نَعْقًا ونُعاقًا: صاح بها وزجرها (*لسان العرب*، «نعق»).

[٤] ر: فما أقالت.

[٥] ث: العجز.

[٦] رواه الحاكم عن ابن عمر بلفظ «رأيت غنما كثيرة سُودا دخلتْ فيها غنم كثيرة بِيضٌ»، قالوا: فما أوّلته يا رسول الله؟ قال: «العجم يَشْرَكونكم في دينكم وأنسابكم، لو كان الإيمان معلّقا بالثريا لناله رجال من العجم وأسعدهم به الفارس». وزاد الحاكم: هذا حيث صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه. انظر: *المستدرك*، ٥٥١/٤.

[٧] ر ث م: فتلد.

[٨] ر ث م: فيتركوا فما ذكر؛ ن: فشركوا فما ذكر. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٣٨ظ.

[٩] ر م – وقومه؛ ث: هذا وقوم هذا. سبق مثله قريبا. وانظر: *سنن الترمذي*، التفسير ٤٧/٢-٣؛ وزاد الترمذي: هذا حديث غريب وفي إسناده مقال.

[١٠] سبق قريبا.

سورة محمد

ثلاثون وثمان آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ①﴾

أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة، فإن آخرها قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥] فإن قال قائل: كيف يُهلك الفاسق وله أعمال صالحة كإطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك؟ مما لا يخلو عنه الإنسان في طول عمره فيكون في إهلاكه إهدار عمله وقد قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك، وسنبين كيف إبطال الأعمال مع تحقيق القول فيه، وتعالى الله عن الظلم.

وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: من المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؟ قلنا: فيه وجوه: الأول: هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر، منهم أبو جهل والحارث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم. الثاني: كفار قريش. الثالث: أهل الكتاب. الرابع: هو عام يدخل فيه كل كافر.

المسألة الثانية: في الصد وجهان: أحدهما: صدوا أنفسهم، معناه أنهم صدوا أنفسهم عن السبيل ومنعوا عقولهم من اتباع الدليل. وثانيهما: صدوا غيرهم ومنعوهم كما قال تعالى عن المستضعفين: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١] وعلى هذا بحث: وهو أن إضلال الأعمال مرتب على الكفر والصد، والمستضعفون لم يصدوا فلا يضل أعمالهم، فنقول: التخصيص بالذكر لا يدل على نفي ما عداه، ولا سيما إذا كان المذكور أَوْلى بالذكر من غيره، وهاهنا الكافر الصاد أدخل في الفساد فصار هو أَوْلى بالذكر. أو نقول: كل من كفر صار صادًّا لغيره، أما المستكبر فظاهر، وأما المستضعف فلأنه بمتابعته أثبت للمستكبر ما يمنعه من اتباع الرسول، فإنه بعد ما يكون متبوعًا يشق عليه بأن يصير تابعًا، ولأن كل من كفر صار صادًّا لمن بعده لأن عادة الكفار اتباع المتقدم، كما قال عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] أو مقتدون، فإن قيل: فعلى هذا كل كافر صاد فما الفائدة في ذكر الصد بعد الكفر؟ نقول: هو من باب ذكر السبب وعطف المسبب عليه، تقول: أكلت كثيرًا وشبعت، والكفر على هذا سبب الصد، ثم إذا قلنا بأن المراد منه أنهم صدوا أنفسهم ففيه

إشارة إلى أن ما في الأنفس من الفطرة كان داعيًا إلى الإيمان، والامتناع لمانع وهو الصد لنفسه.

المسألة الثالثة: في المصدود عنه وجوه: الأول: عن الإنفاق على محمد عليه السلام وأصحابه. الثاني: عن الجهاد. الثالث: عن الإيمان. الرابع: عن كل ما فيه طاعة الله تعالى وهو اتباع محمد عليه السلام، وذلك لأن النبي ﷺ على الصراط المستقيم هادٍ إليه، وهو صراط الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] فمن منع من اتباع محمد عليه السلام فقد صد عن سبيل الله.

المسألة الرابعة: في الإضلال وجوه: الأول: المراد منه الإبطال، ووجهه هو أن المراد أنه أضله بحيث لا يجده، فالطالب إنما يطلبه في الوجود، وما لا يوجد في الوجود فهو معدوم. فإن قيل: كيف يبطل الله حسنة أوجدها؟ نقول: إن الإبطال على وجوه: أحدها: يوازن بسيئاتهم الحسنات التي صدرت منهم ويسقطها بالموازنة ويبقي لهم سيئات محضة؛ لأن الكفر يزيد على غير الإيمان من الحسنات، والإيمان يترجح على غير الكفر من السيئات. وثانيها: أبطلها لفقد شرط ثبوتها وإثباتها وهو الإيمان لأنه شرط قبول العمل، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [غافر: ٤٠] وإذا لم يقبل الله العمل لا يكون له وجود؛ لأن العمل لا بقاء له في نفسه بل هو يعدم عقيب ما يوجد في الحقيقة، غير أن الله تعالى يكتب عنده بفضله أن فلانًا عمل صالحًا وعندي جزاؤه فيبقى حكمًا، وهذا البقاء حكمًا خير من البقاء الذي للأجسام التي هي محل الأعمال حقيقة، فإن الأجسام وإن بقيت غير أن مآلها إلى الفناء والعمل الصالح من الباقيات عند الله أبدًا، وإذا ثبت هذا تبين أن الله بالقبول متفضل، وقد أخبر أني لا أقبل إلا من مؤمن. فمن عمل وتعب من غير سبق الإيمان فهو المضيع تعبه لا الله تعالى. وثالثها: لم يعمل الكافر عمله لوجه الله تعالى، فلم يأت بخير، فلا يرد علينا قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] وبيانه هو أن العمل لا يتميز إلا بمن له العمل لا بالعامل ولا بنفس العمل، وذلك لأن من قام ليقتل شخصًا ولم يتفق قتله، ثم قام ليكرمه ولم يتفق الإكرام ولا القتل، وأخبر عن نفسه أنه قام في اليوم الفلاني لقتله وفي اليوم الآخر لإكرامه، يتميز القيامان لا بالنظر إلى القيام فإنه واحد ولا بالنظر إلى القائم فإنه حقيقة واحدة، وإنما يتميز بما كان لأجله القيام، وكذلك من قام وقصد بقيامه إكرام الملك وقام وقصد بقيامه إكرام بعض العوام، يتميز أحدهما عن الآخر بمنزلة العمل لكن نسبة الله الكريم إلى الأصنام فوق نسبة الملوك إلى العوام، فالعمل للأصنام ليس بخير، ثم إن اتفق أن يقصد واحد بعمله وجه الله تعالى ومع ذلك يعبد الأوثان - لا يكون عمله خيرًا؛ لأن مثل ما أتى به لوجه الله أتى به للصنم المنحوت فلا تعظيم. الوجه الثاني: الإضلال هو جعله مستهلكًا، وحقيقته هو أنه إذا كفر وأتى للأحجار والأخشاب بالركوع والسجود فلم يبق لنفسه حرمة وفعله لا يبقى معتبرًا بسبب كفره، وهذا كمن يخدم عند الحارس والسايس إذا قام فالسلطان لا يعمل قيامه تعظيمًا لخسته، كذلك الكافر، وأما المؤمن فبقدر ما

يتكبر على غير الله يظهر تعظيمه لله، كالملك الذي لا ينقاد لأحد إذا انقاد في وقت لملك من الملوك يتبين به عظمته. الوجه الثالث: (أضله) أي أهمله وتركه، كما يقال: أضل بعيره، إذا تركه مسيبًا فضاع. ثم إن الله تعالى لما بيّن حال الكفار بيّن حال المؤمنين فقال:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا مرارًا أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح، رتب عليهما المغفرة والأجر كما قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج: ٥٠] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ [العنكبوت: ٧]وقلنا بأن المغفرة ثواب الإيمان والأجر على العمل الصالح واستوفينا البحث فيه في سورة العنكبوت، فنقول ههنا جزاء ذلك قوله: ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ إشارة إلى ما يثيب على الإيمان، وقوله: ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ إشارة إلى ما يثيب على العمل الصالح.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: تكفير السيئات مرتب على الإيمان والعمل الصالح، فمن آمن ولم يفعل الصالحات يبقى في العذاب خالدًا. فنقول: لو كان كما ذكرتم لكان الإضلال مرتبًا على الكفر والصد، فمن يكفر لا ينبغي أن تضل أعماله، أو نقول: قد ذكرنا أن الله رتب أمرين على أمرين، فمن آمن كفر سيئاته ومن عمل صالحًا أصلح باله، أو نقول: أي مؤمن يتصور أنه غير آتٍ بالصالحات بحيث لا يصدر عنه صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا إطعام، وعلى هذا فقوله: ﴿ وَعَمِلُوا۟﴾ عطف المسبب على السبب، كما قلنا في قول القائل: أكلت كثيرًا وشبعت.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ مع أن قوله (آمنوا وعملوا الصالحات) أفاد هذا المعنى فما الحكمة فيه وكيف وجهه؟ فنقول: أما وجهه فبيانه من وجوه: الأول: قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي بالله ورسوله واليوم الآخر، وقوله: ﴿ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ﴾ أي بجميع الأشياء الواردة في كلام الله ورسوله، تعميم بعد أمور خاصة وهو حسن، تقول: خلق الله السموات والأرض وكل شيء، إما على معنى وكل شيء غير ما ذكرنا وإما على العموم بعد ذكر الخصوص. الثاني: أن يكون المعنى آمنوا وآمنوا من قبل بما نزل على محمد، وهو الحق المعجز الفارق بين الكاذب والصادق، يعني آمنوا أولاً بالمعجز وأيقنوا بأن القرآن لا يأتي به غير الله، فآمنوا وعملوا الصالحات، والواو للجمع المطلق، ويجوز أن يكون المتأخر ذكرًا متقدمًا وقوعًا، وهذا كقول القائل آمن به، وكان الإيمان به واجبًا، أو يكون بيانًا لإيمانهم كأنهم ﴿ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ أي آمنوا وآمنوا بالحق، كما يقول القائل: خرجت وخرجت مصيبًا، أي وكان خروجي جيدًا حيث نجوت من كذا وربحت كذا. فكذلك لما قال: (آمنوا) بيّن أن إيمانهم

كان بما أمر الله وأنزل الله لا بما كان باطلاً من عند غير الله. الثالث: ما قاله أهل المعرفة، وهو أن العلم العمل والعمل العلم، فالعلم يحصل ليعمل به لما جاء: إذا عمل العالم العمل الصالح علم ما لم يكن يعلم، فيعلم الإنسان مثلاً قدرة الله بالدليل وعلمه وأمره، فيحمله الأمر على الفعل ويحثه عليه علمه فعلمه بحاله وقدرته على ثوابه وعقابه، فإذا أتى بالعمل الصالح علم من أنواع مقدورات الله ومعلومات الله تعالى ما لم يعلمه أحد إلا بإطلاع الله عليه وبكشفه ذلك له فيؤمن، وهذا هو المعنى في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]فإذا آمن المكلف بمحمد بالبرهان وبالمعجزة وعمل صالحًا، حَمَله علمه على أن يؤمن بكل ما قاله محمد ولم يجد في نفسه شكًا، وللمؤمن في المرتبة الأولى أحوال وفي المرتبة الأخيرة أحوال، أما في الإيمان بالله ففي الأول يجعل الله معبودًا، وقد يقصد غيره في حوائجه فيطلب الرزق من زيد وعمر ويجعل أمرًا سببًا لأمر، وفي الأخيرة يجعل الله مقصودًا ولا يقصد غيره، ولا يرى إلا منه سره وجهره، فلا ينيب إلى شيء في شيء، فهذا هو الإيمان الآخر بالله وذلك الإيمان الأول.

وأما ما في النبي ﷺفيقول أولاً: هو صادق فيما ينطق، ويقول آخرًا: لا نطق له إلا بالله، ولا كلام يُسمع منه إلا وهو من الله. فهو في الأول يقول بالصدق ووقوعه منه، وفي الثاني يقول بعدم إمكان الكذب منه لأن حاكي كلام الغير لا ينسب إليه الكذب ولا يمكن إلا في نفس الحكاية، وقد علم هو أنه حاك عنه كما قاله، وأما في المرتبة الأولى فيجعل الحشر مستقبلاً والحياة العاجلة حالاً، وفي المرتبة الأخيرة يجعل الحشر حالاً والحياة الدنيا ماضيًا، فيقسم حياة نفسه في كل لحظة، ويجعل الدنيا كلها عدمًا لا يلتفت إليها ولا يُقبل عليها.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ هو في مقابلة قوله في حق الكافر: ﴿وَصَدُّواْ﴾ [محمد: ١]لأنا بينا في وجه أن المراد بهم صدوا عن اتباع محمد ﷺ، وهذا حث على اتباع محمد ﷺ فهم صدوا أنفسهم عن سبيل الله، وهو محمد عليه السلام وما أُنزل عليه، وهؤلاء حثوا أنفسهم على اتباع سبيله، لا جرم حصل لهؤلاء ضد ما حصل لأولئك، فأضل الله حسنات أولئك وستر على سيئات هؤلاء.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ هل يمكن أن يكون من ربهم وصفًا فارقًا، كما يقال: رأيت رجلاً من بغداد، فيصير وصفًا للرجل فارقًا بينه وبين من يكون من الموصل وغيره؟ نقول: لا؛ لأن كل ما كان من الله فهو الحق، فليس هذا هو الحق من ربهم، بل قوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ خبر بعد خبر، كأنه قال: وهو الحق وهو من ربهم، أو إن كان وصفًا فارقًا فهو على معنى أنه الحق النازل من ربهم لأن الحق قد يكون مشاهدًا، فإن كون الشمس مضيئة حق وهو ليس نازل من الرب، بل هو علم حاصل بطريق يَسَّره الله تعالى لنا.

ثم قال تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي سترها، وفيه إشارة إلى بشارة ما كانت تحصل

بقوله أعدمها ومحاها، لأن محو الشيء لا ينبئ عن إثبات أمر آخر مكانه، وأما الستر فينبئ عنه، وذلك لأن من يريد ستر ثوب بالٍ أو وسخ لا يستره بمثله، وإنما يستره بثوب نفيس نظيف، ولا سيما الملك الجواد إذا ستر على عبد من عبيده ثوبه البالي أمَر بإحضار ثوب من الجنس العالي لا يحصل إلا بالثمن الغالي، فليس هذا هو الستر بينه وبين المحبوبين، وكذلك المغفرة، فإن المغفرة والتكفير من باب واحد في المعنى، وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] وقوله: ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا من أنه يبدلها حسنة، فإن قيل: كيف تبدل السيئة حسنة؟ نقول: معناه أنه يجزيه بعد سيئاته ما يجزي المحسن على إحسانه، فإن قال: الإشكال باقٍ وبادٍ، وما زال بل زاد، فإن الله تعالى لو أثاب على السيئة كما يثيب عن الحسنة، لكان ذلك حثًا على السيئة. نقول: ما قلنا: إنه يثيب على السيئة وإنما قلنا: إنه يثيب بعد السيئة بما يثيب على الحسنة، وذلك حيث يأتي المؤمن بسيئة، ثم يتنبه ويندم ويقف بين يدي ربه معترفًا بذنبه مستحقرًا لنفسه، فيصير أقرب إلى الرحمة من الذي لم يذنب ودخل على ربه مفتخرًا في نفسه، فصار الذنب شرطًا للندم، والثواب ليس على السيئة، وإنما هو على الندم، وكأن الله تعالى قال: عبدي أذنب ورجع إليّ، ففعله شيء لكن ظنه بي حسن حيث لم يجد ملجأ غيري فاتكل على فضلي. والظن عمل القلب، والفعل عمل البدن، واعتبار عمل القلب أَوْلى، ألا ترى أن النائم والمغمى عليه لا يُلتفت إلى عمل بدنه، والمفلوج الذي لا حركة له يعتبر قصد قلبه، ومثال الروح والبدن راكب دابة يركض فرسه بين يدي ملك يدفع عنه العدو بسيفه وسنانه، والفرس يلطخ ثوب الملك بركضه في استنانه، فهل يلتفت إلى فعل الدابة مع فعل الفارس، بل لو كان الراكب فارغًا الفرس يؤذي بالتلويث يخاطب الفارس به، فكذلك الروح راكب والبدن مركوب، فإن كانت الروح مشغولة بعبادة الله وذكره، ويصدر من البدن شيء لا يُلتفت إليه، بل يستحسن منه ذلك ويزاد في تربية الفرس الراكض ويهجر الفرس الواقف، وإن كان غير مشغول فهو مؤاخذ بأفعال البدن.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الباطل وجوه: الأول: ما لا يجوز وجوده، وذلك لأنهم اتبعوا إلهًا غير الله، وإله غير الله محال الوجود، وهو الباطل وغاية الباطل؛ لأن الباطل هو المعدوم، يقال: بطل كذا، أي عدم، والمعدوم الذي لا يجوز وجوده ولا يمكن أن يوجد، ولا يجوز أن يصير حقًا موجودًا، فهو في غاية البطلان، فعلى هذا فالحق هو الذي لا يمكن عدمه وهو الله تعالى، وذلك لأن الحق هو الموجود، يقال: تحقق الأمر، أي وُجد وثبت، والموجود الذي لا

يجوز عدمه هو في غاية الثبوت. الثاني: الباطل الشيطان، بدليل قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] فبيّن أن الشيطان متبوع وأتباعه هم الكفار والفجار، وعلى هذا فالحق هو الله؛ لأنه تعالى جعل في مقابلة حزب الشيطان حزب الله. الثالث: الباطل هو قول كبرائهم ودين آبائهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] ومقتدون، فعلى هذا الحق ما قاله النبي عليه السلام عن الله. الرابع: الباطل كل ما سوى الله تعالى؛ لأن الباطل والهالك بمعنى واحد و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وعلى هذا فالحق هو الله تعالى أيضًا.

المسألة الثانية: لو قال قائل: (من ربهم) لا يلائم إلا وجهًا واحدًا من أربعة أوجه، وهو قولنا المراد من الحق هو ما أنزل الله وما قال النبي عليه السلام من الله، فأما على قولنا: الحق هو الله فكيف يصح قوله: ﴿ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ نقول على هذا ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ لا يكون متعلقًا بالحق، وإنما يكون تعلقه بقوله بقوله تعالى: ﴿ٱتَّبَعُوا﴾ أي اتبعوا أمر ربهم، أي من فضل الله أو هداية ربهم اتبعوا الحق، وهو الله سبحانه.

المسألة الثالثة: إذا كان الباطل هو المعدوم الذي لا يجوز وجوده، فكيف يمكن اتباعه؟ نقول: لما كانوا يقولون إنما يفعلون للأصنام وهي آلهة وهي تؤجرهم بذلك، كانوا متبعين في زعمهم، ولا مُتَّبع هناك.

المسألة الرابعة: قال في حق المؤمنين: ﴿ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وقال في حق الكفار: ﴿ٱتَّبَعُوا ٱلْبَٰطِلَ﴾ من آلهتهم أو الشيطان، نقول: أما آلهتهم فلأنهم لا كلام لهم ولا عقل، وحين ينطقهم الله ينكرون فعلهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] والله تعالى رضي بفعلهم وثبتهم عليه، ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ عائد إلى الأمرين جميعًا، أي من ربهم اتبع هؤلاء الباطل، وهؤلاء الحق، أي من حكم ربهم، ومن عند ربهم.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ وفيه أيضا مسائل:

المسألة الأولى: أيُّ مثل ضربه الله تعالى حتى يقول: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: إضلال أعمال الكفار وتكفير سيئات الأبرار. الثاني: كون الكافر متبعًا للباطل، وكون المؤمن متبعًا للحق، ويحتمل وجهين آخرين: أحدهما: على قولنا: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي من عند ربهم اتبع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق، نقول: هذا مثل يُضرب عليه جميع الأمثال، فإن الكل من عند الله، الإضلال وغيره والاتباع وغيره. وثانيهما: هو أن الله تعالى لما بيّن أن الكافر يُضل الله عمله والمؤمن يُكفر الله سيئاته، وكان بين الكفر والإيمان مباينة ظاهرة فإنهما ضدان، نبه على أن السبب كذا، أي ليس الإضلال والتكفير بسبب المضادة والاختلاف بل بسبب اتباع الحق والباطل، وإذا علم السبب فالفعلان قد يتحدان صورة وحقيقة

وأحدهما يورث إبطال الأعمال والآخر يورث تكفير السيئات بسبب أن أحدهما يكون فيه اتباع الحق والآخر اتباع الباطل، فإن من يؤمن ظاهرًا وقلبه مملوء من الكفر، ومن يؤمن بقلبه وقلبه مملوء من الإيمان - اتحد فعلاهما في الظاهر، وهما مختلفان بسبب اتباع الحق واتباع الباطل، لا بدع من ذلك فإن من يؤمن ظاهرًا وهو يسر الكفر، ومن يكفر ظاهرًا بالإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان اختلف الفعلان في الظاهر، وإبطال الأعمال لمن أظهر الإيمان بسبب أن اتباع الباطل من جانبه، فكأنه تعالى قال: الكفر والإيمان مثلان يثبت فيهما حكمان وعلم سببه، وهو اتباع الحق والباطل، فكذلك اعلموا أن كل شيء اتبع فيه الحق كان مقبولاً مثابًا عليه، وكل أمر اتبع فيه الباطل كان مردودًا معاقبًا عليه، فصار هذا عامًّا في الأمثال، على أنا نقول: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لا يستدعي أن يكون هناك مثل مضروب، بل معناه أنه تعالى لما بيّن حال الكافر وإضلال أعماله وحال المؤمن وتكفير سيئاته وبيّن السبب فيهما، كان ذلك غاية الإيضاح فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا البيان ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ ويبين لهم أحوالهم.

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿أَمْثَٰلَهُمْ﴾ عائد إلى من؟ فيه وجهان: أحدهما: إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ على أنفسهم. وثانيهما: إلى الفريقين السابقين في الذكر، معناه: يضرب الله للناس أمثال الفريقين السابقين.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الفاء في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ يستدعي متعلقًا يتعلق به ويترتب عليه، فما وجه التعلق بما قبله؟ نقول: هو من وجوه: الأول: لما بيّن أن الذين كفروا أضل الله أعمالهم واعتبار الإنسان بالعمل، ومن لم يكن له عمل فهو همج، فإن صار مع ذلك يؤذي حسن إعدامه ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ بعد ظهور أن لا حرمة لهم وبعد إبطال أعمالهم، فاضربوا أعناقهم. الثاني: إذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين، وأن أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان، والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن، حق القتال عند التحزب، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم. الثالث: أن من الناس من يقول لضعف قلبه وقصور نظره: (إيلام الحيوان من الظلم والطغيان، ولا سيما القتل الذي هو تخريب بنيان)، فيقال ردًا عليهم: لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل، فمن يقتل في سبيل الله لتعظيم أمر الله لهم من الأجر ما للمصلي والصائم، فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهما رأفة فإن ذلك اتباع للحق، والاعتبار به لا بصورة الفعل.

المسألة الثانية: ﴿فَضَرْبَ﴾ منصوب على المصدر، أي فاضربوا ضرب الرقاب.

المسألة الثالثة: ما الحكمة في اختيار ضرب الرقبة على غيرها من الأعضاء؟ نقول فيه: لما بيّن أن المؤمن ليس يدافع إنما هو دافع، وذلك أن من يدفع الصائل لا ينبغي أن يقصد أولاً مقتله بل يتدرج ويضرب على غير المقتل، فإن اندفع فذاك ولا يترقى إلى درجة الإهلاك، فقال تعالى: ليس المقصود إلا دفعهم عن وجه الأرض، وتطهير الأرض منهم، وكيف لا والأرض لكم مسجد، والمشركون نجس، والمسجد يطهر من النجاسة، فإذًا ينبغي أن يكون قصدكم أولاً إلى قتلهم بخلاف دفع الصائل، والرقبة أظهر المَقاتل لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت لكن في الحرب لا يتهيأ ذلك، والرقبة ظاهرة في الحرب ففي ضربها حز العنق وهو مستلزم للموت، بخلاف سائر المواضع، ولا سيما في الحرب، وفي قوله ﴿لَقِيتُمُ﴾ ما ينبئ عن مخالفتهم الصائل لأن قوله: ﴿لَقِيتُمُ﴾ يدل على أن القصد من جانبهم، بخلاف قولنا لقيكم؛ ولذلك قال في غير هذا الموضع: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[البقرة: ١٩١].

المسألة الرابعة: قال هاهنا: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ بإظهار المصدر وتَرْك الفعل، وقال في الأنفال: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾[الأنفال: ١٢] بإظهار الفعل وتَرْك المصدر، فهل فيه فائدة؟ نقول: نعم ولنبينها بتقديم مقدمة، وهي أن المقصود أولاً في بعض السور قد يكون صدور الفعل من فاعل ويتبعه المصدر ضمنًا، إذ لا يمكن أن يفعل فاعل إلا ويقع منه المصدر في الوجود، وقد يكون المقصود أولاً المصدر ولكنه لا يوجد إلا من فاعل فيطلب منه أن يفعل، مثاله من قال: إني حلفت أن أخرج من المدينة. فيقال له: فاخرج، صار المقصود منه صدور الفعل منه والخروج في نفسه غير مقصود الانتفاء، ولو أمكن أن يخرج من غير تحقق الخروج منه لما كان عليه إلا أن يخرج، لكن من ضرورات الخروج أن يخرج، فإذا قال قائل: ضاق بي المكان بسبب الأعداء. فيقال له مثلاً (الخروجَ) يعني الخروج فاخرج، فإن الخروج هو المطلوب حتى لو أمكن الخروج من غير فاعل لحصل الغرض لكنه محال فيتبعه الفعل، إذا عرفت هذا فنقول: في الأنفال الحكاية عن الحرب الكائنة وهم كانوا فيها والملائكة أُنزلوا لنصرة من حضر في صف القتال فصدور الفعل منه مطلوب، وههنا الأمر وارد وليس في وقت القتال بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ والمقصود بيان كون المصدر مطلوبًا لتقدم المأمور على الفعل قال: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ وفيما ذكرنا تبيين فائدة أخرى وهي أن الله تعالى قال هناك: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[الأنفال: ١٢] وذلك لأن الوقت وقت القتال فأرشدهم إلى المقتل وغيره إن لم يصيبوا المقتل، وههنا ليس وقت القتال فبيّن أن المقصود القتل وغرض المسلم ذلك.

المسألة الخامسة: ﴿حَتَّىٰ﴾ لبيان غاية الأمر لا لبيان غاية القتل، أي حتى إذا اثخنتموهم لا يبقى الأمر بالقتل، ويبقى الجواز، ولو كان لبيان القتل لما جاز القتل، والقتل جائز إذا التحق المثخن بالشيخ الهرم، والمراد كما إذا قطعت يداه ورجلاه فنهى عن قتله.

ثم قال تعالى: ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أمر إرشاد.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (إمَّا) وإنما للحصر، وحالهم بعد الأسر غير منحصر في الأمرين، بل يجوز القتل والاسترقاق والمن والفداء، نقول: هذا إرشاد فذكر الأمر العام الجائز في سائر الأجناس، والاسترقاق غير جائز في أسر العرب، فإن النبي ﷺ كان معهم فلم يذكر الاسترقاق، وأما القتل فلأن الظاهر في المثخن الإزمان، ولأن القتل ذكره بقوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ فلم يبق إلا الأمران.

المسألة الثانية: منًّا وفداءً منصوبان لكونهما مصدرين، تقديره: فإما تمنون منًّا وإما تفدون فداءً، وتقديم المن على الفداء إشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال، والفداء يجوز أن يكون مالاً وأن يكون غيره من الأسرى أو شرطًا يشرط عليهم أو عليه وحده.

المسألة الثالثة: إذا قدرنا الفعل وهو تمنون أو تفدون على تقدير المفعول، حتى نقول إما تمنون عليهم منًّا أو تفدونهم فداء. نقول: لا لأن المقصود المن والفداء لا عليهم وبهم كما يقول القائل: فلان يعطي ويمنع ولا يقال يعطي زيدًا ويمنع عمرًا؛ لأن غرضه ذكر كونه فاعلاً لا بيان المفعول، وكذلك ههنا المقصود إرشاد المؤمنين إلى الفضل.

ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾.

وفي تعلق ﴿حَتَّىٰ﴾ وجهان: أحدهما: تعلقها بالقتل أي اقتلوهم حتى تضع. وثانيهما: بالمن والفداء، ويحتمل أن يقال متعلقة بشدوا الوثاق، وتعلقها بالقتل أظهر وإن كان ذكره أبعد، وفي الأوزار وجهان أحدهما: السلاح. والثاني: الآثام.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إن كان المراد الإثم، فكيف تضع الحرب الإثم، والإثم على المحارب؟ وكذلك السؤال في السلاح لكنه على الأول أشد توجهًا، فيقول: تضع الحرب الأوزار لا من نفسها، بل تضع الأوزار التي على المحاربين والسلاح الذي عليهم.

المسألة الثانية: هل هذا كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] حتى يكون كأنه قال: حتى تضع أمة الحرب أو فرقة الحرب أوزارها؟ نقول: ذلك محتمل في النظر الأول، لكن إذا أمعنت في المعنى تجد بينهما فرقًا، وذلك لأن المقصود من قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ الحرب بالكلية بحيث لا يبقى في الدنيا حزب من أحزاب الكفر يحارب حزبًا من أحزاب الإسلام، ولو قلنا: حتى تضع أمة الحرب، جاز أن يضعوا الأسلحة ويتركوا الحرب وهي باقية بمادتها، كما تقول: خصومتي ما انفصلت ولكني تركتها في هذه الأيام، وإذا أسندنا الوضع إلى الحرب يكون معناه إن الحرب لم يبق.

المسألة الثالثة: لو قال: حتى لا يبقى حزب أو ينفر من الحرب هل يحصل معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾؟ نقول: لا والتفاوت بين العبارتين مع قطع النظر عن النظم، بل النظر إلى نفس المعنى كالتفاوت بين قولك: انقرضت دولة بني أمية، وقولك: لم يبق من دولتهم أثر، ولا شك

أن الثاني أبلغ، فكذلك هاهنا قوله تعالى: ﴿أَوْزَارَهَا﴾ معناه آثارها فإن من أوزار الحرب آثارها.

المسألة الرابعة: وقت وضع أوزار الحرب متى هو؟ نقول: فيه أقوال حاصلها راجع إلى أن ذلك الوقت هو الوقت الذي لا يبقى فيه حزب من أحزاب الإسلام وحزب من أحزاب الكفر. وقيل: ذلك عند قتال الدجال ونزول عيسى عليه السلام.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾.

في معنى ذلك وجهان: أحدهما: الأمر ذلك، والمبتدأ محذوف، ويحتمل أن يقال: ذلك واجب أو مقدم، كما يقول القائل: إن فعلت فذاك، أي فذاك مقصود ومطلوب. ثم بيّن أن قتالهم ليس طريقًا متعينًا بل الله لو أراد أهلكهم من غير جند.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

أي ولكن ليكلفكم فيحصل لكم شرف باختياره إياكم لهذا الأمر. فإن قيل: ما التحقيق في قولنا: التكليف ابتلاء وامتحان والله يعلم السر وأخفى، وماذا يفهم من قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾؟ نقول: فيه وجوه: الأول: أن المراد منه يفعل ذلك فعل المبتلين، أي كما يفعل المبتلي المختبر، ومنها أن الله تعالى يبلو ليظهر الأمر لغيره إما للملائكة وإما للناس، والتحقيق هو أن الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير متعين عند العقلاء بالنظر إليه قصدًا إلى ظهوره، وقولنا فعل يظهر بسببه أمر ظاهر الدخول في مفهوم الابتداء؛ لأن ما لا يظهر بسببه شيء أصلاً لا يسمى ابتلاء، أما قولنا أمر غير متعين عند العقلاء، وذلك لأن من يضرب بسيفه على القثاء والخيار لا يقال: إنه يمتحن؛ لأن الأمر الذي يظهر منه متعين وهو القطع والقد بقسمين، فإذا ضرب بسيفه سبعًا يقال: يمتحن بسيفه ليدفع عن نفسه وقد يقده وقد لا يقده، وأما قولنا: ليظهر منه ذلك فلأن من يضرب سبعًا بسيفه ليدفعه عن نفسه لا يقال إنه ممتحن لأن ضربه ليس لظهور أمر متعين.

إذا علم هذا فنقول: الله تعالى إذا أمرنا بفعل يظهر بسببه أمر غير متعين، وهو إما الطاعة أو المعصية في العقول ليظهر ذلك يكون ممتحنًا، وإن كان عالمًا به لكون عدم العلم مقارنًا فينا لابتلائنا فإذا ابتلينا وعدم العلم فينا مستمر أمرنا وليس من ضرورات الابتلاء، فإن قيل: الابتلاء فائدته حصول العلم عند المبتلي، فإذا كان الله تعالى عالمًا فأية فائدة فيه؟ نقول: ليس هذا سؤال يختص بالابتلاء، فإن قول القائل: لمَ ابتلى؟ كقول القائل: لمَ عاقب الكافر وهو مستغنٍ؟ ولمَ خلق النار محرقة وهو قادر على أن يخلقها بحيث تنفع ولا تضر؟ وجوابه: لا يُسأل عما يفعل، ونقول حينئذٍ ما قاله المتقدمون إنه لظهور الأمر المتعين لإله، وبعد هذا فنقول: المبتلي لا حاجة له إلى الأمر الذي يظهر من الابتلاء، فإن الممتحن للسيف فيما ذكرنا من الصورة لا حاجة له إلى قطع ما يجرب السيف فيه حتى أنه لو كان محتاجًا، كما ضربنا من مثال دفع السبع بالسيف لا يقال إنه يمتحن وقوله: ﴿لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم

بِبَعْضٍۗ﴾ إشارة إلى عدم الحاجة تقريرًا لقوله: ﴿ذَٰلِكَۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

قرئ (قَتَلُوا وَقَاتَلُوا) والكل مناسب لما تقدم، أما من قرأ قتلوا فلأنه لما قال: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ ومعناه فاقتلوهم بين ما للقاتل بقوله: (والذين قَتَلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) ردًّا على من زعم أن القتل فساد محرم إذ هو إفناء من هو مكرم، فقال: عملهم ليس كحسنة الكافر يبطل بل هو فوق حسنات الكافر أضل الله أعمال الكفار، ولن يضل القاتلين، فكيف يكون القتل سيئة، وأما من قرأ (قاتلوا) فهو أكثر فائدة وأعم تناولاً؛ لأنه يدخل فيه من سعى في القتل سواء قتل أو لم يقتل، وأما من قرأ ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾ على البناء للمفعول فنقول: هي مناسبة لما تقدم من وجوه: أحدها: هو أنه تعالى لما قال: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي اقتلوا: والقتل لا يتأتى إلا بالإقدام وخوف أن يُقتل المُقْدم يمنعه من الإقدام، فقال: لا تخافوا القتل فإن من يُقتل في سبيل الله له من الأجر والثواب ما لا يمنع المقاتل من القتال بل يحثه عليه. وثانيها: هو أنه تعالى لما قال: ﴿لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ﴾ والمبتلي بالشيء له على كل وجه من وجوه الأثر الظاهر بالابتلاء حال من الأحوال، فإن السيف الممتحن تزيد قيمته على تقدير أن يقطع، وتنقص على تقدير أن لا يقطع، فحال المبتلين ماذا؟ فقال: إن قُتل فله أن لا يضل عمله ويهدى ويكرم ويدخل الجنة، وأما إن قَتَل فلا يخفى . . .[1] عاجلاً وآجلاً، وترك بيانه على تقدير كونه قاتلاً لظهوره وبين حاله على تقدير كونه مقتولاً. وثالثها: هو أنه تعالى لما قال: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ولا يبتلي الشيء النفيس بما يخاف منه هلاكه، فإن السيف المهند العضب الكبير القيمة لا يجرب بالشيء الصلب الذي يخاف عليه منه الانكسار، ولكن الآدمي مكرم كَرَّمه الله وشَرَّفه وعَظَّمه، فلماذا ابتلاه بالقتال وهو يفضي إلى القتل والهلاك إفضاء غير نادر، فكيف يحسن هذا الابتلاء؟ فنقول: القتل ليس بإهلاك بالنسبة إلى المؤمن فإنه يورث الحياة الأبدية، فإذا ابتلاه بالقتال فهو على تقدير أن يقتل مكرم، وعلى تقدير أن لا يقتل مكرم، هذا إن قاتل، وإن لم يقاتل فالموت لا بد منه وقد فوت على نفسه الأجر الكبير.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قد علم معنى الإضلال، بقي الفرق بين العبارتين في حق الكافر والضال قال: ﴿أَضَلَّ﴾ [محمد: ١] وقال في حق المؤمن الداعي: ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾ لأن المقاتل داع إلى الإيمان لأن قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قد ذكر أن معناه حتى لم يبق إثم بسبب حرب، وذلك حيث يُسْلم الكافر، فالمقاتل يقول: إما أن تُسْلم وإما أن تُقتل. فهو داع والكافر صاد، وبينهما تباين وتضاد فقال في حق الكافر (أضل) بصيغة الماضي، ولم يقل (يُضل) إشارة إلى أن عمله حيث وُجد عدم، وكأنه لم يوجد من أصله، وقال في حق المؤمن: (فلن يضل)، ولم يقل: (ما أضل) إشارة إلى أن عمله كلما ثبت عليه أثبت له، فلن يضل للتأبيد وبينهما غاية

(١) بياض قدر كلمة بالأصل.

الخلاف، كما أن بين الداعي والصادّ غاية التباين والتضاد، فإن قيل: ما معنى الفاء في قوله: ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾؟ جوابه لأن في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾ معنى الشرط.

قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝﴾

إن قرئ (قَتَلوا) أو (قاتلوا) فالهداية محمولة على الآجلة والعاجلة، وإن قرئ (قُتِلوا) فهو الآخرة (سَيَهْدِيهِمْ) طريق الجنة من غير وقفة من قبورهم إلى موضع حبورهم.

وقوله: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾.

قد تقدم تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢] والماضي والمستقبل راجع إلى أن هناك وعدهم ما وعدهم بسبب الإيمان والعمل الصالح، وذلك كان واقعًا منهم فأخبر عن الجزاء بصيغة تدل على الوقوع، وههنا وعدهم بسبب القتال والقتل، فكان في اللفظ ما يدل على الاستقبال؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ [محمد: ٤] يدل على الاستقبال فقال: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

وكأن الله تعالى عند حشرهم يهديهم إلى طريق الجنة، ويلبسهم في الطريق خلع الكرامة، وهو إصلاح البال ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ فهو على ترتيب الوقوع.

وأما قوله: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾. ففيه وجوه: أحدها: هو أن كل أحد يعرف منزلته ومأواه، حتى أن أهل الجنة يكونون أعرف بمنازلهم فيها من أهل الجمعة ينتشرون في الأرض كل أحد يأوي إلى منزله، ومنهم من قال: الملك الموكل بأعماله يهديه: الوجه الثاني: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي طَيَّبها، يقال: طعام معرف. الوجه الثالث: قال الزمخشري: يحتمل أن يقال: عَرَّفها لهم، حددها، مِن عرف الدار وأرفها، أي حددها، وتحديدها في قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ويحتمل أن يقال: المراد هو قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الزخرف: ٧٢] مشيرًا إليها معرفًا لهم بأنها هي تلك. وفيه وجه آخر: وهو أن يقال: معناه ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ قبل القتل فإن الشهيد قبل وفاته تُعرض عليه منزلته في الجنة فيشتاق إليها. ووجه ثان: معناه ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ ولا حاجة إلى وصفها فإنه تعالى: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ مرارًا ووصفها. ووجه ثالث: وهو من باب تعريف الضالة فإن الله تعالى لما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] فكأنه تعالى قال: من يأخذ الجنة ويطلبها بماله أو بنفسه فالذي قُتل سمع التعريف وبذل ما طُلب منه عليها فأدخلها.

ثم إنه تعالى لما بيّن ما على القتال من الثواب والأجر وعدهم بالنصر في الدنيا زيادة في الحث ليزداد منهم الإقدام فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وفي

نصر الله تعالى وجوه: الأول: إن تنصروا دين الله وطريقه. والثاني: إن تنصروا حزب الله وفريقه. الثالث: المراد نصرة الله حقيقة، فنقول: النصرة تحقيق مطلوب أحد المتعاديين عند الاجتهاد والأخذ في تحقيق علامته، فالشيطان عدو الله يجتهد في تحقيق الكفر وغلبة أهل الإيمان، والله يطلب قمع الكفر وإهلاك أهله وإفناء من اختار الإشراك بجهله، فمن حقق نصرة الله حيث حقق مطلوبه لا تقول حقق مراده فإن مراد الله لا يحققه غيره، ومطلوبه عند أهل السنة غير مراده فإنه طلب الإيمان من الكافر ولم يرده وإلا لوقع.

ثم قال: ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ فإن قيل: فعلام قلت: إذا نصر المؤمنين الله تعالى، فقد حقق ما طلبه، فكيف يحقق ما طلبه العبد وهو شيء واحد؟ فنقول: المؤمن ينصر الله بخروجه إلى القتال وإقدامه، والله ينصره بتقويته وتثبيت أقدامه، وإرسال الملائكة الحافظين له من خلفه وقدامه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

هذا زيادة في تقوية قلوبهم؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] جاز أن يتوهم أن الكافر أيضًا يصبر ويثبت للقتال فيدوم القتال والحراب والطعان والضراب، وفيه المشقة العظيمة، فقال تعالى: لكم الثبات ولهم الزوال والتغير والهلاك فلا يكون الثبات، وسببه ظاهر لأن آلهتهم جمادات لا قدرة لها ولا ثبات عند من له قدرة، فهي غير صالحة لدفع ما قدره الله تعالى عليهم من الدمار، وعند هذا لا بد عن زوال القدم والعثار، وقال في حق المؤمنين: ﴿وَيُثَبِّتْ﴾ بصيغة الوعد لأن الله تعالى لا يجب عليه شيء، وقال في حقهم بصيغة الدعاء، وهي أبلغ من صيغة الإخبار من الله لأن عثارهم واجب لأن عدم النصرة من آلهتهم واجب الوقوع إذ لا قدرة لها، والتثبيت من الله ليس بواجب الوقوع؛ لأنه قادر مختار يفعل ما يشاء.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ إشارة إلى بيان مخالفة موتاهم لقتلى المسلمين، حيث قال في حق قتلاهم: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤] وقال في موتى الكافرين: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

ثم بيّن الله تعالى سبب ما اختلفوا فيه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وفيه وجوه: الأول: المراد القرآن، ووجهه هو أن كيفية العمل الصالح لا تُعلم بالعقل وإنما تُدرك بالشرع والشرع بالقرآن، فلما أعرضوا لم يعرفوا العمل الصالح وكيفية الإتيان به، فأتوا بالباطل فأحبط أعمالهم. الثاني: ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من بيان التوحيد، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿أَجَعَلَ

لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الصافات: ٣٦] وقال تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ إلى أن قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٥ - ٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥] ووجهه أن الشرك محبط للعمل، قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وكيف لا والعمل من المشرك لا يقع لوجه الله، فلا بقاء له في نفسه ولا بقاء له ببقاء من له العمل؛ لأن ما سوى وجه الله تعالى هالك محبط. الثالث: ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من بيان أمر الآخرة فلم يعملوا لها، والدنيا وما فيها ومآلها باطل، فأحبط الله أعمالهم.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾. فيه مناسبة للوجه الثالث، يعني فينظروا إلى حالهم ويعلموا أن الدنيا فانية.

وقوله: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أهلك عليهم متاع الدنيا من الأموال والأولاد والأزواج والأجساد.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المراد: لهم أمثالها في الدنيا، وحينئذٍ يكون المراد من الكافرين هم الكافرون بمحمد عليه الصلاة والسلام. وثانيهما: أن يكون المراد لهم أمثالها في الآخرة، فيكون المراد من تقدم، كأنه يقول: دمر الله عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها. وفي العائد إليه ضمير المؤنث في قوله: ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ وجهان: أحدهما: هو المذكور وهو العاقبة. وثانيهما: هو المفهوم وهو العقوبة؛ لأن التدمير كان عقوبة لهم، فإن قيل: على قولنا المراد للكافرين بمحمد عليه السلام أمثال ما كان لمن تقدمهم من العاقبة يرد سؤال، وهو أن الأولين أُهلكوا بوقائع شديدة كالزلازل والنيران وغيرهما من الرياح والطوفان، ولا كذلك قوم محمد ﷺ. نقول: جاز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الأولين لكون دين محمد أظهر بسبب تقدم الأنبياء عليهم السلام عليه وإخبارهم عنه وإنذارهم به، على أنهم قُتلوا وأُسروا بأيدي من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم والقتل بيد المثل آلم من الهلاك بسبب عام. وسؤال آخر: إذا كان الضمير عائدًا إلى العاقبة فكيف يكون لها أمثال؟ قلنا: يجوز أن يقال: المراد العذاب الذي هو مدلول العاقبة أو الألم الذي كانت العاقبة عليه.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى النصر، وهو اختيار جماعة، ذكره الواحدي، ويحتمل وجهًا آخر أغرب من حيث النقل وأقرب من حديث العقل، وهو أنا لما بينا أن قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠] إشارة إلى أن قوم محمد عليه الصلاة والسلام أُهلكوا بأيدي أمثالهم الذين كانوا لا يرضون بمجالستهم، وهو آلم من الهلاك بالسبب العام، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الإهلاك والهوان بسبب أن الله تعالى ناصر المؤمنين، والكافرون اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضر، وتركوا الله فلا ناصر لهم، ولا شك أن من ينصره الله تعالى يقدر على القتل والأسر وإن كان له ألف ناصر فضلاً عن أن يكون لا ناصر لهم، فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿لَا مَوْلَىٰ

لَهُمْ﴾ وبين قوله: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]نقول: المولى ورد بمعنى السيد والرب والناصر، فحيث قال: ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أراد لا ناصر لهم، وحيث قال: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي ربهم ومالكهم، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]وقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]وفي الكلام تباين عظيم بين الكافر والمؤمن؛ لأن المؤمن ينصره الله وهو خير الناصرين، والكافر لا مولى له بصيغة نافية للجنس، فليس له ناصر وإنه شر الناصرين.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

لما بيّن الله تعالى حال المؤمنين والكافرين في الدنيا، بيّن حالهم في الآخرة وقال: إنه يُدخل المؤمن الجنة والكافر النار.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: كثيرًا ما يقتصر الله على ذكر الأنهار في وصف الجنة؛ لأن الأنهار يتبعها الأشجار والأشجار تتبعها الثمار، ولأنه سبب حياة العالم، والنار سبب الإعدام، وللمؤمن الماء ينظر إليه وينتفع به، وللكافر النار يتقلب فيها ويتضرر بها.

المسألة الثانية: ذكرنا مرارًا أن (مِن) في قوله: ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يحتمل أن يكون صلة معناه تجري تحتها الأنهار، ويحتمل أن يكون المراد أن ماءها منها لا يجري إليها من موضع آخر، فيقال: هذا النهر منبعه من أين؟ يقال: من عين كذا، من تحت جبل كذا.

المسألة الثالثة: قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ خصهم بالذكر مع أن المؤمن أيضًا له التمتع بالدنيا وطيباتها، نقول: من يكون له مُلك عظيم ويملك شيئًا يسيرًا أيضًا لا يُذكر إلا بالمُلك العظيم، يقال في حق الملك العظيم: صاحب الضيعة الفلانية. ومن لا يملك إلا شيئًا يسيرًا فلا يُذكر إلا به، فالمؤمن له ملك الجنة فمتاع الدنيا لا يُلتفت إليه في حقه والكافر ليس له إلا الدنيا، ووجه آخر: الدنيا للمؤمن سجن كيف كان، ومن يأكل في السجن لا يقال إنه يتمتع، فإن قيل: كيف تكون الدنيا سجنًا مع ما فيها من الطيبات؟ نقول: للمؤمن في الآخرة طيبات معدة وإخوان مكرمون، نسبتها ونسبتهم إلى الدنيا ومن فيها تتبين بمثال، وهو أن من يكون له بستان فيه من كل الثمرات الطيبة في غاية اللذة وأنهار جارية في غاية الصفاء ودور وغرف في غاية الرفعة وأولاده فيها، وهو قد غاب عنهم سنين ثم توجه إليهم وهم فيها، فلما قرب منهم عُوق في أجمة فيها من بعض الثمار العفصة والمياه الكدرة، وفيها سباع وحشرات كثيرة، فهل يكون حاله فيها كحال مسجون في بئر مظلمة وفي بيت خراب أم لا؟ وهل يجوز أن يقال له: اترك ما هو لك وتعلل بهذه الثمار وهذه الأنهار أم لا؟

كذلك حال المؤمن، وأما الكافر فحاله كحال مَن يُقدم إلى القتل فيصبر عليه أيامًا في مثل

تلك الأجمة التي ذكرناها يكون في جنة، ونسبة الدنيا إلى الجنة والنار دون ما ذكرنا من المثال، لكنه ينبئ ذا البال عن حقيقة الحال.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن الأنعام يهمها الأكل لا غير والكافر كذلك، والمؤمن يأكل ليعمل صالحًا ويقوى عليه. وثانيها: الأنعام لا تستدل بالمأكول على خالقها والكافر كذلك. وثالثها: الأنعام تُعلف لتسمن وهي غافلة عن الأمر، لا تعلم أنها كلما كانت أسمن كانت أقرب إلى الذبح والهلاك، وكذلك الكافر، ويناسب ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

المسألة الرابعة: قال في حق المؤمن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ﴾ بصيغة الوعد، وقال في حق الكافر: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ بصيغة تنبئ عن الاستحقاق لما ذكرنا أن الإحسان لا يستدعي أن يكون عن استحقاق، فالمحسن إلى من لم يوجد منه ما يوجب الإحسان كريم، والمُعذِّب من غير استحقاق ظالم.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

لما ضرب الله تعالى لهم مثلاً بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [محمد: ١٠] ولم ينفعهم مع ما تقدم من الدلائل، ضرب للنبي عليه السلام مثلاً تسلية له فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ وكانوا أشد من أهل مكة كذلك نفعل بهم، فاصبر كما صبر رسلهم، وقوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ قال الزمخشري: كيف قوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ مع أن الإهلاك ماضٍ، وقوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ للحال والاستقبال؟ والجواب أنه محمول على الحكاية والحكاية كالحال الحاضر، ويحتمل أن يقال: أهلكناهم في الدنيا فلا ناصر لهم ينصرهم ويخلصهم من العذاب الذي هم فيه، ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ عائد إلى أهل قرية محمد عليه السلام، كأنه قال: أهلكنا من تقدم أهل قريتك، ولا ناصر لأهل قريتك ينصرهم ويخلصهم مما جرى على الأولين.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

اعلم أن هذا إشارة إلى الفرق بين النبي عليه السلام والكفار؛ ليعلم أن إهلاك الكفار ونصرة النبي عليه السلام في الدنيا محقق، وأن الحال يناسب تعذيب الكافر وإثابة المؤمن، وقوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ فرق فارق، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مكمل له، وذلك أن البينة إذا كانت نظرية تكون كافية للفرق بين المتمسك بها وبين القائل قولاً لا دليل عليه، فإذا كانت البينة منزلة من الله تعالى تكون أقوى وأظهر فتكون أعلى وأبهر، ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ليس المراد إنزالها منه بل المراد كونها من الرب بمعنى قوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١] وقولنا: الهداية

من الله، وكذلك قوله تعالى: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فرق فارق، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ تكملة، وذلك أن مَن زُين له سوء عمله وراجت الشبهة عليه في مقابلة من يتبين له البرهان وقَبِله، لكن من راجت الشبهة عليه قد يتفكر في الأمر ويرجع إلى الحق، فيكون أقرب إلى من هو على البرهان، وقد يتبع هواه ولا يتدبر في البرهان ولا يتفكر في البيان، فيكون في غاية البعد، فإذن حصل النبي ﷺ والمؤمن مع الكافر في طرفي التضاد وغاية التباعد حتى مدهم بالبينة، والكافر له الشبهة وهو مع الله وأولئك مع الهوى وعلى قولنا: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ معناه الإضافة إلى الله، كقولنا الهداية من الله، فقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ مع ذلك القول يفيد معنى قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] وقوله: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ بصيغة التوحيد محمول على لفظة (مَن)، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ محمول على معناه فإنها للجميع والعموم، وذلك لأن التزيين للكل على حد واحد فحمل على اللفظ لقربه منه في الحس والذكر، وعند اتباع الهوى كل أحد يتبع هوى نفسه، فظهر التعدد فحُمل على المعنى.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

لما بيّن الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال، بيّن الفرق بينهما في مرجعهما ومآلهما، وكما قَدَّم من على البينة في الذكر على من اتبع هواه، قدَّم حاله في مآله على حال من هو بخلاف حاله.

وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ يستدعي أمرًا يُمثل به فما هو؟ نقول: فيه وجوه:
الأول: قول سيبويه حيث قال: المثل هو الوصف، معناه وصف الجنة، وذلك لا يقتضي ممثلاً به، وعلى هذا ففيه احتمالان: أحدهما: أن يكون الخبر محذوفًا ويكون ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مبتدأ تقديره فيما قصصناه مثل الجنة، ثم يستأنف ويقول: ﴿فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ﴾، وكذلك القول في سورة الرعد يكون قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [الرعد: ٣٥] ابتداء بيان. والاحتمال الثاني: أن يكون فيها أنهار وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ خبرًا كما يقال: صف لي زيدًا، فيقول القائل: زيد أحمر قصير. والقول الثاني: أن المثل زيادة، والتقدير: الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار.
الوجه الثاني: هاهنا الممثل به محذوف غير مذكور وهو يحتمل قولين: أحدهما: قال الزجاج حيث قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ جنة تجري ﴿فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ﴾ كما يقال مثل زيد رجل طويل أسمر، فيذكر

عين صفات زيد في رجل منكر لا يكون هو في الحقيقة إلا زيدًا. الثاني من القولين: هو أن يقال: معناه ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مثل عجيب، أو شيء عظيم أو مثل ذلك، وعلى هذا يكون قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ كلامًا مستأنفًا محققًا لقولنا مثل عجيب. الوجه الثالث: الممثل به مذكور، وهو قول الزمخشري حيث قال: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ مشبه به على طريقة الإنكار، وحينئذٍ فهذا كقول القائل: حركات زيد أو أخلاقه كعمرو، وكذلك على أحد التأويلين، إما على تأويل كحركات عمرو أو على تأويل زيد في حركاته كعمرو، وكذلك هاهنا كأنه تعالى قال: مثل الجنة كمن هو خالد في النار، وهذا أقصى ما يمكن أن يقرر به قول الزمخشري، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ وما بعد هذا جمل اعتراضية وقعت بين المبتدأ والخبر، كما يقال: نظير زيد فيه مروءة وعنده علم وله أصل عمرو.

ثم قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

اختار الأنهار من الأجناس الأربعة، وذلك لأن المشروب إما أن يُشرب لطعمه، وإما أن يُشرب لأمر غير عائد إلى الطعم، فإن كان للطعم فالطعوم تسعة: المر والمالح والحريف والحامض والعفص والقابض والتفه والحلو والدسم، ألذها الحلو والدسم، لكن أحلى الأشياء العسل فذكره وأما أدسم الأشياء فالدهن، لكن الدسومة إذا تمحضت لا تطيب للأكل ولا للشرب، فإن الدهن لا يؤكل ولا يُشرب كما هو في الغالب، وأما اللبن فيه الدسم الكائن في غيره وهو طيب للأكل وبه تغذية الحيوان أولاً، فذكره الله تعالى. وأما ما يشرب لا لأمر عائد إلى الطعم فالماء والخمر، فإن الخمر فيها أمر يشربها الشارب لأجله، هي كريهة الطعم باتفاق من يشربها وحصول التواتر به. ثم عرى كل واحد من الأشياء الأربعة عن صفات النقص التي هي فيها وتتغير بها في الدنيا فالماء يتغير يقال: أسِن الماء يأسَن على وزن أمِن يأمَن فهو آسن، وأسن اللبن إذا بقي زمانًا تغير طعمه، والخمر يكرهه الشارب عند الشرب، والعسل يشوبه أجزاء من الشمع ومن النحل يموت فيه كثيرًا، ثم إن الله تعالى خلط الجنسين فذكر الماء الذي يُشرب لا للطعم وهو عام الشرب، وقرن به اللبن الذي يُشرب لطعمه وهو عام الشرب إذ ما من أحد إلا وكان شربه اللبن، ثم ذكر الخمر الذي يُشرب لا للطعم وهو قليل الشرب، وقرن به العسل الذي يُشرب للطعم وهو قليل الشرب، فإن قيل العسل لا يشرب، نقول: شراب الجلاب لم يكن إلا من العسل والسكر قريب الزمان، ألا ترى أن السكنجبين من «سركه وانكبين» وهو الخل والعسل بالفارسية، كما أن استخراجه كان أولاً من الخل والعسل ولم يعرف السكر إلا في زمان متأخر، ولأن العسل اسم يطلق على غير عسل النحل حتى يقال عسل النحل للتمييز، والله أعلم.

المسألة الثانية: قال في الخمر: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ولم يقل في اللبن: لم يتغير طعمه للطاعمين ولا قال في العسل مصفى للناظرين؛ لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص فرُب طعام يلتذ به

شخص ويعافه الآخر، فقال: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ بأسرهم، ولأن الخمر كريهة الطعم فقال: ﴿لَذَّةٍ﴾ أي لا يكون في خمر الآخرة كراهة الطعم، وأما الطعم واللون فلا يختلفان باختلاف الناس، فإن الحلو والحامض وغيرهما يدركه كل أحد كذلك، لكنه قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على أن له طعمًا واحدًا، وكذلك اللون فلم يكن إلى التصريح بالتعميم حاجة، وقوله: ﴿لَذَّةٍ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون تأنيث لذ يقال طعام لذ ولذيذ وأطعمة لذة ولذيذة. وثانيهما: أن يكون ذلك وصفًا بنفس المعنى لا بالمشتق منه كما يقال للحليم: هو حلم كله هو عقل كله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

بعد ذكر المشروب أشار إلى المأكول، ولما كان في الجنة الأكل للذة لا للحاجة، ذكر الثمار فإنها تؤكل للذة بخلاف الخبز واللحم، وهذا كقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] حيث أشار إلى المأكول والمشروب، وهاهنا لطيفة وهي أنه تعالى قال فيها: ﴿وَظِلُّهَا﴾ ولم يقل ههنا ذلك، نقول قال هاهنا: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ والظل فيه معنى الستر والمغفرة كذلك، ولأن المغفور تحت نظر من رحمة الغافر يقال: نحن تحت ظل الأمير، وظلها هو رحمة الله ومغفرته حيث لا يمسهم حر ولا برد.

المسألة الثالثة: المتقي لا يدخل الجنة إلا بعد المغفرة، فكيف يكون لهم فيها مغفرة؟ فنقول: الجواب عنه من وجهين: الأول: ليس بلازم أن يكون المعنى لهم مغفرة من ربهم فيها، بل يكون عطفًا على قوله: (لَهُمْ) كأنه تعالى قال: لهم الثمرات فيها ولهم المغفرة قبل دخولها. والثاني: هو أن يكون المعنى: لهم فيها مغفرة، أي رُفع التكليف عنهم فيأكلون من غير حساب بخلاف الدنيا فإن الثمار فيها على حساب أو عقاب، ووجه آخر: وهو أن الآكل في الدنيا لا يخلو عن استنتاج قبيح أو مكروه كمرض أو حاجة إلى تبرز، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ﴾ لا قبيح على الآكل بل مستور القبائح مغفور، وهذا استفدته من المعلمين في بلادنا، فإنهم يعودون الصبيان بأن يقولون وقت حاجتهم إلى إراقة البول وغيره: يا معلم غفر الله لك. فيفهم المعلم أنهم يطلبون الإذن في الخروج لقضاء الحاجة فيأذن لهم؛ فقلت في نفسي معناه: هو أن الله تعالى في الجنة غفر لمن أكل، وأما في الدنيا، فلأن للأكل توابع ولوازم لا بد منها فيفهم من قولهم حاجتهم.

ثم قال تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ **وفيه أيضا مسائل:**

المسألة الأولى: على قول من قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ معناه وصف الجنة، فقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ﴾ بماذا يتعلق؟ نقول: قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يتضمن كونهم فيها فكأنه قال: هو فيها كمن هو خالد في النار، فالمشبه يكون محذوفًا مدلولاً عليه بما سبق، ويحتمل أن يقال ما قيل في تقرير قول الزمخشري أن المراد هذه الجنة التي مثلها ما ذكرنا كمقام من هو خالد في النار.

المسألة الثانية: قال الزجاج: قوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ راجع إلى ما تقدم، كأنه تعالى قال: أفمن كان على بينة من ربه كمن زُين له سوء عمله وهو خالد في النار فهل هو صحيح أم لا؟ نقول: لنا نظر إلى اللفظ فيمكن تصحيحه بتعسف ونظر إلى المعنى لا يصح إلا بأن يعود إلى ما ذكرناه، أما التصحيح فبحذف (كمن) في المرة الثانية أو جعله بدلاً عن المتقدم أو بإضمار عاطف يعطف ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ﴾ على ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أو ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾، وأما التعسف فبيّن نظرًا إلى الحذف وإلى الإضمار مع الفاصل الطويل بين المشبه والمشبه به، وأما طريقة البدل ففاسدة وإلا لكان الاعتماد على الثاني، فيكون كأنه قال: أفمن كان على بينة كمن هو خالد؟ وهو سمج في التشبيه تعالى كلام الله عن ذلك، والقول في إضمار العاطف كذلك لأن المعطوف أيضًا يصير مستقلاً في التشبيه، اللّهم إلا أن يقال: المجموع بالمجموع، كأنه يقول: أفمن كان على بينة من ربه، وهو في الجنة التي وُعد المتقون فيها أنهار، كمن زُين له سوء عمله وهو خالد في النار، وعلى هذا تقع المقابلة بين من هو على بينة من ربه، وبين من زين له سوء عمله، وبين من في الجنة وبين من هو خالد في النار، وقد ذكرناه فلا حاجة إلى خلط الآية بالآية، وكيف وعلى ما قاله تقع المقابلة بين من هو في النار وسقوا ماءً حميمًا وبين من هو على بينة من ربه وأية مناسبة بينهما؟ بخلاف ما ذكرناه من الوجوه الأخر، فإن المقابلة بين الجنة التي فيها الأنهار وبين النار التي فيها الماء الحميم وذلك تشبيه إنكار مناسب.

المسألة الثالثة: قال: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ﴾ حملاً على اللفظ الواحد وقال: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ على المعنى وهو جمع، وكذلك قال من قبل: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾[محمد: ١٤] على التوحيد والإفراد ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ على الجمع فما الوجه فيه؟ نقول: المسند إلى (مَن) إذا كان متصلاً فرعاية اللفظ أَوْلى لأنه هو المسموع، وإذا كان مع انفصال فالعود إلى المعنى أولى؛ لأن اللفظ لا يبقى في السمع، والمعنى يبقى في ذهن السامع، فالحمل في الثاني على المعنى أَوْلى وحمل الأول على اللفظ أولى، فإن قيل: كيف قال في سائر المواضع: ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[سبأ: ٣٧] و﴿فَمَن تَابَ﴾ . . . ﴿وَأَصْلَحَ﴾[المائدة: ٣٩] ؟ نقول: إذا كان المعطوف مفردًا أو شبيهًا بالمعطوف عليه في المعنى فالأَوْلى أن يختلفا كما ذكرت فإنه عطف مفرد على مفرد، وكذلك لو قال: كمن هو خالد في النار ومعذب فيها؛ لأن المشابهة تنافي المخالفة، وأما إذا لم يكن كذلك كما في هذا الموضع، فإن قوله: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً﴾ جملة غير مشابهة لقوله: ﴿هُوَ خَٰلِدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ بيان لمخالفتهم في سائر أحوال أهل الجنة فلهم أنهار من ماء غير آسن، ولهم ماء حميم، فإن قيل: المشابهة الإنكارية بالمخالفة على ما ثبت، وقد ذكرت البعض وقلت بأن قوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ في مقابلة ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ و﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ في مقابلة قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ والجنة في مقابلة النار في قوله: ﴿خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ والماء الحميم في مقابلة الأنهار، فأين ما يقابل قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ﴾ فنقول: تقطع الأمعاء في مقابلة

مغفرة لأنا بينا على أحد الوجوه أن المغفرة التي في الجنة هي تعرية أكل الثمرات عما يلزمه من قضاء الحاجة والأمراض وغيرها، كأنه قال: للمؤمن أكل وشرب مطهر طاهر، لا يجتمع في جوفهم فيؤذيهم ويحوجهم إلى قضاء حاجة، وللكافر ماء حميم في أول ما يصل إلى جوفهم يقطع أمعاءهم ويشتهون خروجه من جوفهم، وأما الثمار فلم يذكر مقابلها؛ لأن في الجنة زيادة مذكورة فحققها بذكر أمر زايد.

المسألة الرابعة: الماء الحار يقطع أمعاءهم لأمر آخر غير الحرارة، وهي الحدة التي تكون في السموم المدوفة، وإلا فمجرد الحرارة لا يقطع، فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَقَطَّعَ﴾ بالفاء يقتضي أن يكون القطع بما ذكر، نقول: نعم، لكنه لا يقتضي أن يقال: يقطع؛ لأنه ماء حميم فحسب، بل ماء حميم مخصوص يقطع.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

لما بيّن الله تعالى حال الكافر ذكر حال المنافق بأنه من الكفار، وقوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ يحتمل أن يكون الضمير عائدًا إلى الناس، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨] بعد ذكر الكفار، ويحتمل أن يكون راجعًا إلى أهل مكة؛ لأن ذكرهم سبق في قوله تعالى: ﴿هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ [محمد: ١٣] ويحتمل أن يكون راجعًا إلى معنى قوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ [محمد: ١٥] يعني ومن الخالدين في النار قوم يستمعون إليك، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ على ما ذكرنا حمل على المعنى الذي هو الجمع، و(يستمع) حمل على اللفظ، وقد سبق التحقيق فيه، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ للعطف في قول المفسرين، وعلى هذا فالعطف بحتى لا يحسن إلا إذا كان المعطوف جزءًا من المعطوف عليه إما أعلاه أو دونه، كقول القائل: أكرمني الناس حتى الملك، وجاء الحاج حتى المشاة. وفي الجملة ينبغي أن يكون المعطوف عليه من حيث المعنى، ولا يشترط في العطف بالواو ذلك، فيجوز أن تقول في الواو: جاء الحاج وما علمت، ولا يجوز مثل ذلك في حتى، إذا علمت هذا فوجه التعلق هاهنا هو أن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ يفيد معنى زائدًا في الاستماع كأنه يقول: يستمعون استماعًا بالغًا جيدًا؛ لأنهم يستمعون، وإذا خرجوا يستعيدون من العلماء كما يفعله المجتهد في التعلم الطالب للتفهم، فإن قلت: فعلى هذا يكون هذا صفة مدح لهم، وهو ذكرهم في معرض الذم، نقول: يتميز بما بعده، وهو أحد أمرين: إما كونهم بذلك مستهزئين، كالذكي يقول للبليد: أعد كلامك حتى أفهمه، ويرى في نفسه أنه مستمع إليه غاية الاستماع، وكل أحد يعلم أنه مستهزئ غير مستفيد ولا مستعيد، وإما كونهم لا يفهمون مع أنهم يستمعون

ويستعيدون، ويناسب هذا الثاني قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]، والأول يؤكده قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. والثاني: يؤكده قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤] وقوله: ﴿ءَانِفًا ۚ﴾ قال بعض المفسرين: معناه الساعة، ومنه الاستئناف وهو الابتداء، فعلى هذا فالأَوْلى أن يقال: يقولون: ماذا قال آنفًا، بمعنى أنهم يستعيدون كلامه من الابتداء، كما يقول المستعيد للمعيد: أعد كلامك من الابتداء حتى لا يفوتني شيء منه.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

أي تركوا اتباع الحق إما بسبب عدم الفهم، أو بسبب عدم الاستماع للاستفادة، واتبعوا ضده.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

لما بيّن الله تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع، ويستعيد ولا يستفيد، بَيَّن أن حال المؤمن المهتدي بخلافه، فإنه يستمع فيفهم، ويعمل بما يعلم، والمنافق يستعيد، والمهتدي يفسر ويعيد، وفيه فائدتان: إحداهما: ما ذكرنا من بيان التباين بين الفريقين. وثانيهما: قطع عذر المنافق وإيضاح كونه مذموم الطريقة، فإنه لو قال: ما فهمته لغموضه وكونه معمى، يرد عليه ويقول: ليس كذلك، فإن المهتدي فهم واستنبط لوازمه وتوابعه، فذلك لعماء القلوب لا لخفاء المطلوب.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الفاعل للزيادة في قوله: ﴿زَادَهُمْ﴾؟ نقول: فيه وجوه: الأول: المسموع من النبي عليه الصلاة والسلام من كلام الله وكلام الرسول، يدل عليه قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [محمد: ١٦] فإنه يدل على مسموع، والمقصود بيان التباين بين الفريقين، فكأنه قال: هم لم يفهموه، وهؤلاء فهموه. والثاني: أن الله تعالى زادهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [محمد: ١٦] وكأنه تعالى طبع على قلوبهم فزادهم عمى، والمهتدين زاده هدًى. والثالث: استهزاء المنافق زاد المهتدي هدى، ووجهه أنه تعالى لما قال: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ﴾ اتباعهم الهدى هدى، فإنهم استقبحوا فعلهم فاجتنبوه.

المسألة الثانية: ما معنى قوله: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾؟ نقول: فيه وجوه منقولة ومستنبطة:

أما المنقولة فنقول: قيل فيه: إن المراد آتاهم ثواب تقواهم، وقيل: آتاهم نفس تقواهم من غير إضمار، يعني بيّن لهم التقوى، وقيل: آتاهم توفيق العمل بما علموا.

وأما المستنبط فنقول: يحتمل أن يكون المراد به بيان حال المستمعين للقرآن الفاهمين لمعانيه المفسرين له بيانًا لغاية الخلاف بين المنافق، فإنه استمع ولم يفهمه، ستعاد ولم يعلمه، والمهتدي فإنه علمه وبَيَّنه لغيره، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ ولم يقل اهتداء، والهدى مصدر من هدى، قال الله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] أي خذ بما هدوا واهتدِ

كما هدوا، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ معناه جَنَّبهم عن القول في القرآن بغير برهان، وحَمَلهم على الاتقاء من التفسير بالرأي، وعلى هذا فقوله: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ معناه كانوا مهتدين فزادهم على الاهتداء هدى، حتى ارتقوا من درجة المهتدين إلى درجة الهادين.

ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ إشارة إلى العلم ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ إشارة إلى الأخذ بالاحتياط فيما لم يعلموه، وهو مستنبط من قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] وقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

المعنى الثالث: يحتمل أن يكون المراد بيان أن المخلص على خطر فهو أخشى من غيره، وتحقيقه هو أنه لما قال: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ أفاد أنهم ازداد علمهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] فقال آتاهم خشيتهم التي يفيدها العلم.

والمعنى الرابع: تقواهم من يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان: ٣٣] ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ [محمد: ١٨] كأن ذكر الساعة عقيب التقوى يدل عليه.

المعنى الخامس: آتاهم تقواهم، التقوى التي تليق بالمؤمن، وهي التقوى التي لا يخاف معها لومة لائم.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] وهذا الوجه مناسب لأن الآية لبيان تباين الفريقين، وهذا يحقق ذلك، من حيث إن المنافق كان يخشى الناس وهم الفريقان، المؤمنون والكافرون، فكان يتردد بينهما ويرضي الفريقين ويُسخط الله، فقال الله تعالى: المؤمن المهتدي بخلاف المنافق حيث علم ذاك ولم يعلم ذلك، واتقى الله لا غير واتقى ذلك غير الله.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

يعني الكافرون والمنافقون لا ينظرون إلا الساعة، وذلك لأن البراهين قد صحت والأمور قد اتضحت وهم لم يؤمنوا فلا يتوقع منهم الإيمان إلا عند قيام الساعة، وهو من قبيل بدل الاشتمال على تقدير: لا ينظرون إلا الساعة إتيانها بغتة، وقرئ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِهِمْ﴾ على الشرط وجزاؤه لا ينفعهم ذكراهم، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾، وقد ذكرنا أن القيامة سميت بالساعة لساعة الأمور الواقعة فيها من البعث والحشر والحساب.

وقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: لبيان غاية عنادهم، وتحقيقه هو أن

الدلائل لما ظهرت ولم يؤمنوا لم يبق إلا إيمان اليأس وهو عند قيام الساعة، لكن أشراطها بانت فكان ينبغي أن يؤمنوا ولم يؤمنوا فهم في لجة الفساد وغاية العناد. ثانيهما: يكون لتسلية قلوب المؤمنين كأنه تعالى لما قال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ فُهم منه تعذيبهم والساعة عند العوام مستبطأة فكأن قائلاً قال: متى الساعة؟ فقد جاء أشراطها، كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] والأشراط العلامات، قال المفسرون: هي مثل انشقاق القمر ورسالة محمد عليه السلام، ويحتمل أن يقال: معنى الأشراط: البينات الموضحة لجواز الحشر، مثل خلق الإنسان ابتداء وخلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١] والأول هو التفسير.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ يعني لا تنفعهم الذكرى إذ لا تُقبل التوبة ولا يُحسب الإيمان، والمراد فكيف لهم الحال إذا جاءتهم ذكراهم، ومعنى ذلك يحتمل أن يكون هو قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢١] فيذكرون به للتحسر، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١].

ثم قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ **ولبيان المناسبة وجوه:**

الأول: هو أنه تعالى لما قال: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨] قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يأتي بالساعة، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨].

وثانيها: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ وهي آتية، فكأن قائلاً قال: متى هذا؟ فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فلا تشتغل به واشتغل بما عليك من الاستغفار، وكن في أي وقت مستعدًّا للقائها، ويناسبه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

الثالث: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ينفعك، فإن قيل: النبي عليه الصلاة والسلام كان عالمًا بذلك فما معنى الأمر؟! نقول عنه من وجهين: أحدهما: فاثبت على ما أنت عليه من العلم، كقول القائل لجالس يريد القيام: اجلس، أي لا تقم. ثانيهما: الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام، والمراد قومه، والضمير في (أنه) للشأن، وتقدير هذا هو أنه عليه السلام لما دعا القوم إلى الإيمان ولم يؤمنوا ولم يبق شيء يحملهم على الإيمان إلا ظهور الأمر بالبعث والنشور، وكان ذلك مما يحزن النبي عليه الصلاة والسلام، فسلى قلبه وقال: أنت كامل في نفسك مكمل لغيرك فإن لم يكمل بك قوم لم يُرد الله تعالى بهم خيرًا، فأنت في نفسك عامل بعلمك وعلمك حيث تعلم أن الله واحد وتستغفر، وأنت بحمد الله مكمل وتكمل المؤمنين والمؤمنات وأنت تستغفر لهم، فقد حصل لك الوصفان، فاثبت على ما أنت عليه ولا يحزنك كفرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون الخطاب معه والمراد

المؤمنون، وهو بعيد لإفراد المؤمنين والمؤمنات بالذكر. وقال بعض الناس ﴿لِذَنۢبِكَ﴾ أي لذنب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات، أي الذين ليسوا منك بأهل بيت. وثانيهما: المراد هو النبي والذنب هو ترك الأفضل الذي هو بالنسبة إليه ذنب وحاشاه من ذلك. وثالثها: وجه حسن مستنبط وهو أن المراد توفيق العمل الحسن واجتناب العمل السيئ، ووجهه أن الاستغفار طلب الغفران، والغفران هو الستر على القبيح، ومن عُصم فقد سُتر عليه قبائح الهوى، ومعنى طلب الغفران أن لا تفضحنا وذلك قد يكون بالعصمة منه فلا يقع فيه كما كان للنبي ﷺ وقد يكون بالستر عليه بعد الوجود كما هو في حق المؤمنين والمؤمنات، وفي هذه الآية لطيفة وهي أن النبي ﷺ له أحوال ثلاثة حال مع الله وحال مع نفسه وحال مع غيره، فأما مع الله فوَحّده، وأما مع نفسك فاستغفر لذنبك واطلب العصمة من الله، وأما مع المؤمنين فاستغفر لهم واطلب الغفران لهم من الله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ يعني حالكم في الدنيا وفي الآخرة، وحالكم في الليل والنهار.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾

لما بيّن الله حال المنافق والكافر والمهتدي المؤمن عند استماع الآيات العلمية من التوحيد والحشر وغيرهما بقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ [محمد: ١٦] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧] بيّن حالهم في الآيات العملية، فإن المؤمن كان ينتظر ورودها ويطلب تنزيلها وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول: (هلا أُمرت بشيء من العبادة) خوفًا من أن لا يؤهل لها، والمنافق إذا نزلت السورة أو الآية وفيها تكليف، شق عليه، ليعلم تباين الفريقين في العلم والعمل، حيث لا يفهم المنافق العلم ولا يريد العمل، والمؤمن يعلم ويحب العمل. وقولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾ المراد منه سورة فيها تكليف بممتحن المؤمن والمنافق. ثم إنه تعالى أنزل سورة فيها القتال فإنه أشق تكليف.

وقوله: ﴿سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ﴾ فيها وجوه: أحدها: سورة لم تنسخ. ثانيها: سورة فيها ألفاظ أُريدت حقائقها، بخلاف قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقوله: ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] فإن قوله تعالى: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤] أراد القتل وهو أبلغ من قوله: ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٩١] وقوله: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ [النساء: ٩١] صريح وكذلك غير هذا من آيات القتال، وعلى الوجهين فقوله: ﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ فيها فائدة زائدة من حيث إنهم لا يمكنهم أن يقولوا المراد غير ما يظهر منه، أو يقولوا هذه آية قد نسخت فلا نقاتل. وقوله: ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي

المنافقين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ لأن عند التكليف بالقتال لا يبقى لنفاقهم فائدة، فإنهم قبل القتال كانوا يترددون إلى القبيلتين، وعند الأمر بالقتال لم يبق لهم إمكان ذلك ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ دعاء، كقول القائل: فويلٌ لهم، ويحتمل أن يكون هو خبر لمبتدأ محذوف سبق ذكره وهو الموت، كأن الله تعالى لما قال: ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ قال: فالموت أولى لهم؛ لأن الحياة التي لا في طاعة الله ورسوله الموت خير منها، وقال الواحدي: يجوز أن يكون المعنى: فأَوْلى لهم طاعة، أي الطاعة أَوْلى لهم.

ثم قال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

كلام مستأنف محذوف الخبر تقديره: (خير لهم) أي أحسن وأمثل، لا يقال: (طاعة) نكرة لا تصلح للابتداء؛ لأنا نقول: هي موصوفة بدل عليه قوله: ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ فإنه موصوف فكأنه تعالى قال: ﴿طَاعَةٌ﴾ مخلصة ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ خير، وقيل: معناه قالوا: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي قولهم أمرنا ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ ويدل عليه قراءة أُبي (يقولون طاعة وقول معروف).

وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

جوابه محذوف تقديره: فإذا عزم الأمر خالفوا وتخلفوا، وهو مناسب لمعنى قراءة أُبي، كأنه يقول: في أول الأمر قالوا سمعًا وطاعة، وعند آخر الأمر خالفوا وأخلفوا موعدهم، ونسب العزم إلى الأمر والعزم لصاحب الأمر معناه: فإذا عزم صاحب الأمر. هذا قول الزمخشري، ويحتمل أن يقال: هو مجاز كقولنا: (جاء الأمر وولّى) فإن الأمر في الأولْ يتوقع أن لا يقع وعند إظلاله وعجز الكاره عن إبطاله فهو واقع فقال: (عَزَم) والوجهان متقاربان، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟﴾ فيه وجهان على قولنا المراد من قوله طاعة أنهم قالوا طاعة فمعناه: لو صدقوا في ذلك القول وأطاعوا ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وعلى قولنا ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ خير لهم وأحسن، فمعناه ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟﴾ في إيمانهم واتباعهم الرسول ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾.

وهذه الآية فيها إشارة إلى فساد قول قالوه، وهو أنهم كانوا يقولون: كيف نقاتل والقتل إفساد والعرب من ذوي أرحامنا وقبائلنا؟ فقال تعالى: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ لا يقع منكم إلا الفساد في الأرض فإنكم تقتلون من تقدرون عليه وتنهبونه والقتال واقع بينكم، أليس قتلكم البنات إفسادًا وقطعًا للرحم؟ فلا يصح تعللكم بذلك مع أنه خلاف ما أمر الله وهذا طاعة. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في استعمال (عسى) ثلاثة مذاهب: أحدها: الإتيان بها على صورة فعل ماضٍ معه فاعل، تقول: عسى زيد وعسينا وعسوا وعسيت وعسيتما وعسيتم وعست وعستا. والثاني: أن يؤتى بها على صورة فعل معه مفعول، تقول: عساه وعساهما وعساك وعساكما وعساي وعسانا. والثالث: الإتيان بها من غير أن يُقرن بها شيء تقول: عسى زيد يخرج وعسى أنت تخرج وعسى أنا أخرج. والكل له وجه وما عليه كلام الله أوجه، وذلك لأن عسى من

الأفعال الجامدة واقتران الفاعل بالفعل أَوْلى من اقتران المفعول لأن الفاعل كالجزء من الفعل ولهذا لم يجز فيه أربع متحركات في مثل قول القائل: نَصَرْت، وجُوز في مثل قولهم: نَصَرك ولأن كل فعل له فاعل سواء كان لازمًا أو متعديًا ولا كذلك المفعول به، فعسيت وعساك كعصيت وعصاك في اقتران الفاعل بالفعل والمفعول به، وأما قول من قال: عسى أنت تقوم وعسى أن أقوم، فدون ما ذكرنا للتطويل الذي فيه.

المسألة الثانية: الاستفهام للتقرير المؤكد، فإنه لو قال على سبيل الإخبار: ﴿عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ لكان للمخاطب أن ينكره فإذا قال بصيغة الاستفهام كأنه يقول: أنا أسألك عن هذا وأنت لا تقدر أن تجيب إلا بلا أو نعم، فهو مقرر عندك وعندي.

المسألة الثالثة: عسى للتوقع والله تعالى عالم بكل شيء فنقول فيه ما قلنا في (لعل)، وفي قوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾[الكهف: ٧] إن بعض الناس قال: يفعل بكم فعل المترجي والمبتلي والمتوقع. وقال آخرون: كل من ينظر إليهم يتوقع منهم ذلك ونحن قلنا: محمول على الحقيقة وذلك لأن الفعل إذا كان ممكنًا في نفسه فالنظر إليه غير مستلزم لأمر، وإنما الأمر يجوز أن يحصل منه تارة ولا يحصل منه أخرى، فيكون الفعل لذلك الأمر المطلوب على سبيل الترجي، سواء كان الفاعل يعلم حصول الأمر منه وسواء إن لم يكن يعلم، مثاله مَن نَصَب شبكة لاصطياد الصيد يقال: هو متوقع لذلك فإن حصل له العلم بوقوعه فيه بإخبار صادق أنه سيقع فيه أو بطريق أخرى، لا يخرج عن التوقع، غاية ما في الباب أن في الشاهد لم يحصل لنا العلم فيما نتوقعه فيظن أن عدم العلم لازم للمتوقع، وليس كذلك، بل المتوقع هو المنتظر لأمر ليس بواجب الوقوع نظرًا لذلك الأمر فحسب، سواء كان له به علم أو لم يكن. وقوله: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه من الولاية يعني إن أخذتم الولاية وصار الناس بأمركم، أفسدتم وقطعتم الأرحام. وثانيهما: هو من التولي الذي هو الإعراض وهذا مناسب لما ذكرنا، أي كنتم تتركون القتال وتقولون: فيه الإفساد وقطع الأرحام لكون الكفار أقاربنا. فلا يقع منكم إلا ذلك حيث تقاتلون على أدنى شيء كما كان عادة العرب الأُول، يؤكده قراءة علي عليه السلام (تُوُلِّيتم)، أي إن تولاكم ولاة ظلمة جفاة غشمة ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم معهم وقطعتم أرحامكم، والنبي عليه السلام لا يأمركم إلا بالإصلاح وصلة الأرحام، فلِمَ تتقاعدون عن القتال وتتباعدون في الضلال؟!

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾

إشارة لمن سبق ذكرهم من المنافقين أبعدهم الله عنه أو عن الخير، فأصمهم فلا يسمعون الكلام المستبين، وأعماهم فلا يتبعون الصراط المستقيم، وفيه ترتيب حسن، وذلك من حيث إنهم استمعوا الكلام العلمي ولم يفهموه فَهْم بالنسبة إليه صُم أصمهم الله، وعند الأمر بالعمل

تركوه وعللوا بكونه إفسادًا وقطعًا للرحم وهم كانوا يتعاطونه عند النهي عنه، فلم يروا حالهم عليه وتركوا اتباع النبي الذي يأمرهم بالإصلاح وصلة الأرحام، ولو دعاهم من يأمر بالإفساد وقطيعة الرحم لاتبعوه فَهُم عُمْي أعماهم الله، وفيه لطيفة: وهي أن الله تعالى قال: (أصمهم) ولم يقل أصم آذانهم، وقال: ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ ولم يقل أعماهم، وذلك لأن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار، والأذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام؛ لأن الأذن خُلقت وخُلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذي كما يؤذي الصوت القوي فقال: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ من غير ذكر الأذن، وقال: ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ مع ذكر العين لأن البصر ههنا بمعنى العين، ولهذا جمعه بالأبصار، ولو كان مصدرًا لما جُمع فلم يذكر الأذن إذ لا مدخل لها في الإصمام، والعين لها مدخل في الرؤية بل هي الكل، ويدل عليه أن الآفة في غير هذه المواضع لما أضافها إلى الأذن سماها وقرًا، كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]وقال: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧]والوقر دون الصم، وكذلك الطرش.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

ولنذكر تفسيرها في مسائل:

المسألة الأولى: لما قال الله تعالى: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣]كيف يمكنهم التدبر في القرآن؟ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ وهو كقول القائل للأعمى: أبصِر وللأصم اسمع؟ فنقول: الجواب عنه من ثلاثة أوجه مترتبة بعضها أحسن من البعض: الأول: تكليف ما لا يطاق جائز، والله أمر من علم أنه لا يؤمن بأن يؤمن، فكذلك جاز أن يعميهم ويذمهم على ترك التدبر. الثاني: أن قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ المراد منه الناس. الثالث: أن نقول: هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة، فإنه تعالى قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [محمد: ٢٣]أي أبعدهم عنه أو عن الصدق أو عن الخير أو غير ذلك من الأمور الحسنة ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم لا يتبعون طريق الإسلام، فإذن هم بين أمرين، إما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه؛ لأن الله تعالى لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق، والقرآن منهما الصنف الأعلى بل النوع الأشرف، وإما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة، تقديره: أفلا يتدبرون القرآن لكونهم ملعونين مبعودين، أم على قلوب أقفال فيتدبرون ولا يفهمون، وعلى هذا لا نحتاج أن نقول: (أم) بمعنى (بل)، بل هي على حقيقتها للاستفهام واقعة في وسط الكلام والهمزة أخذت مكانها وهو الصدر، وأم دخلت على القلوب التي في وسط الكلام.

المسألة الثانية: قوله ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ على التنكير ما الفائدة فيه؟ نقول: قال الزمخشري: يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون للتنبيه على كونه موصوفًا لأن النكرة بالوصف أَوْلى من المعرفة، فكأنه قال: أم على قلوب قاسية أو مظلمة. الثاني: أن يكون للتبعيض كأنه قال: أم على بعض

القلوب لأن النكرة لا تعم، تقول: جاءني رجال. فيفهم البعض وجاءني الرجال فيفهم الكل. ونحن نقول: التنكير للقلوب للتنبيه على الإنكار الذي في القلوب، وذلك لأن القلب إذا كان عارفًا كان معروفًا لأن القلب خُلق للمعرفة، فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف، وهذا كما يقول القائل في الإنسان المؤذي: هذا ليس بإنسان، هذا سبع؛ ولذلك يقال هذا ليس بقلب هذا حجر. إذا علم هذا فالتعريف إما بالألف واللام وإما بالإضافة، واللام لتعريف الجنس أو للعهد، ولم يمكن إرادة الجنس إذ ليس على كل قلب قفل، ولا تعريف العهد لأن ذلك القلب ليس ينبغي أن يقال له قلب، وأما بالإضافة بأن نقول على قلوب أقفالها وهي لعدم عود فائدة إليهم، كأنها ليست لهم. فإن قيل: فقد قال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ [الزمر: ٢٢] فنقول: الأقفال أبلغ من الختم فترك الإضافة لعدم انتفاعهم رأسًا.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالإضافة ولم يقل أقفال، كما قال: ﴿قُلُوبٍ﴾ لأن الأقفال كانت من شأنها فأضافها إليها كأنها ليست إلا لها، وفي الجملة لم يضف القلوب إليهم لعدم نفعها إياهم، وأضاف الأقفال إليها لكونها مناسبة لها، ونقول: أراد به أقفالاً مخصوصة هي أقفال الكفر والعناد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

إشارة إلى أهل الكتاب الذين تبين لهم الحق في التوراة بنعت محمد ﷺ وبعثه وارتدُّوا، أو إلى كل من ظهرت له الدلائل وسمعها ولم يؤمن، وهم جماعة منعهم حب الرياسة عن اتباع محمد عليه السلام وكانوا يعلمون أنه الحق ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ سَهَّل لهم ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ يعني قالوا: نعيش أيامًا ثم نؤمن به، وقرئ ﴿وَأُمْلِيَ لَهُمْ﴾ فإن قيل: الإملاء والإمهال وحَدُّ الآجال لا يكون إلا من الله، فكيف يصح قراءة من قرأ (وأملى لهم) فإن المملي حينئذٍ يكون هو الشيطان؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: جاز أن يكون المراد ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ الله، فيقف على ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ وثانيها: هو أن المسول أيضًا ليس هو الشيطان، وإنما أسند إليه من حيث إن الله قدر على يده ولسانه ذلك، فذلك الشيطان يمليهم ويقول لهم: في آجالكم فسحة فتمتعوا برياستكم ثم في آخر الأمر تؤمنون، وقرئ: (وأمليَ لهم) بفتح الياء وضم الهمزة على البناء للمفعول.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

قال بعض المفسرين: ذلك إشارة إلى الإملاء، أي ذلك الإملاء بسبب أنهم قالوا للذين كرهوا. وهو اختيار الواحدي، وقال بعضهم: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التسويل، ويحتمل أن يقال

ذلك الارتداد بسبب أنهم قالوا: ﴿سَنُطِيعُكُمْ﴾ وذلك لأنا نبين أن قوله: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ هو أنهم قالوا: نوافقكم على أن محمدًا ليس بمرسل وإنما هو كاذب، ولكن لا نوافقكم في إنكار الرسالة والحشر والإشراك بالله من الأصنام، ومن لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر، وإن آمن بغيره. لا بل من لم يؤمن بمحمد ﷺ، لا يؤمن بالله ولا برسله ولا بالحشر؛ لأن الله كما أخبر عن الحشر وهو جائز، أخبر عن نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام، وهي جائزة فإذا لم يصدق الله في شيء لا ينفي الكذب بقول الله في غيره، فلا يكون مصدقًا موقنًا بالحشر، ولا برسالة أحد من الأنبياء؛ لأن طريق معرفتهم واحد، والمراد من الذين كرهوا ما نزل الله هم المشركون والمنافقون، وقيل: المراد اليهود، فإن أهل مكة قالوا لهم: نوافقكم في إخراج محمد وقتله وقتال أصحابه. والأول أصح؛ لأن قوله: ﴿كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ لو كان مسندًا إلى أهل الكتاب لكان مخصوصًا ببعض ما أنزل الله، وإن قلنا بأنه مسند إلى المشركين يكون عامًّا؛ لأنهم كرهوا ما نزل الله وكذبوا الرسل بأسرهم، وأنكروا الرسالة رأسًا، وقوله: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ يعني فيما يتعلق بمحمد من الإيمان به فلا نؤمن، والتكذيب به فنكذبه كما تكذبونه والقتال معه، وأما الإشراك بالله، واتخاذ الأنداد له من الأصنام، وإنكار الحشر والنبوة، فلا، وقوله: (والله يعلم أسرارهم) قال أكثرهم: المراد منه هو أنهم قالوا ذلك سرًّا، فأفشاه الله وأظهره لنبيه عليه الصلاة والسلام، والأظهر أن يقال: (والله يعلم أسرارهم) وهو ما في قلوبهم من العلم بصدق محمد عليه الصلاة والسلام، فإنهم كانوا مكابرين معاندين، وكانوا يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وقرئ ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ بكسر الهمزة على المصدر، وما ذكرنا من المعنى ظاهر على هذه القراءة، فإنهم كانوا يسرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى قولنا المراد من الذين ارتدوا المنافقون، فكانوا يقولون للمجاهدين من الكفار: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ وكانوا يسرون أنهم إن غلبوا انقلبوا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]

ثم قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۝٢٧﴾

اعلم أنه لما قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦] قال: فهب أنهم يُسرون والله لا يُظهره اليوم فكيف يبقى مخفيًّا وقت وفاتهم، أو نقول: كأنه تعالى قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦] وهب أنهم يختارون القتال لما فيه الضراب والطعان، مع أنه مفيد على الوجهين جميعًا، إن غلبوا فالمال في الحال والثواب في المآل، وإن غُلبوا فالشهادة والسعادة، فكيف حالهم إذا ضرب وجوههم وأدبارهم، وعلى هذا فيه لطيفة، وهي أن القتال في الحال إن أقدم على المبارزة فربما يهزم الخصم ويسلم وجهه وقفاه، وإن لم يهزمه فالضرب على وجهه إن صبر وثبت وإن لم يثبت وانهزم، فإن فات القرن فقد سلم وجهه وقفاه، وإن لم يفته فالضرب على

قفاه لا غير، ويوم الوفاة لا نصرة له ولا مفر، فوجهه وظهره مضروب مطعون، فكيف يحترز عن الأذى ويختار العذاب الأكبر؟!

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ فيه لطيفة، وهي أن الله تعالى ذكر أمرين: ضَرْب الوجه، وضَرْب الأدبار، وذكر بعدهما أمرين آخرين: اتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه، فكأنه تعالى قابل الأمرين فقال: يضربون وجوههم حيث أقبلوا على سخط الله، فإن المتسع للشيء متوجه إليه، ويضربون أدبارهم لأنهم تولوا عما فيه رضا الله، فإن الكاره للشيء يتولى عنه. **وما أسخط الله يحتمل وجوهًا:**

الأول: إنكار الرسول عليه الصلاة والسلام، ورضوانه الإقرار به والإسلام.

الثاني: الكفر هو ما أسخط الله والإيمان يرضيه، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[الزمر: ٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ إلى أن قال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[البينة: ٧، ٨].

الثالث: ما أسخط الله تسويل الشيطان، ورضوان الله التعويل على البرهان والقرآن، فإن قيل: هم ما كانوا يكرهون رضوان الله، بل كانوا يقولون: إن مَا نحن عليه فيه رضوان الله، ولا نطلب إلا رضاء الله، وكيف لا والمشركون بإشراكهم كانوا يقولون: إنا نطلب رضاء الله. كما قالوا: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣] وقالوا: ﴿فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾[الأعراف: ٥٣] فنقول: معناه كرهوا ما فيه رضاء الله تعالى.

وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال: ﴿مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل: (ما أرضى الله) وذلك لأن رحمة الله سابقة، فله رحمة ثابتة وهي منشأ الرضوان، وغضب الله متأخر فهو يكون على ذنب، فقال: ﴿رِضْوَٰنَهُۥ﴾ لأنه وصف ثابت لله سابق، ولم يقل سخط الله، بل ﴿مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ إشارة إلى أن السخط ليس ثبوته كثبوت الرضوان، ولهذا المعنى قال في اللعان في حق المرأة: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[النور: ٩] يقال: غضب الله مضافًا لأن لعانه قد سبق مظهر الزنا بقوله وأيمانه، وقبله لم يكن لله غضب، ورضوان الله أمر يكون منه الفعل، وغضب الله أمر يكون من فعله، ولنضرب له مثالاً: الكريم الذي رسخ الكرم في نفسه يحمله الكرم على الأفعال الحسنة، فإذا كثر من السيئ الإساءة فغضبه لا لأمر يعود إليه، بل غضبه عليه يكون لإصلاح حاله، وزجرًا لأمثاله عن مثل فعاله، فيقال: هو كان الكريم فكرمه لما فيه من الغريزة الحسنة، لكن فلانًا أغضبه وظهر منه الغضب، فيجعل الغضب ظاهرًا من الفعل،

والفعل الحسن ظاهرًا من الكرم، فالغضب في الكريم بعد فعل، والفعل منه بعد كرم، ومن هذا يعرف لطف قوله: ﴿مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ حيث لم يطلبوا إرضاء الله، وإنما طلبوا إرضاء الشيطان والأصنام.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾.

هذا إشارة إلى المنافقين و﴿أَمۡ﴾ تستدعي جملة أخرى استفهامية إذا كانت للاستفهام؛ لأن كلمة ﴿أَمۡ﴾ إذا كانت متصلة استفهامية تستدعي سبق جملة أخرى استفهامية، يقال: أزيد في الدار أم عمرو؟ وإذا كانت منقطعة لا تستدعي ذلك، يقال: إن هذا لزيد أم عمرو، وكما يقال: بل عمرو، والمفسرون على أنها منقطعة، ويحتمل أن يقال: إنها استفهامية، والسابق مفهوم من قوله تعالى: (والله يعلم أسرارهم) فكأنه تعالى قال: أحسب الذين كفروا أن لن يعلم الله أسرارهم أم حسب المنافقون أن لن يظهرها؟ والكل قاصر، وإنما يعلمها ويُظهرها، ويؤيد هذا أن المتقطعة لا تكاد تقع في صدر الكلام فلا يقال ابتداء، بل جاء زيد، ولا أم جاء عمرو. والإخراج بمعنى الإظهار فإنه إبراز، والأضغان هي الحقود والأمراض، واحدها ضغن.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾.

لما كان مفهوم قوله: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾[محمد: ٢٩] أن الله يُظهر ضمائرهم ويبرز سرائرهم، كأن قائلاً قال: فلمَ لم يظهر؟ فقال: أخرناه لمحض المشيئة لا لخوف منهم، كما لا تفشى أسرار الأكابر خوفًا منهم ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ أي لا مانع لنا والإراءة بمعنى التعريف، وقوله: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم﴾ لزيادة فائدة، وهي أن التعريف قد يطلق ولا يلزمه المعرفة، يقال: عرفته ولم يعرف وفهمته ولم يفهم فقال هاهنا: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم﴾ يعني عرفناهم تعريفًا تعرفهم به، إشارة إلى قوة التعريف، واللام في قوله ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم﴾ هي التي تقع في جزاء (لو) كما في قوله: ﴿لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ أدخلت على المعرفة إشارة إلى أن المعرفة كالمرتبة على المشيئة، كأنه قال: ولو نشاء لعرفتهم. ليفهم أن المعرفة غير متأخرة عن التعريف فتفيد تأكيد التعريف، أي لو نشاء لعرفناك تعريفًا معه المعرفة لا بعده، وأما اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ﴾ فجواب لقسم محذوف كأنه قال: ولتعرفنهم والله، وقوله: ﴿فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ فيه وجوه: أحدها: في معنى القول وعلى هذا فيحتمل أن يكون المراد من القول قولهم، أي لتعرفنهم في معنى قولهم حيث يقولون ما معناه النفاق، كقولهم حين مجيء النصر إنا كنا معكم، وقولهم: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ﴾[المنافقون: ٨] وقولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٌ﴾[الأحزاب: ١٣] وغير ذلك، ويحتمل أن يكون المراد قول الله عزّ وجل، أي لتعرفنهم في معنى قول الله تعالى حيث قال ما تعلم منه حال المنافقين كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ﴾[النور: ٦٢] وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾[الأنفال: ٢] إلى غير ذلك. وثانيها: في ميل القول عن الصواب حيث قالوا ما لم يعتقدوا،

فأمالوا كلامهم حيث قالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وقالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: ١٣]، ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الأحزاب: ١٥] إلى غير ذلك. وثالثها: في لحن القول، أي في الوجه الخفي من القول الذي يفهمه النبي عليه السلام ولا يفهمه غيره، وهذا يحتمل أمرين أيضًا والنبي عليه السلام كان يعرف المنافق ولم يكن يُظهر أمره إلى أن أذن الله تعالى له في إظهار أمرهم ومنع من الصلاة على جنائزهم والقيام على قبورهم، وأما قوله: ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ فالظاهر أن المراد أن الله تعالى لو شاء لجعل على وجوههم علامة أو يمسخهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ [يس: ٦٧] وروي أن جماعة منهم أصبحوا وعلى جباههم مكتوب هذا منافق، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ وعد للمؤمنين، وبيان لكون حالهم على خلاف حال المنافق، فإن المنافق كان له قول بلا عمل، والمؤمن كان له عمل ولا يقول به، وإنما قوله التسبيح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] وكانوا يعملون الصالحات ويتكلمون في السيئات مستغفرين مشفقين، والمنافق كان يتكلم في الصالحات كقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ٨] ويعمل السيئ فقال تعالى: الله يسمع أقوالهم الفارغة ويعلم أعمالكم الصالحة فلا يضيع.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

أي لنأمرنكم بما لا يكون متعينًا للوقوع، بل بما يحتمل الوقوع ويحتمل عدم الوقوع كما يفعل المختبر، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ أي نعلم المجاهدين من غير المجاهدين ويدخل في علم الشهادة فإنه تعالى قد علمه علم الغيب، وقد ذكرنا ما هو التحقيق في الابتلاء، وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ وقوله: ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ أي المقدمين على الجهاد ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي الثابتين الذين لا يولون الأدبار وقوله: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ٨] لأن المنافق وُجد منه هذا الخبر والمؤمن وُجد منه ذلك أيضًا، وبالجهاد يعلم الصادق من الكاذب، كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وثانيها: إخبارهم من عدم التولية في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الأحزاب: ١٥] إلى غير ذلك، فالمؤمن وفى بعهده وقاتل مع أصحابه في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص، والمنافق كان كالهباء ينزعج بأدنى صيحة. وثالثها: المؤمن كان له أخبار صادقة مسموعة من النبي عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧]، ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] وللمنافق أخبار أراجيف كما قال تعالى في حقهم: ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠] فعند تحقق الإيجاف يتبين الصدق من الإرجاف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٣٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٣﴾

فيه وجهان: أحدهما: هم أهل الكتاب قريظة والنضير. والثاني: كفار قريش. يدل على الأول قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ قيل: أهل الكتاب تبين لهم صدق محمد عليه السلام، وقوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ تهديد معناه هم يظنون أن ذلك الشقاق مع الرسول وهم به يشاقونه وليس كذلك، بل الشقاق مع الله فإن محمدًا رسول الله ما عليه إلا البلاغ، فإن ضروا يضروا الرسل لكن الله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق، وقوله: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ قد علم معناه. فإن قيل: قد تقدم في أول السورة أن الله تعالى أحبط أعمالهم فكيف يحبط في المستقبل؟ فنقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن المراد من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: ١] في أول السورة - المشركون، ومن أول الأمر كانوا مبطلين، وأعمالهم كانت على غير شريعة، والمراد من الذين كفروا هاهنا أهل الكتاب، وكانت لهم أعمال قبل الرسول فأحبطها الله تعالى بسبب تكذيبهم الرسول، ولا ينفعهم إيمانهم بالحشر والرسل والتوحيد، والكافر المشرك أحبط عمله حيث لم يكن على شرع أصلاً ولا كان معترفًا بالحشر. الثاني: هو أن المراد بالأعمال هاهنا مكايدهم في القتال وذلك قد تحقق منهم والله سيبطله حيث يكون النصر للمؤمنين، والمراد بالأعمال في أول السورة هو ما ظنوه حسنة.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٣﴾.

العطف هاهنا من باب عطف المسبب على السبب، يقال: اجلس واسترح وقم وامش لأن طاعة الله تُحمل على طاعة الرسول، وهذا إشارة إلى العمل بعد حصول العلم، كأنه تعالى قال: يا أيها الذين آمنوا علمتم الحق فافعلوا الخير.

وقوله: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ يحتمل وجوهًا:

أحدها: دوموا على ما أنتم عليه ولا تشركوا فتبطل أعمالكم. قال تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

الوجه الثاني: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ بترك طاعة الرسول كما أبطل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ إلى أن قال: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

الثالث: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] كما قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُم﴾ [الحجرات: ١٧] وذلك أن من يمن بالطاعة على الرسول كأنه يقول: هذا فعلته لأجل قلبك، ولولا رضاك به لما فعلت، وهو منافٍ للإخلاص، والله لا يقبل إلا العمل الخالص.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۝٣٤ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٥ ﴾

بيّن أن الله لا يغفر الشرك، وما دون ذلك يغفره إن شاء حتى لا يظن ظان أن أعمالهم وإن بطلت لكن فضل الله باقٍ يغفر لهم بفضله، وإن لم يغفر لهم بعملهم.

ثم قال تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٥ ﴾.

لما بيّن أن عمل الكافر الذي له صورة الحسنات محبط، وذنبه الذي هو أقبح السيئات غير مغفور، بَيَّن أن لا حرمة في الدنيا ولا في الآخرة، وقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وأمر بالقتال بقوله: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي لا تضعفوا بعد ما وجد السبب في الجد في الأمر والاجتهاد في الجهاد فقال: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ وفي الآيات ترتيب في غاية الحسن، وذلك لأن قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ يقتضي السعي في القتال لأن أمر الله وأمر الرسول ورد بالجهاد وقد أُمروا بالطاعة، فذلك يقتضي أن لا يضعف المكلف ولا يكسل ولا يهن ولا يتهاون، ثم إن بعد المقتضي قد يتحقق مانع ولا يتحقق المسبب، والمانع من القتال إما أخروي وإما دنيوي، فذكر الأخروي وهو أن الكافر لا حرمة له في الدنيا والآخرة، لأنه لا عمل له في الدنيا ولا مغفرة له في الآخرة، فإذا وُجد السبب ولم يوجد المانع ينبغي أن يتحقق المسبب، ولم يقدم المانع الدنيوي على قوله: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ﴾ إشارة إلى أن الأمور الدنيوية لا ينبغي أن تكون مانعة من الإتيان، فلا تهنوا فإن لكم النصر، أو عليكم بالعزيمة على تقدير الاعتزام للهزيمة.

ثم قال تعالى بعد ذلك المانع الدنيوي مع أنه لا ينبغي أن يكون مانعًا ليس بموجود أيضًا حيث أنتم الأعلون، والأعلون والمصطفون في الجمع حالة الرفع معلوم الأصل، ومعلوم أن الأمر كيف آل إلى هذه الصيغة في التصريف، وذلك لأن أصله في الجمع الموافق أعليون ومصطفيون، فسكنت الياء لكونها حرف علة، فتحرك ما قبلها والواو كانت ساكنة فالتقى ساكنان، ولم يكن بد من حذف أحدهما أو تحريكه، والتحريك كان يوقع في المحذور الذي اجتنب منه فوجب الحذف، والواو كانت فيه لمعنى لا يستفاد إلا منها وهو الجمع فأسقطت الياء وبقي أعلون، وبهذا الدليل صار في الجر أعلين ومصطفين.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ هداية وإرشاد يمنع المكلف من الإعجاب بنفسه، وذلك لأنه تعالى لما قال: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ كان ذلك سبب الافتخار فقال: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ يعني ليس ذلك من أنفسكم بل من الله، أو نقول: لما قال: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ فكان المؤمنون يرون ضعف أنفسهم وقلتهم مع كثرة الكفار وشوكتهم، وكان يقع في نفس بعضهم أنهم كيف يكون لهم الغلبة فقال:

إن الله معكم، لا يبقى لكم شك ولا ارتياب في أن الغلبة لكم. وهذا كقوله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] وقوله: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ وَعْد آخر وذلك لأن الله لما قال: إن الله معكم، كان فيه أن النصرة بالله لا بكم، فكان القائل يقول: لم يصدر مني عمل له اعتبار فلا أستحق تعظيمًا. فقال: هو ينصركم ومع ذلك لا ينقص من أعمالكم شيئًا، ويجعل كأن النصرة جعلت بكم ومنكم، فكأنكم مستقلون في ذلك ويعطيكم أجر المستبد، والترة: النقص، ومنه الموتر كأنه نقص منه ما يشفعه، ويقول عند القتال: إن قُتل من الكافرين أحد فقد وتروا في أهلهم وعملهم حيث نقص عددهم وضاع عملهم، والمؤمن إن قُتل فإنما ينقص من عدده ولم ينقص من عمله، وكيف ولم ينقص من عدده أيضًا، فإنه حي مرزوق، فرح بما هو إليه مسوق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

زيادة في التسلية، يعني كيف تمنعك الدنيا من طلب الآخرة بالجهاد، وهي لا تفوتك لكونك منصورًا غالبًا، وإن فاتتك فعملك غير موتر، فكيف وما يفوتك، فإن فات فائت ولم يعوض لا ينبغي لك أن تلتفت إليها لكونها لعبًا ولهوًا، وقد ذكرنا في اللعب واللهو مرارًا أن اللعب ما تشتغل به ولا يكون فيه ضرورة في الحال ولا منفعة في المآل، ثم إن استعمله الإنسان ولم يشغله عن غيره، ولم يثنه عن أشغاله المهمة، فهو لعب، وإن شغله ودهشه عن مهماته فهو لهو، ولهذا يقال: (ملاهي) لآلات الملاهي لأنها مشغلة عن الغير، ويقال لما دونه لعب، كاللعب بالشطرنج والحمام، وقد ذكرنا ذلك غير مرة.

وقوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ إعادة للوعد، والإضافة للتعريف، أي الأجر الذي وعدكم بقوله: ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١] ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

وقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن الجهاد لا بد له من إنفاق، فلو قال قائل: أنا لا أنفق مالي. فيقال له: الله لا يسألكم مالكم في الجهات المعينة من الزكاة والغنيمة وأموال المصالح فيها تحتاجون إليه من المال لا تراعون بإخراجه. وثانيها: الأموال لله وهي في أيديكم عارية، وقد طلب منكم أو أجاز لكم في صرفها في جهة الجهاد، فلا معنى لبخلكم بماله، وإلى هذا إشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الحديد: ١٠] أي الكل لله. وثالثها: لا يسألكم أموالكم كلها، وإنما يسألكم شيئًا يسيرًا منها وهو ربع العشر، وهو قليل جدًا لأن العشر هو الجزء الأقل إذ ليس دونه جزء وليس اسمًا مفردًا، وأما الجزء من أحد عشر ومن اثنى عشر و(إلى) مائة جزء لما لم يكن ملتفتًا إليه لم يوضع له اسم مفرد.

ثم إن الله تعالى لم يوجب ذلك في رأس المال، بل أوجب ذلك في الربح الذي هو من

فضل الله وعطائه، وإن كان رأس المال أيضًا كذلك، لكن هذا المعنى في الربح أظهر، ولما كان المال منه ما ينفق للتجارة فيه ومنه ما لا ينفق، وما أنفق منه للتجارة أحد قسميه، وهو يحتمل أن تكون التجارة فيه رابحة، ويحتمل أن لا تكون رابحة، فصار القسم الواحد قسمين فصار في التقدير كان الربح في ربعه فأوجب (ربع) عشر الذي فيه الربح وهو عشر فهو ربع العشر وهو الواجب، فعلم أن الله لا يسألكم أموالكم ولا الكثير منه.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾.

الفاء في قوله: ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ للإشارة إلى أن الإحفاء يتبع السؤال بيانًا لشح الأنفس، وذلك لأن العطف بالواو قد يكون للمثلين، وبالفاء لا يكون إلا للمتعاقبين أو متعلقين أحدهما بالآخر، فكأنه تعالى بيّن أن الإحفاء يقع عقيب السؤال لأن الإنسان بمجرد السؤال لا يعطي شيئًا. وقوله: ﴿تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ يعني ما طلبها ولو طلبها وألح عليكم في الطلب لبخلتم، كيف وأنتم تبخلون باليسير لا تبخلون بالكثير؟ وقوله: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ يعني بسببه فإن الطالب وهو النبي ﷺ وأصحابه يطلبونكم، وأنتم لمحبة المال وشح الأنفس تمتنعون، فيفضي إلى القتال وتظهر به الضغائن.

قوله تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

(يعْني) قد طلبت منكم اليسير فبخلتم، فكيف لو طلبت منكم الكل؟ وقوله: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون موصولة كأنه قال: أنتم هؤلاء الذين تُدعون لتنفقوا في سبيل الله: وثانيهما: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ وحدها خبر (ها انتم) كما يقال: (أنت هذا) تحقيقًا للشهرة والظهور، أي ظهر أثركم بحيث لا حاجة إلى الإخبار عنكم بأمر مغاير ثم يبتدئ ﴿تُدْعَوْنَ﴾ وقوله ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أي إلى الإنفاق إما في سبيل الله تعالى بالجهاد، وإما في صرفه إلى المستحقين من إخوانكم، وبالجملة ففي الجهتين تخذيل الأعداء ونصرة الأولياء ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾، ثم بيّن أن ذلك البخل ضرر عائد إليه، فلا تظنوا أنهم لا ينفقونه على غيرهم بل لا ينفقونه على أنفسهم فإن من يبخل بأجرة الطبيب وثمن الدواء وهو مريض فلا يبخل إلا على نفسه، ثم حقق ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ غير محتاج إلى مالكم وأتمه بقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ حتى لا تقولوا: إنا أيضًا أغنياء عن القتال، ودفع حاجة الفقراء فإنهم لا غنى لهم عن ذلك في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلأنه لولا القتال لقُتلوا، فإن الكافر إن يَغْز يُغْز، والمحتاج إن لم يدفع حاجته يقصده، لا سيما أباح الشارع للمضطر ذلك، وأما في الآخرة فظاهر فكيف لا يكون فقيرًا وهو موقوف مسؤول ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ بيان الترتيب من وجهين: أحدهما: أنه ذكره بيانًا للاستغناء، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩] وقد ذكر أن هذا تقرير بعد التسليم، كأنه تعالى يقول: الله غني عن العالم بأسره فلا حاجة له إليكم. فإن كان ذاهب يذهب إلى أن ملكه بالعالم وجبروته يظهر به وعظمته بعباده، فنقول: هب أن هذا الباطل حق لكنكم غير متعينين له، بل الله قادر على أن يخلق خلقًا غيركم يفتخرون بعبادته، وعالَمًا غير هذا يشهد بعظمته وكبريائه. وثانيهما: أنه تعالى لما بيّن الأمور وأقام عليها البراهين وأوضحها بالأمثلة قال: إن أطعتم فلكم أجوركم وزيادة، وإن تتولوا لم يبق لكم إلا الإهلاك، فإن ما من نبي أنذر قومه وأصروا على تكذيبه إلا وقد حق عليهم القول بالإهلاك وطهر الله الأرض منهم وأتى بقوم آخرين طاهرين. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ فيه مسألة نحوية يتبين منها فوائد عزيزة وهي أن النحاة قالوا: يجوز في المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم، الجزم والرفع جميعًا، قال الله تعالى هاهنا: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ بالجزم، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] بالرفع بإثبات النون وهو مع الجواز، ففيه تدقيق: وهو أن ههنا لا يكون متعلقًا بالتولي لأنهم إن لم يتولوا يكونون ممن يأتي بهم الله على الطاعة وإن تولوا لا يكونون مثلهم لكونهم عاصين، كون من يأتي بهم مطيعين، وأما هناك فسواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون، فلم يكن للتعليق هناك وجه فرفع بالابتداء، وههنا جزم للتعليق.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المراد ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ في الوصف ولا في الجنس وهو لائق. الوجه الثاني: وفيه وجوه: أحدها: قوم من العجم. ثانيها: قوم من فارس، روي أن النبي ﷺ سئل عمن يستبدل بهم إن تولوا وسلمان إلى جنبه فقال: «هَذَا وَقَوْمُهُ» ثم قال: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ مَنُوطًا بِالثُّرَيَّا، لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسَ»[١] وثالثها: قوم من الأنصار، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وعترته وآل بيته أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا، آمين.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٧٢/ ٢٥٤٦) من طريق جعفر الجزري عن يزيد عن أبي هريرة... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٩٦)، حديث رقم (٧٩٣٧)، والحارث في (مسنده) (٢/ ٩٤٣)، حديث رقم (١٤٠)، وابن أبي شيبة في (مصنفه) (١٢/ ٢٠٧)، حديث رقم (٣٣١٨٣)، جميعًا من طريق عوف عن شهر عن أبي هريرة... به.

سورة القتال، وهي سورة محمد ﷺ

مدنية في قول ابن عباس؛ ذكره النحاس[١].

وقال الماوردي[٢]: [مدنية] في قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنَّهما قالا: إلا آيةً منها نزلت عليه بعد حَجَّة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حُزناً عليه؛ فنزل عليه ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ [محمد: ١٣].

وقال الثعلبيّ: إنَّها مكية؛ وحكاه ابن هبة الله عن الضحَّاك وسعيد بن جبير. وهي تسع وثلاثون آية. وقيل: ثمان[٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾

قال ابن عباس ومجاهد: هم أهلُ مكةَ؛ كفروا بتوحيد الله[٤]، وصدّوا أنفسَهم والمؤمنين عن دين الله ـ وهو الإسلام ـ بنهيهم عن الدخول فيه، وقاله السدّي. وقال الضحاك: «عَنْ سَبِيلِ اللهِ»: عن بيت الله بمنع قاصديه[٥].

ومعنى «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ»: أبطلَ كيدَهم ومكرهم بالنبيّ ﷺ، وجعل الدائرة عليهم. قاله الضحاك[٦]. وقيل: أبطل ما عملوه في كفرهم مما كانوا يسمونه مكارم؛ من صلة الأرحام، وفَكِّ الأسارى، وقِرَى الأضياف، وحفظ الجوار[٧].

---

(١) في الناسخ والمنسوخ له ٣/ ٤ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٩٠ ، وما بين حاصرتين منه.

(٣) بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٢٩ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٣٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٠ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٧ .

(٧) الكشاف ٣/ ٥٢٩-٥٣٠ .

وقال ابن عباس: نزلت في المُطعِمين ببدر، وهم اثنا عشر رجلاً: أبو جهل، والحارث بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأُبيّ وأُمَيّة ابنا خَلَف، ومُنَبِّه ونُبَيْه ابنا الحجَّاج، وأبو البَخْتَري بن هشام، وزَمْعَةُ بن الأسود، وحكيمُ بن حزام، والحارثُ ابن عامر بن نوفل[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هم الأنصار. وقال مقاتل: إنَّها نزلت خاصة في ناسٍ من قريش[(٢)]. وقيل: هما عامّتان فيمن كفر وآمن[(٣)].

ومعنى «أَضَلَّ أعْمَالَهُمْ»: أبطلَها. وقيل: أضلَّهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق[(٤)].

﴿وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ﴾ من قال: إنَّهم الأنصار، فهي المواساة في مساكنهم وأموالهم. ومن قال: إنَّهم من قريش، فهي الهجرة[(٥)]. ومن قال بالعموم، فالصالحات جميع الأعمال التي ترضي الله تعالى.

﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾: لم يخالفوه في شيء. قاله سفيان الثوري[(٦)]. وقيل: صدّقوا محمداً ﷺ فيما جاء به. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يريد أنَّ إيمانَهم هو الحقُّ من

(١) بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٢٩١، وفيه «الوليد بن عقبة وعقبة بن أبي معيط» بدل «الحارث بن هشام، وأبيّ بن خلف».

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩١ دون ذكر مجاهد، وذكر قوله ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٩.

(٣) بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٣٠.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩١.

(٥) المصدر السابق.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٧.

ربهم. وقيل: أي: إنَّ القرآن هو الحقُّ من ربهم[١]، نَسَخَ به ما قبلَه ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: شأنَهم؛ عن مجاهد وغيره. وقال قتادة: حالَهم. ابن عباس: أمورَهم. والثلاثة متقاربة، وهي متأوّلة على إصلاح ما تعلق بدنياهم. وحكى النقاشُ أنَّ المعنى: أصلح نياتِهم؛ ومنه قول الشاعر:

فإن تُقبلي بالودِّ أقبِلْ بمثله ... وإن تُدبري أذهبْ إلى حالٍ باليا[٢]

وهو على هذا التأويل[٣] محمول على إصلاح دينهم[٤].

«والبال» كالمصدر، ولا يعرف منه فعل، ولا تجمعه العربُ إلا في ضرورة الشِّعر فيقولون فيه: بالات[٥].

المبرِّد: قد يكون البال في موضع آخر بمعنى القلب؛ يقال: ما يخطر فلان على بالي، أي: على قلبي[٦].

الجوهري[٧]: والبال رخاءُ النفس؛ يقال: فلان رخيّ البال. والبال: الحال؛ يقال: ما بالك؟ وقولهم: ليس هذا من بالي، أي: مما أباليه. والبال: الحوتُ العظيمُ من حيتان البحر، وليس بعربيّ. والبالة: وعاء الطِّيب؛ فارسي معرَّب، وأصله بالفارسية بيله. قال أبو ذؤيب:

كأنَّ عليها بالةً لَطَمِيَّةً ... لها من خلال الدَّأيتَيْنِ أرِيجُ[٨]

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩١-٢٩٢ ، والبيت أيضاً في أمالي الزجاجي ص١٦١ غير منسوب.

(٣) في (م): التأول.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١١٠ ، وفيه: البال: مصدر، كالحال والشأن.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٨ .

(٧) في الصحاح (بول).

(٨) البيت في ديوان الهذليين ص٥٩ . اللطميّة: أو: اللطيمة: هي العنبرة التي لُطِمت بالمسك، فتفتّقت =

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ «ذلِك» في موضع رفع، أي: الأمر ذلك، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببُه هذا[١]. فالكافر اتّبع الباطل، والمؤمن اتّبع الحقّ. والباطل: الشرك. والحقّ: التوحيد والإيمان. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: كهذا البيان الذي بُيّن؛ يُبيّن الله للناس أمر الحسنات والسيئات[٢]. والضمير في «أَمْثَالَهُمْ» يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا[٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ لـمّا ميّز بين الفريقين؛ أمرَ بجهاد الكفار.

قال ابن عباس: الكفار المشركون عبدةُ الأوثان. وقيل: كلُّ من خالف دينَ الإسلام من مشركٍ أو كتابيٍّ إذا لم يكن صاحبَ عهد ولا ذِمّة. ذكره الماوردي[٤]، واختاره ابن العربيّ[٥] وقال: وهو الصحيح لعموم الآية فيه.

= به حتى نشبت رائحتها. الدأي: ضلوع الصدر في ملتقاه وملتقى الجنب. الأريج: الريح الطيبة. اللسان (لطم) (دأي) (أرج).

(١) أي: تكون «ذلك» إما في موضع رفع خبر، على إضمار مبتدأ، أي: الأمر ذلك، أو في موضع رفع بالابتداء، وما بعده خبره. إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٨.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦١.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٣.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٩٣.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٦٨٨.

«فَضَرْبَ الرِّقَابِ» مصدر[١]. قال الزجَّاج[٢]: أي: فاضربوا الرِّقاب ضرباً. وخصّ الرِّقاب بالذِّكر؛ لأنَّ القتلَ أكثر ما يكون بها[٣]. وقيل: نصب على الإغراء[٤]. قال أبو عبيدة[٥]: هو كقولك: يا نفسُ صبراً.

وقيل: التقدير: اقصدوا ضرب الرقاب[٦].

وقال: «فَضَرْبَ الرِّقَابِ» ولم يقل: فاقتلوهم؛ لأنَّ في العبارة بضرب الرِّقاب من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل؛ لِما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة؛ وهو حزُّ العنق وإطارةُ العضو الذي هو رأس البدن وعُلوه وأوْجَهُ أعضائه[٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أي: أكثرتُم القتل. وقد مضى في «الأنفال» عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأنفال: ٦٧][٨]. ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي: إذا أسرتُموهم. والوَثاق اسم من الإيثاق، وقد يكون مصدراً؛ يقال: أوثقتُه إيثاقاً ووَثاقاً[٩].

وأما الوِثاق ـ بالكسر ـ فهو اسم الشيء الذي يوثَق به؛ كالرِّباط. قاله القشيري.

وقال الجوهَري[١٠]: وأوثقه في الوِثاق، أي: شدّه، وقال تعالى: «فَشُدُّوا الوَثَاقَ». والوِثاق ـ بكسر الواو ـ لغة فيه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٩ .

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦١ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٩ ـ ونسب القول فيه للفراء ـ وتفسير البغوي ٤/ ١٧٨ .

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢١٤ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٨٨ .

(٧) الكشاف ٣/ ٥٣٠ .

(٨) ١٠/ ٧٤ .

(٩) الوسيط ٤/ ١١٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٩٧ .

(١٠) في الصحاح (وثق).

وإنما أمر بشدّ الوَثاق لئلا يُفلِتوا. ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا﴾ عليهم بالإطلاق من غير فِدْية ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾[١]. ولم يذكر القتل هاهنا؛ اكتفاءً بما تقدّم من القتل في صدر الكلام.

و«مَنًّا» و«فِدَاءً» نصب بإضمار فعل. وقرئ: «فَدًى» بالقصر مع فتح الفاء، أي: فإما أن تمنُّوا عليهم مَنًّا، وإما أن تفادوهم فِداءً[٢].

روي عن بعضهم أنَّه قال: كنت واقفاً على رأس الحجَّاج حين أُتيَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانُ مئة، فقتل منهم نحواً من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كِندة فقال: يا حجَّاج، لا جازاك الله عن السنّة والكرم خيراً! قال: ولم ذلك؟ قال: لأنَّ الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ في حقّ الذين كفروا، فوالله ما مَنَنْتَ ولا فَدَيتَ! وقد قال شاعركم فيما وصف به قومَه من مكارم الأخلاق:

ولا نَقتلُ الأسرى ولكن نفكُّهم   إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارمِ[٣]

فقال الحجَّاج: أفٍّ لهذه الجِيَف! أمَا كان فيهم مَنْ يحسن مثل هذا الكلام؟! خلُّوا سبيل من بقي. فخُلّيَ يومئذ عن بقية الأسرى ـ وهم زهاء ألفين ـ بقول ذلك الرجل[٤].

الثالثة: واختلف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال:

الأوّل: أنها منسوخةٌ، وهي في أهل الأوثان، لا يجوز أن يفادَوا ولا يُمَنَّ عليهم. والناسخُ لها عندهم قولُه تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[٥]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٧٨ بنحوه.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣١، وتفسير الرازي ٢٨/ ٤٤، وذكر قراءة: فَدًى، الزمخشري، وهي قراءة شاذة.

(٣) البيت للفرزدق كما في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٤٠٢، والأغاني ١٥/ ٣٤٣.

(٤) القصة مختصرة في العقد الفريد ٢/ ١٧٤ ورواية البيت فيه: (القلائد) بدل: (المغارم)، وبهجة المجالس ١/ ٩٩، ووقع في وفيات الأعيان لابن خلّكان ٢/ ٣٩ أنّه رجل من بني تميم.

(٥) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٥.

[التوبة: ٥] وقولُه: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] وقولُه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] الآية. قاله قتادة والضحاك والسُّدّي وابنُ جُرَيج والعَوْفي عن ابن عباس، وقاله كثير من الكوفيين[١].

وقال عبد الكريم الجَزَري[٢]: كُتب إلى أبي بكر في أسير أسِر، فذكروا أنَّهم التمسوه بفداء كذا وكذا، فقال: اقتلوه، لَقَتْلُ رجلٍ من المشركين أحبّ إليّ من كذا وكذا[٣].

الثاني: أنها في الكفار جميعاً. وهي منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر، منهم قتادة ومجاهد. قالوا: إذا أُسِر المشركُ، لم يجز أن يُمَنَّ عليه، ولا أن يفادى به فيردّ إلى المشركين، ولا يجوز أن يفادى عندهم إلا بالمرأة؛ لأنَّها لا تُقتل. والناسخ لها: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] إذ كانت «براءة» آخر ما نزلت بالتوقيف؛ فوجب أن يُقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن تؤخذ منه الجِزية[٤] ـ وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة[٥] ـ خيفة أن يعودوا حَرْباً للمسلمين.

ذكر عبد الرّزاق أخبرنا معمر عن قتادة ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ قال: نسخها: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧]. وقال مجاهد: نسخها: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وهو قول الحكَم.[٦]

الثالث: أنها ناسخة. قاله الضحاك وغيره. روى الثوري عن جُوَيبر عن الضحاك:

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٨٣-١٨٥ .

(٢) في (م) و(د) و(ز) و(ق): الجوزي، والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٠ ، والطبري في تفسيره ٢١/ ١٨٤ ، وذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٠ .

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٢٤ ، ٣/ ٧ .

(٥) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٠ .

(٦) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٠ ، وأثر قتادة في تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٢١ .

﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥] قال: نسخها ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.
وقال ابن المبارك عن ابن جُرَيج عن عطاء: «فَإمَّا مَنًّا بَعدُ وإمَّا فِدَاءً» فلا يُقتل المشرك ولكن يُمَنّ عليه ويُفادى؛ كما قال الله عزَّ وجلَّ. قال الأشعث: كان الحسن يكره أن يقتل الأسير، ويتلو: «فَإمَّا مَنًّا بَعدُ وإمَّا فِدَاءً»[١].

وقال الحسن أيضاً: في الآية تقديم وتأخير؛ فكأنه قال: فضرب الرِّقاب حتى تضع الحربُ أوزارَها. ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾. وزعم أنَّه ليس للإمام إذا حصل الأسير في يديه أن يقتله، لكنه بالخيار في ثلاثة منازل: إما أن يَمُنّ، أو يُفادى، أو يسترقّ[٢].

الرابع: قول سعيد بن جُبَير: لا يكون فداءٌ ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأنفال: ٦٧]. فإذا أُسِر بعد ذلك، فللإمام أن يحكمَ بما رآه من قتل أو غيره[٣].

الخامس: أنَّ الآية محكمة، والإمام مخيَّر في كل حال[٤]؛ رواه عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس[٥]، وقاله كثير من العلماء؛ منهم ابن عمرَ والحسن وعطاء، وهو مذهبُ مالك والشافعيِّ والثوريِّ والأوزاعيِّ وأبي عبيد وغيرهِم، وهو الاختيار؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ والخلفاءَ الراشدين فعلوا كلَّ ذلك[٦]؛ قَتَل النبيُّ ﷺ عُقبة بنَ أبي مُعَيط والنضرَ بنَ الحارث يوم بدر صَبْرًا[٧]، وفادى سائر أسارى بدر، ومنَّ على أبي عروة

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٠-١١ .
(٢) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٧٤ .
(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٥ ، ١١ .
(٤) الناسخ والمنسوخ ٣/ ٥ .
(٥) أخرجه أبو عبيد في الأموال ص١٧٠ (٣٤٢)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٢ .
(٦) الأوسط لابن المنذر ١١/ ٢٢٤-٢٢٧ ، وينظر تفسير البغوي ٤/ ١٧٨ .
(٧) سلف ١٠/ ٢٣ .

الجمحي[١]، وقتل بني قريظة وقد نزلوا على حكم سعد وصاروا في يده سِلْماً[٢]. ومَنَّ على ثُمامة بن أُثَال الحنفي وهو أسير في يده[٣]، وأخذ من سلمة بن الأكوع جاريةً ففدى بها أناساً من المسلمين[٤]، وهبط عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قوم من أهل مكة، فأخذهم النبيُّ ﷺ وقد منّ عليهم، وقد منّ على سَبي هوازن[٥]. وهذا كلُّه ثابت في الصحيح، وقد مضى جميعه في «الأنفال»[٦] وغيرها.

قال النحاس[٧]: وهذا على أنَّ الآيتين محكمتان معمول بهما، وهو قولٌ حسن؛ لأنَّ النسخ إنما يكون لشيء قاطع، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ، إذ كان يجوز أن يقع التعبُّد، إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم، فإذا كان الأسر؛ جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمنّ على ما فيه الصلاح للمسلمين. وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعي وأبي عبيد.

وحكاه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة، والمشهورُ عنه ما قدّمناه[٨]، وبالله عزَّ وجلَّ التوفيق.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال مجاهد وابن جبير: هو خروج عيسى عليه السلام[٩]. وعن مجاهد أيضاً: أن المعنى حتى لا يكون دينٌ إلا دين

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣١ وفيه (الحجبي) بدل (الجمحي).

(٢) من قوله: «ومنّ على أبي عروة» إلى قوله: «في يده سلماً». من (خ) و(د) و(ظ) و(ف). وحكم سعد في بني قريظة سلف ٦/ ٦٣ . ووقع في (د) «وقتل من قريظة» بلد «وقتل بني قريظة».

(٣) سلف ٢/ ٤٢٢ .

(٤) أخرجه أحمد (١٦٥٠٢)، ومسلم (١٧٥٥) مطولاً.

(٥) سلف ١٠/ ١١ .

(٦) ١٠/ ٧١ فما بعدها.

(٧) في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٢ .

(٨) الكشاف ٣/ ٥٣١ .

(٩) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٣ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٥٩٧ .

الإسلام، فَيُسْلِم كل يهوديّ ونصرانيّ وصاحب مِلّة، وتأمن الشاة من الذئب[١]. ونحوه عن الحسن والكلبي والفرّاء[٢] والكسائي. قال الكسائي: حتى يُسْلِم الخلق.

وقال الفرّاء: حتى يؤمنوا ويذهب الكفر. وقال الكلبي: حتى يظهر الإسلام على الدِّين كلِّه[٣]. وقال الحسن: حتى لا يعبدوا إلا الله.

وقيل: معنى الأوزار السلاح؛ فالمعنى: شدّوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح[٤].

وقيل: معناه حتى تضع الحرب؛ أي: الأعداءُ المحاربون أوزارَهم[٥]؛ وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة[٦]. ويقال للكراع: أوزار. قال الأعشى:

وأعــددْت لــلــحــرب أوزارَهــا رمــاحــاً طِــوَالاً وخَــيْــلاً ذُكُــورا
ومِــن نَــسْــج داودَ يــحــدى بــهــا عــلــى أثــر الــحــيِّ عِــيــراً فــعِــيــرا[٧]

وقيل: «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا» أي: أثقالها. والوِزر: الثقل، ومنه وزير الملك؛ لأنَّه يتحمّل عنه الأثقالَ. وأثقالها: السلاح؛ لثقل حملها[٨].

قال ابن العربي[٩]: قال الحسن وعطاء: في الآية تقديم وتأخير؛ المعنى:

---

(١) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٧٤-٣٧٥ ، وقول مجاهد أيضاً في تفسيره ٢/ ٥٩٧ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٨٨ .

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٥٧-٥٨ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٩٣ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٤ بنحوه.

(٥) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٥ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٣ .

(٧) تفسير غريب القرآن ص٤٠٩ ، والبيتان في ديوان الأعشى ص١٤٩ ، ورواية البيت الثاني فيه:
ومِــن نَــسْــجِ داودَ مــوضــونــة تُــسَــاق مــع الــحــيِّ عــيــراً فــعــيــرا

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٩٣ .

(٩) في أحكام القرآن ١٦٩١ - ١٦٩٢ .

فضرب الرِّقاب حتى تضع الحربُ أوزارَها، فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوَثاق، وليس للإمام أن يقتل الأسير. وقد روي عن الحجّاج أنه دفع أسيراً إلى عبد الله بن عمر ليقتله، فأبى وقال: ليس بهذا أمرنا الله، وقرأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾. قلنا: قد قاله رسولُ الله ﷺ وفعله[١]، وليس في تفسير الله للمنّ[٢] والفداء منع من غيره، فقد بيّن الله في الزنى حكم الجلد، وبيّن النبيّ ﷺ حكم الرجم، ولعلَّ ابنَ عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال، وربك أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ «ذَلِكَ» في موضع رفع على ما تقدّم، أي: الأمر ذلك الذي ذكرت وبينت[٣]. وقيل: هو منصوب على معنى افعلوا ذلك[٤]. ويجوز أن يكون مبتدأ، المعنى: ذلك حكمُ الكفار. وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام، وهو كما قال تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ [ص:٥٥]. أي: هذا حقٌّ وأنا أعرّفكم أنَّ للظالمين كذا.

ومعنى: «لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ» أي: أهلكهم بغير قتال[٥]. وقال ابن عباس: لأهلكهم بجند من الملائكة[٦]. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ أي: أمركم بالحرب ليبلُوَ ويختبرَ بعضَكم ببعض، فيعلم المجاهدِين والصابرين، كما في السورة نفسِها[٧]. ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يريد قتلى أُحُد من المؤمنين ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ قراءة العامة: «قاتلوا» وهي اختيار أبي عبيد. وقرأ أبو عمرو وحفص: «قُتِلوا» بضم القاف وكسر التاء[٨]،

---

(١) سلف ١٠/ ٧٣.

(٢) في النسخ الخطية (لكم) بدل (للمنّ)، وهي نسخة من أحكام القرآن كما في حواشيه، والمثبت من (م) والأحكام.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٩.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٧٩.

(٦) نسب القول في النكت والعيون ٥/ ٢٩٤ للكلبي.

(٧) الآية ٣١، وينظر الكشاف ٣/ ٥٣١.

(٨) السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠٠.

وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شدّد التاء على التكثير[١]. وقرأ الجَحْدرِيّ وعيسى بن عمر وأبو حَيْوة: «قَتَلُوا» بفتح القاف والتاء من غير ألف[٢]؛ يعني الذين قتلوا المشركين.

قال قتادة: ذكر لنا أنَّ هذه الآية نزلت يوم أُحُد ورسولُ الله ﷺ في الشِّعب، وقد فَشَت فيهم الجراحات والقتل[٣]، وقد نادى المشركون: اعْلُ هُبَلُ. ونادى المسلمون: الله أعلى وأجلّ. وقال المشركون: يومٌ بيوم بَدر والحرب سِجال. فقال النبي ﷺ: «قولوا: لا سواء. قتلانا أحياءٌ عند ربهم يرزقون، وقتلاكم في النار يعذَّبون». فقال المشركون: إنَّ لنا العُزّى ولا عُزَّى لكم. فقال المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم. وقد تقدّم ذكر ذلك في «آل عمران»[٤].

قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾

قال القشيري: قراءة أبي عمرو: «قُتِلوا» بعيدة؛ لقوله تعالى: «سَيَهْدِيهِم وَيُصْلِحُ بالَهُمْ» والمقتول لا يوصف بهذا. قال غيره: يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة، أو سيهدي من بقي منهم. أي: يحقّق لهم الهداية. وقال ابن زياد: سيهديهم إلى محاجّة منكر ونكير في القبر[٥].

قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية والمراد بها إرشادُ المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المُفْضية إليها؛ من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] معناه: فاسلكوهم إليها[٦].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١١١ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٧٩ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ١٩٠-١٩١ .

(٤) ٥/ ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٤ .

(٦) في (م) و(ق): فاسلكوا بهم إليها، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ١/ ٧٣ وكلام أبي المعالي منه.

قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾

أي: إذا دخلوها يقال لهم: تفرّقوا إلى منازلكم، فهم أعرفُ بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم. قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين(١). وفي البخاري(٢) ما يدل على صحة هذا القول عن أبي سعيد الخُدْرِيّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْلُص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرةٍ بين الجنَّة والنار [فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا] حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا، أُذِن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسُ محمد بيده لأَحدُهم أهْدى بمنزله في الجنة [منه] بمنزلِه كان(٣) في الدنيا».

وقيل: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال(٤).

قال الحسن: وصف الله تعالى لهم الجنةَ في الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفتها(٥). وقيل: فيه حذف، أي: عَرَّف طرقَها ومساكنَها وبيوتَها لهم، فحذف المضاف.

وقيل: هذا التعريف بدليل، وهو المَلَك الموكَّل بعمل العبد يمشي بين يديه(٦) ويتبعه العبد حتى يأتي العبدُ منزلَه، ويعرّفه المَلَك جميع ما جُعل له في الجنة. وحديث أبي سعيد الخُدْريّ يردّه.

وقال ابن عباس: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: طيّبها لهم بأنواع الملاذّ؛ مأخوذ من العَرْف،

---

(١) الوسيط ٤/ ١٢١ دون ذكر مجاهد، وينظر قوله في الكشاف ٣/ ٥٣٢ ، وزاد المسير ٧/ ٣٩٨ .

(٢) في صحيحه (٦٥٣٥) وما سيأتي بين حاصرتين منه، وسلف عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الزمر. القنطرة: الجسر. اللسان (قنطر).

(٣) لفظة «كان» ليست في (م).

(٤) الوسيط ٤/ ١٢١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٤-٢٩٥ .

(٦) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٨ بنحوه.

وهو الرائحة الطيبة. وطعام مُعَرَّف، أي: مطيّب[١]، تقول العرب: عرّفت القِدر: إذا طيبتَها بالملح والأبزار[٢].

وقال الشاعر يخاطب رجلاً ويمدحه:

عَرُفْتَ كإتْبٍ عرّفته اللّطائمُ

يقول[٣]: كما عَرُف الإتْب، وهو البَقِير والبَقِيرة، وهو قميص لا كمّينِ[٤] له، تلبسه النساء[٥].

وقيل: هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته، يقال: خزير[٦] معرّف، أي: بعضه على بعض، وهو من العُرْف المتتابع كعُرف الفرس.

وقيل: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: وفَّقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة. وقيل: عرّف أهل السماء أنّها لهم؛ إظهاراً لكرامتهم فيها. وقيل: عرّف المطيعين أنها لهم.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ أي: إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار. نظيره: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠] وقد تقدّم[٧].

وقال قُطْرُب: إن تنصروا نبيّ الله ينصركم الله، والمعنى واحد.

﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي: عند القتال. وقيل: على الإسلام. وقيل: على الصراط.

---

(١) الوسيط ٤/ ١٢١، وتفسير البغوي ٤/ ١٧٩.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١٢ بنحوه.

(٣) في (م): يقوله.

(٤) في النسخ الخطية: كمّي.

(٥) الصحاح (عرف) (بقر). اللطائم: ـ جمع لطيمة ـ قطعة مسك. اللسان (لطم).

(٦) في النسخ حرير، والمثبت من تهذيب اللغة ٢/ ٣٤٥، والكلام منه. والخزير: اللحم الغابّ يؤخذ فيقطع صغاراً في القدر، ثمّ يطبخ بالماء الكثير والملح. اللسان (خزر).

(٧) ١٤/ ٤١٢.

وقيل: المراد تثبيت القلوب بالأمن[١]؛ فيكون تثبيتُ الأقدام عبارةً عن النصر والمعونة في موطن الحرب[٢].

وقد مضى في «الأنفال» هذا المعنى[٣]. وقال هناك: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢] فأثبت هناك واسطة ونفاها هنا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] ثم نفاه بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] ومثله كثير؛ فلا فاعل إلا الله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يحتمل الرفع على الابتداء، والنصب بما يفسره «فَتَعْسًا لَّهُمْ» كأنه قال: أتْعَسَ الذين كفروا[٤].

و«تَعْسًا لهم» نصب على المصدر بسبيل الدعاء. قاله الفرّاء[٥]، مثل: سَقْيًا له ورَعيًا.

وهو نقيض: لَعًا له. قال الأعشى:

فالتَّعْس أوْلَى لها من أن أقول لَعَا[٦]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٧ .

(٣) ٩/ ٤٦٦ .

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٢ .

(٥) نقله عنه البغوي في تفسيره ٤/ ١٨٠ .

(٦) الكشاف ٤/ ٥٣٢ ، والبيت في ديوان الأعشى ص١٥٣ ، ودرة الغواص للحريري ص١١٠ وروايتهما (أدنى) بدل (أولى) وصدره: بذات لَوْث عَفَرْناةٍ إذا عثرت. اللوث بالفتح: القوة، وناقة عفرناة، أي: قوية. اللسان (لوث) (عفر). قال في درة الغواص: العرب تقول في الدعاء على العاثر: تعساً له وفي الدعاء له: لعاً.

وفيه عشرة أقوال: الأوّل: بُعْدًا لهم. قاله ابن عباس وابن جريج[١]. الثاني: خزياً لهم[٢]. قاله السدي. الثالث: شقاء لهم. قاله ابن زيد. الرابع: شَتماً لهم من الله. قاله الحسن. الخامس: هلاكاً لهم. قاله ثعلب. السادس: خَيْبَةً لهم. قاله الضحاك وابن زيد. السابع: قبحاً لهم. حكاه النقاش. الثامن: رغماً لهم. قاله الضحاك أيضاً[٣]. التاسع: شَرًّا لهم. قاله ثعلب أيضاً[٤]. العاشر: شقوة لهم. قاله أبو العالية[٥].

وقيل: إنَّ التَّعس الانحطاطُ والعِثار[٦].

قال ابن السِّكّيت: التعس أن يَخِرّ على وجهه[٧]. والنَّكْس أن يَخِرّ على رأسه. قال: والتعس أيضاً الهلاك[٨].

قال الجوهري[٩]: وأصله الكَبّ، وهو ضدّ الانتعاش، وقد تَعَس - بفتح العين - يَتْعَس تَعْساً، وأتعسه الله. قال مُجَمّع بن هلال[١٠]:

تقول وقد أفرَدْتُها من حَلِيلها[١١] تَعَسْتَ كما أتْعَسْتَني يا مُجَمِّعُ[١٢]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٢) في (م) و(ز) و(ق): حزناً لهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ والكلام منه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٧ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ وفيه: (سقوطاً) بدل (شقوة).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٢ ، ونسبه في تهذيب اللغة ٢/ ٧٨ للرُّستُمي.

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٧٨ ، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٨ .

(٩) في الصحاح (تعس).

(١٠) هو مجمّع بن مالك بن هلال، شاعر جاهلي. معجم الشعراء ص٤٣٨ .

(١١) في (م) و(ق) خليلها، والمثبت من باقي النسخ.

(١٢) البيت في درة الغواص ص١١٠ ، والخزانة ١٠/ ٤٠٣ .

يقال: تعساً لفلان، أي: ألزمه الله هلاكاً[١]. قال القُشَيرِي: وجوّز قوم تعِس بكسر العين.

قلت: ومنه حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعِس عَبدُ الدينار والدرهم والقَطِيفة والخَمِيصة، إن أُعطيَ رَضيَ، وإنْ لم يُعْطَ لم يرض» خرّجه البخاري[٢]. في بعض طرق هذا الحديث: «تَعِس وانتكس، وإذا شِيك فلا انْتَقَش» خرّجه ابن ماجه[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أبطلها؛ لأنّها كانت في طاعة الشيطان[٤]. ودخلت الفاء في قوله: «فَتَعْساً» لأجل الإبهام الذي في «الَّذينَ»، وجاء «وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» على الخبر حملاً على لفظ الذين؛ لأنّه خبر في اللفظ، فدخول الفاء حملاً على المعنى، «وأضلَّ» حَملاً على اللفظ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾

أي: ذلك الإضلال والإتعاس[٥]؛ لأنّهم ﴿كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الكتب والشرائع. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: مالهم من صور الخيرات، كعمارة المسجد وقِرى الضيف وأصناف القُرَب، ولا يَقبَل الله العملَ إلا من مؤمن. وقيل: أحبط أعمالهم، أي: عبادة الصنم.

---

(١) الصحاح (تعس).

(٢) في صحيحه (٢٨٨٦). قوله: القطيفة كساء له خَمْل؛ والخميصة: ثوب من خزّ أو صوف مُعْلَم، وكانت من لباس الناس قديماً. النهاية (قطف) (خمص).

(٣) في سننه (٤١٣٦)، وهو في صحيح البخاري أيضاً (٢٨٨٧) قوله: «انتكس» أي: انقلب على رأسه، وهو دعاءٌ عليه بالخيبة، وقوله: «وإذا شيك فلا انتقش» أي: إذا دخلتْ فيه شوكة، لا أخرجها من موضعها وهو دعاء عليه أيضاً. النهاية (نقش) (نكس).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٢١ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾

بيَّنَ أحوالَ المؤمن والكافر تنبيهاً على وجوب الإيمان، ثمَّ وصل هذا بالنظر؛ أي: ألم يَسِرْ هؤلاء في أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ بقلوبهم ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ آخِرُ أمر الكافرين قبلهم ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ أي: أهلكهم واستأصلهم.

يقال: دمّره تدميراً ودمّر عليه، بمعنىً[(١)].

ثم توعّد مشركي مكةَ فقال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾[(٢)] أي: أمثالُ هذه الفَعْلة[(٣)]؛ يعني التدمير.

وقال الزَّجَّاج والطبري: الهاء تعود على العاقبة؛ أي: وللكافرين من قريش أمثالُ عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا[(٤)].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾

أي: وليُّهم وناصرُهم[(٥)].

وفي حرف ابن مسعود: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ وَلِيُّ الَّذينَ آمَنُوا». فالمولى: الناصر هاهنا. قاله ابن عباس وغيره. قال:

فَغَدَت كِلاَ الفَرجَيْنِ تحسب أنه مَولَى المخافة خَلْفُها وأمامُها[(٦)]

---

(١) الصحاح (دمر).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١٣.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨، وتفسير الطبري ٢١/ ١٩٥.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨١-١٨٢. والبيت للبيد، وهو في ديوانه ص٣١١، والبيت أيضاً في تهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٩ وروايته فيه: (فعدت) بدل (فغدت) وذكر الأزهري في شرح البيت أنه يصف =

قال قتادة: نزلت يوم أُحُد والنبيّ ﷺ في الشِّعب إذ صاح المشركون: يومٌ بيوم، لنا العُزّى ولا عُزَّى لكم؛ قال النبي ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم» وقد تقدّم[١]. ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: لا ينصرهم أحد من الله[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تقدّم في غير موضع.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا كأنّهم أنعام، ليس لهم هِمّة إلا بطونُهم وفروجُهم، ساهون عمّا في غدِهم. وقيل: المؤمن في الدنيا يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع[٣]. ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مقام ومنزل[٤].

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ تقدّم الكلام في «كَأَيِّنْ» في «آل عمران»[٥]. وهي هاهنا بمعنى كم، أي: وكم من قرية. وأنشد الأخفش قول لبيد:

وكائنْ رأينا من ملوكٍ وسُوقةٍ ومفتاحِ قَيْدٍ للأسير المكبَّل[٦]

= بقرة وحشية غرها القناص فعدت، وكلا فرجيها: وهما أمامها وخلفها، وقال في اللسان (فرج): الفرج الثغرُ المخُوف، وهو موضع المخافة.

(١) ص٢٥٠ من هذا الجزء.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٢.

(٥) ٥/ ٣٤٩-٣٥١.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٦، والبيت في ديوان لبيد ص٣، ورواية البيت فيه:

وكائنْ رأيتُ من ملوك وسوقة وصاحبْتُ من وفدٍ كرام وموكب

فيكون معناه: وكم من أهل قرية ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: أخرجَك أهلها[١].

﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ قال قتادة وابن عباس: لما خرج النبيُّ ﷺ من مكة إلى الغار، التفت إلى مكة وقال: «اللَّهُمْ أنتِ أحبُّ البلاد إلى الله، وأنتِ أحبُّ البلاد إليّ، ولولا المشركون أهْلُكِ أخرجوني لَما خرجت منك». فنزلت الآية[٢]؛ ذكره الثعلبي، وهو حديث صحيح.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الألف ألف تقرير[٣]. ومعنى «على بينةٍ» أي: على ثبات ويقين. قاله ابن عباس.

أبو العالية: وهو محمد ﷺ. والبينة: الوَحْيُ[٤].

﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: عبادة الأصنام، وهو أبو جهل والكفار[٥]. ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: ما اشتهوا. وهذا التزيينُ من جهة الله خلقاً. ويجوز أن يكون من الشيطان دعاءً ووسوسة. ويجوز أن يكون من الكافر، أي: زيَّن لنفسه سوءَ عمله وأصرّ على الكفر.

وقال: «سُوءُ» على لفظ «مَن» «واتَّبَعُوا» على معناه[٦].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩٦ .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ١٩٨ عن ابن عباس، وأخرجه بنحوه الترمذي (٣٩٢٦).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩٦ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ بنحوه.

(٦) الكشاف ٤/ ٥٣٣ .

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ لما قال عزَّ وجلَّ: «إنَّ الله يُدْخِلُ الَّذين آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّات» وصف تلك الجنات، أي: صفة الجنة المعدَّة للمتقين. وقد مضى الكلام في هذا في «الرعد»(١).

وقرأ علي بن أبي طالب: «مِثَالُ الجَنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقُونَ»(٢). ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي: غير متغير الرائحة. والآسِن من الماء مثل الآجِن(٣).

وقد أسَن الماء يأسُن ويأسِن أُسُوناً: إذا تغيّرت رائحته. وكذلك أجَن الماء يأجُن ويأجِن أَجْناً وأُجُوناً(٤).

ويقال بالكسر فيهما: أجِن وأسِن يأسَن ويأجَن أَسَناً وأَجَناً. قاله اليزيدي.

وأسِنَ الرجل أيضاً يأسَن؛ بالكسر لا غير(٥): إذا دخل البئر فأصابته ريحٌ منتنة من ريح البئر أو غير ذلك، فغُشِي عليه أو دارَ رأسُه، قال زُهير:

قد أترك القِرنَ مُصفرًّا أناملُه ... يَميدُ في الرُّمح مَيدَ المائحِ الأسِنِ(٦)

---

(١) ١٢/ ٨٠-٨١.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١٤.

(٣) زاد المسير ٧/ ٤٠١ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨١.

(٥) يعني في الماضي كما قيده صاحب القاموس على مثال: فرح.

(٦) الصحاح (أجن) (أسن)، والبيت في شرح ديوان زهير ص١٢١، وخزانة الأدب ١١/ ٢٥٩، ورواية الديوان:

يغادر القِرْنَ مصفرًّا أناملُه ... يَميلُ في الرُّمح مَيْل المائح الأسن

القِرْن: كفؤك في الشجاعة. الصحاح (قرن). قال شارح الديوان: مصفرًّا أناملُه؛ دنا موته فاصفرَّت أنامله، والمائح: الذي ينزل إلى أسفل البئر يملأ الدلو إذا قلَّ الماء.

ويروى: «الوَسِن». وتأسّن الماء: تغيّر. أبو زيد: تأسّن عليَّ تأسُّناً: اعتلّ وأبطأ. أبو عمرو: تأسّن الرجل أباه: أخذ أخلاقه. وقال اللّحيانيّ: إذا نزع إليه في الشَّبَه[١].

وقراءة العامة: «آسن» بالمدّ. وقرأ ابن كثير وحُميد: «أَسِن» بالقصر، وهما لغتان[٢]، مثل حاذر وحَذِر. وقال الأخفش: أسِنَ للحال، وآسنَ مثل فاعل يراد به الاستقبال. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي: لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا على الحموضة[٣].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لم تُدنسْها الأرجلُ ولم تُرنِّقْها الأيدي كخمر الدنيا[٤]؛ فهي لذيذةُ الطعم، طيبةُ الشرب، لا يتكرَّهها الشاربون.

يقال: شراب لَذٌّ ولذيذ بمعنًى. واستلذّه: عدّه لذيذاً[٥].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ العسل ما يسيل من لُعاب النَّحل[٦]. «مُصَفًّى» أي: من الشمع والقَذَى، خلقه الله كذلك؛ لم يطبخ على نار، ولا دنّسه النَّحل.

وفي الترمذيّ عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّة بحرَ الماء، وبحرَ العسل، وبحرَ اللّبن، وبحرَ الخمر، ثمّ تشقّق الأنهارُ بعدُ». قال: حديث حسن صحيح[٧].

وفي صحيح مسلم[٨] عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحانُ وجَيْحانُ والنِّيلُ والفُراتُ، كلٌّ من أنهار الجنّة». وقال كعب: نهر دجلةَ نهرُ ماء أهل

---

(١) الصحاح (أسن).

(٢) السبعة ص٦٠٠ ، والتيسير ص٢٠٠ .

(٣) الوسيط ٤/ ١٢٢ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ بنحوه. وترنّق، أي: تكدّر.

(٥) الصحاح (لذذ).

(٦) تهذيب اللغة ٢/ ٩٣ .

(٧) سنن الترمذي (٢٥٧١)، وهو في مسند أحمد (٢٠٠٥٢).

(٨) برقم (٢٨٣٩)، وسلف ١٦/ ٢٩ .

الجنة، ونهر الفرات نهرُ لبنِهم، ونهر مصرَ نهرُ خمرِهم، ونهر سَيْحان نهرُ عسلِهم. وهذه الأنهار الأربعةُ تخرج من نهر الكوثر(١).

والعسل: يذكَّر ويؤنث. وقال ابن عباس: «مِن عَسَلٍ مُصَفًّى» أي: لم يخرج من بطون النَّحل(٢).

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ «مِن» زائدة للتأكيد.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: لذنوبهم. ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ قال الفرّاء: المعنى أفمن يخلد في هذا النَّعيم كمن يخلد في النَّار(٣). وقال الزجَّاج(٤): أي: أفمن كان على بيِّنة من ربِّه وأعطي هذه الأشياءَ كمن زُيِّن له سوءُ عمله وهو خالد في النار؟!

فقوله: «كَمَنْ» بدل من قوله: «أفَمَنْ زُيِّن لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ». وقال ابن كَيْسان: مَثَلُ هذه الجنة التي فيها الثمار والأنهار كَمَثَلِ النار التي فيها الحميم والزقُّوم. ومَثَلُ أهل الجنة في النعيم المقيم كَمَثَلِ أهل النار في العذاب المقيم.

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي: حارًّا شديدَ الغليان، إذا أُدني(٥) منهم شَوَى وجوهَهم، ووقعت فروةُ رؤوسهم، فإذا شربوه قطَّع أمعاءَهم وأخرجها من دبورهم. والأمعاء: جمع مِعًى، والتثنية مِعْيان، وهو جميعُ ما في البطن من الحوايا(٦).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي: من هؤلاء الذين يتمتعون ويأكلون كما

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ .

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٤ دون نسبة.

(٣) زاد المسير ٧/ ٤٠١ .

(٤) في معاني القرآن له ٥/ ١٠ .

(٥) في النسخ الخطية: دني، والمثبت من (م).

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ .

تأكل الأنعام، وُزيِّن لهم سوءُ عملهم، قومٌ يستمعون إليك. وهم المنافقون: عبدُ الله ابن أُبيّ ابن سَلُول، ورفاعةُ بن التابوت، وزيدُ بن الصليت، والحارثُ بن عمرو، ومالكُ بن دُخْشم، كانوا يحضرون الخطبةَ يوم الجمعة، فإذا سمعوا ذكرَ المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه. قاله الكلبي ومقاتل. وقيل: كانوا يحضرون عندَ رسول الله ﷺ مع المؤمنين، فيستمعون منه ما يقول، فيَعيه المؤمن ولا يعيه الكافر[١]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: إذا فارقوا مجلسَك. ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ قال عكرمة: هو عبدُ الله بن العباس[٢]. قال ابن عباس: كنت ممن يُسأل[٣]، أي: كنت من الذين أوتوا العلم.

وفي رواية عن ابن عباس: أنه يريد عبدَ الله بن مسعود[٤]. وكذا قال عبد الله بن بريدة: هو عبد الله بن مسعود. وقال القاسم بن عبد الرحمن: هو أبو الدرداء. وقال ابن زيد: إنهم الصحابة[٥].

﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: الآن؛ على جهة الاستهزاء، أي: أنَّا لم نلتفت[٦] إلى قوله. و«آنِفاً» يراد به الساعة التي هي أقربُ الأوقات إليك[٧]، من قولك: استأنفت الشيء: إذا ابتدأتَ به. ومنه أمْرٌ أنُف، ورَوضة أنُف؛ أي: لم يرْعها أحد[٨]. وكأس أنُف: إذا لم يُشرب منها شيء، كأنَّه استؤنف شربُها، مثل روضة أنف[٩].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩٧ وفيه: «ولا يعيه المنافق» بدل «ولا يعيه الكافر».

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ ، والكشاف ٣/ ٥٣٤ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٠٤ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٧ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٥ دون ذكر أنه رواية عن ابن عباس.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ .

(٦) في النسخ عدا (د) و(ظ): ألتفت.

(٧) قوله: «إليك» من (م).

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٧٥ بنحوه.

(٩) الصحاح (أنف).

قال الشاعر:

ويَحْرُم سِرُّ جارتهم عليهم ويأكل جارُهم أُنُفَ القِصاعِ(١)

وقال آخر:

إنّ الشُّواء والنَّشِيلَ والرُّغُفْ والقَيْنَةَ الحسناءَ والكأسَ الأُنُفْ

للطاعنين الخيلَ والخيلُ خُنُفْ(٢)

وقال امرؤ القيس:

قد غَدَا يحملُني في أَنْفِهِ(٣)

أي: في أوّله. وأنْفُ كلِّ شيء أوّله.

وقال قتادة في هؤلاء المنافقين: الناس رجلان: رجلٌ عَقَل عن الله فانتفع بما سمع، ورجلٌ لم يعقلْ ولم ينتفعْ بما سمع. وكان يقال: الناس ثلاثة: فسامعٌ عامل، وسامعٌ عاقل، وسامعٌ غافل تارك(٤).

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلم يؤمنوا. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في الكفر. ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ أي: للإيمان؛ زادهم الله هدًى. وقيل: زادهم النبيّ ﷺ هدى(٥).

---

(١) البيت للحطيئة، وقوله: أُنُف القصاع، يعني جيد الطعام وصفوته، وسلف البيت ٤/ ١٤٩.

(٢) الرجز للقيط بن زرارة كما في الكامل ٢/ ٨٨٧. وهو أيضاً في الشعر والشعراء ٢/ ٧١١، وفيه: قُطُف، بدل: خُنُف. والخنف جمع خَنُوف، وهي الدابة إذا مالت بيديها في أحد شقيها من النشاط. اللسان (خنف).

ووقع في (خ) وهو حاشية في (ق) ما نصه: النشيل لحم يطبخ بلا توابل، والرُّغف جمع رغيف، ويقال: أرغفة ورغفان. اهـ. والكلام في الصحاح (نشل).

(٣) ديوان امرئ القيس ص١٤٦، وعجز البيت: لاحقُ الإطلَين محبوكٌ مُمَرّ، قال شارحه: يحملني في أنفه أي: في أول هذه المطْرة، وأنف كل شيء: أوله، لاحق الإطلين: يعني فرساً ضامر الكَشحين، والمحبوك: المدمج الخَلْق الشديد، والممر نحوه في المعنى.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٠٣.

(٥) تفسير الرازي ٢٨/ ٥٩ بنحوه.

وقيل: ما يستمعونه من القرآن هدًى، أي: يتضاعف يقينُهم. وقال الفرّاء[١]: زادهم إعراضُ المنافقين واستهزاؤهم هدًى. وقيل: زادهم نزولُ الناسخ هدًى.

وفي الهدى الذي زادهم أربعةُ أقاويل: أحدها: زادهم علماً. قاله الربيع بن أنس. الثاني: أنَّهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا. قاله الضحاك. الثالث: زادهم بصيرة في دينهم وتصديقاً لنبيِّهم. قاله الكلبيّ. الرابع: شرح صدورَهم بما هم عليه من الإيمان[٢].

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي: ألهمهم إياها[٣]. وقيل فيه خمسة أوجه: أحدها: آتاهم الخشيةَ. قاله الربيع. الثاني: ثوابَ تقواهم في الآخرة. قاله السدّي. الثالث: وفَّقهم للعمل الذي فرض عليهم. قاله مقاتل. الرابع: بيَّن لهم ما يتقون. قاله ابن زياد والسدّيّ أيضاً. الخامس: أنه تركُ المنسوخ والعملُ بالناسخ. قاله عطية. الماوردي[٤]. ويحتمل سادساً: أنه تركُ الرُّخَص والأخذُ بالعزائم[٥].

وقرئ: «وَأَعْطَاهُمْ» بدل: «وآتاهُمْ»[٦]. وقال عكرمة: هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب[٧].

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً. وهذا وعيد

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ٦١ بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ وما قبله منه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ وما قبله منه دون قول السدي: بيَّن لهم ما يتقون، وهو في الكشاف ٣/ ٥٣٤ .

(٥) مجمع البيان ٢٦/ ٣٨ .

(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٤ .

(٧) زاد المسير ٧/ ٤٠٣ .

للكفار. ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ أي: أماراتها وعلاماتها[١]. وكانوا قد قرؤوا في كتبهم أنَّ محمداً ﷺ آخر الأنبياء، فَبَعْثُه من أشراطها وأدلتها. قاله الضحاك والحسن[٢].

وفي الصحيح عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بعثت أنا والساعةَ كهاتين» وضمّ السبابة والوسطى، لفظ مسلم: وخرّجه البخاريّ والترمذيّ وابن ماجه[٣].

ويروى: «بعثتُ والساعةَ كَفَرَسَي رِهان»[٤]. وقيل: أشراطُ الساعة: أسبابُها التي هي دون معظمها، ومنه يقال للدُّون من النَّاس: الشَّرَط[٥].

وقيل: يعني علامات الساعة؛ انشقاق القمر، والدخان، قاله الحسن أيضاً[٦].

وعن الكلبي: كثرةُ المال، والتجارة، وشهادة الزور، وقطع الأرحام، وقلةُ الكرام، وكثرة اللئام[٧]. وقد أتينا على هذا الباب في كتاب «التذكرة» مستوفىً والحمد لله[٨].

وواحد الأشراط شَرَط، وأصله الأعلام. ومنه قيل: الشُّرَط؛ لأنَّهم جعلوا لأنفسهم علامةً يعرفون بها، ومنه الشَّرْط في البيع وغيره[٩].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٩ بنحوه عند الضحاك.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٥١): (١٣٥)، وصحيح البخاري (٦٥٠٤)، وسنن الترمذي (٢٢١٤) وهو في مسند أحمد (١٢٢٤٥) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري (٦٥٠٥)، وابن ماجه (٤٠٤٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤٤٣١)، وابن ماجه (٤٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وسلف حديث أنس ﷺ ١٢/ ٢٦٨.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٩)، والبيهقي في الشعب (١٠٢٣٧)، وأبو الشيخ في الأمثال (٣٤٧) من حديث سهل بن سعد ﷺ. قوله: كفرسي رهان: أي: يتسابقان إلى غاية. النهاية (فرس).

(٥) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٩.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٩ دون ذكر الدخان.

(٧) الكشاف ٣/ ٣٥٣.

(٨) ص٦٢٤ فما بعدها.

(٩) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٨-٣٠٩.

قال أبو الأسود:

فإن كنتَ قد أزْمَعْتَ بالصَّرْم بيننا فقد جَعَلَتْ أشراطُ أوّله تبدو[١]

ويقال: أشرطَ فلان نفسه في عمل كذا أي: أعلمها وجعلها له. قال أوس بن حجر يصف رجلاً تدلَّى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعة ليقطعها يَتخذ[٢] منها قوسًا:

فأشْرَطَ فيها نفسَه[٣] وهو مُعْصِمٌ وألقى بأسبابٍ له وَتَوَكَّلا[٤]

﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ «أنْ» بدل اشتمال من «الساعة»، نحو قوله: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ من قوله: ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾.

وقرئ: «بَغَتَّةً» بوزن جَرَبَّة[٥]، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختُها، وهي مَرْوية عن أبي عمرو. الزمخشري[٦]: وما أخوفني أن تكون غلطةً من الراوي عن أبي عمرو، وأن يكون الصواب «بَغَتة» بفتح الغين من غير تشديد، كقراءة الحسن.

وروى أبو جعفر الرؤاسي وغيره من أهل مكة: «إن تأْتِهِمْ بَغْتَةً»[٧].

قال المهدويّ: ومن قرأ: «إن تَأْتِهِمْ بَغْتَةً» كان الوقف على «السَّاعَة»، ثمَّ استأنف الشرط. وما يحتمله الكلام من الشكِّ مردودٌ إلى الخلق، كأنه قال: إن شكُّوا في مجيئها «فَقَدْ جاءَ أشْرَاطُهَا».

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ «ذِكْرَاهُمْ» ابتداء، و«أنّى لَهُمْ» الخبر. والضمير المرفوع في «جاءَتْهُمْ» للساعة؛ التقدير: فمن أين لهم التذكُّر إذا جاءتهم

---

(١) البيت في الأغاني ١٢/ ٣٣٤، والكشاف ٣/ ٥٣٥. الصَّرْم: الهجران اللسان (صرم). وهي أبيات قالها في أبي الجارود الشاعر وكان قد هجره كما في الأغاني.

(٢) في (م): يقطعها ليتخذ.

(٣) في النسخ: نفسه فيها، والمثبت من جمهرة اللغة (رشط) ـ والكلام فيه بنحوه، ومما سلف ٥/ ٢٣٧.

(٤) جاء في (خ) و(ز) بعد البيت ـ وهو في حاشية (ق) ـ ما نصه: النبع شجرٌ يتخذ منه القسيّ، الواحدة: نبعة، ويتخذ من أغصانها السهام. اهـ. وهذا الكلام في الصحاح (نبع).

(٥) أي: جماعة الحُمُر. اللسان (جرب).

(٦) في الكشاف ٣/ ٥٣٥ وما قبله منه، والقراءة أيضاً في المحرر الوجيز ٥/ ١١٦، والمحتسب ٢/ ٢٧١.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١١٦، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢٧٠، ووقع في النسخ عدا (م) و(ق) تأتيهم.

الساعة. قال معناه قتادة وغيره[١].

وقيل: فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة! قاله ابن زيد[٢].

وفي الذكرى وجهان: أحدهما: تذكيرُهم بما عملوه من خير أو شرّ. الثاني: هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيراً وتخويفاً، روى أبان عن أنس، عن النبيّ ﷺ قال: «أحسنوا أسماءَكم، فإنكم تُدْعَون بها يوم القيامة: يا فلانُ قُمْ إلى نُورِك، يا فلانُ قُم لا نُور لك» ذكره الماوَرْدِي[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قال الماوردي[٤]: وفيه ـ وإن كان الرسول عالماً بالله ـ ثلاثة أوجه: يعني إِعلم أنَّ الله أعلمك أن لا إله إلا الله. الثاني: ما علمتَه استدلالاً فاعلمْه خبراً يقيناً. الثالث: يعني فاذكر أن لا إله إلا الله، فعبّر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه.

وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضْل العلم فقال: ألم تسمع قولَه حين بدأ به ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم وقال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ إلى قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٢٠-٢١] وقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: ٢٨]. ثم قال بعد: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١]. ثم أمر

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٣ دون نسبة، وذكر معنى قول قتادة أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٣، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٢٤.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٩.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٩٩-٣٠٠، وذكره الديلمي في الفردوس ١/ ٩٨، وسلف ١٣/ ١٠١ بنحوه عن أبي الدرداء وإسناده منقطع.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٣٠٠.

(٥) كذا وقع في النسخ، والكشاف ٣/ ٥٣٥، والكلام منه، ولعله يريد الآية (١٤) من التغابن: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾.

بالعمل بعد.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: يعني استغفر الله إنْ يقع منك ذنب. الثاني: استغفر الله ليعصمَك من الذنوب[١].

وقيل: لما ذكر له حالَ الكافرين والمؤمنين، أمره بالثبات على الإيمان، أي: اثبُتْ على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذَر عما تحتاج معه إلى استغفار[٢].

وقيل: الخطابُ له، والمرادُ به الأمة، وعلى هذا القول توجب الآيةُ استغفارَ الإنسان لجميع المسلمين[٣].

وقيل: كان عليه الصلاة والسلام يضيق صدرُه من كفر الكفار والمنافقين؛ فنزلت الآية. أي: فاعلم أنَّه لا كاشفَ يكشف ما بك إلا الله؛ فلا تعلِّق قلبَك بأحد سواه.

وقيل: أمر بالاستغفار لتقتديَ به الأمة[٤]. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: ولذنوبهم. وهذا أمرٌ بالشفاعة[٥].

وروى مسلم عن عاصم الأحول، عن عبد الله بن سَرْجِس المخزوميّ قال: أتيت النبيَّ ﷺ وأكلتُ من طعامه فقلت: يا رسول الله، غفر الله لك! فقال له صاحبي: هل استغفر لك النبي ﷺ؟ قال: نعم، ولك. ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ثم تحوّلت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه، جُمعٌ[٦]؛ خِيلانٌ كأنه الثآليل[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٥ بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١٦.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٢ بنحوه.

(٥) الوسيط ٤/ ١٢٥.

(٦) كذا في (خ) و(د) و(ز) و(ف) و(ق)، وفي (ظ): جميع، وهي نسخة كما ذكر النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٥/ ٩٩. ووقع في (م): جمعاً.

(٧) صحيح مسلم (٢٣٤٦) بنحوه وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً بنحوه أحمد (٢٠٧٧٨). قوله: =

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: يعلم أعمالكم في تصرفكم وإقامتكم[١]. الثاني: «مُتَقَلَّبَكُمْ» في أعمالكم نهاراً «وَمَثْوَاكُمْ» في ليلكم نياماً[٢].

وقيل: «مُتَقَلَّبَكُمْ» في الدنيا. «وَمَثْوَاكُمْ» في الدنيا والآخرة. قاله ابن عباس والضحاك. وقال عكرمة: «مُتَقَلَّبَكُمْ» في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات. «وَمَثْوَاكُمْ»: مُقامكم في الأرض. وقال ابن كَيْسان: «مُتَقَلَّبَكُمْ» من ظهر إلى بطن إلى الدنيا. «وَمَثْوَاكُمْ» في القبور[٣].

قلت: والعموم يأتي على هذا كلِّه، فلا يخفى عليه سبحانه شيءٌ من حركات بني آدمَ وسَكَناتهم، وكذا جميع خلقه. فهو عالم بجميع ذلك قبلَ كونه؛ جملةً وتفصيلاً؛ أُولَى وأُخرَى. سبحانه، لا إله إلا هو.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: المؤمنون المخلصون. ﴿لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾ اشتياقاً للوَحْي وحرصاً على الجهاد وثوابه. ومعنى «لَوْلَا» هلا[٤]. ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ﴾ لا نسخ فيها. قال قتادة: كلُّ سورة ذكر فيها الجهاد فهي مُحْكمة، وهي أشدُّ

= جمع؛ يريد مثل جُمع الكف؛ وهو أن يجمع الأصابع ويضمها. خيلانٌ: جمع خال؛ وهو الشامة في الجسد. الثآليل: جمع ثؤلول: وهو هذه الحبة التي تظهر في الجلد كالحمّصة فما دونها. النهاية (جمع) (خيل) (ثأل).

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣ .

(٤) زاد المسير ٧/ ٤٠٥ .

القرآن على المنافقين[١]. وفي قراءة عبد الله: «فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْدَثَةٌ»[٢]، أي: محدَثةُ النزول. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي: فُرض فيها الجهاد[٣].

وقرئ: «فَإِذَا نَزَلَتْ[٤] سُورَةٌ، وَذَكَرَ فِيهَا القِتَالَ» على البناء للفاعل ونصب القتال. ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكٌّ ونفاق[٥]. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: نظر مغمومين[٦] مغتاظين بتحديد وتحديق، كمن يشخص بصرَه عند الموت؛ وذلك لجبنهم عن القتال جزعاً وهَلَعاً[٧]، ولميلهم في السرّ إلى الكفار.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ «فأَوْلَى لَهُمْ» قال الجوهريّ[٨]: وقولهم: أَوْلَى لَكَ، تهديد ووعيد. قال الشاعر:

فأَوْلَى ثمّ أَوْلَى ثمّ أَوْلَى ... وهل لِلدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

قال الأصمعي: معناه قارَبَه ما يُهْلِكه؛ أي: نزل به. وأنشد:

فعَادَى بين هادِيَتَيْن منها ... وأَوْلَى أن يزيدَ على الثلاثِ[٩]

أي: قارب أن يزيد. قال ثعلب: ولم يقل أحد في «أَوْلَى» أحسنَ مما قال الأصمعي[١٠].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢١٠ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠ ، والكشاف ٣/ ٥٣٥ .

(٣) زاد المسير ٧/ ٤٠٥ .

(٤) في (م) و(خ): أنزلت، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف ٣/ ٥٣٥ والكلام منه.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٤ .

(٦) في (م) و(خ): مغموصين، والمثبت من باقي النسخ.

(٧) تأويل مشكل القرآن ص٣٥٢ ، والكشاف ٣/ ٥٣٥ بنحوه.

(٨) في الصحاح (ولى)، والبيت الآتي لعبد الله بن الزبير الأسدي كما في الأغاني ١٤/ ٢٣٧ .

(٩) البيت أيضاً في خزانة الأدب ٩/ ٣٤٥ قال البغدادي: قال ابن عقيل: عادى؛ من العِداء، وهو الموالاة بين الصيدين بصرع أحدهما على إثر الآخر في طلق واحد، والهادية: أوَّل الوحش.

(١٠) الصحاح (ولى)، وتهذيب اللغة ١٥/ ٤٤٨ .

وقال المُبَرِّد: يقال لمن هَمَّ بالعَطَب[١] ثم أفْلَت: أوْلى لك؛ أي: قاربت العطب[٢].

كما رُوِي أنَّ أعرابيًا كان يوالي رَميَ الصيد، فيُفْلِت منه فيقول: أوْلى لك. ثمَّ رمى صيداً فَقاربه ثمَّ أفلت منه فقال:

فلو كان «أوْلَى» يُطعِم القومَ صِدْتُهم ولكنّ «أوْلَى» يَتْرُكُ القومَ جُوَّعا[٣]

وقيل: هو كقول الرجل لصاحبه: يا محروم، أيُّ شيء فاتك[٤]؟

وقال الجُرْجَانيْ: هو مأخوذ من الويل، فهو أفعل، ولكن فيه قلب؛ وهو أنَّ عينَ الفعل وقع موقع اللام. وقد تَمَّ الكلام على قوله: «فأَوْلَى لَهُمْ».

قال قتادة: كأنه قال: العِقاب أوْلَى لهم[٥]. وقيل: أي: وَلِيَهم المكروه[٦].

ثم قال: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ» أي: طاعة وقول معروف أمثل وأحسن، وهو مذهب سيبويه والخليل.

وقيل: إنَّ التقدير: أمرنا طاعة وقول معروف[٧]؛ فحذف المبتدأ، فيوقف على «فأوْلَى لَهُمْ». وكذا من قدّر: يقولون مِنّا طاعة[٨]، وهي قراءة أُبيّ: «يقولون طاعة»[٩].

---

(١) في (ظ): همَّ بالغضب.

(٢) في (ظ): قاربت الغضب.

(٣) في (د) و(ظ) و(ق) صيدهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٧٩ والكلام منه، والبيت أيضاً في الكامل ٣/ ١٤١٦، والخزانة ٩/ ٣٤٦. قال البغدادي: هو بيت لرجل يقتنص الصيد، فإذا أفلته الصيد قال: أولى لك. اهـ. وقوله: صدتُهم، أي: صدتُ لهم، قال في اللسان: صدت فلاناً صيداً: إذا صدتَه له. اللسان (صيد).

(٤) تهذيب اللغة ١٥/ ٤٤٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٠١.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٤.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٧.

(٨) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤.

(٩) قوله: وهي قراءة أُبيّ... الخ، وقع في (ظ) في هذا الموضع، وهو الصواب، ووقع في باقي النسخ =

وقيل: إن الآية الثانية متصلةٌ بالأولى. واللام في قوله: «لَهُم» بمعنى الباء[١]؛ أي: الطاعة أولى وأليقُ بهم، وأحقُّ لهم من ترك امتثال أمر الله.

وقيل إن: «طَاعَةٌ» نعت لـ «سورة»؛ على تقدير: فإذا أنزلت سورة ذاتُ طاعة. فلا يوقف على هذا على «فَأَوْلَى لَهُمْ»[٢].

قال ابن عباس: إن قولهم: «طَاعَةٌ» إخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ عن المنافقين. والمعنى: لهم طاعةٌ وقولٌ معروف، قيل: وجوب الفرائض عليهم، فإذا أنزلت الفرائض شقَّ عليهم نزولُها. فيوقف على هذا على «فَأَوْلَى».

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جدّ القتال، أو وجب فرض القتال[٣]، كرهوه. فكرهوه جواب «إذا» وهو محذوف.

وقيل: المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر[٤]. ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في الإيمان والجهاد[٥]. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من المعصية والمخالفة.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ اختلف في معنى «إن تَوَلَّيْتُمْ» فقيل: هو من الولاية.

= بعد قوله: «وأحقُّ لهم من ترك امتثال أمر الله». الآتي. وهي في الكشاف ٣/ ٥٣٦، والرازي ٢٨/ ٦٣.

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤. وقال مكي: القولان الأولان أبين وأشهر.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٣ بنحوه.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٦، وتفسير الرازي ٢٨/ ٦٣.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨١.

قال أبو العالية: المعنى فهل عسيتم إن تولَّيتم الحكمَ فجُعِلتم حكّاماً أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرُّشَا. وقال الكلبيّ: أي: فهل عسيتم إن تولَّيتم أمرَ الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم. وقال ابن جريج: المعنى: فهل عسيتم إن تولَّيتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطعِ الأرحام(١).

وقال كعب: المعنى: فهل عسيتم إن تولَّيتم الأمرَ أن يقتلَ بعضُكم بعضاً(٢).

وقيل: من الإعراض عن الشيء.

قال قتادة: أي: فهل عسيتم إن تولَّيتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام، وتقطعوا أرحامَكم(٣).

وقيل: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ» أي: فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامَه، أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم(٤).

وقرىء بفتح السين وكسرها(٥). وقد مضى في «البقرة» القول فيه مستوفًى(٦).

وقال بكر المزني: إنَّها نزلت في الحَرُوريّة والخوارج. وفيه بُعدٌ، والأظهر أنه إنما عُني بها المنافقون. وقال ابن حيان: قريش(٧).

ونحوه قال المسيّب بن شريك والفرّاء، قالا: نزلت في بني أمية وبني هاشم(٨)، ودليل هذا التأويل ما روى عبدُ الله بن مُغَفّل قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: ﴿فَهَلْ

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠١ - ٣٠٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٠٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣.

(٥) قرأ نافع بكسر السين، والباقون بالفتح. السبعة ص٦٨١، والتيسير ص١٨٦.

(٦) ٤/ ٢٢٩.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٢ دون ذكر الحرورية، وذكر أنها في الحرورية النحاس في معاني القرآن له ٦/ ٤٨٢.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤.

عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثمَّ قال: «هم هذا الحيّ من قريش؛ أخذ الله عليهم إن وَلُوا الناسَ ألَّا يفسدوا في الأرض ولا يقطِّعوا أرحامَهم»[١].

وقرأ عليّ بن أبي طالب: «إِن تُوُلِّيْتُم أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ» بضم التاء والواو وكسر اللام[٢]. وهي قراءة ابن أبي إسحاق، ورواها رُوَيس عن يعقوب[٣].

يقول: إن وليتُكم ولاةٌ جائرةٌ، خرجتم معهم في الفتنة وحاربتموهم[٤]. ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ بالبغي والظلم والقتل[٥].

وقرأ يعقوب وسلام وعيسى وأبو حاتم: «وتَقْطَعُوا»[٦] بفتح التاء وتخفيف القاف، من القطع؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة:٢٧]. وروى هذه القراءةَ هارونُ عن أبي عمرو[٧]. وقرأ الحسن: «وَتَقَطَّعُوا» مفتوحةَ الحروف مشدّدة[٨]؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [الأنبياء:٩٣]. الباقون: «وتُقَطِّعُوا» بضم التاء مشدّدة الطاء، من التقطيع على التكثير، وهو اختيار أبي عبيد. وتقدّم ذكر «عَسَيْتُمْ» في «البقرة»[٩].

وقال الزجاج[١٠] في قراءة نافع: لو جاز هذا لجاز «عَسِي» بالكسر.

قال الجوهري[١١]: ويقال عَسَيت أن أفعل ذلك، وعَسِيت بالكسر. وقرىء: «فَهَلْ عَسِيْتُمْ» بالكسر.

---

(١) أخرجه الطبري في تهذيبه كما في فتح الباري ٨/ ٥٨١ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٤٠ ، والمحتسب ٢/ ٢٧٢ .

(٣) النشر ٢/ ٣٧٤ ، وهي من العشرة.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٢٧ .

(٦) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤ ، وهي من العشرة، وقراءة سلام في القراءات الشاذة ص١٤٠ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١١٨ دون ذكر هارون.

(٨) البحر المحيط ٨/ ٨٢ .

(٩) ٤/ ٢٢٩ .

(١٠) في معاني القرآن له ٥/ ١٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٧ .

(١١) في الصحاح (عسا).

قلت: ويدل قوله هذا على أنَّهما لغتان. وقد مضى القول فيه في «البقرة» مستوفًى[(١)].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طَردَهم وأبعدَهم من رحمته[(٢)] ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن الحقّ ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي: قلوبَهم عن الخير. فأتبع الأخبارَ بأنَّ مَن فعل ذلك حقّت عليه لعنته، وسلبه الانتفاعَ بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل. وقال: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ» ثم قال: «أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ» فرجع من الخطاب إلى الغَيبة على عادة العرب في ذلك.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي: يتفهمونه فيعلمون ما أعدّ الله للذين لم يتولّوا غير[(٣)] الإسلام. ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي: بل على قلوب أقفالٌ أقفلَها الله عزَّ وجلَّ عليهم فهم لا يعقلون[(٤)]. وهذا يردّ على القدرية والإمامية مذهبَهم.

وفي حديث مرفوع أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنَّ عليها أقفالاً كأقفالِ الحديد حتى يكون اللهُ يفتحها»[(٥)]. وأصل القَفْل: اليُبس والصلابة.

ويقال لما يبس من الشجر: القَفْل. والقفيل مثله. والقَفِيل أيضاً: نبت. والقفيل: السوط[(٦)]. قال الراجز:

---

(١) ٤/ ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٥ .

(٣) في (م): عن.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٢١٥ .

(٥) كذا ذكر المصنف رحمه الله، والذي أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢١٧ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٢٧ ، والبغوي ٤/ ١٨٤ ، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه. قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ فقال شابٌّ من أهل اليمن: بل على قلوب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرِّجها. واللفظ للبغوي.

(٦) في (م) و(د) و(ز) و(ق): الصوت، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح والكلام منه.

لـمّـا أتـاك يـابـسـاً قِـرْشـبّـاً قـمـتَ إلـيـه بـالـقَـفِـيـل ضـربـا

كـيـف قَـرَيْـتَ شَـيْـخَـك الأزَبّـا[١]

القِرشَبُّ؛ بكسر القاف: المُسِنّ؛ عن الأصمعي. وأقفله الصوم، أي: أيبسه. قاله القشيريّ والجوهريّ[٢]. فالأقفال هاهنا إشارة إلى ارتتاج القلب وخلوّه عن الإيمان. أي: لا يدخل قلوبَهم الإيمانُ ولا يخرج منها الكفر؛ لأنَّ الله تعالى طبع على قلوبهم وقال: «عَلَى قُلُوبٍ» لأنَّه لو قال: على قلوبهم، لم يدخل قلبُ غيرهم في هذه الجملة. والمراد: أم على قلوب هؤلاء وقلوبِ من كانوا بهذه الصفة أقفالُها.

الثالثة: في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله خلقَ الخلْقَ، حتى إذا فرغ منهم، قامت الرَّحِم فقالت: هذا مَقامُ العائذ بك من القطيعة. قال: نَعَمْ: أما ترضَين أنْ أصِلَ من وصَلَكِ وأقطعَ من قطعكِ؟ قالت: بلى. قال: فذاك لكِ ـ ثمَّ قال رسولُ الله ﷺ ـ اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ . أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾»[٣]

وظاهر الآية أنَّها خطاب لجميع الكفار. وقال قتادة وغيره: معنى الآية فلعلَّكم، أو يخاف عليكم، إن أعرضتم عن الإيمانِ أن تعودوا إلى الفساد في الأرض بسفك[٤] الدماء[٥].

قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تَوَلَّوْا عن كتاب الله تعالى! ألم يسفكوا الدماءَ

---

(١) الصحاح (قفل) (قرشب)، ونسب الرجزَ في اللسان (قفل) لأبي محمد الفقعسي، وهو أيضاً في الأصمعيات ص١٦٣ دون نسبة وباختلاف في ترتيبه، وفيه: (يائساً) بدل (يابساً)، و(ضيفك) بدل (شيخك). قوله: الأزبّ، أي: كثير شعر الذراعين والحاجبين والعينين. اللسان (زبب).

(٢) في الصحاح (قرشب) دون قوله: وأقفله الصوم أي: أيبسه. وهو في تهذيب اللغة ٩/ ١٦١ .

(٣) صحيح مسلم (٢٥٥٤)، وأخرجه أحمد (٨٣٦٧)، والبخاري (٤٨٣٠).

(٤) في (م) لسفك.

(٥) المفهم ٦/ ٥٢٦ .

الحرام ويقطعوا الأرحامَ وعصَوُا الرَّحمن(١).

فالرَّحِم على هذا رَحِمُ دين الإسلام والإيمان، التي قد سمَّاها الله أُخُوَّة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وعلى قول الفرّاء: إنَّ الآية نزلت في بني هاشم وبني أمية(٢)، والمراد: مَن أضمر منهم نفاقاً؛ فأشار بقطع الرحِم إلى ما كان بينهم وبين النبيّ ﷺ من القرابة بتكذيبهم النبيّ ﷺ. وذلك يوجب القتال.

وبالجملة؛ فالرحمُ على وجهين: عامَّة وخاصَّة. فالعامَّة رحِم الدين، ويجب مواصلتُها بملازمة الإيمان، والمحبةِ لأهله ونُصرتِهم، والنصيحةِ وتركِ مضارتهم، والعدل بينهم، والنَّصَفة في معاملتهم، والقيام بحقوقهم الواجبة؛ كتمريض المرضى، وحقوق الموتى مِن غسلهم، والصلاةِ عليهم ودفنهم، وغير ذلك من [الحقوق] المترتبة لهم.

وأما الرَّحم الخاصَّة ـ وهي رحمُ القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه ـ فتجب لهم الحقوقُ العامة(٣) وزيادة؛ كالنفقة، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم؛ وتتأكد في حقِّهم حقوقُ الرحم العامةِ، حتى إذا تزاحمت الحقوقُ بدئ بالأقرب فالأقرب.

وقال بعض أهل العلم: إنَّ الرَّحم التي تجب صلتُها هي كلُّ رَحِم مَحْرَم، وعليه فلا تجب في بني الأعمام وبني الأخوال. وقيل: بل هذا في كلِّ رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوي الأرحام في المواريث، مَحْرَماً كان أو غير مَحْرَم. فيخرج من هذا أنَّ رحمَ الأمِّ التي لا يُتوارث بها لا تجب صلتُهم ولا يحرم قطعُهم. وهذا ليس بصحيح، والصواب أنَّ كلَّ ما يشمله ويعمُّه الرحم تجب صلته على كل حال، قربةً ودينية؛ على ما ذكرناه أولاً، والله أعلم(٤).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ . وفيه: الدم الحرام، وقطَّعوا...

(٢) المفهم ٦/ ٥٢٦ .

(٣) في (م) و(د) و(ز) و(ق) الخاصة، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لما في المفهم والكلام منه.

(٤) المفهم ٦/ ٥٢٤ و٥٢٧ - ٥٢٨ .

وقد روى أبو داود الطيالسي في مسنده[١] قال: حدثنا شعبة قال: أخبرني محمد ابن عبد الجبار، قال: سمعت محمد بن كعب القُرَظي يحدّث عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ للرَّحم لساناً يوم القيامة تحت العرش، يقول: يا ربِّ قُطعتُ، يا ربِّ ظُلمت، يا ربِّ أُسيء إليّ، فيجيبها ربُّها: ألا تَرْضَيْن أن أصلَ مَن وصلكِ وأقطعَ مَن قطعكِ».

وفي صحيح مسلم عن جُبير بن مُطعِم، عن النبيّ ﷺ قال: «لا يدخل الجنةَ قاطع». قال ابن أبي عمر: قال سفيان: يعني قاطعَ رَحِم. ورواه البخاري[٢].

الرابعة: قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله تعالى خلق الخلْقَ حتى إذا فرغ منهم...» «خلق» بمعنى اخترع، وأصله التقدير، كما تقدم[٣]. والخلق هنا بمعنى المخلوق. ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١] أي: مخلوقه. ومعنى «فرغ منهم»: كَمَّل خلقَهم. لا أنَّه اشتغل بهم ثمَّ فرغ من شُغْله بهم؛ إذ ليس فعلُه بمباشرة ولا مناولة، ولا خَلْقُه بآلة ولا محاولة، تعالى عن ذلك[٤].

وقوله: «قامت الرّحم فقالت» يحمل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكونَ اللهُ تعالى أقام من يتكلم عن الرَّحم من الملائكة فيقول ذلك، وكأنّه وكَّل بهذه العبادة من يناضل عنها ويكتب ثوابَ من وصلها ووِزْر مَن قطعَها؛ كما وكَّل الله بسائر الأعمال كراماً كاتبين، وبمشاهدة أوقات الصلوات ملائكةً متعاقبين.

وثانيهما: أنَّ ذلك على جهة التقدير والتمثيل المُفْهِم للإغياء[٥] وشدّة الاعتناء.

---

(١) برقم (٢٥٤٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٥٥٦) (١٨)، وصحيح البخاري (٥٩٨٤)، وهو في مسند أحمد (١٦٧٦٣).

(٣) ١/ ٣٤١ ، وسلف الحديث في المسألة قبلها.

(٤) المفهم ٦/ ٥٢٤ .

(٥) في النسخ عدا (خ) للاعياء، والمثبت من (خ) وهو الموافق لما في المفهم ٦/ ٥٢٥ والكلام منه.

فكأنه قال: لو كانت الرَّحم ممن يعقل ويتكلم لقالت هذا الكلام، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] [الحشر: ٢١].

وقوله: «فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة» مقصود هذا الكلام: الإخبارُ بتأكّد أمر صلة الرحم، وأن الله سبحانه قد نزّلها بمنزلة من استجار به فأجاره، وأدخله في ذمَّته وخَفارته[2]. وإذا كان كذلك فجارُ الله غيرُ مخذول، وعهدُه غيرُ منقوض. ولذلك قال مخاطباً للرَّحِم: «أمَا تَرْضَيْن أن أصلَ مَن وَصَلكِ وأقطع مَن قطعكِ». وهذا كما قال عليه الصلاة والسلام: «من صلَّى الصبحَ فهو في ذمة الله تعالى، فلا يطلبنكم اللهُ من ذمَّته بشيء، فإنه من يطلبُه بذمته بشيء يدركه، ثمَّ يَكُبّه في النار على وجهه»[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾

قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب، كفروا بالنبيّ ﷺ بعد ما عرفوا نعتَه عندهم. وقاله ابن جريج[4]. وقال ابن عباس والضحاك والسدي: هم المنافقون[5]، قعدوا عن القتال بعد ما علموه في القرآن.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زيّن لهم خطاياهم. قاله الحسن. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: مدّ لهم الشيطان في الأمل، ووعدهم طولَ العمر؛ عن الحسن أيضاً. وقال: إنَّ الذي

---

(١) المفهم ٦/ ٥٢٤ - ٥٢٥.

(٢) الخَفارة: الأمان. اللسان (خفر).

(٣) أخرجه مسلم (٦٥٧): (٢٦٢)، وأخرجه أحمد (١٨٨١٤) مختصراً، من حديث جندب البجلي، وأخرجه أحمد (٥٨٩٨) ـ مختصراً أيضاً ـ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٠٢.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤.

أملى لهم في الأمل ومدّ في آجالهم هو الله عزّ وجلّ. قاله الفرّاء والمفضل. وقال الكَلْبيّ ومقاتل: إنَّ معنى «أَمْلَى لَهُمْ»: أمهلهم؛ فعلى هذا يكون الله تعالى أَمْلَى لهم بالإمهال في عذابهم[(١)].

وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة: «وَأُمْلِيَ لَهُمْ»[(٢)] بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء؛ على ما لم يسمَّ فاعله[(٣)]. وكذلك قرأ ابن هُرْمُز ومجاهد والجَحْدرِيُّ ويعقوب، إلا أنَّهم سكَّنوا الياء؛ على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم؛ كأنَّه قال: وأنا أملي لهم[(٤)]. واختاره أبو حاتم، قال: لأنَّ فتح الهمزة يُوهم أنَّ الشيطان يملي لهم، وليس كذلك؛ فلهذا عدل إلى الضم. قال المهدويّ: ومن قرأ: «وَأَمْلَى لَهُمْ» فالفاعل اسم الله تعالى. وقيل: الشيطان. واختار أبو عبيد قراءةَ العامة، قال: لأنَّ المعنى معلوم؛ لقوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح:٩] ردّ التسبيحَ على اسم الله، والتوقيرَ والتعزيرَ على اسم الرسول.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ أي: ذلك الإملاء لهم حتى يتمادَوْا في الكفر بأنهم قالوا؛ يعني المنافقين واليهود ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وهم المشركون: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: في مخالفة محمد والتظاهر على عداوته، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره في السرِّ. وهم إنَّما قالوا ذلك سرًّا، فأخبر الله نبيَّه[(٥)].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠٣.

(٢) قراءة أبي عمرو في السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠١، وقراءة عيسى وشيبة في المحرر الوجيز ٥/ ١١٩. وقراءة أبي جعفر المشهورة عنه: «وأَمْلَى» كقراءة العامة. النشر ٢/ ٣٧٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤.

(٤) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٧٢، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤، وهي من العشرة، وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ بنحوه.

وقراءة العامة: «أَسْرَارَهُمْ» بفتح الهمزة جمع سِرّ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ الكوفيون وابن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «إِسْرَارَهُمْ» بكسر الهمزة على المصدر[١]، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩] جُمع لاختلاف ضروب السر[٢].

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧)﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ﴾ أي: فكيف تكون حالهم[٣]. ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ أي: ضاربين؛ فهو في موضع الحال[٤]. ومعنى الكلام التخويف والتهديد، أي: إن تأخر عنهم العذابُ فإلى انقضاء العمر. وقد مضى في «الأنفال» و«النحل»[٥].

وقال ابن عباس: لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه[٦].

وقيل: ذلك عند القتال نُصْرَةً لرسول الله ﷺ، بضرب الملائكة وجوهَهم عند الطلب، وأدبارَهم عند الهرب. وقيل: ذلك في القيامة عند سَوْقهم إلى النار[٧].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك جزاؤهم[٨]. ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٩، والسبعة ص٦٠١، والتيسير ص٢٠١، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩٠.
(٢) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٧٨.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩٠.
(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤.
(٥) ١٠/ ٤٤ - ٤٥ و١٢/ ٣١٥.
(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٧ بنحوه، ووقع في (ظ): يضرب ضرباً شديداً.
(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٣-٣٠٤.
(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩٠.

قال ابن عباس: هو كتمانُهم ما في التوراة من نعت محمد ﷺ[١]. وإن حُملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضمروا عليه من الكفر. ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ يعني: الإيمان. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: ما عملوه من صدقة وصلةِ رحم وغير ذلك؛ على ما تقدّم[٢].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: نفاق وشكٌّ[٣]، يعني المنافقين. ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ الأضغان ما يُضمر من المكروه.

واختلف في معناه؛ فقال السُّدِّيّ: غِشّهم. وقال ابن عباس: حسدهم. وقال قُطْرُب: عداوتهم، وأنشد قول الشاعر:

قل لابن هندٍ ما أردتَ بمَنْطِقٍ ساء الصديقَ وشيَّدَ الأضغانا

وقيل: أحقادهم[٤]. واحدها ضِغن[٥]. قال:

وذي ضغنٍ كففتُ النفسَ عنهُ

وقد تقدم[٦].

وقال عمرو بن كلثوم:

وإنَّ الضِّغنَ بعد الضِّغنِ يَفْشُو عليك ويُخرجُ الداءَ الدفينا[٧]

---

(١) الوسيط ٤/١٢٨، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٥.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥، وسلف ص٢٥٥ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٠٤.

(٤) المصدر السابق، وفيه: (وسرَّ ذا الأضغان) بدل (وشيد الأضغانا).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥.

(٦) صدر بيت للزبير بن عبد المطلب وعجزه: وكنت على مساءته مقيتا، وسلف ٦/ ٤٨٦.

(٧) شرح المعلقات للنحاس ٢/ ١٠١ ـ معلقة عمرو بن كلثوم ـ قال النحاس: الداء: يعني الحقد.

قال الجوهريّ: الضِّغن والضَّغينة: الحِقْد. وقد ضَغِنَ عليه ـ بالكسر ـ ضِغناً. وتضاغن القومُ واضْطَغَنُوا: انْطَوَوْا[١] على الأحقاد. واضْطَغَنْت الصبيَّ: إذا أخذتَه تحت حضنك. وأنشد الأحمر:

كــأنّــه مُــضْــطَــغِــنٌ صــبِــيَّــا[٢]

أي: حاملُه في حِجْره. وقال ابن مُقبل:

إذا اضطغنتُ سلاحي عند مَغْرِضِها ومِرفقٍ كرِئاس السيفِ إذْ شَسَفَا[٣]

وفرس ضاغن: لا يعطي ما عنده من الجري إلا بالضرب.

والمعنى: أم حسبوا أن لن يُظهرَ الله عداوتَهم وحقدَهم لأهل الإسلام. ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي: لعرَّفناكهم[٤].

قال ابن عباس: وقد عرّفه إيَّاهم في سورة براءة[٥].

تقول العرب: سأريك ما أصنع، أي: سأعلمك[٦]، ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] أي: بما أعلمك.

﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بعلاماتهم. قال أنس: ما خفيَ على النبيّ ﷺ بعد هذه الآية أحدٌ من المنافقين؛ كان يعرفهم بسيماهم[٧]. وقد كنا في غَزَاة وفيها سبعة من المنافقين يشكونهم الناس[٨]، فأصبحوا ذات ليلة وعلى جبهة كلِّ واحد منهم مكتوبٌ

---

(١) في النسخ: أبطنوا، والمثبت من الصحاح، والكلام منه.

(٢) الصحاح (ضغن)، والرجز أيضاً في غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ١٩٣ .

(٣) هذه رواية الصحاح، وفي ديوان ابن مقبل ص١٨٦ : (ثم اضطبنت) بدل (إذا اضطغنت). اضطبنت: أي: احتضنت، والمغرض: جانب البطن أسفل الأضلاع، ورئاس السيف: مقبضه، وشسَفَ، أي: يبس من الضمر والهزال. اللسان (ضبن) (غرض) (رأس) (شسف).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥ بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٢٢ .

(٦) تفسير الطبري ٢١/ ٢٢٢ .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥ ، والكشاف ٣/ ٥٣٧ .

(٨) في (ف): يشكوا الناس، وفي الكشاف ٣/ ٥٣٧ والكلام منه: يشكوهم الناس.

«هذا منافق» فذلك سيماهم[١].

وقال ابن زيد: قدَّر الله إظهارَهم، وأمر أن يُخرجوا من المسجد، فأبَوا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا الله، فحُقنت دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها[٢].

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: في فحواه ومعناه. ومنه قول الشاعر:

وخيرُ الكلام ما كان لَحْنَا

أي: ما عُرف بالمعنى ولم يُصَرَّح به[٣].

مأخوذ من اللَّحن في الإعراب، وهو الذهابُ عن الصواب، ومنه قول النبيّ ﷺ: «إنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض» أي: أذهبَ بها في الجواب لقوّته على تصريف الكلام[٤].

أبو زيد: لَحَنْتُ له ـ بالفتح ـ ألْحَنُ لَحْناً: إذا قُلْتَ له قوْلاً يفهمه عنك، ويخْفَى على غيره. ولَحِنَه هو عَنِّي ـ بالكسر ـ يلحَنه لَحْناً، أي: فهمه. وألحنته أنا إياه. ولاحنْتُ الناس: فاطنتُهم، قال الفَزاريّ:

وحديثٍ ألَذُّهُ هو ممّا يَنْعَت النَّاعِتُون يُوزَن وزْنَا
منطِقٌ رائعٌ وتَلْحَنُ أحيا نًا وخير الحديث ما كان لحنَا[٥]

يريد أنَّها تتكلم وهي تريد غيرَه، وتُعَرِّض في حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها. وقد قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾. وقال القَتَّال الكِلابيّ:

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٧، وفيه (تسعة) بدل (سبعة).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٢٣.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨٥-٤٨٦، وفيه: (وخير الحديث) بدل (وخير الكلام)، والشعر لمالك بن أسماء الفزاري وسيأتي قريباً.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٠٤-٣٠٥، والحديث سلف ٢/ ٢٧٤.

(٥) الصحاح (لحن) وهذه روايته، والبيت أيضاً في الشعر والشعراء ٢/ ٧٨٢، والأغاني ١٧/ ٢٣٦ وروايتهما فيه: (صائب) بدل (رائع)، و(أحلى) بدل (خير)، ووقع في الشعر والشعراء أيضاً (يشتهي) بدل (ينعت)، والفزاري قال ابن قتيبة: هو مالك بن أسماء بن خارجة، وآباؤه سادة غَطَفان.

ولقد وَحَيْتُ لكم لكيما تفهموا ولَحَنْتُ لحنًا ليس بالمرتابِ[(١)]

وقال مرار الأسدي:

ولحنتِ لحنًا فيه غشٌّ ورابني صدودُكِ تُرْضين الوُشاةَ الأعادِيا

قال الكلبي: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبيّ ﷺ منافق إلا عرفه[(٢)].

وقيل: كان المنافقون يخاطبون النبيَّ ﷺ بكلام تواضعوه فيما بينهم، والنبيُّ ﷺ يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد، فنبهه الله تعالى عليه، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامَهم.

قال أنس: فلم يَخْفَ منافقٌ بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ؛ عَرّفه الله ذلك بوحي أو علامة عرَفها بتعريف الله إياه[(٣)].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء منها.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: نتعبّدكم بالشرائع وإن علمنا عواقبَ الأمور، وقيل: لنعاملنَّكم معاملة المختبرين[(٤)].

﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ عليه. قال ابن عباس: «حَتَّى نَعْلَمَ»: حتى نميّز. وقال عليّ ﷺ: «حَتَّى نَعْلَمَ»: حتى نرى. وقد مضى في «البقرة»[(٥)].

---

(١) الصحاح (لحن) وهذه روايته، وهو في ديوان القتّال الكلابي ص٣٦ برواية:

ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا ووحيت وحياً ليس بالمرتاب

والقتّال الكِلابي: هو عبد الله بن مُجيب بن المضرحيّ، شاعر فارس. المؤتلف والمختلف للآمدي ص٢٥٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٥، والبيت السالف فيه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥، والكشاف ٣/ ٥٣٧.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥.

(٥) ٢/ ٤٣٧ - ٤٣٨.

وقراءة العامة بالنون في «نَبْلُونَّكُمْ» و«نعلم» «وَنَبْلُوَ». وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهنّ. وروى رُوَيس عن يعقوب إسكانَ الواو من «نبلو» على القطع مما قبل. ونصب الباقون ردًّا على قوله: «حَتَّى نَعْلَمَ[١]».

وهذا العِلمُ هو العِلمُ الذي يقع به الجزاء؛ لأنَّه إنَّما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم. فتأويله: حتى نعلمَ المجاهدين علمَ شهادة؛ لأنَّهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا، فالجزاءُ بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة[٢]. ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾: نختبرها ونظهرها.

قال إبراهيم بن الأشعث: كان الفُضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبتلنا[٣]؛ فإنَّك إذا بلوتنا فضحْتَنا وهتكْتَ أستارَنا[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾

يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود[٥].

وقال ابن عباس: هم المطعِمون يوم بدر. نظيرها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦] الآية[٦].

﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: عادوه وخالفوه. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: علموا أنه نبيّ بالحُجج والآيات. ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بكفرهم. ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: ثوابَ ما عملوه[٧].

---

(١) السبعة ص٦٠١، والتيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٢١.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦ بنحوه.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: لا تبتلينا.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢١ دون ذكر إبراهيم بن الأشعث.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٢١.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٧.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ لمَّا بيَّن حال الكفار، أمر المؤمنين بلزوم الطاعة في أوامره، والرسولِ في سننه.

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: حسناتِكم بالمعاصي. قاله الحسن. وقال الزُّهْرِي: بالكبائر. ابن جريج: بالرِّياء والسُّمعة[١]. وقال مقاتل والثُّمَاليّ: بالمَنّ[٢]؛ وهو خطاب لمن كان يمنّ على النبيّ ﷺ بإسلامه. وكلُّه متقارب، وقول الحسن يجمعه.

وفيه إشارة إلى أنَّ الكبائرَ تحبط الطاعات، والمعاصي تُخرِج عن الإيمان[٣].

الثانية: احتج علماؤنا وغيرُهم بهذه الآية على أنَّ التحللَ من التطوّع ـ صلاةً كان أو صوماً ـ بعد التلبس به لا يجوز؛ لأنَّ فيه إبطالَ العمل، وقد نهى الله عنه. وقال من أجاز ذلك ـ وهو الإمام الشافعي وغيرُه ـ: المراد بذلك إبطالُ ثواب العمل المفروض، فنهى الرجل عن إحباط ثوابه. فأمّا ما كان نفلاً فلا؛ لأنَّه ليس واجباً عليه. فإن زعموا أنَّ اللفظ عام، فالعامّ يجوز تخصيصه. ووجه تخصيصه أنَّ النَّفلَ تطوّع، والتطوّع يقتضي تخييراً[٤].

وعن أبي العالية: كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب، حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تُحبط الأعمال. وقال مقاتل: يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم[٥].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠٦.

(٢) زاد المسير ٧/ ٤١٢ دون نسبة.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٨ - ٥٣٩ بنحوه، وهذا كلام المعتزلة، ومذهب أهل السنة أن المعاصي لا تبطل الحسنات، ولا تُخرج صاحبها عن الإيمان، غير أن من أصرَّ عليها خيف عليه أن يرين على قلبه، فيخرجه من الإيمان. وينظر روح المعاني ٢٦/ ٧٩ - ٨٠، والداء والدواء ص١٠٣-١٠٥.

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٧٥.

(٥) لفظ قول مقاتل في تفسير البغوي ٤/ ١٨٦: «لا تَمُنُّوا على رسول الله ﷺ؛ فتبطلوا أعمالكم». وذكر قول أبي العالية بنحوه أيضاً الواحدي في الوسيط ٤/ ١٢٩، وأبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٧.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾

بيّن أنَّ الاعتبارَ بالوفاة على الكفر يوجبُ الخلودَ في النار. وقد مضى في «البقرة» الكلام فيه[١]. وقيل: إنَّ المرادَ بالآية أصحابُ القليب. وحكمها عام[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي: تضعفوا عن القتال[٣].

والوَهْن: الضعف. وقد وَهَن الإنسانُ ووَهَنَهُ غيره، يتعدّى ولا يتعدَّى. قال:

إنَّـــني لـسْــتُ بـمــوهــونٍ فَـقِـرْ[٤]

ووَهِن أيضاً ـ بالكسر ـ وَهْنًا، أي: ضعف[٥].

وقرىء: «فما وَهُنوا» بضم الهاء وكسرها. وقد مضى في «آل عمران»[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: الصُّلح. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: وأنتم أعلمُ بالله منهم. وقيل: وأنتم الأعلون في الحجة[٧]. وقيل: المعنى: وأنتم الغالبون لأنَّكم مؤمنون وإن غلبوكم في الظاهر في بعض الأحوال[٨].

---

(١) ٣/ ٤٣٠ .

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٩ ، والقليب: البئر ، والمراد: قليب بدر. النهاية (قلب).

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩٣ .

(٤) عجز بيت لطرفة وصدره: وإذا تلسُنُني ألسُنها، وهو في ديوانه ص٥٣ ، والكلام في الصحاح (وهن).

(٥) الصحاح (وهن).

(٦) ٥/ ٣٥٣ ، ولم نقف على من قرأ «وهُنوا» بضم الهاء.

(٧) تفسير أبي الليث ١/ ٣٠١ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦ .

وقال قتادة: لا تكونوا أوّلَ الطائفتين ضرعتْ إلى صاحبتها(١).

الثالثة: واختلف العلماء في حكمها؛ فقيل: إنها ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١] لأنَّ الله تعالى منع من المَيْل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجةٌ إلى الصلح. وقيل: منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. وقيل: هي محكمة. والآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال. وقيل: إنَّ قوله: «وإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا» مخصوص في قوم بأعيانهم، والأخرى عامة(٢).

فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة؛ وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين(٣). وقد مضى هذا المعنى مستوفى(٤).

﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: بالنّصر والمعونة(٥)؛ مثل: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: لن ينقصكم؛ عن ابن عباس وغيره(٦).

ومنه الموتور الذي قُتِل له قتيل فلم يدرك بدمه، تقول منه: وَتَره يَتِره وِتْرًا وَتِرَةً(٧).

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من فاتته صلاةُ العصر فكأنّما وُتِرَ أهلَه ومالَه» أي: ذُهب بهما(٨).

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٩، وفيه: ضرعت إلى صاحبتها بالموادعة. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٤.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٣، وينظر ٢/ ٣٨٥ منه.

(٣) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٧٥.

(٤) ١٠/ ٦٢ فما بعدها.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٠٦ عن مجاهد وقطرب، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٥٩٩.

(٧) الصحاح (وتر).

(٨) أخرجه أحمد (٦٣٢٤)، والبخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦): (٢٠١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وكذلك وَتَرَهُ حقّه أي: نقصه. وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لن ينتقصَكم في أعمالكم، كما تقول: دخلتُ البيت؛ وأنت تريد في البيت. قاله الجوهريّ[١].

الفرّاء: «وَلَنْ يَتِرَكُمْ» هو مشتقٌّ من الوتر، وهو الفرد؛ فكان المعنى: ولن يفردكم بغير ثواب[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تقدّم في «الأنعام»[٣]. ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ شرط، وجوابه. ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي: لا يأمركم بإخراج جميعها في الزكاة؛ بل أمر بإخراج البعض. قاله ابن عُيينة وغيره[٤].

وقيل: «لايَسْألْكم أموالَكُم» لنفسه[٥] أو لحاجة منه إليها، إنَّما يأمركم بالإنفاقِ في سبيله؛ ليرجع ثوابُه إليكم.

وقيل: «لَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ» إنّما يسألكم أمواله؛ لأنَّه أملَكُ[٦] لها، وهو المنعم بإعطائها[٧].

وقيل: ولا يسألكم محمدٌ أموالَكم أجراً على تبليغ الرسالة. نظيره: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧] الآية. ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾: يلحّ عليكم.

---

(١) في الصحاح (وتر).

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٢ دون نسبة. وقال: والأول أصح.

(٣) ٨/ ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢٣ بنحوه عن ابن عيينة.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٠٦ .

(٦) في (م): المالك.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٧ .

يقال: أحفى بالمسألة وألحف وألحّ بمعنًى واحد. والحَفيّ المستقصِي في السؤال، وكذلك الإحفاء الاستقصاء في الكلام والمنازعة. ومنه أحفى شاربَه؛ أي: استقصى في أخذه(١).

﴿تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَنَكُمْ﴾ أي: يخرج البخل أضغانكم.

قال قتادة: قد علم الله أنّ في سؤال المال خروجَ الأضغان(٢).

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيصِن وحميد: «وتَخْرُج» بتاء مفتوحة وراء مضمومة. «أضْغَانُكُمْ» بالرفع لكونه الفاعل(٣). وروى الوليدُ عن يعقوب الحضرميّ «ونخرج» بالنون(٤). وأبو معمر عن عبد الوارث عن أبي عمرو: «ويخرج» بالرفع في الجيم على القطع والاستئناف(٥)، والمشهور عنه: «ويُخْرِجْ» كسائر القرّاء، عطف على ما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ﴾ أي: هأنتم هؤلاء أيُّها المؤمنون تُدعون ﴿لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجهاد وطريق الخير. ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: على نفسه؛ أي: يمنعها الأجرَ والثواب. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي: إنَّه ليس بمُحتاجٍ إلى أموالكم. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ إليها.

---

(١) الصحاح (حفا).

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٨، والوسيط ٤/ ١٣٠، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤١، والبحر المحيط ٨/ ٨٦.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٨٦، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) المحتسب ٢/ ٢٧٣، والقراءات الشاذة ص١٤١.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: أطوعَ لله منكم[١].

روى الترمذي[٢] عن أبي هريرة قال: تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ قالوا: ومن يُستبدل بنا؟ قال: فضرب رسولُ الله ﷺ على منكِب سلمان ثم قال: «هذا وقومُه. هذا وقومُه» قال: حديث غريب في إسناده مقال.

وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجيح والد علي بن المديني أيضاً هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله، مَنْ هؤلاء الذين ذكر اللهُ إنْ تَوَلَّينا استُبدلوا، ثمَّ لا يكونوا أمثالَنا؟ قال: وكان سلمانُ جنبَ رسول الله ﷺ قال: فضرب رسولُ الله ﷺ فخذَ سلمان، قال: «هذا وأصحابُه. والذي نفسي بيدِه لو كان الإيمانُ مَنُوطًا بالثُّرَيَّا لتناولَه رجالٌ من فارس»[٣].

وقال الحسن: هم العجم. وقال عكرمة: هم فارس والروم[٤]. قال المحاسبيّ: فلا أحد بعد العرب من جميعِ أجناسِ الأعاجم أحسنُ دِيناً، ولا كانت العلماءُ منهم إلا الفرس.

وقيل: إنَّهم اليمن، وهم الأنصار. قاله شريح بن عبيد[٥]. وكذا قال ابن عباس:

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/٢٤٨ .

(٢) في سننه (٣٢٦٠).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٦١)، وهو في صحيح ابن حبان (٧١٢٣) من طريق مسلم بن خالد عن العلاء...
وأخرجه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١) بلفظ: «... فوضع يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا، لَنَالهُ رجال من هؤلاء».
وأخرجه أحمد (٨٠٨١)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣٠) بلفظ: «لو كان الدين عند الثريا، لذهب به رجل من فارس ـ أو قال ـ من أبناء فارس».

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٧ ، والكشاف ٣/ ٥٤٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٠٧ .

هم الأنصار[١]. وعنه: أنَّهم الملائكة[٢]. وعنه: هم التابعون. وقال مجاهد: إنَّهم من شاء من سائر الناس[٣].

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ قال الطبريّ: أي: في البُخل بالإنفاق في سبيل الله. وحُكي عن أبي موسى الأشعريّ أنَّه لمّا نزلت هذه الآيةُ، فرح بها رسولُ الله ﷺ وقال: «هي أحبُّ إليَّ من الدنيا»[٤]. والله أعلم.

ختمت السورةُ بحمد الله وعونه، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الأطهار.

(١) نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/٤١٦ لمقاتل.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/١٧ دون نسبة.

(٣) زاد المسير ٧/٤١٦ .

(٤) النكت والعيون ٥/٣٠٨ .

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ

وتُسمَّى سورةَ القتالِ، وهي مَدنيَّةٌ، وقيل: مَكِّيَّةٌ، وآيُها سبعٌ أو ثمان وثلاثونَ[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ امتَنَعُوا عن الدُّخولِ في الإسلامِ وسلوكِ طَريقِه، أو منعوا النَّاس عنه كالمطعِمينَ[2] يومَ بدرٍ[3]، أو شياطينِ[4] قُريشٍ[5]،

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٢٨)، وفيه: وهي ثلاثون وثماني آيات في الكوفي، وتسع في المدنيين والمكي والشامي، وأربعون آية في البَصريّ، اختلافها آيتان ﴿أَوْزَارَهَا﴾ لم يَعُدَّها الكوفي وعدَّها الباقون، ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ عدَّها البَصري ولم يعدها الباقون. ولم يذكر الداني سوى القول بمدنيتها، وهو ما صححه أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير». وقال هبة الله في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ١٦٥): وهي من السُّور المُختَلَف في تنزيلها، فقالت طائفة: نزلت بمكة، وهو مَرويّ عن السّدي والضحاك، وقال آخرون: نزلت بالمدينة، وهو مرويّ عن مجاهد، وهي إلى تنزيل المدينة أشبه، والله أعلم.

(٢) في نسخة التفتازاني: «وهم المطعمون».

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٦) عن الكلبي، معدداً أسماءهم وهم ستة، ولعله من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٤) في نسخة الفاروقي: «وشياطين».

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٣)، وعددهم، وهم الستة المذكورون في خبر الكلبي مع ستة آخرين.

والمُصرِّيـنَ[١] مِـن أهـلِ الكِتـابِ، أو عـامٌّ في جميـعِ مَن كفـرَ وصدَّ.

﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ جعلَ مَكارِمَهُم كصِلَةِ الرَّحمِ وفكِّ الأُسارى وحفظِ الجِوارِ ضالَّةً؛ أي: ضائعَةً مُحبَطةً بالكُفرِ، أو مَغلوبَةً مَغمورةً فيه كما يَضِلُّ الماءُ في اللبنِ، أو ضلَّالًا حيثُ لم يقصِدُوا به وجهَ اللهِ، أو أبطلَ ما عَمِلُوه مِن الكيدِ لرَسُولِه والصَّدِّ عَن سَبيلِه بنصرِ رَسُولِه وإظهارِ دينِه على الدِّينِ كلِّه.

(٢) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يَعُمُّ المُهاجرينَ والأنصارَ والذين آمَنُوا مِن أهلِ الكتابِ وغيرَهم.

﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ تخصيصٌ للمُنزَّلِ عليه ممَّا يَجِبُ الإيمانُ به تعظيمًا له وإشعارًا بأنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ دونَه[٢] وأنَّه الأَصلُ فيه.

ولذلك أكَّدَه بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ اعتراضًا على طريقِه وحَقِّيَّتُه بكونِه[٣] ناسخًا لا يُنسَخُ.

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «أو المصرون».

(٢) في نسخة الخيالي: «بدونه».

(٣) في نسخة الفاروقي: «اعتراضًا، وحقِّيتُه كونه»، وفي نسخة الطبلاوي: «اعتراضاً على طريقة الحصر وحقيقته لكونه». قال الخفاجي في «حاشيته»: وقوله: «على طريقه» اختلف في مرجع هذا الضمير؛ فقيل: هو للتخصيص، وكان هذا طريق التخصيص لتعريف المسند، و«حقيته» مرفوع مبتدأ خبره قوله: «بكونه ناسخاً»، وقيل: المعنى على طريق القرآن وبيان حاله، وحقيته بكونه ناسخاً لا ينسخ ثابتاً غير متغير، فحقيته بالجرّ عطفاً على مجرور على، ولا يخفى أنّ الأوّل هو المراد.
ولو قيل: الضمير للاعتراض صحّ؛ أي هو اعتراض وارد على طريق الاعتراض، وهو تأكيد لما اعترض فيه كما مرّ مراراً، وفسر الحقية بما ذكر ليتم الحصر بالنسبة لغيره من الكتب أو الأديان».

وقُـرِئَ: (نَـزَّلَ) على البنـاءِ للفَاعـلِ[١]، و: (أنزلَ) علـى البناءيـنِ[٢]، و: (نَزَلَ) بالتَّخفيفِ[٣].

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ سَتَرها بالإيمانِ وعَملِهم الصَّالحِ.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ حالَهُم في الدِّينِ والدُّنيا بالتَّوفيقِ والتَّأييدِ.

(٣) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما مرَّ مِن الإضلالِ والتَّكفيرِ والإصلاحِ، وهو مُبتدَأٌ خبرُه: ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ بسببِ اتِّباعِ هؤلاءِ الباطلَ واتباعِ هؤلاءِ الحقَّ، وهو تصريحٌ بما أشعرَ به ما قبلَها، ولذلك يُسمَّى[٤] تَفسيرًا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الضَّربِ ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ يُبيِّنُ لهم ﴿أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أحوالَ الفَريقَيْنِ، أو أحوالَ النَّاسِ، أو يضربُ أمثالَهُم بأَنْ جعلَ[٥] اتِّباعَ الباطلِ مَثَلًا لعملِ الكُفَّارِ والإضلالَ مثلًا لخيبَتِهِم، واتِّباعَ الحقِّ مثلًا للمُؤمنينَ وتَكفيرَ السَّيِّئاتِ مثلًا لفَوزِهِم.

(٤) ـ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في المحاربة ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أصلُه: فاضرِبُوا الرِّقابَ ضَرْبًا، فحُذِفَ الفِعلُ وقُدِّمَ المصدَرُ وأُنيبَ مَنابَه مُضافًا إلى المفعولِ ضمًّا إلى التَّأكيدِ الاختصارَ، والتَّعبيرُ به عن القتلِ إشعارٌ بأنَّه يَنبغي أَنْ يكونَ بضربِ الرَّقبةِ حيثُ أمكنَ وتصويرٌ له بأشنَعِ صُورةٍ.

---

(١) وهي قراءة ابن مقسم كما في «الكامل» للهذلي (ص: ٦٣٨)، وابن مسعود كما في «زاد المسير» (٤/ ١١٥).

(٢) بالبناء للمفعول، قراءة الأعمش كما في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٠٩)، وأبي ومعاذ القارئ كما في «زاد المسير» (٤/ ١١٥).

(٣) وهي قراءة أبي رزين وأبي الجوزاء وأبي عمران كما في «زاد المسير» (٤/ ١١٥).

(٤) في نسخة الخيالي: «سمي».

(٥) في نسخة الخيالي: «يجعل».

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أكثَرْتُم قتلَهُم وأغلَظْتُموهُ، مِن الثَّخينِ وهو الغَلِيظُ.

﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ فَأْسِرُوهم واحفَظُوهُم، والوثاقُ بالفتحِ والكسرِ: ما يُوثَقُ بهِ.

﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: فإمَّا تَمنُّون مَنًّا أو تُفدونَ فداءً، والمرادُ التَّخييرُ بعدَ الأسرِ بينَ المنِّ والإطلاقِ وبين أخذِ الفِداءِ وهو ثابِتٌ عِندَنا = فإنَّ الذَّكَرَ الحُرَّ المُكلَّفَ إذا أُسِرَ تخيَّرَ الإمامُ بينَ القتلِ والمنِّ والفِداءِ، والاسترقاقُ = مَنسوخٌ عند الحنفيَّةِ أو مَخصوصٌ بحربِ بدرٍ؛ فإنَّهُم قالوا: يتعيَّنُ القتلُ أو الاسترقاقُ.

وقُرِئَ: (فَدًى) كعَصا[1].

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ آلاتِها وأثقالَها التي لا تقومُ إلَّا بها كالسِّلاحِ والكُراعِ أي: تَنْقَضي الحربُ ولم يبقَ إلَّا مُسلِمٌ أو مُسالِمٌ.

وقيل: آثامَها، والمعنى: حتَّى يضعَ أهلُ الحربِ شِركَهُم ومَعاصِيَهُم وهو غايةٌ للضَّربِ أو الشَّدِّ، أو للمَنِّ والفداءِ أو للمَجموعِ بمعنى: أنَّ هذه الأحكامَ جارِيَةٌ فيهم حتَّى لا يكونَ حربٌ مع المشركينَ بزَوالِ شَوْكَتِهِم.

وقيل: بنُزولِ عيسى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ ذلك، أو افعَلُوا بهم ذلك.

﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ لانتقمَ مِنهم باستئصالٍ.

﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ ولكن أمرَكُم بالقِتالِ ليَبْلُوَ المُؤمنينَ بالكافرينَ بأَنْ يُجاهِدُوهُم فيَستَوجِبُوا الثَّوابَ العَظيمَ، والكافرينَ بالمؤمنينَ بأَنْ يُعاجِلَهُم على أيديهِم ببعضِ عَذابِهِم كي يَرتَدِعَ بعضُهم عَن الكفرِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤١)، و«البحر» (١٩/ ٢٤٠)، وهي كما ذكرا رواية عن ابن كثير لكن بكسر الفاء كما يظهر من كلامهما.

﴿والذينَ قاتَلُوا في سبيلِ اللهِ﴾ أي جاهَدُوا، وقرأَ البَصرِيَّانِ وحَفصٌ: ﴿قُتِلُوا﴾[١] أي: استشهدُوا ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فلن يُضيعَها، وقُرِئَ: (يَضِلَّ) مِن ضَلَّ، و: (يُضَلَّ) على البناءِ للمَفعولِ[٢].

(٥ ـ ٦) ـ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى الثَّوابِ، أو سيُثبِتُ هِدايَتَهُم.

﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ وقد عرَّفَها لهم في الدُّنيا حتى اشتاقُوا[٣] إليها فعَمِلُوا ما استحقُّوها به، أو بيَّنَها لهم بحيثُ يعلَمُ كلُّ أحدٍ منزلَهُ ويهتدِي إليه كأنَّه كان ساكنَهُ مُذ خُلِقَ، أو طيَّبَها لهم مِن العَرْفِ وهو طيبُ الرَّائحةِ، أو حدَّدها لهم بحيثُ يكونُ لكلٍّ جنَّةٌ مُفرَزةٌ.

(٧) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ إن تنصروا دينَهُ ورسولَهُ ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على عدوِّكُم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في القيامِ بحُقوقِ الإسلامِ والمُجاهدةِ مع الكُفَّارِ.

(٨) ـ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ فعُثورًا وانحطاطًا، ونقيضُه: لَعًا، قال الأعشى:

فَالتَّعْسُ أَوْلَى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ لَعَا[٤]

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠٠).

(٢) رويت القراءتان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤١)، و«البحر» (١٩/ ٢٤٢).

(٣) في نسخة الخيالي زيادة: «في الدنيا».

(٤) انظر: «ديوان الأعشى» (ص: ١٣٥)، و«العين» (٨/ ٢٣٩)، و«النوادر» لأبي زيد (ص:٢١٩)، و«الأمثال» لأبي عبيد (ص: ٨٨)، و«الألفاظ» لابن السكيت (ص: ٤٣١)، و«الصحاح» (مادة: لوث ولعا). وصدره:

بذات لوثٍ عفرناةٍ إذا عثرت

وهو في وصف ناقته، واللوث: القوة، وناقة عفرناة؛ أي: قوية.

وانتصابُه بفِعلهِ الواجبِ إضمارُهُ سَماعًا، والجملةُ خبرُ ﴿الذين كفروا﴾، أو مُفسِّرٌ لناصبِه.

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ عطفٌ عليه.

(٩) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ القرآنَ؛ لِمَا فيه مِن التَّوحيدِ والتَّكاليفِ المُخالِفَةِ لِمَا أَلِفُوه واشتَهَتْ أنفُسُهم، وهو[1] تخصيصٌ وتَصريحٌ بسببيَّةِ الكُفرِ بالقُرآنِ للتَّعسِ والإضلالِ.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ كرَّرَه إشعارًا بأنَّه يلزمُ الكفرَ بالقرآنِ[2] ولا يَنفكُّ عنه بحالٍ.

(١٠) - ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ استأصلَ عليهِم ما اختصَّ بهم مِن أنفُسِهم وأهليهِم وأموالِهم.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ مِن وَضعِ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ.

﴿أَمْثَالُهَا﴾ أمثالُ تلك العاقبَةِ أو العقوبَةِ أو الهلَكةِ؛ لأنَّ التَّدميرَ يدلُّ عليها، أو للسنَّةِ لقولِه تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ [الفتح: ٢٣].

(١١) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ناصرُهُم على أعدائِهم.

﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فيدفع العذابَ عنهم، وهو لا يخالِفُ قولَه: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٠]؛ فإنَّ المولى فيه بمعنى المالكِ.

(١٢) - ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ ينتفعونَ بمتاعِ الدُّنيا.

﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ حَرِصينَ غافِلينَ عَن العاقبةِ.

---

(١) «وهو»: ليس في نسخة الفاروقي والتفتازاني.

(٢) في نسخة الخيالي: «يلزم الكفر به».

﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ منزلٌ ومُقامٌ.

(١٣) - ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ على حذفِ المُضافِ وإجراءِ أَحكامِه على المضافِ إليه، والإخراجُ باعتبارِ التَّسبُّبِ.

﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بأنواعِ العذابِ ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يدفعُ عنهم، وهو كالحالِ المَحكيَّةِ.

(١٤) - ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ حجَّةٍ مِن عندِه وهو القرآنُ، أو ما يعمُّهُ والحججُ العَقليَّةُ، كالنَّبيِّ والمؤمنينَ.

﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ كالشِّركِ والمعاصي.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ في ذلك، لا شُبهَةَ لهم عليه فضلًا عن حُجَّةٍ.

(١٥) - ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: فيما قَصَصْنا عليك صِفتَها العجيبةَ.

وقيل: مبتدأٌ خبرُه: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ وتقديرُ الكلامِ: أَمَثَلُ أهلِ الجنَّةِ كمثلِ مَن هو خالدٌ؟

أو: أَمَثَلُ الجنَّةِ كمثلِ جزاءِ مَن هو خالدٌ في النَّار؟ فعُرِّيَ عَن حرفِ الإنكارِ وحُذِفَ ما حُذِفَ استغناءً بجري مثلِه تصويرًا لمكابرةِ مَن يُسَوِّي بين المتمسِّكِ بالبيِّنَةِ والتَّابعِ للهَوى بمكابرةِ من سوَّى بين الجنَّةِ والنَّارِ.

وهو على الأوَّلِ خبرُ مَحذوفٍ تقديرُه: أفمَنْ هو خالدٌ في هذه الجنَّةِ كمَنْ هو خالدٌ في النَّارِ؟!

أو بدلٌ مِن قولِه: ﴿كَمَن زُيِّنَ﴾، وما بينَهُما اعتراضٌ لبيانِ ما يمتازُ به مَن على بيِّنَةٍ في الآخرةِ تقريرًا لإنكارِ المساواةِ.

﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ استئنافٌ يشرحُ المثَلَ، أو حالٌ مِن العائدِ المحذوفِ، أو خبرٌ لـ﴿مَّثَلُ﴾.

و﴿ءَاسِنٍ﴾ مِن: أَسنَ الماءُ بالفتحِ: إذا تغيَّرَ طَعمُه وريحُه، أو بالكسرِ على مَعنى الحدوثِ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿أَسِنٍ﴾[١].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ لم يَصِرْ قارِصًا ولا حازِرًا[٢].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لذيذةٍ لا يكونُ فيها كراهةُ غائلةِ ريحٍ، ولا غائلةِ سُكرٍ وخُمَارٍ، تأنيثُ لَذٍّ، أو مَصدَرٌ نُعِتَ به بإضمارٍ أو تجوُّزٍ.

وقُرِئَت بالرَّفعِ على صِفَةِ الأنهارِ، والنَّصبِ على العِلَّةِ[٣].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لم يُخالِطْهُ الشَّمعُ وفَضَلاتُ النَّحلِ وغيرِها، وفي ذلك تمثيلٌ لِمَا يقومُ مقامَ الأَشْرِبَةِ في الجنَّةِ بأنواعِ ما يستلذُّ منها في الدُّنيا بالتَّجريدِ عمَّا يَنقُصُها ويُنَغِّصُها والتَّوصيفِ بما يوجِبُ غزارَتَها واستمرارَها.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ صنفٌ على هذا القياسِ.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ عطفٌ على الصِّنفِ المحذوفِ، أو مُبتدأٌ خبرُهُ محذوفٌ أي: لَهُم مَغفِرَةٌ.

﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ مكانَ تلك الأشرِبَةِ.

﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ مِن فرطِ الحرارةِ.

(١٦) - ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ يعني المنافقينَ، كانوا يحضرونَ مجلسَ رسولِ اللهِ ويسمعونَ كلامَهُ فإذا خرجوا ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠٠).

(٢) القارص: اللبن الذي يَحْذِي اللسان؛ أي: يقرصه، والحازر ـ بتقديم الزاي ـ: اللبن الحامض. انظر: «حاشية الجاربردي» (ج٢/ و٣٥٨ب).

(٣) انظر: «الكشاف» (٨/ ٢٨٤)، و«البحر» (١٩/ ٢٥٠).

أي لعُلَماءِ الصَّحابةِ: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ ما الذي قال السَّاعةَ استهزاءً، أو استِعلامًا إذ لم يُلقوا له آذانُهم تهاوُنًا به.

و(آنِفًا) مِن قَولِهم: أَنفُ الشَّيءِ لِمَا تَقدَّمَ منهُ مستعارًا مِن الجارحةِ، ومنه: استأنفَ وائتنفَ، وهو ظرفٌ بمعنى: وقتًا مُؤتنفًا، أو حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿قَالَ﴾.

وقرئ: ﴿أَنِفًا﴾[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فلذلكَ استهزَؤُوا بها وتهاوَنُوا بكلامِه.

(١٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي: زادَهُم اللهُ بالتَّوفيقِ والإلهامِ أو قولِ الرَّسُولِ.

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ بيَّنَ لهم ما يتقونَ، أو أعانَهُم على تَقْواهُم، أو أعطاهُم جزاءَها.

(١٨) ـ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ فهل يَنتظِرُون غيرَها ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾.

وقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ كالعِلَّةِ له.

وقُرِئَ: (إِنْ تَأْتِهِم)[2] على أنَّه شرطٌ مُستأنفٌ جزاؤُه:

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ والمعنى: إِنْ تَأْتِهِم السَّاعةُ بغتةً لأنَّه قد ظهرَ أماراتُها كمبعثِ النَّبيِّ وانشقاقِ القمرِ فكيفَ لَهُم ذِكراهُم؟ أي: تَذكُّرُهم إذا جاءَتْهُم السَّاعةُ بغتةً، وحينئذٍ لا يُفرغُ له ولا ينفعُ.

---

(١) وهي قراءة البزي بخلف عنه، انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠٠).

(٢) كما حكاه أبو جعفر الرؤاسي أنها كذلك في قراءة أهل مكة. انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٧٠).

وقال الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٦١): وحدثني أبو جعفرٍ الرُّؤاسيُّ قال: قلتُ لأبي عَمْرو بنِ العلاء: ما هذه الفاء التي في قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾؟ قال: جوابٌ للجزاء. قال: قلتُ: إنها: ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ مفتوحة؟ قال: فقال: معاذَ الله إنَّما هي: (إِنْ تَأْتِهِم)، قال الفراء: فظننتُ أنه أخذها عن أهل مكَّة لأنَّه عليهم قَرأ، وهي أيضًا في بعض مصاحف الكوفيين: (تأتهم) بسينة واحدة، ولم يقرأ بها أحد منهم.

(١٩) ـ ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ أي: إذا عَلِمْتَ سعادةَ المؤمنينَ وشقاوةَ الكافرينَ فاثبُتْ على ما أنتَ عليه مِن العِلْمِ بالوحدانيَّةِ وتكميلِ النَّفسِ بإصلاحِ أحوالِها وأفعالِها وهَضمِها بالاستغفارِ لذَنبك.

﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ ولذُنوبِهم بالدُّعاءِ لهم والتَّحريضِ على ما يَستَدْعِي غُفرانَهُم.

وفي إعادةِ الجارِّ وحذفِ المُضافِ إشعارٌ بفرطِ احتياجِهِم وكثرةِ ذنوبِهم وأنَّها جنسٌ آخرُ؛ فإنَّ الذَّنبَ ما له تَبِعةٌ ما كتَرْكِ الأَولى.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾ في الدُّنيا فإنَّها مراحِلُ لا بُدَّ مِن قَطعِها.

﴿وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ في العُقبى فإنَّها دارُ إقامَتِكُم، فاتَّقُوا اللهَ واستغفِرُوه وأعِدُّوا لِمَعادِكُم.

(٢٠) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾ أي: هَلَّا أُنزِلَت سُورَةٌ في أمرِ الجهادِ.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ﴾ مُبيَّنَةٌ لا تشابُهَ فيها.

﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ أي: الأمرُ به.

﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ ضعفٌ في الدِّينِ، وقيل: نفاقٌ.

﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ جُبنًا ومخافةً.

﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ فويلٌ لَهُم، أفعَلُ مِن الوَلْيِ وهو القُرْبُ، أو فَعْلَى مِن آلَ، ومَعناهُ الدُّعاءُ عليهِم بأَنْ يَلِيَهُم المَكروهُ، أو يؤولَ إليهِ أَمرُهُم.

(٢١ ـ ٢٢) ـ ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ استئنافٌ، أي: أمرُهُم طاعةٌ، أو طاعةٌ وقولٌ مَعروفٌ خَيرٌ لهم، أو حكايةُ قولِهم لِقراءَةِ أُبَيٍّ: (يقولونَ طاعةٌ)[1].

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ٢٩٠)، و«البحر» (١٩/ ٢٥٨).

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جَدَّ، وهو لأصحابِ الأمرِ، وإسنادهُ إليه مجازٌ، وعامِلُ الظَّرفِ مَحذوفٌ.

وقيل: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما زَعَمُوا مِن الحرصِ على الجهادِ والإيمانِ.

﴿لَكَانَ﴾ الصِّدْقُ ﴿خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ فهل يتوقَّعُ منكم، وقرأ نافع بكسر السين[1].

﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمورَ النَّاسِ وتأمَّرْتُم عليهِمْ، أو أَعْرَضْتُم وتولَّيْتُم عن الإسلامِ.

﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ تَناحُرًا على الولايةِ وتَجاذُبًا لها، أو رُجوعًا إلى ما كنتُمْ عليه في الجاهليَّةِ مِن التَّغاوُرِ ومُقاتلةِ الأقاربِ، والمعنى أنَّهُم لضَعْفِهم في الدِّينِ وحرصِهم على الدُّنيا أَحِقَّاءُ بأن يَتوقَّعَ ذلك منهم مَن عرفَ حالَهم ويقولُ لهم: هل عَسَيْتُم، وهذا على لغَةِ الحجازِ فإنَّ بني تميمٍ لا يُلحقونَ الضَّميرَ به، وخبرُهُ ﴿أَن تُفْسِدُوا۟﴾، و﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ اعتراضٌ[2].

وعن يعقوبَ: ﴿تُوُلِّيتُم﴾[3] أي: إنْ تَولَّاكُم ظَلَمةٌ خرَجْتُم معَهُم وساعَدْتُموهُم في الإفسادِ وقطيعةِ الرَّحِمِ، ﴿وتَقْطَعُوا﴾ من القَطعِ[4].

وقُرِئَ: (وتَقَطَّعُوا) مِن التَّقطُّعِ[5].

(٢٣) ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورينَ ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لإفسادِهم وقَطعِهم الأرحامَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٨٦)، و«التيسير» (ص: ٨١).

(٢) في نسخة التفتازاني زيادة: «أي جملة معترضة».

(٣) قرأ بها أيضاً رويس عن يعقوب، انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٤).

(٤) انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٤).

(٥) قرأ بها الحسن كما في «البحر» (١٩/ ٢٦١).

﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماعِ الحقِّ ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ فلا يهتدونَ سبيلَه.

(٢٤) ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يتصفَّحونَه وما فيهِ من المواعظِ والزَّواجرِ حتى لا يَجسُرُوا[1] على المعاصي.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ لا يَصِلُ إليها ذكرٌ ولا يَنكَشِفُ لها أمرٌ.

وقيل: (أم) مُنقَطِعَةٌ، ومَعنى الهمزةِ فيها التَّقريرُ.

وتَنكيرُ القلوبِ لأنَّ المرادَ قلوبُ بعضٍ مِنهُم، أو للإشعارِ بأنَّها لإبهامِ أَمرِها في القساوةِ أو لفَرطِ جهالَتِها ونُكرِها كأنَّها مُبهَمَةٌ منكورةٌ.

وإضافةُ الأقفالِ إليها للدَّلالةِ على أقفالٍ مُناسبَةٍ لها مُختصَّةٍ بها لا تجانسُ الأقفالَ المَعهودةَ.

وقُرِئَ: (إقفالُها) على المصدرِ[2].

(٢٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ إلى ما كانوا عليهِ مِن الكفرِ.

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بالدَّلائلِ الواضِحَةِ والمعجزاتِ الظَّاهرةِ.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ سهَّلَ لهم اقترافَ الكبائرِ مِن السَّوَلِ، وهو الاسترخاءُ.

وقيل: حَمَلَهُم على الشَّهواتِ، مِن السُّولِ وهو المتمنَّى، وفيه أنَّ السُّؤْلَ مهموزٌ قُلِبَت همزَتُه لضمِّ ما قبلَها، ولا كذلك التَّسويلُ، ويُمكِنُ رَدُّه بقولِهم: هما يَتساولانِ.

وقُرِئَ: (سُوِّل)[3] على تقديرِ مُضافٍ، أي: كيدُ الشَّيطانِ سُوِّلَ لهم.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «يجرؤوا».

(٢) انظر: «الكشاف» (٨/ ٢٩٣)، و«البحر» (١٩/ ٢٦٢).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤١) عن بعض السلف، و«الكشاف» (٨/ ٢٩٣) دون نسبة، و«البحر» (١٩/ ٢٦٣) عن زيد بن علي.

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومَدَّ لَهُم في الآمالِ والأماني، أو أمهَلَهُم اللهُ ولم يُعاجِلْهُم بالعُقوبَةِ، لقراءةِ يعقوبَ: ﴿وأُمْلِي لهم﴾ أي: وأنا أُمْلِي لهم، فتكونُ الواوُ للحالِ أو الاستئنافِ، وقرأ أبو عمرٍو: ﴿وأُمْلِيَ لهم﴾[1] على البناءِ للمَفعولِ وهو ضميرُ الشَّيطانِ أو ﴿لَهُمْ﴾.

(٢٦) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي: قالَ اليَهودُ الذين كفرُوا بالنَّبيِّ بعدَما تبيَّنَ لهم نعتُه للمُنافقينَ، أو المنافقونَ لهم، أو أحدُ الفَرِيقَيْنِ للمُشركينَ.

﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ في بَعضِ أُمورِكُم أو في بعضِ ما تأمُرونَ به كالقُعودِ عَن الجهادِ والموافقةِ في الخروجِ مَعَهُم إن أُخرِجُوا والتَّظافرِ على الرَّسولِ.

﴿واللهُ يَعلَمُ أَسرارَهُم﴾ ومنها قَولُهم هذا الذي أفشاهُ اللهُ عليهِمْ.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ وحفصٌ: ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ على المصدَرِ[2].

(٢٧) ـ ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فكيفَ يعمَلُونَ ويَحتالونَ حينَئذٍ.

وقُرِئَ: (تَوفَّاهُم)[3] وهو يحتملُ الماضِيَ والمضارِعَ المَحذُوفَ إحدى تاءيهِ.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ تَصويرٌ لتَوَفِّيهم بما يخافونَ منه ويجبُنونَ عن القتالِ له.

(٢٨) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى التَّوفِّي الموصوفِ.

﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ مِن الكفرِ وكتمانِ نَعتِ الرَّسولِ وعصيانِ الأمرِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠١)، و«النشر» (٢/ ٣٧٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠١)، و«التيسير» (ص: ٢٠١)، و«النشر» (٢/ ٣٧٤).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤١) عن الأعمش.

﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُۥ﴾ ما يَرضاهُ مِن الإيمانِ والجهادِ وغيرِه من الطَّاعاتِ.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لذلك.

(٢٩) - ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ﴾ أَنْ لن يبرزَ اللهُ لرَسُولِه والمؤمنينَ ﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أحقادَهُم.

(٣٠) - ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ لعَرَّفناكَهُم بدلائلَ تُعرِّفُهم بأعيانِهم.

﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعَلاماتِهم التي نَسِمُهم بها، واللامُ لامُ الجوابِ كُرِّرَتْ في المعطوفِ.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ جوابُ قَسَمٍ مَحذوفٍ، ولحنُ القولِ أسلوبُه أو إمالَتُه إلى جِهَةِ تعريضٍ وتورِيَةٍ، ومنه قيلَ للمُخطِئِ لاحِنٌ لأنَّه يعدِلُ الكلامَ عن الصَّوابِ.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فيُجازيكم على حسبِ قَصدِكُم إذ الأعمالُ بالنِّياتِ.

(٣١) - ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمرِ بالجهادِ وسائرِ التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ.

﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مَشاقِّها.

﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يُخبَرُ به عن أعمالِكُم فنظهرُ حسنَها وقُبيحَها، أو أخبارَهُم عن إيمانِهم ومُوالاتِهم المؤمنينَ في صِدقِها وكَذِبِها.

وقرأ أبو بكرٍ الأفعالَ الثَّلاثةَ بالياءِ[١] لتوافُقِ ما قبلَها، وعن يعقوبَ: ﴿ونَبْلُوْ﴾[٢] بسُكونِ الواوِ على تقديرِ: ونحنُ نَبلُو.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠١)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٥).

(٣٢) ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ هم قُريظَةُ والنَّضيرُ، أو المطعِمونَ يومَ بدرٍ.

﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بكُفرِهِم وصَدِّهِم، أو لَنْ يَضُرُّوا رسولَ اللهِ بمُشاقتِهِ، وحُذِفَ المضافُ لتعظيمِه وتَفظيعِ مُشاقتِهِ.

﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ ثوابَ حسناتِ أَعمالِهم بذلك، أو مكائدَهُم التي نَصَبُوها في مُشاقتِهِ فلا يَصِلونَ بها إلى مَقاصدِهِم ولا تُثمِرُ لهم إلَّا القتلَ والجَلاءَ عَن أوطانِهم.

(٣٣) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ بما أبطلَ[1] به هؤلاءِ كالكفرِ والنِّفاقِ والعُجبِ والرِّياءِ والمنِّ والأذى ونحوِها، وليسَ فيه دليلٌ على إحباطِ الطَّاعاتِ بالكَبائرِ.

(٣٤) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ عامٌّ في كلِّ مَن ماتَ على كفرِهِ وإن صَحَّ نزولُه في أصحابِ القَليبِ، ويدلُّ بمفهومِه على أنَّه قد يَغفِرُ لِمَن لم يَمُت على كفرِه سائرَ ذُنوبِه.

(٣٥) ـ ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ فلا تَضعُفُوا.

﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ ولا تَدْعُوا إلى الصُّلحِ خَوَرًا[2] وتذلُّلًا، ويجوزُ نَصبُه بإضمارِ (أن).

---

(١) في نسخة الفاروقي: «أبطلوا».

(٢) في نسخة التفتازاني زيادة: «أي ضعفًا».

وقُرِئَ: (وَلَا تَدَّعُوا)[١] مِن ادَّعى بمعنى دَعا، وقرأ أبو بكرٍ وحَمزةُ بكسرِ السِّينِ[٢].

﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ الأغلبونَ ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ ناصِرُكم.

﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ ولن يضيعَ أعمالَكُم، مِن وَتَرْتُ الرَّجُلَ: إذا قتلتَ مُتعلِّقًا له مِن قَريبٍ أو حَميم، فأفردته عنهُ مِن الوِترِ، شُبِّهَ به تعطيلُ ثوابِ العملِ وإفرادُهُ مِنه.

(٣٦) - ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ لا ثباتَ لها.

﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾ ثوابَ إيمانِكُم وتَقْواكُم ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾ جميعَ أَموالِكُم، بل يَقتَصِرُ على جزءٍ يَسيرٍ كربعِ العُشرِ وعُشرِه.

(٣٧) - ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ﴾ فيجهدْكم[٣] بطلبِ الكلِّ، والإحفاءُ والإلحافُ المبالغَةُ وبُلوغُ الغايةِ، يقال: أَحْفَى شارِبَهُ: إذا استأصلَهُ.

﴿تَبۡخَلُواْ﴾ فلا تُعطوا.

﴿وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ ويُضغِنْكُم على رَسولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) نسبت لأبي عبد الرحمن السلمي. انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٧٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٢)، و«البحر» (١٩/ ٢٦٨). ولفظها في هذه المصادر: (وتدَّعوا) دون كلمة (لا) فزيادتها من تصرفات المؤلف، وسبق له أمثال هذه التصرفات في القراءات، وقد نبه على ذلك أبو حيان بقوله: والتلاوة بغير (لا)، وكان يجب أن يأتي (أي: الزمخشري) بلفظ التلاوة فيقول: وقرئ: (وتدَّعوا).

قال ابن جني: معنى (تدَّعوا) هنا: تنسبوا إلى السلم، كقولك: فلان يدعي إلى بني فلان، أي: ينتسب إليهم، ويحمل نفسه عليهم.

وقد وردت القراءة في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤١) عن علي والسلمي، ووقع في مطبوعه: (ولا تهنوا أو تدَّعوا).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠١)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «فيجهد».

والضَّميرُ في (يُخرِج) للهِ تَعالى، ويؤيِّدُه القراءةُ بالنُّونِ، أو للبخلِ لأنَّه سَببُ الإضغانِ.

وقُرِئَ: (وتَخْرُج) بالياءِ والتَّاءِ ورفعِ (أضغانُكُم)(١).

(٣٨) ـ ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أنتُمْ يا مخاطبونَ هؤلاءِ الموصوفونَ، وقوله: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ مقررٌ(٢) لذلك، أو صِلَةٌ لهؤلاءِ على أنَّه بمعنى الذين، وهو يعمُّ نفقةَ الغزوِ والزَّكاةِ وغيرِهما.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ﴾ ناسٌ يبخلونَ، وهو كالدَّليلِ على الآيةِ المتقدِّمةِ.

﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ فإنَّ نفعَ الإنفاقِ وضرَّ(٣) البخلِ عائدانِ إليه.

والبخلُ يُعدَّى بـ(عن) و(على) لتَضمُّنِه مَعنى الإمساكِ والتَّعدِّي فإنَّه إمساكٌ عَن مستحقٍّ.

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ فما يأمرُكُم به فهو لاحتياجِكُم، فإن امتثَلْتُم فلَكُم، وإنْ تولَّيْتُم فعلَيْكُم.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ عطفٌ على ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ﴾.

﴿يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ يُقِمْ مَقامَكُم قومًا آخرينَ.

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ في التَّولِّي والزُّهدِ في الإيمانِ، وهم الفرسُ؛ لأنَّه

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٢)، و«البحر» (١٩/ ٢٧١)، وزاد أبو حيان في بعض الوجوه رفع الفعل على الاستئناف، ونصبه بإضمار (أن).

(٢) في نسخة التفتازاني: «مطرد».

(٣) في نسخة الفاروقي: «وضرر».

سُئِلَ عليه السَّلامُ عنه وكان سلمانُ إلى جنبِه فضربَ فَخِذَه وقال: «هذا وقومُه»[١]، أو الأنصارُ، أو اليمنُ، أو الملائكةُ.

عن النَّبِيِّ عليهِ السَّلامُ: «مَن قرأَ سورةَ مُحمَّدٍ كانَ حقًّا على اللهِ أَنْ يَسقيَهُ مِن أنهارِ الجنَّةِ»[٢].

***

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٦٠)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٣٣)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢١٣٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٧١٢٣)، والطبراني في «الأوسط» (٨٨٣٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٠٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٩)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٣١)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٢)، والجوزقاني في «الأباطيل والمناكير» (٦٦١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب في إسناده مقال. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقال الجوزقاني: حديث صحيح، ورجاله ثقات.

وروى نحوه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، لكن في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣].

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ١٦٤)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (١٢١٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١١٨)، وهو قطعة من الحديث الموضوع المروي عن أبي بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٩٣).

سورة القتال[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ
بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ
يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ
فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ
وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ
وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ
لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ الآية، قال ابن عباس: هذه السورة مدنية إلا آية منها نزلت [بمكّة] بعد حجة [الوداع] حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهي ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾ الآية. ومناسبة أولها لآخر ما قبلها واضحة جدًّا.

---

(١) مدنية وهي ثمان وثلاثون آية. وهي في القرآن الكريم سورة «محمد» ﷺ.

﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرضوا عن الدخول في الإسلام، أو صدّوا غيرهم عنه. وهم أهل مكّة الذين أخرجوا رسول الله ﷺ. قال ابن عباس: وهم المطعِمون[1] يوم بدر.

﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أتلفها حيث لم ينشأ عنها خير ولا نفع بل ضرر.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هم الأنصار. واللفظ عام يشمل كل مؤمن وكافر.

﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ تخصيصُه من بين[2] ما يجب الإيمان به تعظيم لشأن الرسول عليه السلام، وإعلام [أنه] لا يصحّ الإيمان ولا يتمّ إلاّ به، وأكّد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾. «كفر عنهم سيئاتهم» خبر «الذين». «وأصلح بالهم» أي: شأنهم.

«ذلك» إشارة إلى ما فعل بالكفار من إضلال أعمالهم، وبالمؤمنين من تكفير سيئاتهم وإصلاح بالهم[3]. و«ذلك» مبتدأ، وما بعده الخبر أي: كائن بسبب اتّباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق. «كذلك» أي: مثل ذلك. «يضرب الله للناس أمثالهم» [والضمير راجع إلى الناس أو إلى المذكورين من الفريقين على معنى أنه يضرب أمثالهم] لأجل الناس ليعتبروا بهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: في أيّ زمان لقيتموهم فاقتلوهم. وفي قوله ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٥﴾ [التوبة] أي: في أيّ مكان، فعمّ في الزمان وفي المكان.

(١) وهم اثنا عشر رجلاً، وانظر أسماءهم في القرطبي ١٦: ٢٢٣.

(٢) ق: مرتين.

(٣) ق: حالهم.

﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ هذا من المصدر النائب مناب فعل الأمر، وهو مطّرد فيه. و«ضرب الرقاب» عبارة عن القتل. ولمّا كان القتل للإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته عبّر بذلك عن القتل. ولا يراد خصوصيّة الرقاب، فإنه لا يكاد يتأتّى حالة الحرب أن تضرب الرقاب، إنما يتأتّى القتل في أي موضع كان من الأعضاء.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أكثرتم القتل فيهم وهذه غاية للضرب. فإذا وقع الإثخان، وتمكّنوا من أخذ من لم يُقتل، شَدُّوا وثاق الأسرى.

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا﴾ بالإطلاق. ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾[1] [٥١٠/أ] فالنصب على إضمار فعل تقديره: فإمّا تمنّون منًّا وإما تفادون فداءً.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ و«حتى» غاية لما تقدّم أي: أثقالها وآلاتها، ومنه قول عمرو بن معد يكرب[2]: [من المتقارب]

وأعددتُ للحرب أوزارها رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا

والظاهر أن ضرب الرقاب - وهو القتل - مُغَيًّى[3] بشدّ الوثاق وقت حصول الإثخان، وأن قوله «فإما منا بعد» أي: بعد الشدّ. «وإما فداء» حالتان للمأسور: إما أن يمنّ عليه بالإطلاق كما منّ رسول الله ﷺ على ثمامة بن أثال الحنفي بإطلاقه، وإما أن يفدى كما روي عنه عليه السلام أنه فودي منه رجلان من الكفار برجل واحد مسلم.

---

(١) ق: واما منا.

(٢) البيت للأعشى في ديوانه ص١٣٥.

(٣) أي: مرتبط به، من الغاية وهي المدى.

قال الزمخشري[١]: كما منّ على أبي عروة الجمحي[٢] وأُثالَ الحنفي انتهى.

صوابه: على ثمامة وعلى أبي عزّة الجمحي، فغيّر الكنية والاسم، ولعلّ ذلك من الناسخ لا في أصل التصنيف. وهذه الآية معارض ظاهرها لقوله تعالى ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴿٥﴾﴾ [التوبة] فذهب ابن عباس وجماعة إلى أنها منسوخة بقوله «فاقتلوا المشركين» الآية، وأن الأسر والمنّ والفداء مرتفع. فإن وقع أسير قُتل ولا بدّ إلا أن أسلم، ورُوي نحوه عن أبي بكر الصديق. [وذهب] جماعة[٣] إلى أنّ هذه مخصِّصة لعموم تلك، والمنّ والفداء ثابت.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك. ﴿لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: لانتقم منهم ببعض أسباب الهلاك من خسف وغير ذلك. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟﴾ أي: ليختبركم.

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: إلى طريق الجنّة.

﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: بيّنها لهم، من التعريف. أو علّاها من الأعراف وهي الجبال. أو طيّبها، من العَرْف وهو الطيب.

﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: دينه. ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على أعدائكم. ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي: في مواطن الحرب.

﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ قال ابن عباس: بُعْداً لهم. «والذين» مبتدأ ضُمّن معنى

(١) الكشاف ٣: ٥٣١.

(٢) في الكشاف والمطبوع: الحجبي.

(٣) ق: الصدّيق وجماعة، وفوقها: كذا.

الشرط، والخبر «فتعساً» وهو على إضمار فعل أي: فأتعسهم تعساً.

﴿ كَرِهُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ عام في كل ما نزّل. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: جعلها من الأعمال التي لا تزكوا ولا يُعتدُّ بها.

﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أفسد عليهم ما اختصّوا[1] به من أنفسهم وأولادهم.

﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ أي: أمثال تلك التدميرة.

والإشارة بـ«ذلك» إلى الهلاك[2].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية، والكاف في «كما» في موضع نصب نعت لمصدر محذوف تقديره: أكلاً كما تأكل الأنعام.

﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ أي: ينتفعون بمتاع الدنيا أياماً قلائل. ﴿ وَيَأْكُلُونَ﴾ غافلين غير مفكّرين في العاقبة. ﴿ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ في مسارحها ومعالفها غافلةً عمّا هي بصدده من النحر والذّبح. [٥١٠/ب] ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: موضع إقامة.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ هي على حذف مضاف تقديره: من أهل قرية. ولذلك عاد الضمير في «أهلكناهم» على ذلك المحذوف. «من قريتك» هي مكة.

---

(١) ق: اختص.

(٢) ق: الله.

﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: أخرجك أهلها، نسب الإخراج إليها مجازاً.

قال ابن عطية: ونسب الإخراج إلى القرية حملاً على اللفظ، وقال «إهلاكناهم» حملاً على المعنى [انتهى.

ظاهر هذا الكلام لا يصحّ؛ لأن الضمير في «أهلكناهم» ليس عائداً على المضاف إلى القرية التي أسند إليها الإخراج، بل إلى أهل القرية في قوله «وكأين من قرية». فإن كان أراد بقوله «حملاً على المعنى»] أي: معنى القرية[١] في قوله «وكأين من قرية» فهو صحيح. لكن ظاهر قوله «حملاً على اللفظ وحملاً على المعنى» أن يكون في مدلول واحد. وعلى هذا يبقى «كأيّن» مفلتاً غير محدَّث عنه بشيء، إلا إن تخيّل[٢] أنّ «[هي] أشد» خبر عن «وكأين». والظاهر أنه في موضع الصفة.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ استفهام توقيف وتقرير على شيء متفق عليه، وهي معادلة بين هذين الفريقين. والإشارة إلى الرسول عليه السلام وإلى كفار قريش. واللفظ عام لأهل الصّنفين.

ومعنى ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي: على حجّة واضحة وهو القرآن. ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ وهو الشرك. ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: شهوات أنفسهم. والضمير في «واتّبعوا» عائد على معنى «مَن» لا على لفظه.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ

(١) ق: الفردية.

(٢) ق: يحيل.

وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن
يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ
تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا
جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أي: صفة الجنة. وهو مرفوع بالابتداء. قال النضر بن شميل: كأنه قال: صفة الجنة ما تسمعون انتهى. «فما تسمعون» هو الخبر، و﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ تفسير لتلك الصفات، فهو استئناف إخبار عن تلك الصفة. وقال سيبويه[(١)]: فيما يُتلى عليكم مثلُ الجنة، تقدَّر الخبر المحذوف متقدّماً، ثم فسّر ذلك الذي يُتلى.

﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي: غير متغيّر، يقال: أَسَن الماء يأسِنُ ويأسُن إذا تغيّر.

﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ نفي لجميع وجوه الفساد في اللبن.

﴿لَّذَّةٍ﴾ جمعت طِيبَ المطعم وزوالَ الآفاتِ من الصّداع وغيره. و«اللّذة» تأنيث لَذٍّ وهو اللذيذ، أو مصدر نُعت به. فالجمهور بالجرّ على أنه صفة لـ«خمر»، وبالرفع صفة لـ«أنهار»، وبالنصب أي: لأجل لذّة فهو مفعول له.

﴿مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ قال ابن عباس: لم يخرج من بطون النّحل فيخالطه الشمع وغيره. ووصفه بـ«مصفّى» لأن الغالب على العسل التذكير، وهو ممّا يذكّر ويؤنّث.

---

(١) انظر الكتاب ١: ١٤٣.

وبدىء من هذه الأنهار بالماء، وهو الذي لا يستغنى عنه في المشروبات، ثم باللبن إذ كان يجري مجري المطعوم في كثير من أقوات[(١)] العرب وغيرهم، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الريّ والمطعوم تشوّقت النفس إلى ما تلتذّ به، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا ممّا يعرض من المشروب والمطعوم، فهو متأخّر في الرّتبة.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لمّا ذكر المشروب ذكر من المأكول ما يُتفكّه[(٢)] به. قيل: و«مِن» زائدة أي: ولهم فيها كل [٥١١/أ] الثمرات، وقيل: المبتدأ محذوف أي: أنواع من كل الثمرات. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هو معطوف على ما قبله لا بقيد[(٣)] «فيها»، أي: ولهم مغفرة من ربهم، لأن المغفرة قبل دخول الجنة. أو على حذف أي: تنعيم مغفرة، إذ المغفرة سبب التنعيم[(٤)].

و«كمن» قبله محذوف يقابله تقديره: أهؤلاء المنعمون كمن هو خالد في النار؟. «وسقوا» عائد على «مَن»، و«هو[(٥)] خالد» عائد على اللفظ.

وكذلك «خرجوا» عاد على معنى «من».

﴿يَسْتَمِعُ﴾ كان المنافقون يحضرون عند الرسول عليه السلام ويستمعون كلامه وتلاوته، فإذا خرجوا، قالوا للذين أوتوا العلم وهم السامعون كلام الرسول حقيقةً، الواعون له: ماذا قال آنفاً؟ أي: الساعة، وذلك على سبيل

---

(١) ق: أوقات.

(٢) ق: ينقله.

(٣) ق: يقيّد.

(٤) بعدها في ق: وسُقوا عائد على معنى من.

(٥) ق: في النار هو، وفوقها: كذا.

الهزء والاستخفاف. أي: لم نفهم ما يقول، ولا ندري ما نَفْع ذلك. وممّن سألوه ابن مسعود. و«آنفاً» حال أي: مبتدئاً، أي: ما القول الذي ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه.

قال الزمخشري[١]: و«آنفاً» نصب على الظرف انتهى. قال ذلك لأنه فسّره بالساعة.

وقال الزمخشري[٢]: والمفسّرون يقولون: «آنفاً» معناه الساعة الماضية القريبة منّا، وهذا تفسير بالمعنى انتهى.

الصحيح أنه [ليس] بظرف، ولا نعلم أحداً من النّحاة عدّه في الظروف.

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: علاماتها، وأحدها شرط بفتح الراء وجزمها، فينبغي الاستعداد لها. ومن أشراطها مبعث رسول الله ﷺ إذ هو خاتم الأنبياء. وروي عنه عليه السلام أنه قال[٣] «أنا من أشراط الساعة» وقال[٤] «بُعثت أنا والساعة كفرسَيْ رهان».

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾ الظاهر أن المعنى: فكيف لهم الذكرى والعمل بها إذا جاءتهم الساعة، أي: قد فاتهم ذلك.

ثم أضرب عن ذكر المنافقين وقال ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ والمعنى: دُمْ على عملك بتوحيد الله. واستغفاره عليه السلام لأهل الإيمان رحمة لهم.

---

(١) الكشاف ٣: ٥٣٤.

(٢) الكشاف ٣: ٥٣٤، ونقل العبارة بالمعنى.

(٣) أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قوله: محمد ﷺ من أشراط الساعة، انظر الدر المنثور ٦: ٥٠.

(٤) ضعيف. رواه البيهقي عن سهل بن سعد، انظر ضعيف الجامع الصغير ٥: ١٣٢.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولذنوب المؤمنين. وأحواله عليه السلام ثلاثة: مع الله بالتوحيد، ومع نفسه بالاستغفار، ومع[1] غيره بالاستغفار لهم.

﴿مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ هو على العموم في كل متقلّب وفي[2] كل إقامة.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ الآية، مدح الله تعالى المؤمنين بطلبهم إنزال سورة. والمعنى: تتضمّن أمرنا بمجاهدة العدوّ وفضح[3] أمر المنافقين. والظاهر أن طالبي ذلك هم خُلَّصٌ في إيمانهم، ولذلك قال بعدُ ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً.

﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: نظراً كما ينظرُ مَنْ أصابته الغشيةُ من

---

(١) ق: وله ومع.

(٢) فوقها في ق: كذا.

(٣) ق: ويصح.

أجل حلول الموت.

﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ قال الجوهري[1]: [٥١١/ب] «يقول العرب: أولى لك: تهديد ووعيد.

واختلفوا أهو اسم أو فعل؛ فذهب الأصمعي إلى أنه [فعل] بمعنى: قاربه ما يهلكه أي: نزل به». وعلى قول الجمهور[2] إنه اسم يكون مبتدأ، والخبر «لهم». وقيل «فأولى» مبتدأ، و«لهم» من صلته و«طاعة» خبر، وكان اللام بمعنى الباء كأنه قيل: فأولى بهم طاعة.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: جدّ، والعزم الجدّ، وهو لأصحاب الأمر واستعير للأمر كما قال تعالى ﴿لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى] وقال الشاعر[3]:

[من الرجز]

[قد شمّرتْ عن ساقها فشُدّوا]   وجدّتِ[4] الحربُ [بكم] فَجِدُّوا

والظاهر أن جواب «فإذا» قوله «فلو صدقوا» كما تقول: إذا كان الشتاء فلو جئتني لكسوتك.

﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما زعموا من حرصهم على الجهاد.

﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾ التفات للذين في قلوبهم مرض، أقبل بالخطاب إليهم على سبيل التوبيخ لهم وتوقيفهم على سوء مرتكبهم. و«عسى» تقدّم الخلاف

(١) انظر الصحاح: ولي. وتصرّف المصنف بكلام الجوهري.

(٢) ق: فعلى قوله.

(٣) البيت لحنظلة بن ثعلبة. وورد الشعر في العقد ٤: ١٨١ برواية أخرى، وانظر جمهرة خطب العرب ٢: ٢٨٩.

(٤) ق: قد جدّت.

في لغتها[١]. وفصل بين عسى وخبرها بالشرط وهو «إن توليتم». ﴿أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بعدم معونة أهل الإسلام على أعدائهم. ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ تقطّعوا ما بينكم وبينهم من صلة الرحم.

«أولئك» إشارة إلى مرضى القلوب. ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الموعظة. ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ عن طريق الهدى.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: يتصفّحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة. وهو استفهام توبيخ وتوقيف على مخازيهم.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ استعارة للذين منعهم [كفرهم] الإيمان. و«أم» منقطعة بمعنى بل والهمزة، للتقرير والتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يصل إليها ذكر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم﴾ قال ابن عباس وغيره: نزلت في منافقين كانوا أسلموا، ثم نافقت قلوبهم. والآية تتناول كلّ من دخل في لفظها.

﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ تقدّم الكلام عليه في يوسف[٢]. و«سوّل لهم» ركوب العظائم، من السَّوَل وهو الاسترخاء.

قال الزمخشري[٣]: وقد اشتقّه من السّول من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً انتهى.

(١) يبحث عنها.

(٢) انظر تفسير الآية ١٨ من يوسف.

(٣) الكشاف ٣: ٥٣٧.

قوله: وقد اشتقه إلى آخره، ليس بجيد، لأنه توهّم أن السول أصله[١] الهمز فاختلفت المادتان؛ إذ عَيْن سُوْل واو، وعين السّؤل همزة. والسّول له مادتان إحداهما الهمز من سأل يسأل، والثانية الواو من سال يسال. فإذا كان هكذا «فسوّل» يجوز أن تكون من ذوات الواو لا من ذوات الهمزة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ روي أن قوماً من قريظة والنضير كانوا يعينون[٢] المنافقين في أمر الرسول عليه السلام والخلاف عليه بنصره ومؤازرته[٣]، وذلك قولهم ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: في بعض ما تأتمرون به أو في بعض الأمر الذي يهمكم. [٥١٢/أ] ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ قالوا ذلك سرًّا فيما بينهم، فأفشاه الله تعالى عليهم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الضمير عائد على من تقدّم ذكره من الكفار. «كيف» استفهام وبعده مبتدأ محذوف و«كيف» خبره تقديره: كيف حالهم إذا توفّتهم. والظاهر أن وقت التّوفي هو عند الموت. وقال ابن عباس: لا يُتوفّى أحد على معصية إلا يُضرب من الملائكة في وجهه وفي دبره. و«الملائكة» ملك الموت والمصرّفون معه. و«يضربون» حال من «الملائكة».

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا

(١) ق: وأصله.

(٢) ق: يعدون.

(٣) ق: ومؤازرة.

وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ
أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ
لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ
أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا
يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ﴿٣٧﴾
هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ
فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا
غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ الآية، إخراج أضغانهم - وهو[1] حقودهم - إبرازها للرسول وللمؤمنين. والظاهر أنها من رؤية البصر، لعطف العرفان عليه، وهو معرفة القلب. وفي هاتين الجملتين تقريب لشهرتهم، لكنه لم يعيّنهم بأسمائهم إبقاءً عليهم وعلى قراباتهم.

﴿ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ ﴾ كانوا يصطلحون فيما بينهم على ألفاظ يخاطبون بها الرسول، مما ظاهره حسن، ويعنون به القبيح كقولهم «راعنا» [النساء: ٤٥]. ﴿ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ خطاب عام يشمل المؤمن والكافر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ناس من بني إسرائيل. وتبيُّن هداهم معرفتهم بالرسول عليه السلام من التوراة.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ قيل: نزلت في بني أسد، أسلموا وقالوا لرسول الله: قد آثرناك وجئناك بأنفسنا وأهلنا!. كأنهم منُّوا عليه بذلك فنزلت فيهم هذه [الآية] وقوله تعالى ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات]. فعلى هذا

---

(١) ق: هو.

يكون ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بالمنّ بالإسلام والرياء والسّمعة والشّرك والنّفاق.

﴿ثُمَّ مَاتُواْ[١] وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ عامّ. والموجب لانتفاء الغفران وفاتهم على الكفر.

وقيل: نزلت بسبب عدي بن حاتم رضي الله عنه، «سأل رسول الله ﷺ عن أبيه قال: كان له أفعالُ برٍّ فما حاله؟ فقال: في النار. فبكى عديّ وولّى. فدعاه فقال له: أبي وأبوك وأبو إبراهيم خليل الرحمن في النار» فنزلت[٢].

﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: تضعفوا. ﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ وهو الصلح. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: الأغلبون. ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ﴾ أي: يعرّيكم[٣] من ثواب أعمالكم.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ تحقير لأمر الدنيا، أي: فلا تهنوا في الجهاد، وأخبر عنها بذلك [باعتبار ما يختصّ بها من ذلك، وأمّا ما فيها من الطاعة وأمر الآخرة فليس بذلك].

﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي: ثواب أعمالكم من الإيمان والتقوى. ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي: كثيراً من أموالكم، إنما يسألكم ربع العشر فطيّبوا أنفسكم. ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ أي: جميعها.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كرر هاء التّنبيه توكيداً.

﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ أي: بالصدقة وما أوجب الله عليه. ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: لا يتعدّى ضرره لغيره. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾ مطلقاً. ﴿وَأَنتُمُ

---

(١) ق: وماتوا.

(٢) ق: ونزلت. والحديث أخرجه مسلم ١ : ١٩١ من حديث أنس.

(٣) ق: يغروكم.

﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ مطلقاً لافتقاركم إلى ما تحتاجون إليه في الدنيا.

[٥١٢/ب] ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ [عطف] على ﴿تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا ۝٣٦﴾ [محمد]، أي: وإن تتولّوا عن الإيمان والتقوى. ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: يخلق قوماً سواكم راغبين في الإيمان والتقوى غير متولّين عنهما. ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ أي: في الخلاف والتولّي والبخل.

مفردات سورة القتال

البال: الفِكر؛ تقول: خطر في بالي كذا. ولا يُثَنَّى ولا يُجمَع، وشذَّ قولُهم: بالات في جمعِه[١].

تعَسَ الرجلُ ـ بفتح العين ـ تَعْساً: ضدُّ تنعَّشَ، وأتعسه الله[٢]. قال مُجَمِّع بن هلال[٣]:

تقولُ وقَدْ أفرَدْتُها من حَليلِها تَعَسْتَ كما أتْعَسْتَني يا مُجَمِّعُ[٤]

وقال قومٌ منهم شِمْر وابن شُمَيل وأبو الهيثم: تَعِسَ بكسر العين. وعن أبي عبيدة: تَعَسَه اللهُ وأتعَسَه في باب فَعَلْتُ وأفْعَلْتُ. وقال ابن السِّكِّيت: التَّعْسُ: أن يَخِرَّ على الوجه، والنَّكْسُ: أن يَخِرَّ على الرأس[٥]. وقال هو أيضاً وثعلب: التَّعْسُ: الهلاك. وقال الأعشى:

بذاتِ لَوْثٍ عَفَرْناةٍ إذا عثَرَتْ فالتَّعْسُ أدنى[٦] لها من أن أقول لَعا[٧]

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٩.

(٢) الصحاح (تعس).

(٣) هو مجمع بن مالك بن هلال، يُنسب إلى جده، وهو شاعر جاهلي. معجم الشعراء ص٤٣٨.

(٤) البيت في درة الغواص ص١١٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٧١٧، وخزانة الأدب ١٠/ ٤٠٣. قال المرزوقي: وسُمِّي الزوجُ حليلاً والمرأةُ حليلةً؛ لأنَّ كل واحدٍ منهما يحلُّ مع صاحبه.

(٥) هكذا نسبه النحاس في معاني القرآن له ٦/ ٤٦٧ لابن السكيت، وتابعه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١١٢، لكن الأزهري نسبه في تهذيب اللغة ٢/ ٧٨ـ والكلام منه ـ للرُّستُمي.

(٦) في (ح) و(ز٣) و(ع): أنهى، وفي المطبوع: أولى، والمثبت من (يه) و(د٣) والديوان.

(٧) ديوان الأعشى ص١٥٣. واللَّوْثُ: القوَّة. وناقةٌ عَفَرْناة، أي: قوية. حاشية الشهاب ٨/ ٤٣.

أَسَنَ الماءُ: تغَيَّرَ ريحُه، يأسِنُ ويأسُنُ. ذكره ثعلب في «الفصيح»، والمصدر أُسونٌ.

وأسِنَ ـ بكسر السين ـ يأسَنُ ـ بفتحِها لغة ـ أَسَناً. قاله اليزيدي[(١)].

وأسِنَ الرجلُ ـ بالكسر لا غير ـ: إذا دخلَ البئر فأصابَتْه ريحٌ مُنتِنَة من ريح البئر فغُشِيَ عليه أو دارَ رأسُه، قال الشاعر:

قَدْ أتركُ القِرْنَ مُصفَرًّا أنامِلُهُ ... يَميدُ في الرُّمْحِ مَيْدَ المائحِ الأسِنِ[(٢)]

الأشراط: العلامات، واحدها شَرْط بسكون الراء وبفتحها. قال أبو الأسود:

فإنْ كنتَ قد أزمعتَ بالصَّرْم بينَنَا ... فقَدْ جعَلَتْ أشراطُ أوَّلِهِ تبدو[(٣)]

وأشرطَ الرجلُ نفسَه: ألزمَها أموراً. قال أوس بن حَجَر[(٤)]:

فأشْرَطَ فيها نفسَهُ وهو مُعْصِمٌ ... فألقى بأسبابٍ لهُ وتوكَّلا

العَسَل معروف. وعَسَل بن ذكوان رجلٌ نَحْوِيٌّ قديم[(٥)].

المِعى مقصورٌ، وألِفُه منقلبةٌ عن ياءٍ، يدلُّ عليه تثنيتُه مِعَيان بقلب الألف ياءً، والمِعَى: ما في البطن من الحوايا[(٦)].

القُفْل معروف، وأصله اليُبْس والصَّلابة، والقَفْل والقَفيل: ما يبس من الشجر،

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٥٩، وما بعده منه ومن الصحاح (أسن).

(٢) قائله زهير، وهو في شرح ديوانه ص١٢١، والخزانة ١١/ ٢٥٩. ورواية الديوان:

يغادرُ القِرْنَ مُصفَرًّا أنامِلُهُ ... يميلُ في الرُّمحِ مَيْلَ المائحِ الأسِنِ

القِرْن: كفؤكَ في الشجاعة. الصحاح (قرن). قال شارح الديوان: مصفرًّا أنامِلُه: دنا موته فاصفرَّت أنامِلُه، والمائح: الذي ينزل إلى أسفل البئر يملأ الدلو إذا قلَّ ماؤه.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٥، والبيت في الأغاني ٢/ ٣٣٤. والصَّرم: الهِجْران. اللسان (صرم).

(٤) ديوانه ص٨٧، واللسان (شرط). والكلام من المحرر الوجيز ٥/ ١١٦.

(٥) كان في أيام المبرِّد، له كتاب «الجواب المسكت»، وكتاب «أقسام العربية». معجم الأدباء ١٢/ ١٦٨-١٦٩.

(٦) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٦١. وينظر تفسير البغوي ٤/ ١٨١.

والقَفيل أيضاً: نَبْتٌ، والقَفيل: السَّوط، وأقفله الصوم: أيبَسه. قاله الجوهري[١].

آنفاً وأنِفاً هما اسما فاعل، ولم يستعمل فِعلُهما، والذي استُعمِلَ ائتنفَ، وهما بمعنى مُبتدِئاً، وتفسيرُهما بالساعة تفسيرُ معنى[٢]. وقال الزجَّاج[٣]: هو من استأنفتُ الشيءَ إذا ابتدأتُه.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ قال صاحب «الصحاح»[٤]: قولُ العرب: أولى لك، تهديدٌ ووعيد، ومنه قول الشاعر:

فأَولى ثمَّ أَولى ثمَّ أَولى ... وهَلْ للدَّرِّ يُحْلَبُ مِنْ مَرَدِّ[٥]

انتهى.

واختلفوا أهو اسم أو فعل، فذهب الأصمعيُّ إلى أنَّه بمعنى: قاربَه ما يُهلِكُه، أي: نزلَ به. وأنشد:

فعادى بين هاديتَينِ منها ... وأولى أنْ يزيدَ على الثَّلاثِ[٦]

أي: قاربَ أن يزيد. قال ثعلب: لم يقُلْ أحدٌ في «أَولى» أحسنَ ممَّا قال الأصمعي.

وقال المبرِّد[٧]: يُقال لِمَنْ هَمَّ بالعَطَب، كما رُوي أنَّ أعرابيًّا كان يُوالي رميَ الصَّيد فيُفلِتُ منه فيقول: أولى لك. رمى صيداً فقاربه ثمَّ أفلتَ منه، وقال:

(١) في الصحاح (قفل) دون قوله: وأقفله الصوم: أيبسه. وهو في تهذيب اللغة ٩/ ١٦١.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١٥.
(٣) في معاني القرآن ٥/ ١٠.
(٤) في الصحاح (ولى).
(٥) البيت لعبد الله بن الزبير، كما في الأغاني ١٤/ ٢٣٧. والكلام من تفسير القرطبي ١٩/ ٢٧٠-٢٧١.
(٦) لم أقف على قائله، وهو في الخزانة ٩/ ٣٤٥. قال البغدادي: قال ابن عقيل: عادى؛ من العِداء: وهو الموالاة بين الصَّيدين بصرع أحدهما على إثر الآخر في طلق واحد. والهادية: أول الوحش.
(٧) في الكامل ٣/ ١٤١٦ بنحوه.

فلو كان أَوْلى يُطْعِمُ القومَ صِدْتُهم[١] ولكنَّ أَولى يتركُ القومَ جُوَّعا[٢]

والأكثرون على أنَّه اسم، فقيل: هو مشتقٌّ من الوَلْي وهو القُرْب[٣]، كما قال الشاعر:

تُكَلِّفني ليلى وقد شطَّ وَلْيُها وعادَتْ عَوادٍ بيننا وخُطوبُ[٤]

وقال الجُرْجاني: هو مأخوذٌ من الوَيْل، فهو أفْعُل منه، لكن فيه قلب[٥].

الضِّغْن والضَّغينة: الحقد[٦]. قال عمرو بن كلثوم:

فإنَّ الضِّغْنَ بعدَ الضِّغْن يفشو[٧] عليكَ ويُخرِجُ الدَّاءَ الدَّفينا

وقد ضَغِن ـ بالكسر ـ وتضاغَنَ القومُ وأَضْغَنوا: أبطنوا الأحقاد. وقد ضَغِنَ عليه، واضْطَغَنْتَ الصبيَّ: أخذتَه تحت حِضْنِك. وأنشد الأحمر:

كأنَّه مُضْطَغِنٌ صبيَّا[٨]

وقال ابن مُقبِل:

وما اضطغَنْتُ سلاحي عند مَغْرَكِها[٩]

---

(١) في (ز٢) و(ع) والمطبوع: صيدهم.
(٢) لم أقف على قائله، وهو في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٤٦ والكلام منه، وفي الخزانة ٩/ ٣٤٦.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٥.
(٤) البيت لعلقمة بن عبدة الفحل، وهو في ديوانه ص٣٣، والمفضليات ص٣٩١.
(٥) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٧١.
(٦) الصحاح (ضغن).
(٧) في (ز٢) و(يه) و(ع) والمطبوع: يعسو، وفي شرح المعلقات السبع للزوزني ص١٠٠: يبدو. والمثبت من (د٣)، وجمهرة أشعار العرب ١/ ٣٩٥، وشرح المعلقات للنحاس ٢/ ١٠١، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص٢٦٥.
(٨) الرجز في غريب الحديث ٤/ ١٩٣، والكلام في الصحاح (ضغن).
(٩) هكذا في النسخ، ورواية الصحاح (ضغن): إذ اضْطَغَنْتُ سلاحي عند مَغْرِضِها. وفي ديوان ابن مقبل ص١٨٦ بمثل رواية الصحاح إلا أنَّ فيه: (ثم اضطبنتُ) بدل (إذ اضطغنْتُ). وعجزه فيهما: ومِرْفَقٍ كرِئاس السيفِ إذْ شَسَفا. اضطبنْتُ: احتضنتُ. والْمَغْرِض: جانب البطن أسفل الأضلاع. ورئاس السيف: مقبضه. وشسف: يبس من الضمر والهزال. اللسان (ضبن) و(غرض) و(رأس) و(شسف).

وفرسٌ ضاغِن: لا يُعطي ما عنده من الجَرْي إلّا بالضَّرْب.

وأصل الكلمة من الضَّغَن: وهو الالتواء والاعوجاج في قوائم الدابَّةِ والقناةِ وكلِّ شيء[١]. وقال بشر:

كـذاتِ الـضِّـغْـنِ تـمـشـي فـي الـرِّفـاقِ[٢]

وأنشد الليث:

إنَّ قَـنـاتـي مـن صَـلـيـباتِ الـقَـنـا ... مـا زادَهـا الـتـثـقـيـفُ إلَّا ضَـغَـنـا[٣]

والحِقْدُ في القلب يُشبَّه به. وقال قطرب والليث: الضِّغْن: العَداوةُ. قال الشاعر:

قُـلْ لابـنِ هـنـدٍ مـا أردتَ بـمَـنْـطِـقٍ ... سـاءَ الـصَّـديـقَ وشـيَّـدَ الأضـغـانـا[٤]

لَحَنْتُ له ـ بفتح الحاء ـ أَلْحَنُ لَحْناً: قلتَ له قولاً يفهمُه عنكَ ويَخفى عن غيره. ولَحِنَه هو ـ بالكسر ـ: فَهِمَه. وألحَنْتُه أنا إيَّاه، ولاحَنْتُ الناس: فاطَنْتُهم. وقال الشاعر:

مَـنْـطِـقٌ صـائـبٌ وتَـلْـحَـنُ أحـيـا ... نـاً وخيـرُ الـحديـثِ ما كـان لَحْنـا[٥]

وقال القتَّال الكِلابي:

ولـقـد وَحَـيْـتُ لـكُـمْ لـكَـيْـمـا تَـفْـهَـمـوا ... ولَـحَـنْـتُ لَـحْـنـاً لـيـسَ بـالـمُـرْتـابِ[٦]

وقيل: لَحْنُ القول: الذَّهاب عن الصَّواب، مأخوذٌ من اللَّحْن في الإعراب[٧].

---

(١) تهذيب اللغة ٨/ ١١، وأساس البلاغة ص٣٧٧.
(٢) ديوان بشر بن أبي خازم ص١٧٨، والصحاح (رفق)، وصدره: فإنّي والشَّكاةَ مِنَ آلِ لأمٍ. والرِّفاق: الحبل.
(٣) البيت في تهذيب اللغة ٨/ ١١، وأساس البلاغة ص٣٧٧ دون نسبة.
(٤) البيت في تفسير القرطبي ١٩/ ٢٨٢ دون نسبة.
(٥) البيت لمالك بن أسماء بن خارجة الفزاري، وهو في الشعر والشعراء ٢/ ٧٨٢، والأغاني ١٧/ ٢٣٦.
(٦) هكذا ذكره القرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٨٥، وهو كذلك في الصحاح (لحن) والكلام منه، وهو في ديوان القتال ص٣٦ برواية:

ولـقـد لـحـنـتُ لـكـم لـكـيـمـا تـفـقـهـوا ... ووحـيـتُ وحـيـاً لـيـسَ بـالـمـرتـابِ

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٤.

وَتَرَه: نَقَصَه، مأخوذٌ من الذَّحْل. وقيل: من الوِتْر، وهو الفَرْد[١].

* * *

سورة محمد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾.

هذه السورة مدنية عند الأكثرين. وقال الضحاك وابن جُبير والسُّدِّي: مكية[٢]. وقال ابن عطية: مدنية بإجماع[٣]. وليس كما قال.

وعن ابن عباس وقتادة أنها مدنية إلَّا آيةً منها نزلت بعد حَجِّه حين خرج من مكة وجعل ينظر إلى البيت وهي ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ الآية[٤].

ومناسبة أوَّلها لآخرِ ما قبلها واضحةٌ جدًّا.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٢، والكشاف ٣/ ٥٣٩، والصحاح (وتر). والذَّحْل: الحقد والعداوة. الصحاح (ذحل).

(٢) الكشاف ٣/ ٥٢٩، وزاد المسير ٧/ ٣٩٥.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٩.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩٠.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: أعرضوا عن الدخول في الإسلام، أو صَدُّوا غيرَهم عنه، وهم أهل مكة الذين أخرجوا رسولَ الله ﷺ. قال ابن عباس: وهم المُطْعِمون يومَ بدر. وقال مقاتل: كانوا اثني عشر رجلاً من أهل الشرك يصدُّون الناسَ عن الإسلامِ ويأمرونهم بالكفر. وقيل: هم أهل الكتاب، صَدُّوا من أراد منهم أو من غيرهم أنَ يدخل في الإسلام[١].

وقال الضحَّاك: ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: عن بيت الله بمَنْع قاصديه[٢]. وهو عامٌّ في كلِّ مَنْ كفرَ وصَدَّ[٣].

﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أتلفَها حيثُ لم ينشأ عنها خيرٌ ولا نفعٌ بل ضررٌ مَحْضٌ. وقيل: نزلت هذه الآية ببدر، وأنَّ الإشارةَ بقوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ إلى الإنفاق الذي أنفقوه في سفرتهم إلى بدر. وقيل: المرادُ بالأعمال أعمالُهم البَرَّة في الجاهلية؛ من صِلَة رَحِم، وفَكِّ عانٍ، ونحوِ ذلك، واللَّفظُ يعمُّ جميعَ ذلك[٤].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هم الأنصار. وقال مقاتل: ناسٌ من قريش[٥]. وقيل: مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: هو عامٌّ. وعلى تقدير خصوص السبب في القبيلتين فاللَّفظُ عامٌّ يتناول كلَّ كافرٍ وكلَّ مؤمنٍ.

﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ تخصيصُه من بين ما يجب الإيمان به تعظيماً لشأن الرسول، وإعلاماً أنه لا يصِحُّ الإيمان ولا يتِمُّ إلَّا به، وأكَّدَ ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾. وقيل: «وهو الحقُّ» أي: هو ناسخٌ لغيره، ولا يَرِدُ عليه النسخ.

وقرأ الجمهور: «نُزِّلَ» مبنيًّا للمفعول. وزيد بن علي، وابن مِقْسَم: «نَزَّلَ» مبنيًّا

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٢٩.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٠.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٢٩.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٩.
(٥) ذكرهما الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٩١، ونسب الأول لابن عباس. وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ١٨١، والحاكم ٢/ ٤٥٧. والكلام من الكشاف ٣/ ٥٣٠.

للفاعل. والأعمش: «أُنْزِلَ» مُعدًّى بالهمزة مبنيّاً للمفعول[(١)]. وقرئ: «نَزَلَ» ثلاثياً[(٢)].

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: حالَهم. قاله قَتادة. وشأنهم. قاله مجاهد. وأمْرَهم. قاله ابن عباس[(٣)].

وحقيقةُ لفظ البال أنها بمعنى الفِكْر والموضع الذي فيه نَظَرُ الإنسان وهو القلب، فإذا صلح ذلك فقد صلحَتْ حالُه، فكأنَّ اللَّفظَ مشيرٌ إلى صلاح عقيدتهم، وغيرُ ذلك من الحال تابعٌ[(٤)].

﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما فعل بالكُفَّار من إضلال أعمالهم، وبالمؤمنين من تكفير سَيِّئاتهم وإصلاح حالهم.

و«ذلك» مبتدأ وما بعده الخبر، أي: كائنٌ بسبب اتِّباع هؤلاء الباطلَ وهؤلاء الحقَّ. وقال الزمخشري: ويجوز أن يكون «ذلك» خبرَ مبتدأ محذوف تقديره: الأمر ذلك، أي: كما ذكر بهذا السبب، فيكون محلُّ الجارِّ والمجرور منصوباً[(٥)]. انتهى. ولا حاجةَ إلى الإضمار مع صحَّة الوجه وعدم الإضمار.

و«الباطل»: ما لا يُنتَفَعُ به. وقال مجاهد: الشيطانُ وكُلُّ ما يأمُرُ به، و«الحقّ»: هو الرسول والشرع. وهذا الكلام يُسمِّيه علماءُ البيان التفسير[(٦)].

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ﴾ قال ابن عطية: الإشارة إلى اتِّباع المذكورين من الفريقين، أي: كما تبعوا على هذين السَّبيلَيْن كذلك يُبَيِّنُ أمرَ كُلِّ فرقةٍ ويجعلُ لها ضربَها من القول وصِنْفَها[(٧)]. وضَرْبُ المَثَل من الضرب الذي هو بمعنى النَّوع.

وقال الزمخشري: «كذلك» أي: مثلَ ذلك الضَّرْب «يضرب اللهُ للناس أمثالَهم»

---

(١) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٩.
(٢) نسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٩٦ لأبي رزين وأبي الجوزاء وأبي عمران.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٩١، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٩. وأخرجها عنهم الطبري ٢١/ ١٨١.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٩-١١٠، وما بعده منه.
(٥) الكشاف ٣/ ٥٣٠، وما بعده الآتي منه.
(٦) الكلام من الكشاف ٣/ ٥٣٠، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٠.
(٧) في النسخ: وصفها، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ١١٠.

والضمير راجعٌ إلى الناس، أو إلى المذكورين من الفريقين، على معنى أنَّه يضرب أمثالهم[١] لأجل الناس ليعتبروا بهم. فإنْ قلتَ: أينَ ضَرْبُ الأمثال؟ قلتُ: في أن جعلَ اتِّباعَ الباطل مثلاً لعمل الكفار، واتِّباعَ الحقِّ مثلاً لعمل المؤمنين، أو في أنْ جعل الإضلالَ مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز[٢] المؤمنين.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: في أيِّ زمانٍ لقيتموهم فاقتلوهم، وفي قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] أي: في أيِّ مكانٍ، فعَمَّ في الزمان وفي المكان.

وقال الزمخشريُّ[٣]: «لقيتُم» من اللِّقاء، وهو الحَرْب. انتهى.

﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ هذا من المصدر النائب مَنابَ فعل الأمر، وهو مُطَّرِدٌ فيه، وهو منصوبٌ بفعلٍ محذوف، واختُلِفَ فيه إذا انتصب ما بعدَه، فقيل: هو منصوبٌ بالفعل الناصب للمصدر. وقيل: هو منصوبٌ بنفس المصدر؛ لنيابته عن العامل فيه[٤]، ومثاله ضَرْباً زيداً، كما قال الشاعر:

على حينَ ألهى الناسَ جُلُّ أُمورِهِمْ فَنَدْلاً زُرَيقُ المالَ نَدْلَ الثَّعالبِ[٥]

وهذا هو الصحيح، ويدلُّ على ذلك قولُه: «فضَرْبَ الرِّقاب» وهو إضافةُ المصدر للمفعول، ولو لم يكن معمولاً له ما جازَتْ إضافتُه إليه.

وضَرْبُ الرِّقاب عبارةٌ عن القتل، ولمَّا كان القتلُ للإنسان أكثرَ ما يكون بضرب رقبته عبَّر بذلك عن القتل ولا يُرادُ خصوصيةَ الرِّقاب، فإنَّه لا يكاد تتأتَّى حالةُ الحربِ أن تُضربَ الرقابُ، وإنَّما يتأتَّى القتلُ في أيِّ موضع كان من الأعضاء، ويُقال: ضرب الأميرُ رقبةَ فلان، وضربَ عنُقَه وعِلاوتَه وما فيه عيناه؛ إذا قتله،

(١) من قوله: والضمير راجع... إلى هنا من (د٣) والكشاف.
(٢) بعدها في (د٣) و(يه) زيادة: الحق مثلاً لعمل!.
(٣) في الكشاف ٣/ ٥٣٠.
(٤) تعقَّبه السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٦٨٤ بقوله: ومنع أبو البقاء أن يكون المصدرُ نفسُه عاملاً، قال: لأنَّه مؤكَّد. وقول أبي البقاء في إملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ٢٣٦.
(٥) قائله أعشى همدان كما في الكامل ١/ ٢٣٩، وهو في الكتاب ١/ ١١٦ دون نسبة. والمراد بالندل السرعة. اللسان (ندل). زُرَيْق: أبو قبيلة من الأنصار. «جمهرة اللغة» (ندل).

كما عبَّر بقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] عن سائر الأفعال لمَّا كان أكثرُ الكسبِ منسوباً إلى الأيدي.

قال الزمخشري: وفي هذه العبارة من الغِلْظة والشِّدَّة ما ليس في لفظ القتل؛ لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة، وهو حَزُّ العنق، وإطارةُ العضو الذي هو رأسُ البدن وعلوه وأوجهُ أعضائه، وقد زاد في هذه الغِلْظة في قوله: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[1] [الأنفال: ١٢] انتهى. ولِما في ذلك من تشجيع المؤمنين، وأنَّهم من الكفار بحيث هم متمكِّنون منهم؛ إذْ أُمِروا بضَرْبِ رقابهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أكثرتُم القتلَ فيهم[2]. وهذه غايةٌ للضَّرْب، فإذا وقعَ الإثخانُ وتمكَّنوا مِنْ أخْذِ مَنْ لم يُقتَلْ وشَدُّوا وَثاقَ الأسرى ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا﴾ بالإطلاق ﴿وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: أثقالَها وآلاتِها[3]. ومنه قولُ عَمرو بن معدي كرب:

وأعـــدَدْتُ لـــلـــحـــربِ أوزارَهـــا رمـــاحـــاً طِـــوَالاً وخَـــيـــلاً ذُكـــورا

أنشده ابنُ عطية لعَمرٍو هذا، وأنشده الزمخشريُّ للأعشى[4].

وقيل: الأوزار هنا: الآثام؛ لأنَّ الحربَ لا بُدَّ أن يكون فيها آثامٌ في أحد الجانبين. وهذه الغاية قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم. وقال قَتادة: حتى يُسلِمَ الجميعُ. وقيل: حتى تقتلوهم وتغلبوهم.

وقال ابن عطية[5]: وظاهرُ اللَّفظ أنَّها استعارةٌ يُرادُ بها التزامُ الأمر أبداً، وذلك أنَّ الحربَ بين المؤمنين والكافرين لا تضعُ أوزارَها، فجاء هذا كما تقول: أنا أفعَلُ كذا وكذا إلى يوم القيامة، فإنَّما تريد أنَّكَ تفعلُه دائماً.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٠-٥٣١.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٦.
(٣) تفسير الثعلبي ٥/ ٤٧٤، والبغوي ٤/ ١٧٨، والقرطبي ١٩/ ٢٤٤، والمحرر الوجيز ٥/ ١١١.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١١١، والكشاف ٣/ ٥٣١، وديوان الأعشى ص١٤٩، وغريب القرآن ص٤٠٩، وأساس البلاغة (وزر).
(٥) في المحرر الوجيز ٥/ ١١١، وما قبله منه.

وقال الزمخشريُّ[١]: وسُمِّيَتْ ـ يعني آلات الحرب من السِّلاح والكُراع[٢] ـ «أوزارَها»؛ لأنَّه لمَّا لم يكُنْ لها بُدٌّ من جَرِّها فكأنَّها تحمِلُها وتستقِلُّ بها، فإذا انقضَتْ فكأنَّها وضعَتْها. وقيل: «أوزارَها»: آثامها، يعني: حتى يترك أهلُ الحربِ - وهم المشركون - شِرْكَهم ومعاصيَهم بأن يُسْلِموا.

والظاهرُ أنَّ ضَرْبَ الرِّقاب ـ وهو القتل ـ مُغيًّا بشدِّ الوَثاقِ وقتَ حصول الإثخان، وأنَّ قوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ﴾ أي: بعد الشَّدِّ ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ حالتان للمأسور؛ إمَّا أنْ يُمَنَّ عليه بالإطلاق كما منَّ رسولُ الله ﷺ بإطلاق ثُمامة بن أُثال الحنفي[٣]، وإمَّا أن يُفدَى كما رُوِيَ عنه عليه السَّلام أنَّه فُوديَ منه رجلان من الكفار برجلٍ مسلم[٤].

وهذه الآيةُ مُعارِضٌ ظاهِرُها لقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] فذهب ابنُ عباس وقَتادة وابن جُريج والسُّدِّي والضحَّاك ومجاهد إلى أنَّها منسوخةٌ بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية[٥]، وأنَّ الأَسْرَ والمَنَّ والفداءَ مرتفعٌ، فإنْ وقعَ أسيرٌ قُتِلَ ولا بُدَّ، إلا أن يُسْلِم. ورُوِيَ نحوُه عن أبي بكر الصِّدِّيق، وذهبَ ابنُ عمر وعمر بن عبد العزيز وعطاء والحسن إلى أنَّ هذه مُخَصِّصةٌ لعموم تلك، والمنُّ والفداءُ ثابت. وقال الحسن: لا يُقتَلُ الأسيرُ إلَّا في الحرب، يُهيب بذلك على العدو. وذهب أكثر العلماء إلى أنَّ أهلَ الكتاب فيهم المنُّ والفداءُ، وعُبَّادَ الأوثان

---

(١) في الكشاف ٣/ ٥٣١.

(٢) الكُراع: الخيل أو السلاح، أو هو اسمٌ يجمع الخيل والسلاح. اللسان (كرع).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٦٤)، وأحمد (٧٣٦١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه قصة إسلام ثُمامة. وثُمامة بن أُثال: سيد من سادات بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، ولما ارتدَّ أهل اليمامة عن الإسلام لم يرتدَّ ثُمامة. ينظر أسد الغابة ١/ ٢٩٤-٢٩٥.

(٤) أخرجه مسلم (١٦٤١)، وأحمد (١٩٨٦٣) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

(٥) أخرجها عنهم ـ دون قول مجاهد ـ الطبري ٢١/ ١٨٣-١٨٥. وأخرج عبد الرزاق في مصنفه (٩٤٠٥) قول الضحاك. وفي تفسيره ٢/ ٢٢١ قول قتادة. وأخرج أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٣٠٠)، وفي الأموال (٣٤٣) قول السدي. وأخرج النحاس في الناسخ والمنسوخ ص٦٦٨ قول ابن جريج وقتادة. وأخرج ابن الجوزي في نواسخ القرآن ص٤٦٧-٤٦٨ قول ابن عباس وقتادة والسدي. والكلام في المحرر الوجيز ٥/ ١١٠.

ليس فيهم إلَّا القتل، فخصَّصوا من المشركين أهلَ الكتاب، وخُصِّصَ من الكفار عَبَدةُ الأوثان.

وأمَّا مذهب الأئمة اليوم؛ فمذهبُ أبي حنيفة أنَّ الإمام يُخيَّرُ في القتل والاسترقاق، ومذهبُ الشافعيِّ أنَّه مُخَيَّرٌ في القتلِ والاسترقاقِ والفداءِ والمنِّ[١]، ومذهب مالك أنَّه مُخَيَّرٌ في واحدٍ من هذه الأربعة وفي ضرب الجزية[٢].

والظَّاهرُ أنَّ قوله: ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ جواز فدائه بالمال وبِمَن أُسِرَ من المسلمين. وقال الحسن: لا يُفْدى بالمال.

وقرأ السُّلمي: «فَشِدُّوا» بكسر الشين[٣]. والجمهور بالضمِّ.

و«الوَثاق» بفتح الواو، وفيه لغةٌ الوِثاق؛ وهو اسمٌ لِما يُوثَقُ به[٤].

وانتصب «مَنًّا» و«فداءً» بإضمار فعلٍ يُقدَّر من لفظهما، أي: فإمَّا تمُنُّون مَنًّا، وإمَّا تفدون فداءً[٥]، وهو فِعْلٌ يجب إضمارُه؛ لأنَّ المصدرَ جاء تفصيلَ عاقبة، فعامِلُه ممَّا يجب إضمارُه، ونحوُه قولُ الشاعر:

لأجْهَدنَّ فإمَّا دَرْءَ واقعةٍ ... تُخْشى وإمَّا بلوغَ السُّؤْلِ والأملِ[٦]

أي: فإمَّا أدرأُ دَرْءَ واقعةٍ، وإمَّا أبلغُ بلوغَ السُّؤْل.

وقال أبو البقاء: ويجوز أن يكونا مفعولَين، أي: أوْلُوهم مَنًّا واقْبَلوا فداءً[٧]. وليس إعرابَ نَحْوِيٍّ.

وقرأ ابنُ كثير في رواية شِبْل: «وإمَّا فِدًى» بالقصر[٨]. قال أبو حاتم: لا يجوز قَصْرُه؛ لأنَّه مصدرُ فادَيْتُه، وهذا ليس بشيء، فقد حكى الفرَّاءُ فيه أربعَ لغات؛

(١) الكشاف ٣/ ٥٣١. وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٠.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١١ دون نسبة القول لمالك.
(٣) القراءات الشاذة ص١٤٠.
(٤) المفردات للراغب الأصفهاني ص٨٥٣.
(٥) الكشاف ٣/ ٥٣١.
(٦) قال صاحب الدرر اللوامع ٣/ ٧٥: لم أعثر على قائله.
(٧) إملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ٢٣٦.
(٨) المحرر الوجيز ٥/ ١١١، والمشهور عنه كقراءة الجمهور.

«فِداءً لك»، بالمدِّ والإعراب، و«فِداءِ لك» بالكسر بناءً والتنوين، و«فِدًى لك» بالقصر، و«فَدًى لك»[١].

والظاهر من قوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّا﴾ المنُّ بالإطلاق كما منَّ الرسولُ عليه الصلاة والسلام على ثُمامة وعلى أبي عَزَّة الجُمَحي[٢]، وفي كتاب الزمخشري: كما منَّ على أبي عروة الحَجَبي وأُثال الحنفي[٣]. فغيَّر الكنيةَ والاسم، ولعلَّ ذلك من الناسخ لا في أصل التصنيف.

وقيل: يجوز أن يُراد بالمنِّ أن يُمنَّ عليهم بترك القتل ويُستَرَقُّوا، أو يُمنَّ عليهم فيُخَلَّوا؛ لقبولِهم الجزية وكونِهم من أهل الذِّمَّة.

والظاهرُ أنَّ قولَه: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ غايةٌ لقوله: ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾؛ لأنَّه قد غَيَّا «فضَرْبَ الرِّقاب» بشدِّ الوثاق وقت الإثخان، فلا يمكن أن يُغيَّا بغاية أخرى؛ لتدافع الغايتين، إلَّا إنْ كانت الثانيةُ مُبيِّنةً للأولى ومُؤكِّدةً فيجوز؛ لأنَّ شَدَّ الوَثاق للأسرى لا يكون إلَّا حتى تضع الحربُ أوزارَها، إذا فسَّرنا ذلك بانتفاء شوكة الكفار الملقيين إذْ ذاك، وتكون الحربُ المرادُ بها التي تكون وقتَ لقاء المؤمنين للكفار. ويجوز أن يكون المُغَيَّا محذوفاً يدلُّ عليه المعنى، التقدير: الحُكْمُ ذلك حتى تضع الحرب أوزارها، أي: لا يبقى شوكةٌ لهم. أو كما قال ابن عطية[٤]: إنَّه استعارةٌ بمعنى: إلى يوم القيامة، أي: اصنعوا ذلك دائماً.

وقال الزمخشري: فإنْ قلتَ: «حتَّى» بِمَ تعلَّقَتْ؟ قلتُ: لا يخلو من أن تتعلَّق بالضَّرْب والشَّدِّ أو بالمنِّ والفداء، فالمعنى على كِلا المُتعلَّقين عند الشافعي رحمه الله أنَّهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى أن لا يكون حربٌ مع المشركين،

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٠، ولم أقف على كلام الفراء في معاني القرآن له.
(٢) المثبت من (ح)، وتحرفت في باقي النسخ والمطبوع إلى: الحجبي. وتنظر قصة أبي عزَّة الجمحي في سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٤.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٣١ وفيه: وابن أثال الحنفي.
(٤) في المحرر الوجيز ٥/ ١١١.

وذلك إذا لم يبقَ لهم شوكةٌ. وقيل: إذا نزل عيسى بن مريم. وعند أبي حنيفة رحمه الله: إذا علِّقَ بالضرب والشَّدِّ، فالمعنى: أنَّهم يُقتَلون ويُؤْسَرون حتى تضعَ جنسُ الحرب الأوزار، وذلك حين لا يبقى شوكةٌ للمشركين. وإذا علِّق بالمنِّ والفداء، فالمعنى: أنَّهم يُمَنُّ عليهم ويُفادَون حتى تضعَ حربُ بدرٍ أوزارَها إلى أنْ تناولَ المنَّ والفداء، يعني بتناول المنِّ بأنْ يُتركوا عن القتل ويُستَرَقُّوا، أو بالتخلية بضرب الجزية وكونهم من أهل الذِّمَّة، وبالفداء أن يُفادى بأسارى المشركين أسارى المسلمين، وقد رواه الطحاويُّ مذهباً لأبي حنيفة، والمشهور أنَّه لا يَرى فداءَهم لا بمالٍ ولا غيرِه؛ خيفةَ أن يعودوا حرباً للمسلمين.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ ذلك، أو افعلوا ذلك ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: لانتقمَ منهم ببعض أسباب الهلاك من خسفٍ أو رجفةٍ أو حاصبٍ أو غرقٍ أو موتٍ جارفٍ ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟﴾ أي: ولكِنْ أمَرَكُم بالقتال ليبلُوَ «بعضَكم» وهم المؤمنون، أي: يَختَبِرَهم «ببعض» وهم الكافرون بأنْ يجاهدوا ويصبروا، والكافرين بالمؤمنين بأنْ يُعاجِلَهم على أيديهم ببعضِ ما وجَبَ لهم من العذاب[١].

وقرأ الجمهور: «قاتَلوا». والجَحْدريُّ بخلافٍ عنه: «قَتَلوا» بفتح القاف والتاء بغير ألف[٢]. وقتادة، والأعرج، والأعمش، وأبو عمرو، وحفص: «قُتِلوا» مبنيًّا للمفعول والتاء خفيفة[٣]. وزيد بن ثابت، والحسن، وأبو رجاء، وعيسى، والجَحْدريُّ أيضاً كذلك وشَدَّدوا التاء[٤].

وقرأ علي: «فلن يُضَلَّ» مبنيًّا للمفعول «أعمالُهم» رفع. وقُرئ: «يَضِلَّ» بفتح الياء من ضَلَّ «أعمالُهم» رفع[٥].

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: إلى طريق الجنة[٦]. وقال مجاهد: يهتدي أهلُ الجنة إلى

(١) هذا الكلام وما قبله من الكشاف ٣/ ٥٣١.
(٢) القراءات الشاذة ص١٤٠، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٠.
(٣) ينظر السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠٠.
(٤) القراءات الشاذة ص١٤٠، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٠. والكلام في المحرر الوجيز ٥/ ١١١.
(٥) هما في القراءات الشاذة ص١٤٠، ونسب الثانية لعلي ﷺ أيضاً.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٤، والمحرر الوجيز ٥/ ١١١.

مساكنهم منها لا يُخطِئون، كأنَّهم كانوا سكَّانها منذ خُلقوا، لا يَسْتَدِلُّون عليها[١].

وروى عبَّاس[٢] عن أبي عمرو: «ويُدْخِلْهم» و«يومَ يجمعْكم ليوم الجَمْع» [التغابن: ٩] و«إنَّما نُطْعِمْكم» [الإنسان: ٩] بسكون لام الكلمة[٣].

﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ عن مقاتل: إنَّ المَلَكَ الذي وُكِّلَ بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيُعرِّفُه كلَّ شيءٍ أعطاه الله[٤].

وقال أبو سعيد الخُدري ومجاهد وقَتادة: معناه: بيَّنها لهم، أي: جعلَهم يعرفون منازلَهم منها، وفي الحديث: «لَأَحَدُكم بمنزله في الجنة أعرَفُ منه بمنزله في الدنيا»[٥]. وقيل: سمَّاها لهم ورسمَها، كلُّ منزلٍ بصاحبه، وهذا نحوٌ من التعريف[٦]. يُقال: عَرَّفَ الدارَ وأرَّفها، أي: حدَّدها، فجنَّةُ كلِّ أحدٍ مُفرَزةٌ عن غيرها، والعُرَفُ والأُرَفُ: الحدود[٧]. وقيل: شرَّفَها لهم ورفعَها وعلَّاها، وهذا من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها. وقال مُؤرِّج وغيرُه: طيَّبَها؛ مأخوذٌ من العَرْف، ومنه طعامٌ مُعرَّفٌ، أي: مُطَيَّبٌ، وعَرَّفْتَ القِدْرَ: طيَّبْتَها بالملح والتابل[٨].

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ أي: دينَه ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ أي: على أعدائكم بخلق القوة فيكم والجرأة وغيرِ ذلك من المَعاوِن[٩]. ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي: في مواطن الحرب، أو على مَحَجَّة الإسلام[١٠].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٢. وأخرجه الطبري ٢١/ ١٩٢.

(٢) المثبت من (د٣)، وتصحف في (ح) إلى: عياش، وتحرف في باقي النسخ والمطبوع إلى: عياض. وعباس: هو ابن الفضل بن عمرو الواقفي، من أكابر أصحاب أبي عمرو في القراءة. غاية النهاية ٢/ ٣٥٣.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١١، والمشهور عن أبي عمرو كقراءة الجمهور.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٢.

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٤٠)، وأحمد (١١٠٩٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٦) الكلام من المحرر الوجيز ٥/ ١١١.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٣٢.

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ١١١-١١٢.

(٩) تصحفت في النسخ سوى (يه) والمطبوع إلى: المعارف، والمثبت منها ومن المحرر الوجيز ٥/ ١١٢، والكلام منه.

(١٠) الكشاف ٣/ ٣٣٢.

وقرأ الجمهور: «ويُثَبِّتْ» مشدَّداً. والمُفَضَّل عن عاصم مُخفَّفاً[(١)].

﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ قال ابن عباس: بُعْداً لهم. وابنُ جُريج والسُّدِّي: خِزْياً[(٢)] لهم. والحسن: شَتْماً. وابن زيد: شقاءً. والضحَّاك: رَغْماً. وحكى النقَّاش: قُبحاً[(٣)].

«والذين كفروا» مبتدأ، والفاء داخلةٌ في خبر المبتدأ، وتقديره: فتعسَهم اللهُ تعساً، «فتَعْساً» منصوبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ؛ ولذلك عطف عليه الفعلَ في قوله: «وأضلَّ أعمالَهم». ويجوز أن يكون «الذين» منصوباً على إضمار فعلٍ يُفسِّره[(٤)] قولُه: «فتَعْساً لهم» كما تقول: زيداً جَدْعاً له.

وقال الزمخشري: فإنْ قلتَ: علامَ عطفَ قوله: «وأضلَّ أعمالهم»؟ قلت: على الفعل الذي نصب «تعساً»؛ لأنَّ المعنى: فقال: تعساً لهم، أو فقضى: تَعْساً لهم. و«تَعْساً لهم» نقيض لَعاً له[(٥)]. انتهى. وإضمار ما هو من لفظ المصدر أولى؛ لأنَّ فيه دلالةً على ما حُذف. وقال ابن عباس: يريد في الدنيا القتل، وفي الآخرة التردِّي في النار. انتهى.

وفي قوله: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ أي: هلاكاً زيادةُ تقويةٍ لقلوب المؤمنين؛ إذ جعل لهم التثبيتَ، وللكفار الهلاكَ والعَثْرَة[(٦)].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يشمل ما أنزل من القرآن في بيان التوحيد وذِكرِ البعثِ والفرائض والحدودِ وغيرِ ذلك مما تضمَّنه القرآن[(٧)]. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: جعلَها من الأعمال التي لا تزكو ولا يُعتَدُّ بها[(٨)].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٢، وزاد المسير ٧/ ٣٩٧. والمشهور عن عاصم كقراءة الجمهور.
(٢) تصحفت في (يه) و(ع) والمطبوع إلى: حزناً، والمثبت من باقي النسخ والمصادر.
(٣) الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٢٩٥، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢٥٤، وفيهما قول ابن جريج مثل قول ابن عباس. وأخرج الطبري ٢١/ ١٩٣ قول ابن زيد.
(٤) تحرفت في (يه) و(ز٢) إلى: يقدره.
(٥) الكشاف ٣/ ٥٣٢، وما بعده منه. قال الآلوسي في روح المعاني ٢٥/ ١٣٩: وفي الدعاء للعاثر: لَعاً له، أي: انتعاشاً وإقامةً.
(٦) الكلام بنحوه من المحرر الوجيز ٥/ ١١٢، وتفسير الرازي ٢٨/ ٤٩.
(٧) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٩ ببعضه.
(٨) المحرر الوجيز ٥/ ١١٢.

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أفسدَ عليهم ما اختُصُّوا به من أنفسهم وأولادهم وأموالهم وكلِّ ما كان لهم ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ أي: أمثال تلك العاقبة والتدميرة التي يدلُّ عليها «دمَّر» أو الهَلَكَة؛ لأنَّ التدميرَ يدلُّ عليها، أو السُّنَّة؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾[1] [الأحزاب: ٣٨]. والوجه الأول هو الراجح؛ لكونِ العاقبة منطوقاً بها، فعاد الضميرُ على الملفوظ به، وما بعده مقولٌ منقول.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ﴾ ابتداءٌ وخبر. والإشارة بـ «ذلك» إلى النَّصْر في اختيار جماعة، وإلى الهَلاك؛ لمَّا قال: «وللكافرين أمثالُها» قال: ذلك الهَلاك الذي حصل للكفار بأيدي المؤمنين بسبب أنَّ اللهَ مولاهم، أي: ناصِرُهم ومؤيِّدُهم، وأنَّ الكافرين لا ناصرَ لهم إذ اتخذوا آلهةً لا تنفعُ ولا تضرُّ، وتركوا عبادةَ مَنْ ينفَعُ ويضُرُّ وهو الله تعالى[2].

قال قتادة: نزلت هذه الآية يومَ أحدٍ، ومنها انتزعَ رسولُ الله ﷺ ردَّه على أبي سفيان حين قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم» حين قال المشركون: إنَّ لنا عُزَّى ولا عُزَّى لكم[3].

❋ ❋ ❋

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٢.
(٢) تفسير الرازي ٢٨/ ٥٠.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١٣. وينظر صحيح البخاري (٤٠٤٣)، ومسند أحمد (١٨٥٩٣).

أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ أي: ينتفعون بمتاع الدنيا أياماً قلائلَ. ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ غافلين غير مُفَكِّرين في العاقبة ﴿كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ في مسارِحِها ومعالِفها غافلةً عمَّا هي بصددِه من النَّحر والذَّبح[(١)].

والكاف في موضع نصب إمَّا على الحال من ضمير المصدر كما يقول سيبويه، أي: يأكلونه، أي: الأكلَ مُشبِهاً أكلَ الأنعام. [(٢)]وإمَّا على أنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ كما يقول أكثر المُعْربين، أي: أكلاً مثل ما يأكل الأنعام[(٢)]، والمعنى: أنَّ أكلَهم مُجرَّدٌ من الفِكر والنظر، [(٢)]فالتشبيه في المعنى ليس في مُطلق الأكل، بل فيما هو لازمٌ للأكل من عدم الفكر والنظر[(٢)] كما تقول للجاهل: تعيشُ كما تعيشُ البهيمة؟! لا تريدُ التشبيهَ في مطلق العيش، ولكن في لازمه[(٣)].

﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: موضع إقامة.

ثمَّ ضرب تعالى مثلاً لمكة بالقرى المُهلَكة على عِظَمها كقرية عادٍ وغيرِهم[(٤)]، والمرادُ أهلُها؛ ولذلك عاد الضميرُ على ذلك المراد في قوله: «أهلكناهم»، ومعنى «أخرَجَتْكَ» أي: أهلها، وأسندَ الإخراج إليها مجازاً[(٥)]، والمعنى: كانوا سببَ خروجك، وذلك وقت هجرته عليه السلام إلى المدينة[(٦)]، وكما جاء في حديث وَرَقَة بن نَوْفَل: يا ليتني فيها جَذَعاً إذْ يُخرِجُكَ قومُك. قال: «أوَمُخْرِجِيَّ هم؟»[(٧)].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٢.
(٢-٢) ليس في المطبوع.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١٣ ببعضه مع تقديم وتأخير.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١١٣، وما قبله منه.
(٥) ينظر زاد المسير ٧/ ٤٠٠.
(٦) الكلام من الكشاف ٣/ ٥٣٣، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٣.
(٧) هو قطعة من حديث عائشة ﵂ أخرجه البخاري (٤٩٥٦)، ومسلم (١٦٠)، وأحمد (٢٥٩٥٩). وقوله: جَذَعاً، أي شابًّا.

وقال ابن عطية: ونسبَ الإخراج إلى القرية حملاً على اللفظ، وقال: ﴿أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾ حملاً على المعنى[(١)]. انتهى.

وظاهر هذا الكلام لا يصحُّ؛ لأنَّ الضميرَ في «أهلكناهم» ليس عائداً على المضاف إلى القرية التي أسندَ إليها الإخراج، بل إلى أهل القرية في قوله: «وكأيِّنْ من قرية»، فإن كان أراد بقوله: حملاً على المعنى، أي: معنى القرية في قوله: «وكأيِّنْ من قريةٍ» فهو صحيح، لِكنَّ ظاهرَ قوله: حملاً على اللفظ، وحملاً على المعنى، أي: أنْ يكون في مدلولٍ واحدٍ، وكان على هذا يبقى «كأيِّنْ» مُفْلَتاً غيرَ مُحدَّثٍ عنه بشيء، إلَّا أنْ يُخَيَّلَ أنَّ «هي أشدُّ» خبرٌ عن «كأيِّنْ»، والظاهر أنَّه في موضع الصفة.

﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يعني وقتَ إهلاكهم، كأنَّه قال: فهم لا يُنْصَرون إذْ ذاك. وقال ابن عباس: لمَّا خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: «أنتِ أحَبُّ بلاد الله إلى الله، وأنتِ أحَبُّ بلاد الله إليَّ، فلو أنَّ المشركين لم يخرجوني لم أخْرُجْ منكِ، فأعدى الأعداءِ مَنْ عدا على الله في حرمه، أو قتل غير قاتلِه، وقتلَ بذُحُول الجاهلية» قال: فأنزل الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ الآية[(٢)]. وقد تقدَّم أولَ السورة عن ابن عباس خلافُ هذا القول.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ استفهامُ توقيفٍ وتقريرٍ على كلِّ شيءٍ متَّفقٍ عليه، وهي معادلةٌ بين هذين الفريقين. قال قَتادة: والإشارة إلى الرسول وإلى كفَّار

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٣.

(٢) أخرجه بهذا السياق الطبري ٢١/ ١٩٨، وابن أبي حاتم فيما نقله عنه ابن كثير في تفسيره عند تفسير هذه الآية، وأبو يعلى كما في المطالب العالية (٤١٠٣).

وأورده الثعلبي في تفسيره ٥/ ٤٧٨ ـ دون قوله: «فأعدى الأعداء...» إلى قوله: «بذحول الجاهلية» ـ وكذا نقله عنه القرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٥٨.

والحديث بقسمه الأول ـ دون ذكر نزول الآية ـ أخرجه بنحوه الترمذي (٣٩٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأخرجه ـ أيضاً ـ بنحوه (٣٩٢٥) من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء رضي الله عنه، وقال: هو عندي أصح.

والحديث بقسمه الثاني ـ دون ذكر نزول الآية ـ أخرجه أحمد (٦٧٥٧) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وقوله: «أو قتل غير قاتله» أي: غير قاتل وليّه. و«ذُحُول الجاهلية»: جناياتُها.

قريش. انتهى. واللَّفظ عامٌّ لأهل الصِّفتين[١].

ومعنى ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾: على حجَّةٍ واضحةٍ، وهو القرآنُ المُعجِزُ وسائرُ المعجزات[٢].

﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ وهو الشركُ والكفرُ بالله وعبادةُ غيره[٣].

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: شهوات أنفسِهم ممَّن لا يكون له بينةٌ، فعبدوا غيرَ خالقِهم. والضمير في «واتَّبعوا» عائدٌ على معنى «مَنْ»[٤].

وقُرئ: «أمَنْ كان» بغير فاء[٥].

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: صفة الجنة، وهو مرفوعٌ بالابتداء. قال النَّضر بن شُمَيل: كأنَّه قال: صفةُ الجنة ما تسمعون. انتهى. فما تسمعون هو الخبر، و«فيها أنهارٌ» تفسيرٌ لتلك الصفة، فهو استئنافُ إخبارٍ عن تلك الصفة. وقال سيبويه: فيما يُتلى عليكم مَثَلُ الجنة، فقدَّر الخبرَ المحذوف متقدِّماً، ثمَّ فسَّر ذلك الذي يُتلى.

وقال ابن عطية[٦]: وفي الكلام حذفٌ يقتضيه الظاهرُ. كأنَّه قال: مَثَلُ الجنة ظاهرٌ في نفس مَنْ وعى هذه الأوصاف. وكان ابنُ عطية قد قال قبل هذا: ويظهر أنَّ القصد بالتمثيل هو إلى الشيء الذي يتخيَّله المرء عند سماعه فيها كذا وكذا، فإنَّه يتصوَّر عند ذلك بقاعاً على هذه الصورة، وذلك هو مَثَلُ الجنة. قال: وعلى هذه التأويلات ـ يعني قولَ النَّضر وقول سيبويه وما قاله هو ـ يكون قبلَ قوله: «كمَنْ هو خالدٌ في النار» حذفٌ تقديره: أساكِنُ هذه؟ أو: أهؤلاء؟ إشارةٌ إلى المتقين. قيل: ويحتمل عندي أن يكون الحذف في صدر هذه الآية، كأنَّه قال: أمَثَلُ أهل الجنة كمَنْ هو خالدٌ؟ ويكون «مَثَل» مستفهَماً عنه بغير ألف الاستفهام، فالمعنى: أمَثَلُ أهل الجنة وهي بهذه الأوصاف كمن هو خالدٌ في النار؟ ويجيء قوله: «فيها أنهارٌ» في موضع الحال على هذا التأويل. انتهى.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٣.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٣.
(٣) ينظر تفسير الطبري ٢١/ ١٩٩.
(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٧١.
(٥) الكشاف ٣/ ٥٣٣.
(٦) في المحرر الوجيز ٥/ ١١٤، وكلام النضر بن شميل وسيبويه منه.

ولم يذكر الزمخشريُّ غيرَ هذا الوجه، قال: و«مَثَلُ الجنَّة» صفةُ الجنَّةِ العجيبةِ الشأن، وهو مبتدأ، وخبره «كمَنْ هو خالدٌ» وقوله: «فيها أنهارٌ» في حكم الصِّلة، كالتكريرِ لها، ألا ترى إلى صحَّةِ قولِكَ: التي فيها أنهار؟ ويجوز أن تكون خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ: هي فيها أنهارٌ، كأنَّ قائلاً قال: وما مَثَلُها؟ فقيل: فيها أنهارٌ. وأن تكون في موضع الحال، أي: مستَقِرَّةً فيها أنهار.

وقال الزمخشريُّ أيضاً: فإنْ قلتَ: ما معنى قوله: «مثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون فيها أنهار... كمن هو خالد في النار»؟ قلتُ: هو كلامٌ في صورة الإثبات، ومعناه النفيُ والإنكارُ؛ لانطوائه تحت كلامٍ مُصدَّرٍ بحرف الإنكار، ودخولِه في حيِّزِه وانخراطِه في سلكه، وهو قوله: «أفمَنْ كان على بيِّنةٍ من ربِّه كمن زُيِّنَ له سوءُ عملِه»، فكأنَّه قيل: أمَثَلُ الجنة كمَنْ هو خالدٌ في النار؟ أي: كمَثَلِ جزاءِ مَنْ هو خالدٌ في النار. فإنْ قلتَ: لِمَ عُرِّيَ من حرف الإنكار؟ وما فائدةُ التعرية؟ قلتُ: تعريَتُه من حرف الإنكار فيها زيادةُ تصويرٍ لمكابرة مَنْ يُسوِّي بين المتمسِّك بالبيِّنة والتابع لهَوَاهُ، وأنَّه بمنزلة مَنْ يُثبت التسويةَ بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يُسقى أهلُها الحميمَ، ونظيرُه قولُ القائل:

أَفْــــرَحُ أَنْ أُرزَأَ الـــكِـــرامَ وأنْ أُوْرَثَ ذَوْداً شـصـائِـصـاً نَـبَـلا[1]

هو كلامُ مُنكِرٍ للفرح برزِيَّة الكرامِ ووِراثةِ الذَّودِ، مع تعَرِّيه من حرف الإنكار؛ لانطوائه تحت حكم [قول] من قال له: أتفرَحُ بموت أخيك وبوراثةِ إبلِه؟ والذي طُرِحَ لأجله حرفُ الإنكار إرادةُ أن يُصوِّر قُبحَ ما أُزِنَّ به، فكأنَّه قال: نَعَمْ مثلي يفرَحُ بمَرْزِئةِ الكرام، وبأن يستبدِلَ منهم ذَوْداً يقِلُّ طائلُه، وهو من التسليم الذي تحتَه كلُّ إنكار[2]. انتهى.

وتلخَّصَ من هذا الاتِّفاق على إعراب «مَثَلُ الجنة» مبتدأ، واختلفوا في الخبر،

---

(١) قائله حضرمي بن عامر، والبيت في أمالي القالي ١/ ٦٧، وجمهرة الأمثال ١/ ٣٧٦، والخزانة ٣/ ٤٢٩. والشصائص جمع شصوص: وهي الناقة قليلة اللبن. والنَّبَل: صغار الإبل وكبارها، والمراد هنا الصغار منها. والمعنى كما في الصحاح (نَبَلَ): أأفرَحُ بصغار الإبل وقد رُزِئت بكبار الكرام.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٢-٥٣٤.

فقيل: هو مذكورٌ، وهو «كمَنْ هو خالدٌ في النار». وقيل: محذوفٌ، فقيل: مُقدَّرٌ قبلَه، وهو قول سيبويه. وقيل: بعده، وهو قول النَّضر وابن عطية على اختلاف التقدير.

ولمَّا بيَّنَ الفرقَ بين الفريقين في الاهتداء والضلال بيَّنَ الفرق بينهما فيما يؤولان إليه، وكما قدَّم مَنْ على بيِّنةٍ على مَنِ اتَّبع هواه، قدَّم حالَه على حاله[١].

وقرأ عليٌّ، وعبد الله، وابن عباس، والسُّلمي: «أمثال الجنة» أي: صفاتها. وعن عليٍّ أيضاً: «مثال الجنة»[٢].

وقرأ ابن كثير وأهل مكة: «أسِنٍ» على وزن حَذِرٍ، اسمُ فاعلٍ من أسِنَ بكسر السين. والجمهور: «آسِنٍ» على وزن فاعل، من أسَنَ بفتح السين[٣]. وقُرئ: «غيرِ يَسِنٍ» بالياء. قال أبو علي[٤]: وذلك على تخفيف الهمزة.

﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ نفيٌ لجميع وجوه الفساد في اللبن. ﴿لَّذَّةٍ﴾ جمعَتْ طِيبَ المَطْعَم وزوال الآفات من الصُّداع وغيره[٥]. و«لَذَّةٍ» تأنيثُ لَذٍّ، وهو اللذيذ. أو مصدرٌ نُعِتَ به[٦].

فالجمهور بالجرِّ على أنَّه صفةُ «خَمْر»[٧]. وقُرئ بالرفع صفةً لـ «أنهار»، وبالنصب، أي: لأجل لذَّةٍ، فهو مفعول له[٨].

«من عسَلٍ مصفًّى» قال ابن عباس: لم يخرُجْ من بطون النَّحل قبلُ فيخالطه الشمعُ وغيرُه.

ووصفه بـ «مُصفًّى»؛ لأنَّ الغالبَ على العسل التذكير[٩]، وهو مما يُذكَّر ويُؤنَّث.

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ٥٣.

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٠، والمحتسب ٢/ ٢٧٠، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٤. ومن قوله: وقرأ علي... إلى هنا، ليس في المطبوع.

(٣) ينظر السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠٠. ومن قوله: أسِن... إلى: آسن؛ ليس في المطبوع.

(٤) في الحجة للقراء السبعة ٦/ ١٩١. والكلام في المحرر الوجيز ٥/ ١١٤.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١١٤. ومن قوله: لم يتغير... إلى هنا، ليس في المطبوع.

(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٤. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٤.

(٧) إملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ٢٣٦.

(٨) الكشاف ٣/ ٥٣٤، وما بعده منه.

(٩) لكن ابن قتيبة قال في غريب الحديث ١/ ٣٥: الأغلب عليه التأنيث.

وعن كعب أنَّ النِّيل ودِجلة والفرات وجِيحان تكون هذه الأنهار في الجنة[١]. وقد اختُلف في تعيين كلِّ نهرٍ منها لماذا يكون فتركتُه.

وبُدِئ من هذه الأنهار بالماء وهو الذي لا يُستغنى عنه في المشروبات، ثمَّ باللَّبن؛ إذ كان يجري مجرى المَطْعوم[٢] في كثيرٍ من أوقات العرب وغيرهم، ثمَّ بالخمر؛ لأنَّه إذا حصل الرِّيُّ والمطعوم تشوَّفَتِ النفس إلى ما يُلتَذُّ به، ثمَّ بالعسل؛ لأنَّ فيه الشفاءَ في الدنيا ممَّا يعرض من المشروب والمطعوم، فهو متأخِّرٌ في الرُّتبة.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لمَّا ذكر المشروب ذكر من المأكول ما يُتفكَّه به. قيل: و«مِن» زائدة، أي: ولهم فيها كلُّ الثمرات. وقيل: المبتدأ محذوفٌ أي: أنواعٌ من كلِّ الثمرات. وقدَّرَه بعضُهم بقوله: زوجان من كلِّ الثَّمَرات، كأنَّه انتزعه من قوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هو معطوف على ما قبله لا بقَيْدِ فيها، أي: ولهم مغفرةٌ من ربهم[٣]؛ لأنَّ المغفرة قبلَ دخول الجنة. أو على حذف، أي: بنعيمِ مغفرةٍ؛ إذ المغفرةُ سببُ التنعيم[٤].

﴿وَسُقُوا۟﴾ عائدٌ على معنى «مَنْ»، و«هو خالدٌ» على اللفظ، وكذلك «خَرَجوا» عاد على معنى «مَنْ يَسْتَمع».

كان المنافقون يحضرون عند الرسول ويستمعون كلامَه وتلاوتَه، فإذا خرجوا قالوا للذين أوتوا العلم ـ وهم السامعون كلامَ الرسول حقيقةً، الواعونَ له ـ: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: الساعة، وذلك على سبيل الهُزء والاستخفاف، أي: لم نفهم ما يقول، ولا ندري ما نَفْعُ ذلك؟ وممَّن سألوه ابنُ مسعود[٥].

---

(١) ينظر تفسير الثعلبي ٥/ ٤٧٨.
(٢) المثبت من (يه) و(د٣)، وفي باقي النسخ والمطبوع: المطعم.
(٣) من قوله: ولهم فيها من كل الثمرات... إلى هنا، جاء مختصراً في المطبوع، وانظر تفسير الرازي ٢٨/ ٥٥.
(٤) الكلام من إملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ٢٣٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٤.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١١٤-١١٥ بنحوه.

و«آنِفاً» حال، أي: مُبتَدِئاً، أي: ما القولُ الذي ائتنفه الآن قبلَ انفصاله عنه.

وقرأ الجمهور: «آنِفاً» على وزن فاعل. وابنُ كثير على وزن فَعِل[١].

وقال الزمخشري: و«آنِفاً» نُصِبَ على الظرف[٢]. انتهى. وقال ذلك؛ لأنَّه فسَّره بالساعة.

وقال ابن عطية: والمفسِّرون يقولون: «آنفاً» معناه: الساعة الماضية القريبة منَّا، وهذا تفسيرٌ بالمعنى[٣]. انتهى. والصحيح أنَّه ليس بظرف، ولا نعلم أحداً من النُّحاة عدَّه في الظروف.

والضمير في «زادَهم» عائدٌ على «الله» كما أُظهِرَ في قوله: «طبعَ الله»؛ إذ هو مُقابِلُه، وكما هو في «وآتاهم»، والزيادة في هذا المعنى تكون بزيادة التفهيم والأدلَّة، أو بورود الشرائع بالأمر والنهي والإخبار، فيزيد الهدى لزيادةِ علم ذلك والإيمانِ به. قيل: ويحتمل أن يعود على قول المنافقين واضطرابهم؛ لأنَّ ذلك مما يعجَبُ منه المؤمن ويحمَدُ اللهَ على إيمانه ويزيد بصيرةً في دينه. وقيل: يعود على قول الرسول[٤].

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي: أعطاهم، أي: جعلهم متَّقين له، فـ ﴿تَقْوَىٰهُمْ﴾ مصدرٌ مضافٌ للفاعل[٥].

﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدل اشتمال من الساعة[٦]، والضمير للمنافقين، أي: الأمرُ الواقعُ في نفسه انتظارُ الساعة، وإن كانوا هم في أنفسهم ينتظرون غيرَ ذلك؛ لأنَّ ما في أنفسهم غير مُراعًى؛ لأنَّه باطل[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٥، وزاد المسير ٧/ ٤٠٢، والمشهور عن ابن كثير كقراءة الجمهور.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٤.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١٥.
(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠-١١، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٥.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١١٥.
(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٤.
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١١٦.

وقرأ أبو جعفر الرُّؤاسي عن أهل مكة: «إنْ تأتِهم» على الشرط، وجوابه «فقد جاء أشراطها»[١]. وهذا غيرُ مشكوكٍ فيه؛ لأنَّها آتيةٌ لا مَحالة، لكِنْ خُوطِبوا بما كانوا عليه من الشكِّ، ومعناه: إن شكَكْتُم في إتيانها فقد جاء أعلامُها، فالشكُّ راجعٌ إلى المخاطَبين الشاكِّين[٢].

وقال الزمخشريُّ: فإن قلتَ: فما جزاءُ الشرط؟ قلتُ: قوله: «فأنَّى لهم»، ومعناه: إنْ تأتِهم الساعةُ فكيف لهم ذكراهم؟ أي: تذكُّرُهم واتِّعاظُهم إذا جاءتهم الساعة، يعني: لا تنفعهم الذكرى حينئذٍ، كقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]. فإنْ قلتَ: بِمَ يتَّصل قولُه: «فقد جاء أشراطها» على القراءتين؟ قلتُ: بإتيان الساعة اتصالَ العِلَّة بالمعلول، كقولك: إن أكرَمني زيدٌ فأنا حقيقٌ بالإكرام أُكْرِمْه[٣].

وقرأ الجُعْفي، وهارون عن أبي عمرو: «بَغَتَّةً» بفتح الغين وشدِّ التاء[٤]. قال صاحب «اللوامح»: وهي صفة، وانتصابُها على الحال لا نظيرَ لها في المصادر ولا في الصِّفات، بل في الأسماء، نحو: الجَرَبَّة ـ وهو اسمُ جماعة ـ والشَّرَبَّة ـ مكان ـ انتهى. وكذا قال أبو العباس بن الحاج من أصحاب الأستاذ أبي علي الشلوبين في كتاب «المصادر» من تأليفه.

وقال الزمخشري: وما أخوفني أن تكون غلطةً من الراوي[٥] على أبي عمرو، وأن يكون الصوابُ «بَغَتَةً» بفتح الغين من غير تشديد، كقراءة الحسن فيما تقدَّم[٦]. انتهى. وهذا على عادته في تغليط الرُّواة.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٦. وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٦١، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٥.
(٢) كلمة «الشاكين» ليست في (ز٢) و(ح).
(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٤-٥٣٥.
(٤) المحتسب ٢/ ٢٧١، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٦. والمشهور عن أبي عمرو كقراءة الجمهور.
(٥) من قوله: من تأليفه... إلى هنا، ليس في المطبوع.
(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٥.

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: علاماتُها[١]، فينبغي الاستعدادُ لها، ومن أشراط الساعة مَبْعَثُ رسول الله ﷺ؛ إذ هو خاتم الأنبياء. ورُوي عنه أنَّه قال: «أنا من أشراط الساعة»[٢]، وقال: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين»[٣] و«كفرَسَي رِهان»[٤]. وقيل: منها الدُّخَانُ، وانشقاقُ القمر. وعن الكلبي: كثرةُ المال والتجارة، وشهادةُ الزُّور، وقطعُ الأرحام، وقِلَّةُ الكرام، وكثرةُ اللئام[٥].

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ الظاهر أنَّ المعنى: فكيفَ لهم الذِّكرى والعمل بها إذا جاءتهم الساعة، أي: قد فاتهم[٦] ذلك. قيل: ويحتمل أن يكون المبتدأ محذوفاً، أي: فأنَّى لهم الخلاصُ إذا جاءتهم الذِّكرى بما كانوا يُخبَرون به فيكذِّبون به منوطةً بالعذاب[٧].

ثمَّ أضرب عن ذكر المنافقين وقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ والمعنى: دُمْ على عِلْمِكَ بتوحيد الله، واحتُجَّ بهذا على قول من قال: أوَّلُ الواجبات العلمُ والنظر، قبل القول والإقرار.

وفي الآية ما يدلُّ على التواضعِ وهَضْمِ النفس، إذ أمره بالاستغفار[٨]. واستغفارُه عليه السلام لأهل الإيمان رحمةٌ لهم، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولذنوب المؤمنين.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٧٧، والوسيط ٤/ ١٢٤.
(٢) لم أجد من أخرجه بهذا اللفظ، وقد ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١١٦ والكلام منه.
(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) (١٣٥)، وأحمد (١٢٢٤٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد (١٤٤٣١)، وابن ماجه (٤٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٤) هو قطعة من حديث، ولفظه: «مثلي ومثل الساعة كمثل فَرَسَيْ رِهان». أخرجه أحمد (٢٢٨٠٩)، والبيهقي في الشعب (١٠٢٣٧)، وأبو الشيخ في الأمثال (٣٤٧) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.
(٥) الكشاف ٣/ ٥٣٥.
(٦) تحرفت في (يه) و(ع) والمطبوع إلى: فاتها. وينظر معنى هذا القول في تفسير الطبري ٢١/ ٢٠٨ عن قتادة.
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١١٦، وما بعده منه أيضاً.
(٨) الكشاف ٣/ ٥٣٥.

وأحوالُه عليه السلام ثلاثة؛ مع الله بالتوحيد، ومع نفسه بالاستغفار له، ومع غيره بالاستغفار لهم.

﴿مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ هو على العموم في كلِّ متقلَّب وفي كلِّ إقامة.

وقال ابن عباس: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: تصرُّفكم في حياتكم الدنيا ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾: إقامتكم في قبوركم وفي آخرتكم. وقال عكرمة: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمَّهات ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾: إقامتكم في الأرض[1].

وقال الطبريُّ وغيرُه: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: تصرُّفكم في يقظتكم ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾: منامكم[2]. وقيل: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في معايشكم ومتاجركم ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ حيث تستقِرُّون من منازلكم. وقيل: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في أعمالكم ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ من الجنة والنار[3].

وقرأ الجمهور: «مُتَقلَّبُكُم» بالتاء. وابنُ عباس بالنون.

❁ ❁ ❁

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

كان المؤمنون حريصين على ظهور الإسلام وعُلوِّ كلمته وتمنِّي قتل العدو،

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٦٩. وقول ابن عباس في المحرر الوجيز ٥/ ١١٦. وقول عكرمة في تفسير الثعلبي ٥/ ٤٨٠، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٣.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١٦. وقول الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٠٩.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٥.

وكانوا يستأنسون بالوحي، ويستوحشون إذا أبطأ، والله تعالى قد جعل ذلك بآمادٍ مضروبةٍ لا تُتَعدَّى، فمدح تعالى المؤمنين بطلبهم إنزالَ سورة، والمعنى يتضمَّن: أَمْرَنا بمجاهدة العدوِّ وفضح أمر المنافقين[١]. والظاهرُ أنَّ طالبي[٢] ذلك هم خُلَّصٌ في إيمانهم؛ ولذلك قال بعدُ: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

وقال الزمخشري: كانوا يَدَّعون الحرصَ على الجهاد ويتمنَّونه بألسنتهم، ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ في معنى الجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ﴾ وأُمِروا فيها بما تمنَّوا وحَرَصوا عليه كاعوا[٣] وشقَّ عليهم وسُقِطوا في أيديهم، كقوله: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾[٤] [النساء: ٧٧]. انتهى. وفيه تحريفٌ لما يدلُّ عليه لفظ القرآن.

و«لولا» بمعنى «هلَّا». وعن ابن مالك: «لا» زائدة، والتقدير: لو نُزِّلَتْ. وهذا ليس بشيء.

وقُرئ: «فإذا نزلَتْ»[٥].

وقرأ زيد بن علي: «سورةً مُحكمةً» بنصبهما، ومرفوع «نَزَلَتْ» مُضْمَرٌ، و«سورةً» نصب على الحال. وقرأ هو وابن عُمير: «وذَكَرَ» مبنيًّا للفاعل، أي: الله «فيها القتالَ» نصب.

والجمهور برفع «سورةٌ محكمةٌ» على أنَّه مفعولٌ لم يُسمَّ فاعِلُه، وبُني «وذُكِرَ» للمفعول، و«القتالُ» رُفِعَ به.

وإحكامها كونُها لا تُنسَخ. قال قَتادة: كلُّ سورةٍ فيها القتال فهي مُحكَمةٌ وهو أشدُّ القرآن على المنافقين، وهذا أمرٌ استقرأه قتادة من القرآن لا بخصوصية هذه

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٧ مع اختلاف في بعض الألفاظ.
(٢) في (د٢) والمطبوع: ظاني.
(٣) جاء في هامش مخطوط الكشاف الورقة (٢٩٤): كَاعَ الكلبُ في الرَّمْل، أي: مشى على كُوعه، وذلك إذا اشتدَّ الحَرُّ. اهـ. ويقال: كاع عن الشيء، إذا هابه وجبُن عنه. الصحاح (كوع).
(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٥. قلت: ومن هنا يبدأ سقط في نسخة (د٣).
(٥) في (ز٢) و(ح): أنزلت، والمثبت موافق لما في الكشاف ٣/ ٥٣٥.

الآية، وذلك أنَّ القتالَ نسخَ ما كان من المُهادنة والصَّفْح[١]، وهو غير منسوخٍ إلى يوم القيامة. وقيل: مُحكَمةٌ بالحلال والحرام[٢]. وقيل: مُحكَمةٌ أُريدت مدلولاتُ ألفاظها على الحقيقة دون المتشابه الذي أُريدَ به المجاز، نحو قوله: ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٢٠]، ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾[٣] [محمد: ٤].

﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ هو استعارة لفساد المُعتَقَد من مَرَضِ الأجسام[٤]، أي: تشخَصُ أبصارُهم جُبناً وهلَعاً. ﴿نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ أي: نظراً كما ينظر من أصابَتْه الغشيةُ من أجل حلول الموت[٥]. وقيل: يفعلون ذلك وهو شخوص البصر إلى الرسول من شدَّة العداوة[٦]. وقيل: من خشية الفضيحة؛ فإنَّهم إنْ يُخالفوا عن القتال افتُضِحوا وبان نفاقُهم[٧].

و«أولى لهم» تقدَّم شرحُه في المفردات. وقال قتادة: كأنَّه قال: العقابُ أولى لهم[٨]. وقيل: وَلِيَهُم المكروه[٩]. و«أوْلى» وزنُها «أفْعَل» أو «أفْلَع» على اختلاف الاشتقاق الذي ذكرناه في المفردات[١٠]، فعلى قول الجمهور: إنَّه اسمٌ، يكون مبتدأ والخبر «لهم»، وقيل: «أولى» مبتدأ، و«لهم» من صلته، و«طاعةٌ» خبر، وكأنَّ اللام بمعنى الباء، كأنَّه قيل: فأولى بهم طاعة[١١]. ولم يتعرَّض الزمخشريُّ لإعرابه، وإنَّما قال: ومعناه الدعاءُ عليهم بأنْ يلِيَهم المكروه[١٢]. وعلى قول

---

(١) في (يه) و(ع) والمطبوع: والصلح، والمثبت من (ز٢) و(ح) والكشاف ٣/ ٥٣٥، والكلام منه.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠.
(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٦٢ بنحوه.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١١٧. وهذه الجملة ليست في المطبوع.
(٥) تأويل مشكل القرآن ص٣٥٢، والكشاف ٣/ ٥٣٥، وزاد المسير ٧/ ٤٠٦.
(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٤ بنحوه.
(٧) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٧٩ بنحوه.
(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٠١.
(٩) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٤.
(١٠) المحرر الوجيز ٥/ ١١٧.
(١١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣.
(١٢) الكشاف ٣/ ٥٣٥، وهو قول الزجاج في معاني القرآن له ٥/ ١٢.

الأصمعي: إنَّه فِعْلٌ يكون فاعلُه مضمراً يدلُّ عليه المعنى، وأُضمِرَ لكثرة الاستعمال، كأنَّه قال: قارَبَ لهم هو، أي: الهلاك. قال ابن عطية: والمشهور من استعمال العرب أن تقول: هذا أولى بك من هذا، أي: أحقُّ. وقد تستعمل العرب «أولى لك» فقط على جهة الحذف والاختصار لما معها من القوة، فتقول على جهة الزجر والتوعد: أولى لكَ يا فلان، وهذه الآية من هذا الباب، ومنه قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤]، وقولُ الصِّدِّيق للحسن ﷺ: أولى لكَ[١]. انتهى.

والأكثرون على أنَّ «طاعةٌ وقولٌ معروفٌ» كلامٌ مستقِلٌّ محذوفٌ منه أحدُ الجُزأين؛ إمَّا الخبر وتقديره: أمثَلُ، وهو قول مجاهد ومذهب سيبويه[٢] والخليل، وإمَّا المبتدأ وتقديره: الأمرُ، أو أمْرُنا طاعةٌ، أي: الأمرُ المرضيُّ لله طاعة.

وقيل: هي حكايةُ قولهم، أي: قالوا: طاعة، ويشهد له قراءة أبيٍّ: «يقولون طاعةٌ وقولٌ معروف»[٣].

وقولُهم هذا على سبيل الهُزء والخديعة. وقال قتادة: الوقف على «فأولى» و«لهم طاعة» ابتداءٌ وخبر، والمعنى أن ذلك منهم على جهة الخديعة[٤].

وقيل: «طاعةٌ» صفةٌ لـ «سورة» أي: فهي طاعة، أي: مطاعة[٥]. وهذا القول ليس بشيء؛ لحيلولة الفصل الكثير بين الصفة والموصوف.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جَدَّ، والعزمُ: الجِدُّ، وهو لأصحاب الأمر، واستُعير للأمر كما قال تعالى: ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[٦] [الشورى: ٤٣]، وقال الشاعر:

قد جَدَّتِ الحربُ بكم فجِدُّوا[٧]

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٧.
(٢) في الكتاب ١/ ١٤١ و٢/ ١٣٦. والكلام في المحرر الوجيز ٥/ ١١٧.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٦.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١١٧.
(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٣٠٨، وإملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ٢٣٧.
(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٧.
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١١٨، والرجز في الكامل للمبرد ٢/ ٤٩٤ دون نسبة، ولفظه:
قد شمرت عن ساقها فشُدُّوا وجَدَّتِ الحربُ بكم فجِدُّوا

والظاهر أنَّ جواب «إذا» قولُه: «فلو صدقوا الله» كما تقول: إذا كان الشتاء فلو جِئتَني لكَسَوتُكَ.

وقيل: الجواب محذوفٌ تقديره: فإذا عزم الأمر كرهوا أو نحوه. قاله قتادة. ومَنْ حمل «طاعةٌ وقولٌ معروف» على أنَّهم يقولون ذلك خديعةً قدَّر: فإذا عزمَ الأمرُ ناقضوا وتعاصَوا[1]. وقدَّره أبو البقاء[2]: فاصْدُقْ.

﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما زعموا من حرصهم على الجهاد، أو في إيمانهم، وواطأتْ قلوبُهم فيه ألسنتَهم[3]، أو: في قولهم: طاعةٌ وقولٌ معروف.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ التفاتٌ للذين في قلوبهم مرض، أَقْبَلَ بالخطاب عليهم على سبيل التوبيخ وتوقيفهم على سوء مُرْتَكَبهم.

و«عسى» تقدَّم الخلافُ في لغتها، وفي القراءة فيها إذا اتصل بها ضميرُ الخطاب، في سورة البقرة[4]. واتّصالُ الضمير بها لغةُ الحجاز، وبنو تميم لا يُلحِقون بها الضمير[5].

وقال أبو عبد الله الرازي: وقد ذكروا أنَّ «عسى» يتَّصلُ بها ضميرُ الرفع وضميرُ النصب، وأنَّها لا يتصل بها ضمير. ثمَّ قال: وأمَّا قولُ مَنْ قال: عسى أنتَ تقومُ، وعسى أنا أقومُ، فدون ما ذكرنا للتطويل الذي فيه[6]. انتهى. ولا أعلمُ أحداً مِنْ نَقَلَةِ اللسان العربي ذكرَ انفصالَ الضمير بعد «عسى» وفصل بين «عسى» وخبَرِها بالشرط، وهو: «إنْ تَوَلَّيتُم».

وقرأ الجمهور: «إنْ تولَّيتُم» ومعناه: إن أعرضتُم عن القتال فتعودوا إلى جاهليتكم، أو أعرضتُم عن الإسلام[7]. وقال قَتادة: كيف رأيتُم القومَ حين تولَّوا

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٨ بنحوه.
(٢) في الإملاء ٢/ ٢٣٧.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٦.
(٤) عند تفسير الآية (٢١٦) منها.
(٥) الكشاف ٣/ ٥٣٦.
(٦) تفسير الرازي ٢٨/ ٦٣.
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١١٨ ببعضه، والكشاف ٣/ ٥٣٦ بنحوه. وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣. ومن قوله: عن القتال... إلى: عن الإسلام؛ ليس في المطبوع.

عن كتاب الله؟ ألم يسفِكوا الدمَ الحرام، وقطعوا الأرحام، وعصَوا الرحمن[١]؟ يشير إلى ما جرى من الفتن بعد زمان الرسول.

وقال كعب ومحمد بن كعب وأبو العالية والكلبي: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أمورَ الناس، من الوِلاية[٢]. ويشهد لها قراءة: «وُلِّيتُم» مبنيًّا للمفعول[٣]. وعلى هذا قيل: نزلَتْ في بني هاشم وبني أمية. وعن النبيِّ ﷺ: «إنْ تُوُلِّيتُم» بضمِّ التاء والواو وكسر اللام، وبها قرأ عليٌّ ورُوَيس[٤]، أي: إنَّ ولَّيتُكم ولايةَ جَوْرٍ فَمِلْتُم إلى دنياهم دون إمام العدل، أو على معنى: إنْ تولَّيتم بالتعذيب والتنكيل وأفعالِ العرب في جاهليَّتها وسيرتِها من الغارات والسِّنان[٥]، فإنَّما كانتْ ثمرتُها الإفسادَ في الأرض وقطيعةَ الرحم. وقيل معناه: إنْ تولَّاكم الناس وكَلَكُم الله إليهم[٦].

والأظهر أنَّ ذلك خطابٌ للمنافقين في أمر القتال، وهو الذي سبقت الآياتُ فيه، أي: إنْ أعرضْتُم عن امتثال أمر الله في القتال.

﴿أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بعدم معونة أهل الإسلام على أعدائهم ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾؛ لأنَّ من أرحامكم كثيراً من المسلمين، فإذا لم تعينوهم قطعتُم ما بينكم وبينهم من صلة الرحم، ويدلُّ على ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فالآيات كلُّها في المنافقين.

وهذا التوقُّع الذي في «عسى» ليس منسوباً إليه تعالى؛ لأنَّه عالمٌ بما كان وما يكون، وإنَّما هو بالنسبة لمَنْ عرف المنافقين، كأنَّه يقول لهم: لنا عِلْمٌ من حيث ضياعهم، هل يُتوقَّعُ منكم إذا أعرضْتُم عن القتال أن يكون كذا وكذا.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/١١٨، وما بعده منه.
(٢) ينظر تفسير القرطبي ١٩/ ٢٧٢-٢٧٣. وقول محمد بن كعب في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨٢.
(٣) المحتسب ٢/ ٢٧٢، والكلام من المحرر الوجيز ٥/١١٨.
(٤) القراءات الشاذة ص١٤٠، والمحتسب ٢/ ٢٧٢. وقراءة رويس عن يعقوب ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٧٤.
(٥) في المحرر الوجيز: السباء، وفي المطبوع: الثبات!.
(٦) إلى هنا من المحرر الوجيز ٥/١١٨.

وقرأ الجمهور: «وتُقطِّعوا» بالتشديد على التكثير. وأبو عمرو في رواية، وسلَّام، ويعقوب، وأبان، وعِصْمة: بالتخفيف، مضارع قَطَع[١]. والحسن: «وتَقَطَّعوا» بفتح التاء والقاف وشدِّ الطاء[٢]، وأصله: «تتقطَّعوا» بتاءين، حُذِفَتْ إحداهُما على الخلاف في المحذوفة.

وانتصب «أرحامَكم» على إسقاط حرف الجرِّ، أي: في أرحامكم؛ لأنَّ تقطَّعَ لازمٌ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى مرضى القلوب[٣] ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن سماع الموعظة ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ عن طريق الهدى.

وقال الزمخشري: لعنهم الله لإفسادِهم وقَطْعِهم الأرحام، فمنعهم ألطافَه وخذلهم حتى عَموا[٤]. انتهى. وهو على طريق الاعتزال.

وجاء التركيب: «فأصمَّهم» ولم يأتِ «فأصمَّ آذانهم»، وجاء «وأعمى أبصارهم» ولم يأتِ «وأعماهم» قيل: لأنَّ الأذن لو أصمَّتْ بقطعٍ أو قلعٍ يُسمَعُ الكلام، فلم يحتجْ إلى ذكر الأذن، والبصر ـ وهو العين ـ لو أُصيبتْ لامتنع الإبصار، فالعين لها مدخلٌ في الرؤية، والأذن لا مدخلَ لها في السمع[٥]. انتهى. ولهذا جاء ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ [النحل: ٧٨]، ولم يأتِ «وعلى آذانهم» ولا يأتي «وجعلَ لكم الآذان»، وحين ذكر الأذن نسب إليه الوَقْر وهو دون الصَّمم، كما قال: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: يتصفَّحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة[٦]. وهو استفهامُ توبيخٍ وتوقيفٍ على مخازيهم.

---

(١) المشهور في قراءة أبي عمرو كقراءة الجمهور، والقراءة عن يعقوب ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٧٤، والقراءة عن سلام في القراءات الشاذة ص١٤٠. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١١٨.

(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٧٤. ومن هنا إلى قوله: على إسقاط حرف الجر، ليس في المطبوع.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١٨.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٦، وما قبله منه.

(٥) تفسير الرازي ٢٨/ ٦٤-٦٥. ومن قوله: بقطع... إلى: لامتنع الإبصار؛ ليس في المطبوع.

(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٦.

﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ استعارةٌ للذين منعَهم الإيمان، و«أم» منقطعة بمعنى «بل» والهمزة للتقرير والتسجيل عليهم بأنَّ قلوبَهم مُقفلةٌ لا يصل إليها ذِكْرٌ[(١)]. ولم يحتَجْ إلى تعريف القلوب؛ لأنَّه معلومٌ أنَّها قلوبُ من ذَكَر، ولا حاجة إلى تقدير صفة محذوفة، أي: أم على قلوبٍ قاسيةٍ. وأضاف الأقفالَ إليها، أي: الأقفال المختصة، أو هي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتِح.

وقُرِئ: «إقفالُها» بكسر الهمزة، وهو مصدر[(٢)]، و«أقفُلُها» بالجمع على أفْعُل[(٣)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾ قال قتادة: نزلَتْ في قومٍ من اليهود كانوا عرفوا أمرَ الرسول من التوراة، وتبيَّن لهم بهذا الوجه، فلمَّا باشروا أمرَه حسدوه فارتدُّوا عن ذلك القَدْر من الهدى. وقال ابن عباس وغيره: نزلَتْ في منافقين كانوا أسلموا ثمَّ ماتَتْ قلوبهم. والآيةُ تتناولُ كلَّ مَنْ دخل في ضمن لفظها[(٤)].

وتقدَّم الكلام على «سَوَّلَ» في سورة يوسف[(٥)].

وقال الزمخشري هنا: «سَوَّل لهم» ركوبَ العظائم، من السَّوَل: وهو الاسترخاء، وقد اشتقَّه من السُّؤْلِ مَنْ لا عِلْمَ له بالتصريف والاشتقاق جميعاً[(٦)]. انتهى.

وقال أبو علي الفارسي: بمعنى: ولَّاهم، من السَّوَل: وهو الاسترخاء والتدلِّي. وقال غيره: رجَّاهم سُؤْلَهم[(٧)]. وقال ابن بحر: أعطاهم سُؤْلَهم[(٨)].

وقولُ الزمخشري: وقد اشتقَّه... إلى آخره، ليس بجيد؛ لأنَّه توهَّم أن

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٩.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٦، وما قبله منه.
(٣) القراءات الشاذة ص١٤٠.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١١٩.
(٥) عند تفسير الآية (١٨) منها.
(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٧.
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١١٩، وأخذَ ابنُ عطية قَولَ أبي علي من ابن جني، وهو عنده في المحتسب ٢/ ٢٧٢.
(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٠٣.

«السَّوَل» أصلُه الهمزة، واختلفت المادَّتان؛ إذ عينُ «سَوَلَ» واو، وعينُ «السؤل» همزة، والسُّؤلُ له مادتان؛ إحداهما الهمز، من سألَ يسألُ، والثانية الواو من سالَ يَسالُ، فإذا كان هكذا «فسَوَّلَ» يجوز أن يكون من ذوات الواو لا من ذوات الهمز.

وقال صاحب «اللوامح»: والتسويلُ أصله من الإرخاء، ومنه: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ [الأعراف: ٢٢]. والسَّوَل: استرخاء البطن.

وقرأ زيد بن علي: «سُوِّلَ لهم»[1] أي: كيدُه، على تقدير حذف مضاف.

وقرأ الجمهور: «وأملى لهم» مبنيًا للفاعل. والظاهر أنَّه يعود على الشيطان. وقاله الحسن[2]. جعلَ وعدَه الكاذبَ بالبقاء كالإملاء، والإملاء هو الإبقاء مُلاوةً من الدهر، يمدُّ لهم في الآمال والأماني. قيل: ويحتمل أن يكون فاعل «أملى» ضميراً يعود على الله تعالى. قيل: وهو الأرجح؛ لأنَّ حقيقة الإملاء إنَّما هو من الله[3] تعالى.

وقرأ ابن سيرين، والجَحْدريُّ، وشيبة، وأبو عمرو، وعيسى: «وأُمليَ» مبنيًّا للمفعول[4]، أي: أُمهِلوا ومُدَّ في عمرهم.

وقرأ مجاهد، وابن هُرْمُز، والأعمش، وسلام، ويعقوب: «وأُمليْ» بهمزة المتكلم مضارع «أملى»[5]، أي: وأنا أُنْظِرهم، كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾. ويجوز أن يكون ماضياً سُكِّنَتْ منه الياء، كما تقول في بَقيَ: بَقِيْ، بسكون الياء.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾رُوي أنَّ قوماً من قُريظة والنَّضير كانوا يعِدون المنافقين في أمر الرسول والخلاف عليه بنصرٍ ومؤازرةٍ،

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٠-١٤١، والكشاف ٣/ ٥٣٧ دون نسبة.

(٢) فيما ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٠٣.

(٣) في (ز٢) و(ح) والمطبوع: مدُّ الله، وفي المحرر الوجيز ٥/ ١١٩ والكلام فيه بنحوه: بيد الله.

(٤) قراءة أبي عمرو في السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠١. وقراءة الباقين في المحرر الوجيز ٥/ ١١٩.

(٥) المحتسب ٢/ ٢٧٢ دون ذكر سلام وذكر بدلاً منه الجحدري. وقراءة يعقوب ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٧٤. وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤.

وذلك قولهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾[١]. وقيل: الضمير في «قالوا» للمنافقين، و«الذين كرهوا ما نزَّل الله»: هم قُريظة والنَّضير، و«بعضُ الأمر» قولُ المنافقين لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١]. قاله ابن عباس.

وقيل «بعضُ الأمر»: التكذيب بالرسول، أو بلا إله إلا الله، أو تركُ القتال معه. وقيل: هو قولُ الفريقين اليهود والمنافقين للمشركين: سنُطيعكم في التظافر على عداوة الرسول والقعودِ عن الجهاد معه، ومعنى «في بعض الأمر»: في بعض ما تأمرون به، أو في بعض الأمر الذي يهمُّكم[٢].

وقرأ الجمهور: «أسرارهم» بفتح الهمزة، وكانت أسرارُهم كثيرةً. وابنُ وثَّاب، وطلحة، والأعمش، وعيسى، وحمزة، والكسائي، وحفص: بكسرها[٣]، وهو مصدر. قالوا ذلك سِرًّا فيما بينهم، وأفشاه الله عليهم[٤].

وقال أبو عبد الله الرازي[٥]: الأظهر أن يُقال: «والله يعلم إسرارهم» ما في قلوبهم من العلم بصدق محمدٍ عليه السلام، فإنَّهم كانوا مُعاندِين مكابِرين، وكانوا يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم. انتهى.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾تقدَّم فزع[٦] الذين في قلوبهم مَرَضٌ وهَلَعُهم لأجل القتال.

وتقدَّم قولُ المهتدين وما يلحقهم في ذلك من جزائهم على طواعية الكارهين ما نزَّل الله.

وتقدَّم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾، فجاء هذا الاستفهام الذي معناه التوقيف عُقَيب هذه الأشياء، فقال الطبري: فكيف عِلْمُه بها؟ أي: بأسرارهم إذا تَوَفَّتهم الملائكة. وقيل: فكيف يكون حالُهم مع الله فيما ارتكبوه من ذلك القول؟ وقيل: فكيف

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٩.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٧.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١٩.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٧.
(٥) في تفسيره ٢٨/ ٦٧.
(٦) في (د٢) و(ع) والمطبوع: شرح.

هَلَعُهم إذا توفَّتهم الملائكة[١]؟

وقرأ الأعمش: «توفَّاهم» بألف بدل التاء[٢]، فاحتَمَل أن يكون ماضياً ومضارعاً حُذِفَتْ منه التاء[٣].

والظاهر أنَّ وقت التوفِّي هو عند الموت[٤] وقال ابن عباس: لا يُتوفَّى أحدٌ على معصيةٍ إلَّا بضربِ الملائكةِ في وجهِه وفي دُبُره[٥]. والملائكة: مَلَكُ الموت، والمُصرَّفون معه. وقيل: هو وقتُ سَوْقِهم في القيامة إلى النار، والملائكة: ملائكة العذاب[٦]. وقيل: هو وقت القتال نُصرةً للرسول، بضربِ وجوهِهم إن ثَبَتوا، وأدبارِهم إنْ هَرَبوا[٧]. والملائكة ملائكة النصر.

والظاهر أنَّ «يضربون» حالٌ من الملائكة. وقيل: حال من الضمير في «توفَّاهم»[٨]، وهو ضعيف.

﴿ذَٰلِكَ﴾أي: ذلك الضَّرْب للوجوه والأدبار[٩]﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ وهو الكفر[١٠]، أو كتمان نعت الرسول[١١]، أو تسويل الشيطان[١٢]. أقوالٌ. والمتَّبع الشيءَ هو مُقبِلٌ بوجهه عليه، فناسبَ ضربُ الملائكةِ وجهَه.

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٠. وقول الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٢١. والقيل الأخير ليس في المطبوع.
(٢) القراءات الشاذة ص١٤٠، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢٠.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٧.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٠٣.
(٥) الكشاف ٣/ ٥٣٧.
(٦) هذا القول ليس في المطبوع، وانظر المحرر الوجيز ٥/ ١٢٠.
(٧) المثبت من (ح) و(ز٢)، وفي باقي النسخ والمطبوع: إن هزموا. والكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٣٠٣-٣٠٤.
(٨) إملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ٢٣٧.
(٩) تفسير الرازي ٢٨/ ٦٨.
(١٠) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٠.
(١١) الكشاف ٣/ ٥٣٧.
(١٢) تفسير الرازي ٢٨/ ٦٨، وما بعده منه بنحوه.

﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ وهو الإيمان بالله واتِّباع دينه. والكاره للشيء مُتولٍّ عنه، فناسب ضربُ الملائكةِ دبُرَه، ففي ذلك مقابلة أمرين بأمرين.

❁ ❁ ❁

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ
لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ
حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾
۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ
وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ
وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ
أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن
يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ
ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

إخراجُ أضْغانِهم وهو حقودها: إبرازُها للرسول وللمؤمنين(١).

والظاهر أنَّها من رؤية البصر لعطف العرفان عليه وهو معرفة القلب، واتَّصل الضميرُ في «أريناكهم» وهو الأفصح، وإن كان(٢) يجوز الانفصالُ.

وفي هاتين الجملتين تقريبٌ(٣) لشُهْرَتِهم، لكنه لم يُعيِّنهم بأسمائهم إبقاءً عليهم وعلى قراباتهم، واكتفاءً منهم بما يتظاهرون به من اتِّباع الشرع وإن أبطنوا خلافه(٤).

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ كانوا يصطلحون فيما بينهم على ألفاظٍ يخاطبون بها

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٧.
(٢) بعدها في (ع) زيادة: لا.
(٣) في (ز٢) وحدها: تعريف.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٠ بنحوه.

الرسول ممَّا ظاهره حسنٌ ويَعْنون به القبيحَ، وكانوا أيضاً يصدر منهم الكلامُ يُشعِرُ بالاتِّباع وهم بخلاف ذلك، كقولهم عند النصر: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠] وغير ذلك كقولهم: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [المنافقون: ٨] وقولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾[١] [الأحزاب: ١٣] والظاهر الإرادة والمعرفة بالسِّيما ووجود المعرفة في المستقبل بلَحْن القول.

واللَّام في «فلَعَرفْتهم» هي الداخلة على جواب «لو»؛ لأنَّ المعطوف على الجواب جواب، وفي «ولتعرفنَّهم» لامُ جواب القَسَمِ المحذوف[٢].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾خطابٌ عامٌّ يشمل المؤمن والكافر[٣]. وقيل: خطابٌ للمؤمنين فقط[٤].

وقرأ الجمهور: «ولنبلونَّكم حتى نعلم» و«نبلوَ» بالنون في ثلاثتها. وأبو بكر بالياء فيهنَّ. ورُوَيس: «ونَبْلُو» بإسكان الواو وبالنون. والأعمش بإسكانها وبالياء، وذلك على القطع؛ إعلاماً بأنَّ ابتلاءَه دائمٌ[٥].

ومعنى﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾أي: نعلمهم مجاهدين قد خرج جهادُهم إلى الوجود، وبأنَّ تكسُّبَهم الذي يتعلَّق به ثوابُهم[٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ناسٌ من بني إسرائيل، وتبيُّن هُداهم معرفتُهم بالرسول من التوراة. أو منافقون كان الإيمان قد داخلَ قلوبَهم ثمَّ نافقوا. أو المُطعِمون سفرة بدر. وتبيُّن الهدى: وجودُه عند الداعي إليه. أو عامَّةٌ في كلِّ كافرٍ وتبيُّن الهدى: من حيث كان بيِّناً في نفسه. أقوال.

﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾أي: التي كانوا يَرْجُون بها انتفاعاً. أو أعمالَهم التي

---

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ٧٠ باختصار.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٧-٥٣٨. ومن قوله: فلعرفتهم... إلى: جواب وفي، ليس في المطبوع.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٢١.
(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ٧٠.
(٥) ينظر السبعة ص٦٠١، والتيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٢١.
(٦) المحرر الوجيز ٥/ ١٢١، وما بعده منه بنحوه.

يكيدون بها الرسولَ ودينَ الإسلام[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾قيل: نزلت في بني أسد، أسلموا وقالوا لرسول الله: قد آثرناكَ، وجِئناكَ بنفوسِنا وأهلِنا. كأنَّهم مَنُّوا بذلك، فنزلت فيهم هذه الآية وقولُه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ [الحجرات: ١٧].

فعلى هذا يكون ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾بالمنِّ بالإسلام. وعن ابن عباس: بالرِّياء والسُّمعة. وعنه: بالشِّرك والنِّفاق. وعن حذيفة: بالكبائر. وقيل: بالعُجْب، فإنَّه يأكلُ الحسنات كما تأكلُ النَّارُ الحطب. وعن مقاتل: بعصيانكم للرسول. وقيل: «أعمالَكم»: صدقاتكم بالمنِّ والأذى[٢].

﴿مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ عامٌّ، فالموجبُ لانتفاء الغفران هو وفاتُهم على الكفر.

وقيل: هم أهل القَليب[٣]. وقيل: نزلت بسبب عدي بن حاتم رضي الله عنه، سألَ رسولَ الله ﷺ عن أبيه قال: كانت له أفعالُ بِرٍّ فما حاله[٤]؟ فقال: «في النَّار» فبكى عديٌّ وولَّى، فدعاه فقال له: «أبي وأبوك وأبو إبراهيم خليلُ الرحمن في النَّار» ونزلت[٥].

﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: تَضْعُفوا[٦]﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ وهو الصُّلْح.

وقرأ الجمهور: «وتَدْعُوا» مضارع دعا. والسُّلمي بتشديد الدال أي: تَفْتروا[٧].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٨ بنحوه.

(٢) هذه الأقوال في الكشاف ٣/ ٥٣٩ دون قول مقاتل، فهو عند القرطبي ١٩/ ٢٨٧ بلفظ: يقول الله تعالى: إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦، والكشاف ٣/ ٥٣٩. والقَليب: البئر. والمراد هنا قَليب بدر. ينظر النهاية (قلب).

(٤) في (يه): حالهم، وبعدها: فدعاهم.

(٥) هكذا أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٢٢، ولم أجده بهذا اللفظ، وإنَّما أخرج مسلم (٢٠٣)، وأحمد (١٣٨٣٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النَّار»، فلمَّا قفَّى دعاه فقال: «إنَّ أبي وأباك في النار». وليس في الحديث أنَّ القصة كانت سبب نزول الآية.

(٦) عبارة: «أي تضعفوا» من (ز٢)، والكلام من تفسير البغوي ٤/ ١٨٦.

(٧) قراءة السلمي في القراءات الشاذة ص١٤١، والمحتسب ٢/ ٢٧٣. وينظر المحرر الوجيز ٥/ ١٢٢.

والجمهور: «إلى السَّلْم» بفتح السين. والحسن، وأبو رجاء، والأعمش، وعيسى، وطلحة، وحمزة، وأبو بكر بكسرها[(١)].

وتقدَّم الكلام على «السَّلم» في البقرة في قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [الآية: ٢٠٨].

وقال الزمخشري: وقُرِئ: «ولا تَدَّعُوا» من ادَّعى القومُ وتَداعَوا؛ إذا دَعَوا، نحو قولك: ارتَمَوا الصَّيد وترامَوه[(٢)]. انتهى.

والتلاوة بغير «لا»، وكان يجب أن يأتي بلفظ التلاوة فيقول: وقُرِئ: «وتَدَّعوا».

«وتدعوا» معطوفٌ على «تَهِنوا»، فهو مجزومٌ. ويجوز أن يكون مجزوماً بإضمار «إن»[(٣)].

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾أي: الأغْلَبون[(٤)]. وهذه الجملة حالية، وكذا ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾.

ويجوز أن تكونا جملتَي استئناف[(٥)]، أخبر أولاً بقوله: «أنتم الأعْلَون» فهو إخبارٌ بمُغيَّبٍ أبرزه الوجود، ثم ارتقى إلى رتبةٍ أعلى من التي قبلَها، وهي كونُ اللهِ تعالى معهم.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ﴾ قال ابن عباس: ولن يَظْلِمَكم[(٦)]. وقيل: لن يُفرِدكم من ثواب أعمالكم[(٧)]. وقيل: ولن يَنْقُصَكم[(٨)].

---

(١) قراءة حمزة وأبي بكر في السبعة ص٦٠١، والتيسير ص٢٠١. وينظر المحرر الوجيز ٥/ ١٢٢.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٩.
(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٩.
(٥) تحرفت في (ز٢) إلى: استفهام.
(٦) أخرجه عنه الطبري ٢١/ ٢٢٩. وهو في المحرر الوجيز ٥/ ١٢٢، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٦.
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٢.
(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٢٩ عن مجاهد. وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٠٦ عن مجاهد وقطرب. والقرطبي ١٩/ ١٨٩ عن ابن عباس وغيره. وهو في الوسيط للواحدي ٤/ ١٣٠، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٦ دون نسبة.

وقال الزمخشري وقاله قبلَه أبو عبيد والمبرِّد: «ولن يَتِرَكُم» من وتَرْتَ الرجلَ، إذا قتلتَ له قتيلاً من ولدٍ أو أخٍ أو حميمٍ، أو حَرَمْتَه مالاً، أو ذهبتَ بماله. قال هو: وحقيقتُه: أفْرَدْته من قريبه أو ماله، من الوِتْر وهو الفرد. فشبَّه إضاعةَ عملِ العامل وتعطيلَ ثوابه بوتر الواتر، وهو من فصيح الكلام، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ فاتَتْه صلاةُ العصر فكأنَّما وُتِرَ أهلَه ومالَه»[1]. أي: أُفردَ عنهما قتلاً ونَهْباً[2].

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾هو تحقيرٌ لأمر الدنيا، أي: فلا تَهِنُوا في الجهاد، وأخبر عنها بذلك باعتبار ما يختصُّ بها من ذلك، وأما ما فيها من الطاعة وأمر الآخرة فليس بذلك[3].

﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾أي: ثواب أعمالِكم من الإيمان والتقوى[4].

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾قال سفيان بن عُيينة: أي: كثيراً من أموالكم، إنَّما يسألُكم ربعَ العُشر، فطيِّبوا أنفُسَكم[5]. وقيل: لحاجةٍ إليها، بل ليرجع ثوابُ إنفاقكم إليكم[6]. وقيل: إنَّما يسألُكم أموالَه؛ لأنَّه هو المالك لها حقيقة، وهو المُنعِمُ بإعطائها[7].

وقيل: الضمير في «يَسْألْكم» للرَّسول، أي: لا يسألكم أجراً على تبليغ الرسالة، كما قال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[8] [ص: ٨٦].

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾أي: جميعَها ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي: يُبالِغْ في الإلحاح ﴿تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي: تَضْطغِنون على الرسول، وتضيقُ صدورُكم لذلك، وتمقتون ديناً يَذهَب بأموالكم[9].

(١) أخرجه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦) (٢٠١)، وأحمد (٦٣٢٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٩.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٣ بنحوه.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٩.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٣.
(٦) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٠.
(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٧.
(٨) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٠.
(٩) الكشاف ٣/ ٥٣٩.

وقرأ الجمهور: «ويُخْرِجْ أضغانكم» جزماً على جواب الشرط، والفعل مسندٌ إلى الله، أو إلى السؤال[١]، أو إلى البخل.

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «ويُخْرِجُ» بالرفع على الاستئناف[٢]، بمعنى: وهو يُخرج. وحكاها أبو حاتم عن عيسى.

وفي «اللوامح» عن عبد الوارث عن أبي عمرو: «ويَخْرُجُ» بالياء وفتحها، وضمِّ الراء والجيم «أضغانُكم» بالرفع، بمعنى: وهو يَخْرُجُ أو سيَخرُجُ «أضغانُكم» رُفِعَ بفعله.

وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وابن سيرين، وابن مُحَيْصِن، وأيوب بن المتوكِّل، واليماني: «وتَخْرُجُ» بتاء التأنيث مفتوحة «أضغانُكم» رُفِعَ به[٣]. ويعقوب: «ونُخْرِجُ» بالنون مضمومة وكسر الراء «أضغانَكم» نصباً[٤]. ورُوِيَتْ عن ابن عباس. وقُرِئَ: «ويُخْرَجُ» بضم الياء وفتح الراء «أضغانُكم» رفعاً[٥]، وهي مرويَّة عن عيسى إلَّا أنَّه فتح الجيم بإضمار «أن»، فالواو عاطفةٌ على مصدر مُتَوَهَّم، أي: يَكُنْ[٦] بُخْلُكم، وإخراجُ أضغانِكم.

وهذا الذي خِيفَ أن يَعتريَ المؤمنين هو الذي تقرَّب به محمد بن مَسْلَمة إلى كعب بن الأشرف، وتوصَّل به إلى قتله حين قال له: إنَّ هذا الرجل قد أكثر علينا وطلب منا الأموال[٧].

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كرَّر هاء التنبيه توكيداً.

وتقدَّم الكلام على هذا التركيب في سورة آل عمران[٨].

---

(١) المثبت من (ز٢)، وتحرف في باقي النسخ والمطبوع إلى: الرسول. والكلام بنحوه من المحرر الوجيز ٥/ ١٢٣، وما بعده منه.
(٢) القراءات الشاذة ص١٤١، والمحتسب ٢/ ٢٧٣. والمشهور عن أبي عمرو كقراءة الجمهور.
(٣) القراءات الشاذة ص١٤١، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢٣، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢٩١.
(٤) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩١، والمشهور عنه كقراءة الجمهور.
(٥) القراءات الشاذة ص١٤١. ومن قوله: بالنون مضمومة... إلى هنا ليس في المطبوع.
(٦) المثبت من (يه) والدر المصون ٩/ ٧٠٨، وفي باقي النسخ والمطبوع: يكف.
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٣، وما بعده منه.
(٨) عند تفسير الآية (٦٦) منها.

وقال الزمخشري: «هؤلاء» موصولٌ بمعنى الذين، صلتُهُ «تُدْعَون» أي: أنتم الذين تُدْعَون، أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون. ثمَّ استأنفَ وصفَهم، كأنَّهم قالوا: وما وَصْفُنا؟ فقيل: تُدْعَون لتنفقوا في سبيل الله[١]. انتهى. وكونُ «هؤلاء» موصولةً مذهبٌ كوفيٌّ، ولم يُثبِت البصريُّون اسم إشارةٍ موصولاً إلَّا إذا تقدَّمها «ما» الاستفهامية باتفاق، أو «مَنْ» الاستفهامية باختلاف.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾قيل: الغزو. وقيل: الزكاة. واللفظُ أعمُّ.

﴿مَّن يَبْخَلُ﴾أي: بالصدقة وما أوجبَ الله عليه ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾أي لا يتعدَّى ضررُه غيره. و«بخِلَ» قيل: يتعدى بـ «على» وبـ «عن»، يُقال: بخلتُ عليه وعنه، وضَنَنْتُ عليه وعنه، وكأنَّهما إذا عُدِّيا بـ «عن» ضُمِّنا معنى الإمساك، كأنه قيل: أمسكتُ عنه بالبخل.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾أي: الغنيُّ مطلقاً، إذ تستحيل عليه الحاجات «وأنتم الفقراء» مطلقاً؛ لافتقاركم إلى ما تحتاجون إليه في الدنيا وإلى الثواب في الآخرة.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ عطف على «وإن تؤمنوا وتتَّقوا» أي: وإن تتولَّوا أي: عن الإيمان والتقوى «يستبدل قوماً غيركم» أي: يخلق قوماً سواكم راغبين في الإيمان والتقوى غير متولِّين عنهما، كما قال: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩] وتعيين أولئك القوم وأنهم الأنصار، أو التابعون، أو أهل اليمن، أو كِنْدة والنَّخع، أو العجم، أو فارس والروم، أو الملائكة. أقوال.

والخطاب لقريش، أو لأهل المدينة. قولان. وروى أبو هريرة أنَّه عليه الصلاة والسلام سُئِلَ عن هذا، وكان سلمان إلى جنبه، فوضع يده على فخذه، وقال: «قومُ هذا، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان مَنوطاً بالثريَّا لتناوله رجالٌ من فارس»[٢].

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٩، والكلام الآتي منه.
(٢) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي (٣٢٦١)، وابن حبان (٧١٢٣).
وأخرجه بنحوه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦)، وأحمد (٨٠٨١). والكلام من المحرر الوجيز ٥/ ١٢٤.

وإنْ صحَّ هذا الحديث وجب المصير في تعيين ما انبَهَم من قوله ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾إلى تعيين الرسول.

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ أي: في الخلاف والتولِّي والبخل[١].

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٤.

(٤٧) سورة محمد مدنية
وآياتها ثمان وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ﴿٣﴾

يقول تعالى: ﴿الذين كفروا﴾ أي بآيات الله ﴿وصدوا﴾ غيرهم ﴿عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ أي أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاء، كقوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾، ثم قال جلّ وعلا ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم، ﴿وآمنوا بما نزّل على محمد﴾ عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وهو الحق من ربهم﴾ جملة معترضة حسنة، ولهذا قال جلّ جلاله: ﴿كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ قال ابن عباس: أي أمرهم، وقال مجاهد: شأنهم، وقال قتادة: حالهم، والكل متقارب، وفي حديث تشميت العاطس «يهديكم الله ويصلح بالكم»، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل﴾ أي إنما أبطلنا أعمال الكفّار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي اختاروا الباطل على الحق، ﴿وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ أي يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

﴿ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝﴾

يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف، ﴿حتى إذا أثخنتموهم﴾ أي أهلكتموهم قتلاً، ﴿فشدوا الوثاق﴾ الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء فقال: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾، ثم قد ادعى بعض العلماء أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ الآية، روي عن ابن عباس والضحاك والسدي. وقال الأكثرون: ليست بمنسوخة، والإمام مخير بين المن على الأسير ومفاداته، وله أن يقتله إن شاء لحديث قتل النبي ﷺ (النضر بن الحارث) و (عقبة بن أبي معيط) من أسارى بدر، وقال الشافعي رحمه الله: الإمام مخيَّر بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو استرقاقه، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ قال مجاهد: حتى ينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال». وهذا يقوي القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب، وقال قتادة ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ حتى لا يبقى شرك، وهذا كقوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ ثم قال بعضهم: حتى تضع الحرب أوزارها أي أوزار المحاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله عزّ وجلّ، وقيل: أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله تعالى، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ أي هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ﴿ولكن ليبلوا بعضكم ببعض﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء، ليختبركم ويبلو أخباركم، كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في قوله تعالى ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾.

وقال تعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾، ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال: ﴿والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ أي لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها، ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه، كما ورد بذلك الحديث عن المقدام بن معديكرب الكِنْدي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له في أول دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من اقاربه»[1]. وفي صحيح مسلم عن عبد الله

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجة والترمذي وصححه.

ابن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين »[1]، وفي الصحيح: « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته »[2]، والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ سيهديهم ﴾ أي إلى الجنة ﴿ ويصلح بالهم ﴾ أي أمرهم وحالهم، ﴿ ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ أي عرفهم بها وهداهم إليها، قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة، وقال مقاتل: بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه، وقد ورد الحديث الصحيح بذلك عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا »[3]، ثم قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾، كما جاء في الحديث: « من بلّغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ثبّت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة »، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿ والذين كفروا فتعساً لهم ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين. وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: « تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش » أي فلا شفاه الله عزّ وجلّ، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ أي أحبطها وأبطلها، ولهذا قال: ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله ﴾ أي لا يريدونه ولا يحبونه ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾.

* أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

يقول تعالى: ﴿ أفلم يسيروا ﴾ يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿ في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم ﴾ أي عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم أي ونجّى المؤمنين من بين أظهرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ ثم قال: ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾، ولهذا لما قال

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء مرفوعاً. (٣) أخرجه البخاري في صحيحه.

أبو سفيان رئيس المشركين يوم أُحُد: اعلُ هُبَل، اعلُ هُبَل، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» فقالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال ﷺ قولوا: «الله أعلى وأجل»، ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال ﷺ: «ألا تجيبوه؟»، قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يوم القيامة ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام﴾ أي في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خضماً وقضماً ليس لهم همة إلا في ذلك، ولهذا ثبت في الصحيح: «المؤمن يأكل في مِعًى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»، ثم قال تعالى: ﴿والنار مثوى لهم﴾ أي يوم جزائهم، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ يعني مكة ﴿أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، في تكذيبهم لرسول الله ﷺ وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله عزّ وجلّ قد أهلك الذين كذبوا الرسل قبله، فما ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟ وقوله تعالى: ﴿من قريتك التي أخرجتك﴾ أي الذين أخرجوك من بين أظهرهم، روى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار وأتاه، فالتفت إلى مكة، وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إليّ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك»[1]. فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحول الجاهلية، فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾.

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

يقول تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ أي على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه، بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم﴾؟ أي ليس هذا كهذا، كقوله تعالى: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾؟ ثم قال عزّ وجلّ: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ قال عكرمة ﴿مثل الجنة﴾ أي نعتها، ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ يعني غير متغير، والعرب تقول: أَسِنَ الماءُ إذا تغير ريحه، وفي حديث مرفوع ﴿غير آسن﴾ يعني الصافي الذي لا كدر فيه، وقال عبدالله رضي الله عنه: أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك ﴿وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾ بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة، وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من ضروع الماشية»، ﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾ أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة، ﴿لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون﴾ ﴿لا يصدّعون عنها ولا ينزفون﴾، وفي حديث مرفوع: «لم يعصرها الرجال بأقدامهم» ﴿وأنهار من عسل مصفى﴾ أي وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح، وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من بطون النحل». روى الإمام

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أحمد عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن وبحر الماء، وبحر العسل وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد»(١). وفي الصحيح: «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تفجَّر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن»، وقال الحافظ الطبراني عن عاصم أن لقيط بن عامر خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله فعلى ما نطلع من الجنة؟ قال ﷺ: «على أنهار من عسل مصفى، وأنهار من خمر ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة لعمر إلٰهك ما تعلمون، وخير من مثله، وأزواج مطهرة»، قلت: يا رسول الله أوَ لنا فيها أزواج مصلحات؟ قال: «الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذونكم غير أن لا توالد». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض، والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض حافاتها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر(٢)

وقوله تعالى: ﴿ولهم فيها من كل الثمرات﴾ كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يدعون فيها بكل فاكهة آمنين﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ومغفرة من ربهم﴾ أي مع ذلك كله، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كمن هو خالد في النار؟﴾ أي أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة، كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات، ﴿وسقوا ماء حميماً﴾ أي حاراً شديد الحر لا يستطاع، ﴿فقطع أمعاءهم﴾ أي قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذاً بالله تعالى من ذلك.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى: مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً، فإذا خرجوا من عنده ﴿قالوا للذين أوتوا العلم﴾ من الصحابة رضي الله عنهم ﴿ماذا قال آنفاً﴾؟ أي الساعة لا يعقلون ما قال، ولا يكترثون له، قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾ أي فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ أي والذين قصدوا الهداية، وفقهم الله تعالى لها، فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أي ألهمهم رشدهم. وقوله تعالى: ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة﴾؟ أي وهم غافلون عنها ﴿فقد جاء أشراطها﴾ أي أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿أزفت الآزفة﴾، وكقوله جلت عظمته: ﴿اقتربت الساعة

(١) أخرجه أحمد، ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا موقوفاً، ورواه ابن مردويه مرفوعاً.

وانشق القمر﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾. فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة لأنه خاتم الرسل، الذي أكمل الله تعالى به الدين، وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر رسول الله ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها وهو عليه السلام الحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي؛ روى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه - هكذا بالوسطى والتي تليها - «بعثت أنا والساعة كهاتين». ثم قال تعالى: ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾؟ أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث لاينفعهم ذلك؟ كقوله تعالى: ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولهذا عطف عليه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي»، وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت إلّهي لا إلّه إلا أنت»، وفي الصحيح أنه قال: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني استغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»، وعنه ﷺ أنه قال: «وعليكم بلا إلّه إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: إنما أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إلّه إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون»[1]، وفي الأثر المروي: «قال إبليس: وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله عزَّ وجلَّ: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»، والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً، وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ أي يعلم تصرفكم في نهاركم، ومستقركم في ليلكم، كقوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿متقلبكم﴾ في الدنيا و﴿مثواكم﴾ في الآخرة، وقال السدي: متقلبكم في الدنيا ومثواكم في قبوركم، والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين، أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله عزَّ وجلَّ وأمر به، نكل عنه كثير من الناس كقوله تبارك وتعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى.

وقالوا ربنا لما كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ ؟ وقال عزَّ وجلَّ ههنا: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة﴾ أي مشتملة على القتال ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء، ثم قال مشجعاً لهم: ﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي في الحالة الراهنة ﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي جد الحال، وحضر القتال ﴿فلو صدقوا الله﴾ أي أخلصوا له النية ﴿لكان خيراً لهم﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فهل عسيتم إن توليتم﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ ؟ أي تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خلق الله تعالى الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم، فأخذت بحقوي الرحمن عزَّ وجلَّ، فقال: مه، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى. قال: فذاك لك» قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرأوا إن شئتم ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾. وروى الإمام أحمد عن أبي بكرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»(1). وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي ذوي أرحام: أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيئون، أفأكافئهم ؟ قال ﷺ : «لا، إذن تتركون جميعاً، ولكنْ جُدْ بالفضل وصلهم، فإنه لن يزال معك ظهير من الله عزَّ وجلَّ ما كنت على ذلك»(2). وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»(3)، وفي الحديث القدسي: «قال الله عزَّ وجلَّ أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبتُّه»(4)، وقال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر القول وخزن العمل وائتلفت الألسنة وتباغضت القلوب، وقطع كل ذي رحم رحمه، فعند ذلك لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم»(5)، والأحاديث في هذا كثيرة، والله أعلم.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة.
(٢) أخرجه الإمام أحمد.
(٣) أخرجه البخاري والإمام أحمد.
(٤) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي.
(٥) أخرجه الإمام أحمد.

ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ
ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهياً عن الإعراض عنه فقال: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ أي بل على قلوب أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه، ثم قال تعالى: ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم﴾ أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ﴿من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم﴾ أي زين لهم ذلك وحسَّنه ﴿وأملى لهم﴾ أي غرهم وخدعهم، ﴿ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر﴾ أي مالأوهم وناصحوهم على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿والله يعلم إسرارهم﴾ أي ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه، عالم به، كقوله تبارك وتعالى: ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ ، ثم قال تعالى: ﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتعاصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم﴾ أي بالضرب ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ .

۞ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ
فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ
مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

يقول تعالى: ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾ ؟ أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمه ذوو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة فبين فيها فضائحهم، ولهذا كانت تسمى الفاضحة، والأضغان جمع ضغن وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره، وقوله تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم﴾، يقول عزَّ وجلَّ: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين، ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، ورداً للسرائر إلى عالمها ﴿ولتعرفنّهم في لحن القول﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات

وجهه، وفلتات لسانه، وفي الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»، وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين، قال عقبة بن عمرو رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: «إن منكم منافقين فمن سميت فليقم - ثم قال - قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان، حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً. ثم قال: - إن فيكم أو منكم - منافقين فاتقوا الله»، قال فمرّ عمر رضي الله عنه برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر اليوم[1]. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ولنبلونكم﴾ أي لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾، وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن شك ولا ريب، فالمراد حتى نعلم وقوعه، ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنعلم، أي لنرى.

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى، أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله، فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات، وقد قال أبو العالية: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لايضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل[2]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول، حتى نزلت: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزل قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصبها، ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ أي بالردة، ولهذا قال بعدها: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم﴾، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ الآية، ثم قال جلَّ وعلا لعباده المؤمنين: ﴿فلا تهنوا﴾ أي لا تضعفوا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة.

عن الأعداء، ﴿وتدعوا إلى السلم﴾ أي المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم، ولهذا قال: ﴿وأنتم الأعلون﴾ أي في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك، وقوله جلت عظمته: ﴿والله معكم﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ أي لن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً، والله أعلم.

* إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها ﴿إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهو﴾ أي حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال تعالى: ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ أي هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال، مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم، ثم قال جلَّ جلاله: ﴿إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا﴾ أي يحرجكم تبخلوا ﴿ويخرج أضغانكم﴾ قال قتادة: قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان، وصدق قتادة، فإن المال محبوب ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه، وقوله تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل﴾ أي لا يجيب إلى ذلك، ﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه﴾ أي إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ﴿والله الغني﴾ أي عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً، ﴿وأنتم الفقراء﴾ أي بالذات إليه، فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه، وقوله تعالى: ﴿وإن تتولوا﴾ أي عن طاعته واتباع شرعه، ﴿يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ أي ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه، ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»[1].

[آخر تفسير سورة محمد . ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه مسلم وابن أبي حاتم وابن جرير.

تفسير سورة القتال

[وهى مدنية][(١)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣)﴾ .

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: بآيات الله، ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها جزاء ولا ثوابا، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة؛ ولهذا قال: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أى أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم. والكل متقارب. وقد جاء فى حديث تشميت العاطس: «يهديكم الله، ويصلح بالكم»[(٢)].

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أى: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أى: اختاروا الباطل على الحق، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أى: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه فى معادهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم

---

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) رواه أبو داود فى السنن برقم (٥٠٣٨)، والترمذى فى السنن برقم (٢٧٣٩)، وابن ماجه فى السنن برقم (٣٧١٥)، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩)﴾ .

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حروبهم مع المشركين: **﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾** أى: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدا بالسيوف، **﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا﴾** أى: أهلكتموهم قتلا **﴿فَشُدُّوا﴾** [وثاق][1] الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون فى أمرهم، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجانا، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه. والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله، سبحانه، عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقلّل من القتل يومئذ فقال: **﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ[2] لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية ـ المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه ـ منسوخة بقوله تعالى: **﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ [وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ][3]﴾**الآية [التوبة: ٥]، رواه العوفى عن ابن عباس. وقاله قتادة، والضحاك، والسدى، وابن جُرَيج.

وقال الآخرون ـ وهم الأكثرون ـ: ليست منسوخة.

ثم قال بعضهم: إنما الإمام مُخَيَّر بين المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله.

وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء، لحديث قتل النبى ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبى مُعَيط من أسارى بدر، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: إن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دمٍ، وإن تمنن تمنن على شاكر، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تعطَ منه ما شئت[4].

وزاد الشافعى، رحمه الله، فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه، أو مفاداته أو استرقاقه أيضا. وهذه المسألة مُحَرّرة فى علم الفروع، وقد دللنا على ذلك فى كتابنا «الأحكام»، ولله الحمد والمنة.

وقوله: **﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾**: قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم [عليه

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، م: «تكون». (٣) زيادة من أ.
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٣٧٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

السلام][١]. وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن إبراهيم بن سليمان، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشى[٣]، عن جُبَير بن نُفَير؛ أن سلمة بن نُفَيل أخبرهم: أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: إنِّى سَيَّبْتُ الخيل، وألقيت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، وقلت: «لا قتال» فقال له النبى ﷺ: «الآن جاء القتال، لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الناس يُزيغ[٤] الله قلوب أقوام فيقاتلونهم: ويرزقهم الله[٥] منهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك. ألا إن عُقْرَ دار المؤمنين الشام، والخيلُ معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة».

وهكذا رواه النسائى من طريقين، عن جُبَيْر بن نُفَير، عن سلمة بن نُفَيْل السكونى، به[٦].

وقال أبو القاسم البغوى: حدثنا داود بن رُشَيْد، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشى، عن جبير بن نُفَير، عن النواس بن سمعان قال: لما فتح على رسول الله ﷺ فَتْح فقالوا: يا رسول الله، سيبت الخيل، ووضعت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، قالوا: لا قتال، قال: «كذبوا، الآن، جاء القتال، لا يزال الله يُرَفِّع[٧] قلوب قوم يقاتلونهم، فيرزقهم منهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك، وعُقْر دار المسلمين بالشام».

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى عن داود بن رُشَيْد، به[٨]. والمحفوظ أنه من رواية سلمة ابن نُفَيْل كما تقدم. وهذا يقوى القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم فى الحرب إلى ألاّ يبقى حرب.

وقال قتادة: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: حتى لا يبقى شرك. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[البقرة: ١٩٣]. ثم قال بعضهم: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أى: أوزار المحاربين، وهم المشركون، بأن يتوبوا إلى الله عز وجل. وقيل: أوزار أهلها[٩] بأن يبذلوا الوسع فى طاعة الله، عز وجل.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أى: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أى: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم. كما ذكر حكمته فى شرعية الجهاد فى سورتى «آل عمران» و«براءة» فى قوله: ﴿أَمْ

---

(١) زيادة من ت.

(٢) رواه أبو داود فى السنن برقم (٢٤٨٤) من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه.

(٣) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده». (٤) فى أ: «يرفع». (٥) فى أ: «قاتلونهم ويرزقه الله».

(٦) المسند (٤/ ١٠٤) وسنن النسائى (٦/ ٢١٤).

(٧) فى أ: «يرفع».

(٨) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٦١٧) «موارد» من طريق أبى يعلى عن داود بن رشيد به، ورواه النسائى فى السنن (٦/ ٢١٤) من طريق إبراهيم بن أبى عبلة، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشى، عن جبير بن نفير عن سلمة بن نفيل مرفوعًا بنحوه.

(٩) فى ت، أ: «وقيل: أوزارها».

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال فى سورة براءة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين، قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجرى عليه عمله فى طول بَرْزَخه، كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده، حيث قال:

حدثنا زيد بن يحيى الدمشقى، حدثنا ابن ثَوْبان، عن أبيه، عن مكحول، عن كثير بن مُرّة(١)، عن قيس الجذامى ـ رجل كانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: يُكَفَّر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويُؤَمَّن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلى حُلَّة(٢) الإيمان»(٣). تفرد(٤) به أحمد، رحمه الله.

حديث آخر: قال أحمد(٥) أيضا: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بَحِير(٦) ابن سعيد، عن خالد بن مَعْدان، عن المقدام بن معد يكرب الكندى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له فى أول دَفْعَة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حُلَّة(٧) الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويَأمَن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشَفَّع فى سبعين إنسانا من أقاربه».

وقد أخرجه الترمذى وصححه ابن ماجه(٨).

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عَمْرو، وعن أبى قتادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شىء إلا الدَّيْن»(٩). وروى من حديث جماعة من الصحابة، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته». ورواه أبو داود(١٠). والأحاديث فى فضل الشهيد(١١) كثيرة جدا.

وقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أى: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

---

(١) فى ت: «أحمد بإسناده». (٢) فى أ: «بحلة».
(٣) المسند (٤/ ٢٠٠) قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٩٣): «فيه عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وثقه أبو حاتم وجماعة وضعفه جماعة».
(٤) فى ت: «انفرد». (٥) فى ت: «وروى أحمد». (٦) فى م، أ: «يحيى».
(٧) فى ت، م، أ: «حلية».
(٨) المسند (٤/ ١٣١) ،وسنن الترمذى برقم (١٦٦٣) ،وسنن ابن ماجه برقم (٢٧٩٩).
(٩) صحيح مسلم برقم (١٨٨٦).
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٥٢٢).
(١١) فى ت، م: «الشهداء».

وقوله: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أى: أمرهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أى: عرفهم بها وهداهم إليها.

قال مجاهد: يهتدى أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحدا. وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا.

وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة.

وقال مقاتل بن حَيَّان: بلغنا أن الملك الذى كان وُكِل بحفظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فى الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتى أقصى منزل هو له، فيعرّفه كلّ شىء أعطاه الله فى الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزله فى الجنة دخل [إلى][(١)] منزله وأزواجه، وانصرف الملك عنه، ذكرهن[(٢)] ابن أبى حاتم، رحمه الله.

وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضا، رواه البخارى من حديث قتادة، عن أبى المتوكل الناجى، عن أبى سعيد الخدرى [رضى الله عنه][(٣)]؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاصّون مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذّبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة، والذى نفسى بيده، إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله كان فى الدنيا»[(٤)].

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كما جاء فى الحديث: «من بَلّغ ذا سلطان حاجة مَنْ لا يستطيع إبلاغها، ثبت الله قدمه على الصراط يوم القيامة».

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾، عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله ﷺ. وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَعِس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القَطِيفة ـ [وفى رواية: تعس عبد الخميصة][(٥)] ـ تعس وانتكس، وإذا شِيكَ فلا انتقش»، أى: فلا شفاه الله.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أحبطها وأبطلها؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أى: لا يريدونه ولا يحبونه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

---

(١) زيادة من ت، م، أ. (٢) فى ت: «ذكر هذا». (٣) زيادة من ت.

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٥٣٥).

(٥) زيادة من ت، أ.

وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)﴾ .

يقول تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا**﴾ يعنى: المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿**فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ**﴾ أى: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أى: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿**وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا**﴾، ثم قال: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ**﴾، ولهذا قال أبو سفيان صخرُ بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبى ﷺ، وعن أبى بكر وعمر فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله لك ما يسوؤك، وإن الذين عَدَدت لأحياء [كلهم][(١)]. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤنى، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هُبَل، اعل هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجلّ» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى، ولا عُزّى لكم. فقال: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»[(٢)].

ثم قال [تعالى][(٣)]: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ أى: يوم القيامة، ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ**﴾ أى: فى دنياهم، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خَضْمًا وقضما ليس لهم همة إلا فى ذلك. ولهذا ثبت فى الصحيح: «المؤمن يأكل فى معىً واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء»[(٤)].

ثم قال: ﴿**وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ**﴾ أى: يوم جزائهم.

وقوله: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ**﴾ يعنى: مكة، ﴿**أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ**﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، فى تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين[(٥)] وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله، عز وجل، قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله، بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم فى الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة فى الدنيا لبركة وجود الرسول نبى الرحمة، فإن العذاب يوفر على

(١) زيادة من أ.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٠٤٣) من حديث البراء رضى الله عنه.

(٣) زيادة من أ.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٣٩٣) ، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٠٦٠) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٥) فى ت: «الرسل».

الكافرين به فى معادهم، ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

وقوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أى: الذين أخرجوك من بين أظهرهم.

وقال ابن أبى حاتم: ذكر أبى، عن محمد بن عبد الأعلى، عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنَش[١]، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن النبى[٢] ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: التفت[٣] إلى مكة ـ وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحبّ بلاد الله إلىّ، ولو أن المشركين لم يخرجونى لم أخرج منك»[٤]. فأعدى الأعداء من عدَا على الله فى حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحُول الجاهلية، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾.

يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أى: على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه، بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم، وبما جبَله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ أى: ليس هذا، كهذا كقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩]، وكقوله: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

ثم قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ :قال عكرمة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أى: نعتها[٥]: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعنى غير متغير. وقال قتادة، والضحاك، وعطاء الخراسانى: غير منتن. والعرب تقول: أسِنَ الماء، إذا تَغَيَّر ريحه.

وفى حديث مرفوع أورده ابن أبى حاتم: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ يعنى: الصافى الذى لا كَدَر فيه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وَكِيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة[٦]، عن مسروق قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تُفَجَّر من جبل من مسك.

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده». (٢) فى ت: «أن رسول الله». (٣) فى ت، م: «وداراه».
(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ٣١).
(٥) فى ت، م، أ: «نعيمها». (٦) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أى: بل فى غاية البياض والحلاوة والدسومة. وفى حديث مرفوع: «لم يخرج من ضُرُوع الماشية».

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أى: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل [هى][1] حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، ﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [الصافات: ٤٦]، وفى حديث مرفوع: «لم تعصرها الرجال بأقدامها».

[قوله][2]: ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أى: وهو فى غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، وفى حديث مرفوع: «لم يخرج من بطون النحل».

وقال[3] الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا الجُريرى، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فى الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد».

ورواه الترمذى فى «صفة الجنة»، عن محمد بن بَشار، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن إياس الجَريرى، به[4]. وقال: حسن صحيح.

وقال أبو بكر بن مردويه[5]: حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عبيد أبو قدامة الإيادى، حدثنا أبو عمران الجَوْنى، عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه الأنهار تَشْخُبُ من جنة عدن فى جَوْبَة، ثم تصدع بعد أنهارا»[6].

وفى الصحيح: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[7].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيرى، وعبد الله بن الصقر السكرى قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة، حدثنى عبد الرحمن بن عياش، عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلى، عن أبيه، عن عمه لقيط بن عامر، قال دلهم: وحدثنيه أيضا أبو الأسود، عن عاصم بن لقيط أن لقيط

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) زيادة من ت.

(٣) فى ت: «وروى».

(٤) المسند (٥/٥) وسنن الترمذى برقم (٢٥٧١) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/٢٠٤) عن طريق الجريرى به، وقال: «غريب عن الجريرى تفرد به عن حكيم».

(٥) فى ت: «وروى ابن مردويه».

(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣١٤) من طريق معلى بن أسد عن الحارث بن عبيد به.

(٧) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية: ١٣٣ من سورة آل عمران.

ابن عامر خرج وافدا إلى رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، فعلام نطلع من الجنة؟ قال: «على أنهار عسل مصفى، وأنهار من خمر[١] ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة، لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله، وأزواج مطهرة» قلت: يا رسول الله، أو لنا فيها أزواج مصلحات؟ قال: «الصالحات للصالحين، تلذونهن مثل لذاتكم فى الدنيا ويلذونكم، غير ألا توالد»[٢].

وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا: حدثنا يعقوب بن عبيدة[٣]، عن يزيد بن هارون، أخبرنى الجريرى، عن معاوية بن قرة، عن أبيه[٤]، عن أنس بن مالك قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجرى فى أخدود فى الأرض، والله إنها لتجرى سائحة على وجه الأرض، حافاتها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذْفَر[٥].

وقد رواه أبو بكر ابن مَرْدُويه، من حديث مهدى بن حكيم، عن يزيد بن هارون، به مرفوعا[٦].

وقوله: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾، كقوله: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]. وقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

وقوله: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: مع ذلك كله.

وقوله: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أى: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد فى النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أى: ليس من هو فى الدرجات كمن هو[٧] فى الدركات، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أى: حارا[٨] شديد الحر، لا يستطاع. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أى: قطع ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذا بالله من ذلك.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى

(١) فى ت،م، أ: «كأس».

(٢) المعجم الكبير (١٩/ ٢١١) من حديث طويل كان الحافظ اختصره، وصورة السند فى المعجم الكبير: «حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيرى وعبد الله بن الصقر العسكرى ـ وصوابه: السكرى ـ قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة بن عبد الله بن خالد بن حزام، حدثنى عبد الرحمن بن عياش الأنصارى ثم المسعودى عن دلهم بن الأسود عن عاصم بن لقيط أن لقيط بن عامر خرج.... الحديث». وهناك عطف بالواو يوهم أن هناك إسنادًا آخر رواه الطبرانى، وليس عنده إلا من هذا الطريق، وقد رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند (٤/ ١٣) من طريق إبراهيم بن حمزة بن مصعب بن الزبير عن عبدالرحمن بن المغيرة الحزامى عن عبد الرحمن بن عياش عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلى عن أبيه عن عمه لقيط بن عامر فذكره.

(٣) فى م: «عبيد». (٤) فى ت: «وروى ابن أبى الدنيا بسنده».

(٥) وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (٤/ ٥١٨) وقال: «الموقوف أشبه بالصواب».

(٦) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ٢٠٥) من طريق محمد بن أحمد الزهرى عن مهدى بن حكيم بن مهدى به مرفوعًا.

(٧) فى م: «هو خالد». (٨) فى ت: «صار».

وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين فى بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئا، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أى: الساعة، لا يعقلون ما يقال[1]، ولا يكترثون له.

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أى: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أى: ألهمهم رُشْدَهم.

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أى: وهم غافلون عنها، ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أى: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ .أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٦، ٥٧]، وكقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبى قبله، كما هو مبسوط فى موضعه.

وقال الحسن البصرى: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة. وهو كما قال؛ ولهذا جاء فى أسمائه، عليه السلام، أنه نبى التوبة، ونبى الملحمة، والحاشر الذى يُحشَر الناس على قدميه، والعاقب الذى ليس بعده نبى.

وقال[2] البخارى: حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا أبو حازم، حدثنا[3] سهل بن سعد قال: رأيتُ رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتى تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[4].

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أى: فكيف للكافرين بالتذكر[5] إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك[6]، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:

---

(١) فى أ: «ما يقول». (٢) فى ت: «وروى». (٣) فى ت: «عن».
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٦).
(٥) فى أ: «بالتذكير». (٦) فى ت: «التذكير».

٢٣]، ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢].

وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾: هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى[١] كونه آمرا بعلم ذلك؛ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى. اللهم اغفر لى هَزْلى وجدّى، وخَطَئى وعَمْدى، وكل ذلك عندى»[٢]. وفى الصحيح أنه كان يقول فى آخر الصلاة: «اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به منى، أنت إلهى لا إله إلا أنت»[٣]. وفى الصحيح أنه قال: «يأيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»[٤].

وقال[٥] الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم الأحول قال: سمعت[٦] عبد الله، بن سرجس قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله فقلت: أستغفر لك[٧]؟ فقال: «نعم، ولكم»، وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ثم نظرت إلى نُغْض كتفه الأيمن ـ أو: كتفه الأيسر، شعبة الذى شك ـ فإذا هو كهيئة الجمع عليه الثآليل.

رواه مسلم، والترمذى، والنسائي[٨]، وابن جرير، وابن أبى حاتم، من طرق، عن عاصم الأحول، به[٩].

وفى الحديث الآخر الذى رواه أبو يعلى: حدثنا مُحَرَّز بن عون[١٠]، حدثنا عثمان بن مطر، حدثنا عبد الغفور، عن أبى نَصيرَة، عن أبى رجاء، عن أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكت[١١] الناس بالذنوب، وأهلكونى بـ «لا إله إلا الله»، والاستغفار فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون»[١٢].

وفى الأثر المروى: «قال إبليس: وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى

---

(١) فى أ: «إلا هو ولا ينافى».
(٢) صحيح البخارى برقم (٦٣٩٨).
(٣) صحيح مسلم برقم (٧٦٩).
(٤) صحيح البخارى برقم (٦٣٠٧).
(٥) فى ت: «وروى».
(٦) فى ت: «عن».
(٧) فى ت، م، أ: «أستغفر لك رسول الله ﷺ».
(٨) فى ت: «والنسائى وابن ماجه».
(٩) المسند (٥/ ٨٢)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٤٦) والشمائل للترمذى برقم (٢٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٩٦).
(١٠) فى م: «محمد بن عوف» وفى هـ: «محمد بن عون». والتصويب من مسند أبى يعلى.
(١١) فى م: «قال: إنما أهلكت».
(١٢) مسند أبى يعلى (١/ ١٢٣)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٠٧): «فيه عثمان بن مطر وهو ضعيف».

أجسادهم. فقال الله عز وجل: وعزتى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى»[١].

والأحاديث فى فضل الاستغفار كثيرة جدا.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أى: يعلم تصرفكم فى نهاركم ومستقركم فى ليلكم، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]. وهذا القول ذهب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: متقلبكم فى الدنيا، ومثواكم فى الآخرة.

وقال السدى: متقلبكم فى الدنيا، ومثواكم فى قبوركم.

والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله، عز وجل[٢]، وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧].

وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أى: مشتملة على حكم القتال؛ ولهذا قال: ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أى: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء. ثم قال مشجعا لهم: ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ. طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أى: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أى: فى الحالة الراهنة، ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾ أى: جد الحال، وحضر القتال، ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أى : أخلصوا له النية، ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى: عن الجهاد ونكلتم عنه، ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «الله تعالى».

أَرْحَامَكُمْ ﴾ أى: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾، وهذا نهى عن الإفساد فى الأرض عموما، وعن قطع الأرحام خصوصا، بل قد أمر [الله][١] تعالى بالإصلاح فى الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والفعال وبذل الأموال. وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ، من طرق عديدة، ووجوه كثيرة.

قال البخارى: حدثنا خالد بن مَخْلَد، حدثنا سليمان، حدثنى معاوية بن أبى مُزَرِّد، عن سعيد ابن يسار[٢]، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن عز وجل، فقال: مه! فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك[٣]». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾[٤].

ثم رواه البخارى من طريقين آخرين، عن معاوية بن أبى مزرد، به.قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾»[٥]. ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبى مزرد، به[٦].

وقال[٧] الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن أبيه، عن أبى بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة، من البغى وقطيعة الرحم».

رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، من حديث إسماعيل ـ هو ابن عُلَيَة ـ به[٨]. وقال الترمذى: هذا حديث صحيح.

وقال[٩] الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المرئى، حدثنا محمد بن عباد المخزومى، عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ قال: «من سره النِّساء فى الأجل، والزيادة فى الرزق، فليصل رحمه»[١٠]. تفرد به أحمد، وله شاهد فى الصحيح.

---

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) فى ت: «فروى البخارى بسنده».

(٣) فى أ: «فذلك لك».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٣٠).

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٣١، ٤٨٣٢) لكن زاد أبو الحباب بين معاوية وسعيد بن يسار.

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٤) من طريق معاوية بن أبى مزرد عن عمه أبى الحباب عن سعيد بن يسار به.

(٧) فى ت: «وروى».

(٨) المسند (٥/٣٨) ،وسنن أبى داود برقم (٤٩٠٢) ،وسنن الترمذى برقم (٢٥١١) ، وسنن ابن ماجه برقم (٤٢١١)

(٩) فى ت:«وروى».

(١٠) المسند (٥/٢٧٩) وشاهده حديث أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعا: «من سره أن يبسط عليه رزقه، أو ينسأ فى أثره، فليصل رحمه». رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٩٨٦)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٥٧) واللفظ لمسلم.

وقال[١] أحمد أيضا: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حجاج بن أرطاة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لى ذوى أرحام، أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيئون، أفأكافئهم؟ قال: «لا، إذن تتركون جميعا، ولكن جُدْ بالفضل وصلهم؛ فإنه لن يزال معك ظهير من الله، عز وجل، ما كنت على ذلك»[٢].

تفرد به من هذا الوجه، وله شاهد[٣] من وجه آخر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يَعْلَى، حدثنا فِطْر، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو[٤] قال: قال رسول الله ﷺ:«إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها»، رواه البخارى[٥] [٦].

وقال أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا قتادة، عن أبى ثمامة الثقفى، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الرحم يوم القيامة لها حُجْنَة كحجنة المغزل، تتكلم بلسان طُلَقٍ ذُلَقٍ، فتصل من وصلها وتقطع من قطعها»[٧].

وقال[٨] الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن أبى قابوس، عن عبد الله بن عمرو ـ يبلغ به النبى ﷺ ـ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض[٩] يرحمكم أهل السماء، والرحم شُجْنَة من الرحمن، من وصلها وصلته، ومن قطعها بتته».

وقد رواه أبو داود[١٠] والترمذى، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، به[١١]. وهذا هو الذى يروى بتسلسل الأولية[١٢]، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا هشام الدَّسْتَوائى، عن يحيى بن أبى كثير، عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ؛ أن أباه حدثه: أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف وهو مريض، فقال له عبد الرحمن: وصلتك رَحِمٌ، إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمى، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبته ـ أو قال: من يبتها أبته».

تفرد به من هذا الوجه[١٣]. ورواه أحمد أيضا من حديث الزهرى، عن أبى سلمة، عن الرداد ـ

---

(١) فى ت: «وروى».
(٢) المسند (٢/ ١٨١).
(٣) فى أ: «شواهد». (٤) فى ت: «عن ابن عمر».
(٥) فى ت: «انفرد به».
(٦) المسند (٢/ ١٦٣)، وصحيح البخارى برقم (٥٩٩١).
(٧) المسند (٢/ ١٨٩)، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٥٠): «رجال أحمد رجال الصحيح غير أبى ثمامة الثقفى، وثقه ابن حبان».
(٨) فى ت: «رواه». (٩) فى أ: «ارحموا من فى الأرض».
(١٠) فى ت:«وقد رواه أحمد وأبو داود».
(١١) المسند (٢/ ١٦٠)، وسنن أبى داود برقم (٤٩٤١)، وسنن الترمذى برقم (١٩٢٤).
(١٢) وأروى هذا الحديث بالإجازة مسلسلاً بأول ما سمع، إلا أن الأولية تنقطع فيما فوق سفيان، وعلى هذا فشرط المسلسل غير متحقق عند التدقيق.
(١٣) المسند (١/ ١٩١).

أو أبى الردّاد ـ عن عبد الرحمن بن عوف، به[١]. ورواه أبو داود والترمذى، من رواية أبى سلمة، عن أبيه[٢]. والأحاديث فى هذا كثيرة.

وقال الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلى، حدثنا عيسى بن يونس، عن محمد بن عبد الله بن علاثة[٣]، عن الحجاج بن الفُرَافِصَة، عن أبى عمر البصرى، عن سلمان[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[٥].

وبه قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر القول، وخزن العمل، وائتلفت الألسنة، وتباغضت القلوب، وقطع كل ذى رحم رحمه، فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم»[٦].

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾.

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهيا عن الإعراض عنه، فقال: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾** أى: بل على قلوب أقفالها، فهى مُطْبَقَة لا يخلص إليها شىء من معانيه.

قال ابن جرير: حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد قال: حدثنا[٧] حماد بن زيد، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ يوما: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾**، فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها[٨] أقفالها حتى يكون الله عز وجل يفتحها أو يفرجها. فما زال الشاب فى نفس عمر، رضى الله عنه، حتى ولى، فاستعان به[٩].

ثم قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾** أى: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، **﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾** أى: زين لهم ذلك وحسنه، **﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾** أى: غرهم

---

(١) المسند (١/ ١٩٤) وقال الترمذى فى السنن: «روى معمر عن الزهرى هذا الحديث عن أبى سلمة عن رداد الليثى عن عبد الرحمن ابن عوف، قال محمد ـ يعنى البخارى ـ: حديث معمر خطأ» والصحيح الرواية الآتية فى السنن.

(٢) سنن أبى داود برقم (١٦٢٤)، وسنن الترمذى برقم (١٩٠٧).

(٣) فى هـ: «الحجاج بن يونس». والتصويب من المعجم الكبير.

(٤) فى هـ: «سليمان» والتصويب من المعجم الكبير.

(٥) المعجم الكبير (٦/ ٢٦٣)، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٨٧): «فيه جماعة لم أعرفهم». وله شاهد من حديث أبى هريرة رواه أحمد فى المسند (٢/ ٢٩٥).

(٦) المعجم الكبير (٦/ ٢٦٣) والكلام عليه كالذى قبله.

(٧) فى ت، م: «ابن».

(٨) فى ت، م: «بل على قلوب».

(٩) تفسير الطبرى (٢٦/ ٣٧).

وخدعهم، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أى: مالئوهم وناصحوهم فى الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أى: [يعلم][١] ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾أى: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح فى أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أى: بالضرب ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أى: اعتقد[٢] المنافقون أن الله لايكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم[٣] ذوو البصائر، وقد أنزل تعالى فىَ ذلك سورة «براءة»، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما فى النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم[٤] عيانا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك فى جميع المنافقين سترا منه على خلقه، وحملا للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أى: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أى الحزبين هو بمعانى كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. وفى الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله

(١) زيادة من ت.
(٢) فى م: «أيعتقد».
(٣) فى أ: «يفهمه».
(٤) فى ت: «تعرفهم».

جلبابها، إن خيرا فخير، وإن شرًا فشر»[١]. وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل، وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد[٢] فى أول «شرح البخارى»، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد ورد فى الحديث تعيين جماعة من المنافقين. قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سلمة، عن عياض بن عياض، عن أبيه، عن أبى مسعود عقبة ابن عمرو، رضى الله عنه، قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن منكم[٣] منافقين، فمن سميت فليقم». ثم قال: «قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان». حتى سمى ستة وثلاثين رجلا ثم قال: «إن فيكم ـ أو: منكم[٤] ـ فاتقوا الله». قال: فمر عمر برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر اليوم[٥].

وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أى: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهى، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾. وليس فى تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس فى مثل هذا: إلا لنعلم، أى: لنرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾.

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذى عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

وقد قال الإمام محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة: حدثنا أبو قدامة، حدثنا وكيع، حدثنا أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية قال[٦]: كان أصحاب رسول الله ﷺ يظنون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

---

(١) سيأتى تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ٢٩ من سورة الفتح.
(٢) فى أ: «النفاق العملى والاعتقادى». (٣) فى ت: «فيكم». (٤) فى ت: «ومنكم».
(٥) المسند (٥/ ٢٧٣) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١١٢): «فيه عياض بن أبى عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما».
(٦) فى ت: «روى الإمام أحمد بإسناده».

ثم روى من طريق عبد الله بن المبارك: أخبرنى بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شىء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾. فقلنا: ما هذا الذى يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلما نزلت كففنا عن القول فى ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصيبها[١].

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التى هى سعادتهم فى الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذى هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: بالردة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ الآية.

ثم قال لعباده المؤمنين: ﴿فَلا تَهِنُوا﴾ أى: لا تضعفوا عن الأعداء، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أى: المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار فى حال قوتكم وكثرة عَدَدكم وعُدَدكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ أى: فى حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة[٢] بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام فى المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾: فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئا.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾.

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهوينا لشأنها: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أى: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أى: هو غنى عنكم لا يطلب منكم شيئا، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم

(١) تعظيم قدر الصلاة للمروزى برقم (٦٩٨، ٦٩٩).
(٢) فى ت: «فئة كثيرة».

الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم.

ثم قال: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ أي: يحرجكم[١] تبخلوا: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾.

قال قتادة: «قد علم الله أن فى إخراج الأموال إخراج الأضغان». وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

وقوله: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أى: لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ أى: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أى: عن كل ما سواه، وكل شىء فقير إليه دائما؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ أى: بالذات إليه. فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، [أى][٢] لا ينفكون عنه.

وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ أى: عن طاعته واتباع شرعه[٣] ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ أى: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.

وقال[٤] ابن أبى حاتم، وابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى مسلم بن خالد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٥] أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسى ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»[٦].

تفرد به مسلم بن خالد الزنجى، ورواه عنه غير واحد، وقد تكلم فيه بعض الأئمة، والله أعلم.

آخر تفسير سورة القتال

(١) فى أ: «يحوجكم». (٢) زيادة من ت.

(٣) فى ت: «شرعته»، وفى أ: «شريعته».

(٤) فى ت: «وروى».

(٥) زيادة من ت.

(٦) تفسير الطبرى (٢٦/ ٤٣)، ومسلم بن خالد الزنجى ضعفه ابن معين، وقال البخارى: منكر الحديث لكنه لم ينفرد به، فقد توبع:

١ـ تابعه شيخ من أهل المدينة عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه به، أخرجه الترمذى برقم (٣٢٦٠) وقال: «هذا حديث غريب فى إسناده مقال».

٢ـ وتابعه عبد الله بن جعفر بن نجيح عن العلاء عن أبيه به، أخرجه الترمذى برقم(٣٢٦١) وعبد الله بن جعفر والد على بن المدينى ضعيف.

تفسير سورة محمد

وهي مدنية

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **الذين كفروا** ﴾ أي : بآيات اللّٰه ، ﴿ **وصدوا** ﴾ غيرهم ﴿ **عن سبيل اللّٰه أضل أعمالهم** ﴾ أي : أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها جزاءً ولا ثوابًا ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **وقَدمنا إلىٰ ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا** ﴾ ثم قال : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أي : آمنت قلوبهم وسرائرهم ، وانقادت جوارحهم وبواطنهم[١] وظواهرهم ، ﴿ **وآمنوا بما نزل علىٰ محمد** ﴾ ، عطف خاص علىٰ عام ، وهو دليل علىٰ أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته صلوات اللّٰه وسلامه عليه .

وقوله : ﴿ **وهو الحق من ربهم** ﴾ جملة معترضة حسنة ، ولهذا قال : ﴿ **كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم** ﴾ . قال ابن عباس : أي أَمْرَهم . وقال مجاهد : شأنهم . وقال قتادة وابن[٢] زيد : حالهم . والكل متقارب وقد جاء في حديث تشميت العاطس : « **يهديكم اللّٰه ، ويصلح بالكم** »(١) .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل** ﴾ أي[٣] : [إنما أبطلنا أعمال الكفار . وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شئونهم ؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، أي :][٤] اختاروا الباطل علىٰ الحق ، ﴿ **وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب اللّٰه للناس أمثالهم** ﴾ أي : يبين لهم مآل أعمالهم ، وما يصيرون إليه في معادهم .

---

(١) - ورد من حديث أبي هريرة ، رواه البخاري في كتاب الأدب من صحيحه (٦٢٢٤) ، وأبو داود في كتاب الأدب برقم (٥٠٣٣) .

---

[١] - سقط من : ز ، خ .

[٢] - في ز، خ : « وأبو » .

[٣] - سقط من : خ .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز : خ .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ﴾

يقول تعالىٰ مرشدًا للمؤمنين إلىٰ ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ﴾ أي : إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدًا بالسيوف ، ﴿ **حتىٰ إذا أثخنتموهم** ﴾ أي : أهلكتموهم قتلًا ﴿ **فشدوا** ﴾ الأسارىٰ الذين تأسرونهم ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم ؛ إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم[١] أساراهم مجانًا ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه . والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فإن اللَّه سبحانه عاتب المؤمنين علىٰ الاستكثار من الأسارىٰ يومئذ ليأخذوا منهم الفداء ، والتقلّل من القتل يومئذ فقال : ﴿ **ما كان لنبي أن يكون له أسرىٰ حتىٰ يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا واللَّه يريد الآخرة واللَّه عزيز حكيم * لولا كتاب من اللَّه سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** ﴾ ثم قد ادعىٰ بعض العلماء أن هذه الآية المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه منسوخة بقوله تعالىٰ : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ الآية رواه العوفي عن ابن عباس .

وقاله قتادة ، والضحاك ، والسدي ، وابن جريج .

وقال الآخرون - وهم الأكثرون - : ليست منسوخة .

ثم قال بعضهم : إنما الإمام مُخيّر بين المن علىٰ الأسير ومفاداته فقط ، ولا يجوز له قتله .

وقال آخرون منهم : بل له أن يقتله إن شاء ، لحديث قتل النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيط من أسارىٰ بدر(٢) .

(٢) - نقل ذلك ابن كثير في البداية والنهاية (٣٧٢/٣) عن ابن إسحاق ، وروى الطبراني في الأوسط (٣٨٠١) عن ابن عباس قال : قتل رسول الله ﷺ يوم بدر ثلاثة حبرًا ، قتل النضر بن الحارث من بني =

[١] - في ز ، خ: « فأطلقتموا » .

وقال ثمامة بن أثال[١] لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال له : « ما[٢] عندك[٣] يا ثمامة ؟ » فقال : إن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دَمٍ ، وإن تمنن تمنن على شاكر ، وإن كنت تريد المال فَسَلْ[٤] تعطَ منه ما شئت (٣) .

وزاد الشافعي رحمه الله فقال : الإمام مخير بين قتله أو المنّ عليه أو مفاداته أو استرقاقه أيضًا . وهذه المسألة مُحرّرة في علم الفروع ، وقد دللنا على ذلك في كتابنا « الأحكام » ، ولله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ قال مجاهد : حتى ينزل عيسى ابن مريم . وكأنه أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال [طائفة من][٥] أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال »(٤) .

وقال الإمام أحمد(٥) : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن إبراهيم

= عبد الدار ، وقتل طعيم بن عدي من بني نوفل ، وقتل عقبة بن أبي معيط ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٣/٦) ، وقال : رواه الطبراني في الاوسط وفيه عبد الله بن حماد بن نمير ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات .
وروى البزار كما في كشف الأستار (١٧٨١) ، قال رسول الله ﷺ : لأقتلن اليوم رجلًا من قريش صبرًا قال : فنادى عقبة بن أبي معيط بأعلى صوته : يا معشر قريش ؛ مالي أقتل من بينكم صبرًا ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : بكفرك بالله وافترائك على رسول الله ﷺ . وقال الهيثمي (٩٢/٦) : فيه يحيى بن سلمة ابن كهيل ، وهو ضعيف ووثقه ابن حبان .
ويحيى بن سلمة بن كهيل شيعي متروك كما في « التقريب » لابن حجر ولكن ذكر الهيثمي في « المجمع » عن ابن عباس قال : نادى رسول الله ﷺ أسارى بدر وكان فداء كل رجل منهم أربعة آلاف وقتل عقبة بن أبي معيط قبل الفداء قام إليه علي بن أبي طالب فقتله صبرًا قال : من للصبية يا رسول الله قال : النار .
وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح .

(٣) - حديث ثمامة رواه البخاري في " صحيحه " في كتاب المغازي ، باب : وفد بنى حذيفة ، الحديث (٤٣٧٢) ومسلم في " صحيحه " كتاب الجهاد والسير ، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه حديث (١٧٦٤) من حديث سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة .
وقد اختصره البخاري في مواضع من صحيحه انظر رقم (٤٦٢، ٤٦٩، ٢٤٢٢، ٢٤٢٣) .

(٤) - تقدم في تفسير سورة البقرة الآية (١٢٠) ، وانظر أيضًا تفسير سورة النور الآية (٥٥) .

(٥) - المسند (١٠٤/٤) ، ورواه البخاري في التاريخ الكبير (٧٠/٤) ، وابن أبي عاصم في " الآحاد والمثاني" (٢٤٦٠) ، والطبراني في الكبير (٦٣٥٨) ، والبزار كما في كشف الاستار (١٦٨٩) والقسوي في تاريخه

[١] - في ز ، خ : « أبان » .
[٢] - في خ : « يا » .
[٣] - في ز : « عندي » ، خ : « عبدي » .
[٤] - في ز ، خ : فلي .
[٥] - سقط من : ز ، خ .

ابن سليمان ، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشي ، عن جُبَير بن نُفَير أن سلمة بن نُفَيل أخبرهم : أنه أتىٰ رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم فقال : إني سَيَّبْتُ الخيل ، وألقيت السلاح ، ووضعت الحرب أوزارها ، وقلت : لا قتال . فقال له النبي صلىٰ اللّه عليه وسلم : « **الآن جاء القتال ، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يزيغ اللّه[١] قلوب أقوام فيقاتلونهم . ويرزقهم[٢] اللّه منهم ، حتىٰ يأتي أمر اللّه وهم علىٰ ذلك . ألا إن [عُقْرَ دار المؤمنين الشام][٣] . والخيل معقود[٤] في نواصيها الخير إلى يوم القيامة** » وهكذا رواه النسائي من طريقين ، عن جبير بن نُفَير ، عن سلمة بن نُفَيل السكوني[٥] ، به .

وقال أبو القاسم البغوي(٦) : حدثنا داود بن رشيد حدثنا الوليد بن [مسلم عن][٦] محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشي ، عن جبير بن نُفَير ، عن النواس بن سمعان قال : لما[٧] فتح علىٰ رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم فَتْحٌ فقالوا : يا رسول اللّه سيبت الخيل ، ووضعت السلاح ، ووضعت الحرب أوزارها ، قالوا : لا قتال ، قال : « **كذبوا ! الآن جاء القتال ، لا يزال اللّه يُرَفِّع قلوب قوم يقاتلونهم[٨] ، فيرزقهم منهم ،**

(٣٣٦/١) من طريق إبراهيم بن سليمان الأفطس عن الوليد به ، ورواه النسائي في كتاب الخيل (٢١٤/٦) وفي " الكبرى " كتاب الخيل ، باب : ذكر الخيل حديث (٤٤٠١) من طريق إبراهيم بن أبي علية عن الوليد ابن عبد الرحمن به .

إلّا أن رواية ابن أبي علية فيها عن سلمة بن نفيل قال : كنت جالسًا عند رسول الله ﷺ فقال رجل : يا رسول الله أذال الناس الخيل ووضعوا السلاح ... الحديث .

وإسناد هذا الحديث صحيح على شرط مسلم كذا قال الألباني في الصحيحة (١٩٣٥) ، ورواه النسائي في "الكبرى" كتاب السير ، باب : متى تضع الحرب أوزارها ، حديث (٨٧١٢) والطبراني في الكبير (٣٦٦٠) من طريق يحيى بن حمزة الدمشقي عن نصر بن علقمة ، عن جبير بن نفير ، عن سلمة بن نفيل نحو رواية ابن أبي علية ويشهد له ما رواه ابن حبان في صحيحه (٧٣٠٧) من حديث الوليد بن عبد الرحمن عن جبير ابن نفير عن النواس بن سمعان مثل حديث سلمة وسيأتي تخريجه بعد هذا الحديث .

(٦) - رواه أبو يعلى ، وعنه ابن حبان في صحيحه (٧٣٠٧) قال : حدثنا داود بن رشيد فذكره . ورجال إسناده ثقات إلّا أن الوليد بن مسلم مدلس وقد عنعن .

والحديث رواه ابن سعد (٤٢٧/٧-٤٢٨) والطبراني في الكبير - مختصرًا - (٦٣٥٩) من طريقين عن الوليد ابن مسلم بهذا الإسناد وفيه " سلمة بن نفيل " بدلًا من النواس بن سمعان وقد صرح فيه الوليد بالتحديث وقد صح الحديث عن سلمة من غير هذا الطريق كما تقدم بيانه في التخريج السابق .

---

[١] - في ز ، خ : « له » . [٢] - في ز : « ويرونهم » .

[٣] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ : « إلا إن عقدوا المؤمنين التام » .

[٤] - في خ : « بعقود » . [٥] - في ز : « السلولي » .

[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ . [٧] - سقط من : ز ، خ .

[٨] - في ز ، خ : « يقاتلون » .

حتىٰ يأتي أمر اللّٰه وهم[١] علىٰ ذلك ، [وعُقْر دار المسلمين بالشام »][٢] .

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي عن داود بن[٣] رُشيد ، به . والمحفوظ أنه من رواية سلمة بن نُفَيل كما تقدم . وهذا يقوي القول بعدم النسخ ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلىٰ أن لا يبقىٰ حرب .

وقال قتادة : ﴿ **حتىٰ تضع الحرب أوزارها** ﴾ حتىٰ لا يبقىٰ شرك . وهذا كقوله تعالىٰ : ﴿ **وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين للّٰه** ﴾ . ثم قال بعضهم : ﴿ **حتىٰ تضع الحرب أوزارها** ﴾ أي : أوزار المحاربين ، وهم المشركون ، بأن يتوبوا إلىٰ اللّٰه عز وجل . وقيل : أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة اللّٰه عز وجل .

وقوله : ﴿ **ذلك ولو يشاء اللّٰه لانتصر منهم** ﴾ أي : هذا ولو شاء اللّٰه لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ، ﴿ **ولكن ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ أي : ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ، ويبلو أخباركم . كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي « آل عمران » و « براءة » في قوله : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم اللّٰه الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ وقال في سورة براءة : ﴿ **قاتلوهم يعذبهم اللّٰه بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب اللّٰه علىٰ من يشاء واللّٰه عليم حكيم** ﴾ ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين ، قال : ﴿ **والذين قتلوا في سبيل اللّٰه فلن يضل أعمالهم** ﴾ أي : لن يذهبها بل يكثرها وينميها[٤] ويضاعفها . ومنهم من يجري عليه عمله في طول بَرْزَخه ، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده(٧) ، حيث قال :

---

(٧) - المسند (٤/٢٠٠) وعنه البخاري في التاريخ (١٤٣/٧، ١٤٤) وابن الاثير في أسد الغابة (٤١٥/٤) ورواه ابن أبي عاصم في " الآحاد والمثاني " (٢٧٣٤) قال : حدثنا محمد بن مصفى نابقيه قال : حدثني ابن ثوبان فذكره نحوه . وفي إسناده عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان وقد اختلف فيه فضعفه أحمد ، والنسائي ، وابن خراش ، ووثقه أبو حاتم الرازي ودحيم وعبد الرحمن بن صالح وعمرو بن علي الفلاس وذكره ابن حبان فبي الثقات وقال ابن المديني والعجلي وغيرهما : لا بأس به ، واختلف فيه قول ابن معين .

وقال ابن حجر في " التقريب " : صدوق يخطئ ورمي بالقدر وتغير بأخرة . فمثل ابن ثوبان هذا يحسن حديثه لا سيما إذا كان له شواهد مثل هذا الحديث فإنه يشهد له حديث المقداد الآتي والحديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٦/٥) وقال : رواه أحمد وفيه عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان وثقه أبو حاتم وجماعة وضعفه جماعة .

---

[١] - سقط من : ز .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ : « وعقدوا من المسلمين بالشام .

[٣] - في ز ، خ : « عن » . [٤] - في ز : « ويتمها » .

حدثنا زيد بن يحيىٰ الدمشقي ، حدثنا ابن ثوبان ، عن أبيه ، عن مكحول ، عن كثير بن مُرّة ، عن قيس الجذامي - رجل كانت له صحبة - قال : قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **يعطىٰ الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه يُكفَّر عنه كل خطيئة ، ويرىٰ مقعده من الجنة ، ويزوّج من الحور العين ، ويُؤَمَّن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلىٰ حُلَّة الإِيمان** » تفرد به أحمد رحمه اللّٰه .

(حديث آخر) قال أحمد أيضًا (٨) : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن [بَحير بن سعد][١] ، عن خالد بن معدان ، عن المقدام بن معد يكرب الكندي قال : قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **إن للشهيد عند اللّٰه ستَّ خصال : أن يغفر له في أول دَفْعَة[٢] من دمه ، ويرىٰ مقعده من الجنة ، ويحلىٰ حُلَّة[٣] الإِيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويُجَار من عذاب القبر ، ويأمَن من الفزع الأكبر ، ويوضع علىٰ رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويُشَفَّع في سبعين إنسانًا[٤] من أقاربه** » . وقد أخرجه الترمذي وصححه ، وابن ماجة .

وفي صحيح مسلم(٩) عن عبد اللّٰه بن عَمرو ، وعن أبي قتادة أن رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم قال : « **يُغفَر للشهيد كل شيء إلا الدَّيْن** » . ورُوي من حديث جماعة من الصحابة(١٠) .

---

(٨) - المسند (١٣١/٤)ومن هذا الطريق رواه ابن ماجة في الجهاد حديث (٢٧٩٩) ، ورواه الترمذي في " صحيحه " كتاب فضائل الجهاد ، باب : ثواب الشهيد حديث (١٦٦٣) من طريق بقية بن الوليد ، عن بحير بن سعد به .

وقال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب . لكن رواه عبد الرزاق في مصنفه (٩٥٥٩) عن إسماعيل بن عياش بهذا الإسناد بلفظ : « **إن للشهيد عند الله تسع خصال** ... » الحديث مثل رواية أحمد . والحديث صححه الألباني في " صحيح سنن ابن ماجة " (٢٢٥٧) وانظر أيضًا أحكام الجنائز (ص٣٦) .

(٩) - صحيح مسلم كتاب الإمارة ، باب : من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلّا الدين حديث (١٨٨٦) (١١٩) وهو عند أحمد في المسند (٢٢٠/٢) .

ورواه مسلم (١٨٨٦) (١٢٠) من طريق سعيد بن أبي أيوب قال : حدثني عياش بن عباس القتباني به بلفظ " **القتل في سبيل الله يكفر كل شيءٍ إلّا الدين** " .

(١٠) - ورد ذلك عن جمع من الصحابة ومن ذلك ما رواه مسلم في " صحيحه " في كتاب الإمارة باب :

---

[١] - في ز : « يحيى بن سعيد » ، خ : « يحيى بن سعد » .

[٢] - في ز ، خ : « خفقة » . [٣] - في ز : « حلية » .

[٤] - في ز ، خ : « نفسًا » .

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « [**يشفع الشهيد**][١] **في سبعين من أهل بيته** »(١١) رواه[٢] أبو داود والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جدًّا.

وقوله : ﴿ **سيهديهم** ﴾ أي : إلى الجنة ، كقوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم** ﴾

وقوله : ﴿ **ويصلح بالهم** ﴾ أي : أمرهم وحالهم ، ﴿ **ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾ أي: عرفهم بها وهداهم إليها .

قال مجاهد : يهتدي أهلها[٣] إلى بيوتهم[٤] ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها ، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها أحدًا . وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا .

من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا من الدين حديث (١٨٨٥) (١١٧) من حديث أبي قتادة وفيه قال أبو قتادة : أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **نعم وأنت صابر فحتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك** » .

وروى الترمذي في " سننه " كتاب فضائل الجهاد ، باب : ما جاء في ثواب الشهداء حديث (١٦٤٠) من حديث أبي بكر بن عياش عن حميد عن أنس مرفوعًا بلفظ : " **القتل في سبيل الله يكفر كل خطيئة** " فقال جبريل : إلا الدين فقال النبي : «**إلا الدين** » .

قال الترمذي : وفي الباب عن كعب بن عجرة وجابر وأبي هريرة وأبي قتادة وهذا حديث غريب لا نعرفه من حديث أبي بكر إلا من حديث هذا الشيخ قال : وسألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فلم يعرفه وقال : أرى أنه أراد حديث حميد عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال :« **ليس أحد من أهل الجنة يسره أن يرجع إلى الدنيا إلا الشهيد** » .

قلت : مراد البخاري أن أبا بكر بن عياش قد أخطأ في هذا الحديث لكن الحديث صححه الألباني - رحمه الله - في " صحيح سنن الترمذي " (١٣٤٠) .

(١١) - رواه أبو داود في " سننه " كتاب الجهاد ، باب : في الشهيد يشفع حديث (٢٥٢٢) ومن طريقه البيهقي (١٦٤/٩) كتاب السير ، باب : الشهيد يشفع ، وابن حبان في " صحيحه " من طريق الوليد بن رباح الذماري ، حدثني عمي نمران بن عتيبة الذماري قال : دخلنا على أم الدرداء ونحن أيتام فقالت : أبشروا فإني سمعت أبا الدرداء يقول : قال رسول الله ﷺ : « **يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته** » قال أبو داود: صوابه رباح بن الوليد .

ورباح بن الوليد بن يزيد بن نمران الذماري قال فيه الحافظ في " التقريب " : صدوق . =

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز . [٢] - في ز : « ورواه » .

[٣] - في خ : « بها » .

[٤] - في ز : « يوم متونهم » ، خ : « يوم مثواهم » .

وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة ، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة .

وقال مقاتل بن حيان : بلغنا أن الملك الذي كان وُكِلَ بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ، ويتبعه ابنُ آدم حتىٰ يأتي أقصىٰ منزل هو له ، فيعرّفه كل شيء أعطاه الله في الجنة ، فإذا انتهىٰ إلىٰ أقصىٰ منزله في الجنة دخل [إلى][١] منزله وأزواجه ، وانصرف الملك عنه . ذكرهن ابن أبي حاتم رحمه الله!

وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضًا ، رواه البخاري(١٢) من حديث قتادة ، عن أبي المتوكل الناجي ، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : « **إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاصّون[٢] مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتىٰ إذا هُذّبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدىٰ منه بمنزله [ ][٣] كان في الدنيا** » .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾ ، كقوله : ﴿ **ولينصرن الله من ينصره** ﴾ ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ولهذا قال : ﴿ **ويثبت أقدامكم** ﴾ ، كما جاء في الحديث : « **من بَلّغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، ثبت الله قدمه علىٰ الصراط يوم القيامة** » .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **والذين كفروا فتعسًا لهم** ﴾ ، عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله صلىٰ الله عليه وسلم . وقد ثبت في الحديث عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال : « **تعس عبد الدينار ، [تعس عبد الدرهم][٤] ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس ، وإذا شِيكَ فلا انتقش**»(١٣) .

= والحديث صححه الألباني في " صحيح سنن أبي داود " (٢٢٠١) .

(١٢) - صحيح البخاري كتاب المظالم ، باب : قصاص المظالم حديث (٢٤٤٠) من طريق هشام الدستوائي عن قتادة به ، ورواه في كتاب الرقاق ، باب : القصاص يوم القيامة وهي الحاقة لأن فيها الثواب وحواق الامور حديث (٦٥٣٥) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة .

والحديث رواه أحمد (٣/١٣،٥٧،٦٣،٧٤) وعبد بن حميد (٩٣٥) والبخاري في الأدب المفرد (٤٨٦) من طريق قتادة به .

(١٣) - تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران الآية (٢٠٠) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ : « إلى » .

[٢] - في ز ، خ : « يتقاضون » .

[٣] - ما بين المعكوفتين في خ : « الذي » .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

وقوله : ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ أي : أحبطها وأبطلها . ولهذا قال : ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله ﴾ [أي : لا يريدونه ولا يحبونه ، ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾][١] .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ أفلم يسيروا ﴾ يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿ في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم ﴾ أي : عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم ، أي : ونجىٰ المؤمنين من بين أظهرهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وللكفرين أمثالها ﴾ . ثم قال : ﴿ ذلك بأن الله مولىٰ الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولىٰ لهم ﴾ ؛ ولهذا قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أُحُدٍ حين سأل عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم ، وعن أبي بكر وعمر فلم يُجَبْ ، وقال : أما هؤلاء فقد هلكوا . وأجابه عمر بن الخطاب فقال : كذبت يا عدو الله ، بل أبقىٰ الله لك ما يسوءك ، وإن الذين[٢] عَدَدت لأحياءٌ . فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، أما إنكم ستجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤني ، ثم ذهب يرتجز ويقول : * اعل هُبَلٍ ، اعل هُبَل * فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « ألا تجيبوه ؟ » قالوا : يا رسول الله ؛ وما نقول ؟ قال : « قولوا : الله أعلىٰ وأجلّ » . ثم قال أبو سفيان : لنا العُزّىٰ ، ولا عُزّىٰ لكم . فقال : « ألا تجيبوه ؟ » قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ قال : « قولوا :الله مولانا ولا مولىٰ لكم »(١٤) .

---

(١٤) - رواه أحمد (٢٩٣/٤) ، ورواه البخاري في " صحيحه " في المغازي ، باب : غزوة أحد ... حديث (٤٠٤٣) من حديث البراء بن عازب ورواه أيضًا أحمد في مسنده (٢٩٣/٤) والنسائي في " الكبرى " كتاب التفسير ، باب : قوله تعالى : ﴿ والرسول يدعوكم إلى أخراكم ﴾ حديث (١١٠٧٩) من حديث البراء أيضًا .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : « ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾ أي : لا يريدونه ولا يحبونه » .

[٢] - في ز : « الذي » .

ثم قال تعالى : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ أي : يوم القيامة ، ﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام** ﴾ أي : في دنياهم ، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام ، خَضْمًا وقضمًا ، ليس لهم همة إلا في ذلك . ولهذا ثبت في الصحيح(١٥) : « **المؤمن يأكل في مِعى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء** » . ثم قال : ﴿ **والنار مثوى لهم** ﴾ أي : يوم جزائهم .

وقوله : ﴿ **وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك** ﴾ يعني : مكة ، ﴿ **أهلكناهم فلا ناصر لهم** ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة ، في تكذيبهم لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء ، فإذا كان الله - عز وجل - قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله ، بسببهم ، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء ، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرىٰ ؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة ، فإن العذاب يوفر علىٰ الكافرين به في معادهم ، ﴿ **يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون** ﴾

وقوله : ﴿ **من قريتك التي أخرجتك** ﴾ أي : الذين أخرجوك من بين أظهرهم .

قال[١] ابن أبي حاتم(١٦) : ذكر[٢] أبي ، عن محمد بن عبد الأعلىٰ ، عن المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن حَنَش ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم لما خرج من مكة إلىٰ الغار - أراه[٣] قال[٤] : التفت[٥] إلىٰ مكة - وقال : « **أنت أحبّ بلاد الله إلىٰ الله ، وأنت أحب بلاد الله إليّ ، ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك** » .

---

(١٥) - رواه البخاري في " صحيحه " في كتاب الأطعمة ، باب : المؤمن يأكل في معي واحد حديث (٥٣٩٣،٥٣٩٤،٥٣٩٥) ومسلم في " صحيحه " كتاب الأشربة من حديث عبد الله بن عمر .

وقد ورد ذلك أيضًا من حديث أبي هريرة وأبي موسى وغيرهما .

(١٦) - ورواه ابن جرير في تفسيره (٤٨/٢٦) قال حدثنا ابن عبد الأعلى قال : ثنا المعتمر بن سليمان به .

ورواه أبو يعلى في مسنده الكبير كما في (المطالب العالية - النسخة المسندة) (٤١٠٣) قال : حدثنا حسن ابن عمر ثنا معتمر فذكره نحوه . وهذا إسناد رجاله ثقات غير أن حنش لا أدري من هو ، ولعله يكون حنش ابن المعتمر وهو مختلف في توثيقه ولا أراه يحتج به إلّا في المتابعات والشواهد .

والحديث ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٤/٦) وزاد نسبته لعبد بن حميد .

---

[١] - في ت : « وقال » .

[٢] - في ز، خ : « ذكره » .

[٣] - في ز ، خ : « وداراه » .

[٤] - سقط من : ز .

[٥] - في ز ، خ : « فالتفت » .

فأعدى الأعداء من عَدَا على الله في حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بذُحُول[١] الجاهلية ، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ **وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم** ﴾ .

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

يقول : ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه** ﴾ أي : على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه ، بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم ، وبما جَبَله الله عليه من الفطرة المستقيمة ، ﴿ **كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم** ﴾ أي : ليس هذا كهذا . كقوله : ﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى** ﴾ ، وكقوله: ﴿ **لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **مثل الجنة التي وعد المتقون** ﴾ . قال عكرمة : ﴿ **مثل الجنة** ﴾ أي : نعتها . ﴿ **فيها أنهار من ماء غير آسن** ﴾ . قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : يعني غير متغير . وقال قتادة ، والضحاك ، وعطاء الخراساني : غير منتن . والعرب تقول : أَسِنَ الماء إذا تَغَيَّر ريحه .

وفي حديث مرفوع أورده ابن أبي حاتم : ﴿ **غير آسن** ﴾ يعني : الصافي[٢] الذي لا كدر فيه .

وقال ابن أبي حاتم(١٧) : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق قال : قال عبد الله : أنهار الجنة تُفَجَّر من جبل من مسك .

﴿ **وأنهار من لبن لم يتغير طعمه** ﴾ أي : بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة . وفي حديث مرفوع : « **لم يخرج من ضُرُوع الماشية** » .

---

(١٧) - أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦٧/٨) والبيهقي في البعث والنشور (٢٩٣) من طريق الأعمش به . زأخرجه معمر في جامعه (٤١٦/١١ - المصنف) عن الأعمش عن ابن مرة عن مسروق قوله .

---

[١] - في ز،خ : « بدخول » . [٢] - في ز ، خ: « الصان » .

﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ أي : ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا ، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ، ﴿ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ ، ﴿ لا يصدعون عنها ولا يُنزِفون ﴾ ، ﴿ بيضاء لذة للشاربين ﴾ ، وفي حديث مرفوع : « لم تعصرها [الرجال بأقدامها »][١] .

﴿ وأنهار من عسل مصفًّى ﴾ أي : وهو في غاية الصفاء ، وحسن اللون والطعم والريح ، وفي حديث مرفوع : « لم يخرج من بطون النحل » .

وقال الإمام أحمد(١٨) : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا الجُرَيري ، عن حكيم [بن معاوية][٢] ، عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول : « في الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها بعد » .

ورواه الترمذي في « صفة الجنة » ، عن محمد بن بَشار[٣] ، عن يزيد بن هارون ، عن سعيد ابن إياس الجريري ، به . وقال : حسن صحيح .

وقال أبو بكر بن مردويه (١٩) : حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم ، حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا الحارث بن عبيد أبو[٤] قدامة الإِيادي ، حدثنا أبو عمران الجَوْني ، عن [أبي بكر][٥] بن عبد الله بن قيس ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « هذه الأنهار تَشخُبُ من جنة عدن في جوبة[٦] ثم تصدع بعد أنهارًا » .

وفي الصحيح (٢٠) : « إذا سألتم الله فاسألوه[٧] الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلىٰ الجنة ، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » .

(١٨) - المسند (٥/٥) (٢٠١٠٠) وأخرجه عبد بن حميد (٤١٠) والدارمي في الرقاق ، باب في أنهار الجنة (٢٨٣٦) والترمذي في كتاب صفة الجنة ، باب : ما جاء في صفة أنهار الجنة (٢٥٧١) من طريق الجريري به .

(١٩) - أخرجه الطيالسي (٥٣١) ، وأحمد (٤١٦/٤) من طريق الحارث به .

(٢٠) - أخرجه البخارى في كتاب التوحيد ، باب : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ ، حديث (٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز، خ .

[٣] - في ز، خ : « يسار » .

[٤] - في ز، خ : « بن » .

[٥] - ما بين المعكوفتين في ز، خ : « يزيد » .

[٦] - في ز : « حربة » .

[٧] - في ز : « فسلوه » .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيري ، وعبد الله بن الصقر السكري قالا : حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي[١] ، حدثنا عبد الرحمن ابن المغيرة ، حدثني عبد الرحمن بن عياش ، عن دلهم بن الأسود [بن عبد الله بن حاجب ابن عامر بن المنتفق العقيلي ، عن أبيه ، عن عمه لقيط بن عامر][٢] قال دلهم : وحدثنيه أيضًا أبي[٣] الأسودُ عن عاصم بن لقيط أن[٤] لقيط بن عامر خرج وافدًا إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، قلت : يا رسول الله ، فعلام نطلع من الجنة ؟ قال : « **علىٰ أنهار عسل مصفىٰ ، وأنهار من خمر ما بها صداع ولا ندامة[٥] ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه[٦] ، وماء غير آسن ، وفاكهة لعمر إلٰهك ما تعلمون وخير من مثله ، وأزواج مطهرة** » . قلت : يا رسول الله ، أو لنا فيها أزواج مصلحات ؟ قال : « **الصالحات للصالحين ، تلذونهن . مثل لذاتكم في الدنيا ويلذنكم[٧] ، غير أن لا توالد** » .

وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا : حدثنا يعقوب بن عبيدة ، عن يزيد بن هارون ، أخبرني الجريري ، عن معاوية بن قرة ، [عن أبيه][٨] عن أنس بن مالك قال : لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض ، والله إنها لتجري سائحة علىٰ وجه الأرض ، حافاتها قباب اللؤلؤ ، وطينها المسك الأذفر .

وقد رواه أبو بكر بن مَرْدُويه ، من حديث مهدي بن حكيم ، عن يزيد بن هارون ، به مرفوعًا .

وقوله : ﴿**ولهم فيها من كل الثمرات**﴾ . كقوله : ﴿ **يدعون فيها بكل فاكهة آمنين**﴾ وقوله : ﴿ **فيهما من كل فاكهة زوجان** ﴾ .

وقوله[٩] : ﴿**ومغفرة من ربهم**﴾ أي : مع ذلك كله . وقوله : ﴿ **كمن هو خالد في النار** ﴾ [أي : أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار ؟][١٠] ليس هؤلاء كهؤلاء ، أي[١١] : ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات ، ﴿ **وسُقوا ماءً حميمًا** ﴾ أي : حارًا شديد الحر ، لا يستطاع ﴿ **فقطّع أمعاءهم** ﴾ أي : قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء ، عياذًا بالله من ذلك !

---

[١] - في ز : « الحرامي » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٣] - في ز : « أبو » .
[٤] - في ز : « بن » .
[٥] - في ز : « بدلعة » .
[٦] - سقط من : ز .
[٧] - في ز : « ويلذوا بكم » .
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ.
[٩] - سقط من : ز، خ .
[١٠] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[١١] - سقط من : ز ، خ .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم ، حيث كانوا يجلسون إلىٰ رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئًا ، فإذا خرجوا من عنده ﴿ **قالوا للذين أوتوا العلم** ﴾ من الصحابة : ﴿ **ماذا قال آنفًا** ﴾ أي : الساعة ، لا يعقلون ما يقال ، ولا يكترثون له .

قال اللَّه تعالى : ﴿ **أولئك الذين طبع اللَّه على قلوبهم واتبعوا أهواءهم** ﴾ أي : فلا فهم صحيح ، ولا قصد صحيح .

ثم قال : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هُدًى** ﴾ أي : والذين[١] قصدوا الهداية وفقهم اللَّه لها فهداهم إليها ، وثبتهم عليها ، وزادهم منها ، ﴿ **وآتاهم تقواهم** ﴾ أي : ألهمهم رُشْدَهم .

وقوله : ﴿ **فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة** ﴾ أي : وهم غافلون عنها ، ﴿ **فقد جاء أشراطها** ﴾ أي : أمارات اقترابها ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **هذا نذير من النذر الأولىٰ * أزفت الآزفة** ﴾ و[٢]كقوله : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ ، وقوله : ﴿ **أتىٰ أمر اللَّه فلا تستعجلوه** ﴾ وقوله : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ ، فبعثة رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم من أشراط الساعة ؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل اللَّه به الدين ، وأقام به[٣] الحجة علىٰ العالمين . وقد أخبر صلوات اللَّه وسلامه عليه بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته [نبي قبله][٤] ، كما هو مبسوط في موضعه .

---

[١] - في ز ، خ : « والمؤمنين » . [٢] - سقط من : ز، خ .

[٣] - سقط من : خ .

[٤] - ما بين المعكوفتين في ز، خ : « بنى قبله » .

وقال الحسن البصري : بعثة محمد صلىٰ اللّه عليه وسلم من أشراط الساعة . وهو كما قال ، ولهذا جاء في أسمائه - عليه السلام - أنه نبي التوبة ، ونبي الملحمة ، والحاشر الذي يُحشَر الناس علىٰ قدميه ، والعاقب الذي ليس بعده نبي .

وقال البخاري(٢١) : حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا أبو حازم[١]، حدثنا سهل بن سعد قال: رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال بأصبعيه هكذا - بالوسطىٰ والتي تليها -: **« بعثت أنا والساعة كهاتين »**.

ثم قال تعالىٰ : **﴿ فأنّىٰ لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾** أي : فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة ، حيث لا ينفعهم ذلك . كقوله تعالىٰ : **﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنىٰ له الذكرىٰ ﴾** **﴿وقالوا آمنا به وأنّىٰ لهم التناوش من مكان بعيد﴾**، وقوله : **﴿ فاعلم أنه لا إله إلا اللّه ﴾** : هذا إخبار بأنه لا إله إلا اللّه ، ولا يتأتىٰ كونه آمرًا بعلم ذلك ؛ ولهذا عطف عليه بقوله : **﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾** .

وفي الصحيح(٢٢) أن رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم كان يقول : **« اللّهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني . اللّهم اغفر لي هَزْلي وجدي ، وخَطَئي وعَمْدي ، وكل ذلك عندي »** .

وفي الصحيح(٢٣) أنه كان يقول في آخر الصلاة : **« اللّهم؛ اغفر لي ما قدمتُ وما أخرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، وما أسرفتُ ، وما أنت أعلم به مني ، أنت إلٰهي لا إله إلا أنت »** .

وفي الصحيح(٢٤) أنه قال : **« يا أيها الناس ، توبوا إلىٰ ربكم فإني أستغفر اللّه وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة »** .

(٢١) - صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، حديث (٤٩٣٦) ، والحديث تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف الآية (١٨٧) .

(٢٢) - أخرجه البخاري في الدعوات ، باب : قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت » حديث (٦٣٩٨،٦٣٩٩) ، ومسلم في الذكر والدعاء ، حديث (٢٧١٩) من حديث أبى موسى الأشعري .

(٢٣) - جزء من حديث أخرجه مسلم في صلاة المسافر وقصرها ، حديث (٧٧١) من حديث على بن أبى طالب .

(٢٤) - أخرجه البخارى في صحيحه في الدعوات ، باب : استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة ، حديث (٦٣٠٧) من حديث أبى سلمة عن أبى هريرة ،

[١] - في ز ، خ : « رجاء » .

وقال الإمام أحمد(٢٥) : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عاصم الأحول قال : سمعت عبد اللّٰه بن سَرْجس قال : أتيتُ رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم فأكلت معه من طعامه[١] فقلت : غفر اللّٰه لك يا رسول اللّٰه ؛ [قال : «ولك»][٢] فقلت : أستغفر لك ؟ [فقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم][٣] : « **نعم ، ولكم** » . وقرأ : ﴿ **واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ ثم نظرت إلىٰ نُغْض كتفه الأيمن أو كتفه الأيسر - شعبة الذي شك - فإذا هو كهيئة الجُمع عليه الثآليل .

رواه مسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم من طرق عن عاصم الأحول به .

وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو يعلىٰ (٢٦) : حدثنا محمد بن عون ، حدثنا عثمان بن مطر ، حدثنا عبد الغفور ، عن أبي نَصِيرَةَ ، عن أبي رجاء ، عن أبي بكر الصديق - رضي اللّٰه عنه - عن رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم أنه قال : « **عليكم بلا إله إلا اللّٰه والاستغفار ، فأكثروا منهما**[٤] ، **فإن إبليس قال : أهلكتُ الناس بالذنوب ، وأهلكوني بـ : لا إله إلا اللّٰه ، والاستغفار . فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون** » .

وفي الأثر المروي : « **قال إبليس : وعزتك وجلالك**[٥] **لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم . فقال اللّٰه عز وجل : وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني** » والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جدًّا .

وقوله : ﴿ **واللّٰه يعلم متقلبكم ومثواكم** ﴾ أي : يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم ، كقوله : ﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار** ﴾ . وكقوله : ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا على اللّٰه رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين** ﴾ وهذا القول ذهب إليه ابن جريج وهو اختيار ابن جرير . وعن ابن عباس : متقلبكم في الدنيا ، ومثواكم في الآخرة .

---

(٢٥) - المسند (٨٢/٥) ، ومسلم في الفضائل ، حديث (٢٣٤٦) ، والترمذي في الشمائل (٢٣) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٩٥،٤٢١،٤٢٢) ، والطبري في تفسيره (٥٤/٢٦) من طرق عن عاصم الأحول به.

(٢٦) - مسند أبي يعلى (١٣٦) .

---

[١] - في ز ، خ : « طعام » .

[٢] - ما بين المعكوفتين زيادة من : ز .

[٣] - ما بين المعكوفتين زيادة من : ز .

[٤] - في ز ، خ : « منها » .

[٥] - سقط من : ز ، خ .

وقال السدي: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في قبوركم.

والأول أولىٰ وأظهر، والله أعلم.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله - عز وجل - وأمر به نَكَل عنه كثير من الناس، كقوله تعالىٰ: ﴿**ألم تر إلىٰ الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كُتبَ عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلىٰ أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقىٰ ولا تظلمون فتيلًا**﴾.

وقال هاهنا: ﴿**ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة**﴾ أي: مشتملة علىٰ حُكم القتال، ولهذا قال: ﴿**فإذا أنزلت سورة محكمة وذُكِرَ فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت**﴾ أي: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء.

ثم قال مشجعًا لهم: ﴿**فأولىٰ لهم * طاعة وقول معروف**﴾ أي: وكان الأولىٰ بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي: في الحالة الراهنة، ﴿**فإذا عزم الأمر**﴾ أي: جد الحال، وحضر القتال، ﴿**فلو صدقوا الله**﴾ أي: أخلصوا له النية، ﴿**لكان خيرًا لهم**﴾.

وقوله: ﴿**فهل عَسَيتم إن توليتم**﴾ أي: عن الجهاد ونَكَلتم عنه، ﴿**أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم**﴾ أي: تعودوا إلىٰ ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام، ولهذا قال: ﴿**أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمىٰ أبصارهم**﴾. وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا، بل قد أمر تعالىٰ بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلىٰ الأقارب في المقال والفعال وبذل الأموال. وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، من طرق عديدة، ووجوه كثيرة.

قال البخاري(٢٧) : حدثنا خالد بن مَخْلَد ، حدثنا سليمان ، حدثني معاوية بن أبي مُزَرِّد ، عن سعيد بن يَسَار ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلىٰ اللّه عليه وسلم قال : « **خلق اللّه الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحَقْو[١] الرحمن – عز وجل – فقال : مه ! فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلىٰ . قال : فذاك . قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾** .

ثم رواه البخاري من طريقين آخرين ، عن معاوية بن أبي مُزَرِّد به . [ ][٢] قال رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم : « **اقرءوا إن شئتم : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾** » . ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبي مُزَرِّد به .

وقال الإمام أحمد (٢٨) : حدثنا إسماعيل ، أخبرنا[٣] عُيَيْنة بن عبد الرحمن بن جَوْشَن ، عن أبيه ، عن أبي بَكْرَةَ قال : قال رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم : « **ما من ذنب أحرىٰ أن يعجل اللّه عقوبته في الدنيا ، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة ، من البغي وقطيعة الرحم** » رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة ، من حديث إسماعيل – هو ابن عُلَيَّة – به . وقال الترمذي : هذا حديث صحيح .

وقال الإمام أحمد(٢٩) : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ميمون أبو محمد المرئي[٤] ، حدثنا محمد ابن عباد المخزومي عن ثوبان عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « **من سرَّه النَّساء في الأجل ، والزيادة في الرزق فليصل رحمه** » . تفرد به أحمد ، وله شاهد في الصحيح .

وقال أحمد أيضًا (٣٠) : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حَجَّاج بن أرطاة ، عن عمرو بن

---

(٢٧) – صحيح البخاري في التفسير ، باب ﴿وتقطعوا أرحامكم﴾ ، حديث (٤٨٣٠) ، وأطرافه فى (٤٨٣١، ٤٨٣٢، ٥٩٨٧، ٧٥٠٢) وأخرجه مسلم فى البر والصلة والآداب ، حديث (٢٥٥٤) من طريق معاوية بن أبى مزرد به .

(٢٨) – المسند (٥/٣٨) (٢٠٤٥١) ، وأخرجه أحمد (٥/٣٦) (٢٠٤٢٦) والبخارى في الأدب المفرد (٢٩، ٦٧) ، وأبو داود في الأدب ، باب : في النهى عن البغي ، حديث (٤٩٠٢) ، والترمذى في صفة القيامة ، حديث (٢٥١١) ، وابن ماجه في الزهد ، باب البغي ، حديث (٤٢١١) من طريق عن عيينة به .

(٢٩) – المسند (٥/٢٧٩) (٢٢٥٠١) .

(٣٠) – المسند (٢/١٨١، ٢٠٨) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/١٥٧) : رواه أحمد وفيه حجاج =

---

[١] – بياض في : ز ، خ.
[٢] – ما بين المعكوفتين في خ : « قال » .
[٣] – في ز ، خ : « بن » .
[٤] – في ز ، خ : « المرائى » .

شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن لي ذوي أرحام ، أصل ويقطعون ، وأعفو ويظلمون ، وأحسن ويسيئون ، أفأكافئهم[١] ؟ قال : « **لا ، إذن تتركون[٢] جميعًا ، ولكن جُدْ بالفضل وصلهم ، فإنه لن يزال معك ظهير من الله -عز وجل- ما كنت على ذلك** » . تفرد به من هذا الوجه ، وله شاهد من وجه آخر .

وقال الإمام أحمد (٣١) : حدثنا يعلىٰ ، حدثنا فطْر[٣] ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ[٤] ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت -رحمه وصلها** » . رواه البخاري .

وقال أحمد (٣٢) : حدثنا بهز ، حدثنا حمَّاد بن سلمة ، أخبرنا قتادة ، عن أبي ثُمَامَة الثقفي ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **تُوضَعُ الرَّحِمُ يوم القيامة لها حُجْنَة[٥] كحُجنَة[٦] المغزل تكلَّم بلسانٍ طَلَقٍ ذَلَقٍ ، فتصل من وصلها وتقطع من قطعها** » .

وقال الإمام أحمد(٣٣) : حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ، عن أبي قابوس ، عن عبد الله بن عمرو - يبلغُ به النبي صلىٰ الله عليه وسلم - قال : « **الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء ، والرحم شُجْنَةٌ[٧](*) مِنَ الرحمن ، من وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته[٨]** » .

= ابن أرطاة وهو مدلس وبقية رجاله ثقات .

(٣١) - المسند (١٦٣/٢) ، وأخرجه أيضاً في (١٩٠/٢) من طريق الحسن بن عمرو عن مجاهد به .
وأخرجه البخارى في الأدب ، باب : ليس الواصل بالمكافىء ، حديث (٥٩٩١) من طريق الحسن ، وفطر عن مجاهد به .

(٣٢) - المسند (١٨٩/٢) وفيه قال أحمد : حدثنا بهز ، وعفان قالا : حدثنا حماد ..... فذكره ، وأخرجه فى (٢٠٩/٢) عن روح ، عن حماد به ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٣/٨) : رجاله رجال الصحيح غير أبى ثمامة الثقفي وثقه ابن حبان .

(٣٣) - المسند (١٦٠/٢) وأخرجه الحميدي (٥٩١،٥٩٢) ، وأبو داود في الأدب ، باب في الرحمة ، حديث (٤٩٤١) ، والترمذي فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى رحمة المسلمين ، حديث (١٩٢٤) من سفيان به .

---

[١] - في ز ، خ: « أنكافئهم » .
[٢] - في ز ، خ: « يتركون » .
[٣] - في ز : « تطر » .
[٤] - في ز ، خ: « بالمكان » .
[٥] - في خ : « حجبة » .
[٦] - في ز ، خ : « كمحجبة » .
[٧] - في ز : « محة » ، خ : « منتحتة » .
[٨] - في ز، خ : « بتته » .

وقد رواه أبو داود والترمذي ، من حديث سفيان[١] بن عُيَيْنة ، عن عمرو بن دينار ، به[٢] . وهذا هو الذي يروىٰ بتسلسل الأوّلية وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد(٣٤) : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا هشام الدستوائي ، عن يحيىٰ بن أبي كثير ، عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ[٣] : أن أباه حدثه أنه دخل علىٰ عبد الرحمن بن عوف وهو مريض ، فقال له [عبد الرحمن][٤] : وصلتك رَحِمٌ ، إن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : « **قال الله -عز وجل- : أنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها من اسمي ، فمن يصلها[٥] أصله ، ومن يقطعها أقطعه فأبته - أو قال: من يبتها[٦] أبته** ». تفرد به من هذا الوجه .

ورواه أحمد أيضًا من حديث الزهري ، عن أبي سلمة ، عن الرَّدَّاد[٧] - أو أبي الرَّدَّاد[٨] - عن عبد الرحمن بن عوف به .

ورواه أبو داود والترمذي ، من رواية أبي سلمة ، عن أبيه .

والأحاديث في هذا كثيرة .

وقال الطبراني[٩](٣٥) : حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا محمد بن عمار الموصلي ، حدثنا عيسىٰ ابن يونس ، عن الحجاج بن يونس ، عن[١٠] الحجاج بن الفُرَافِصَة ، عن أبي عمر البصري ، عن سليمان؛ قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف** ».

---

(٣٤) - المسند (١/١٩١،١٩٤) ، وأخرجه أحمد في المسند (١/١٩٤) والبخارى في الأدب المفرد (٥٣) وأبو داود في الأدب ، باب : في صلة الرحم ، حديث (١٦٩٥) من طرق عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى الدرداء عن عبدالرحمن بن عوف .

وأخرجه الحميدى (٦٥) وأحمد (١/١٩٤) ، وأبو داود في الأدب حديث (١٦٩٤) ، والترمذى في البر والصلة ، باب : في قطيعة الرحم حديث (١٩٠٧) والبيهقي في الآداب (١١) من طرق عن سفيان بن عيينة عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبيه .

(٣٥) - معجم الطبراني الكبير (٦١٦٩) ، وهو في الأوسط (١٥٧٧) .

---

[١] - في ز ، خ : « شقيق » .

[٢] - سقط من : ز ، خ .

[٣] - في ز، خ : « فارض » .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٥] - في ز ، خ : « وصلها » .

[٦] - في ز ، خ : « سبها » .

[٧] - في ز ، خ : « المرداد » .

[٨] - في ز ، خ : « المرداد » .

[٩] - في ز ، خ : « الظهرانى » .

[١٠] - سقط من : ز،خ .

وبه قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم(٣٦) : « **إذا ظهر القول ، وخزن العمل ، وائتلفت الألسنة ، وتباغضت القلوب ، وقطع كل ذي رحم رحمه ، فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمىٰ أبصارهم** » .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾

يقول تعالىٰ آمرًا بتدبر القرآن وتفهمه ، وناهيًا عن الإعراض عنه ، فقال : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم علىٰ قلوب أقفالها** ﴾ أي : بل علىٰ قلوب أقفالها ، فهي[١] مُطْبَقَةٌ[٢] لا يخلص إليها شيء من معانيه .

قال ابن جرير(٣٧) : حدثنا بشر ؛ [قال : حدثنا يزيد ؛ قال : حدثنا سعيد ؛ قال][٣] : حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ؛ قال : تلا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يومًا : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم علىٰ قلوب أقفالها** ﴾ فقال شابٌّ من أهل اليمن : بل عليها أقفالها حتىٰ [يكون الله - عز وجل -][٤] يفتحها أو يفرجها . فما زال الشاب في نفس عمر [رضي الله عنه] حتى ولي فاستعان به .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **إن الذين ارتدوا علىٰ أدبارهم** ﴾ أي : فارقوا الإيمان ورجعوا إلىٰ

(٣٦) - أي بنفس إسناد الطبراني ، وهو في المعجم الكبير (٦١٧٠) ، والأوسط (١٥٧٨) وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠٩/٣) من طريق محمد بن عبدالله بن عمارة به ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٩٠) : فيه جماعة لم أعرفهم .

(٣٧) - تفسير الطبرى (٥٨/٢٦) ، وعزاه السيوطى في الدر المنثور (٧٣/٦) إلى إسحاق بن راهويه وابن المنذر وابن مردويه .

[١] - في ز ، خ : « أي » .

[٢] - في ز ، خ: « مطبعة » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

الكفر ، ﴿ **من بعد ما تبين لهم الهدىٰ الشيطان سول لهم** ﴾ أي : زين لهم ذلك وَحسّنَه ، ﴿ **وأملىٰ لهم** ﴾ أي : غرّهم وخدعهم ، ﴿ **ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل اللَّه سنطيعكم في بعض الأمر** ﴾ أي : مالئوهم وناصحوهم في الباطن علىٰ الباطل ، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال اللَّه عز وجل : ﴿ **واللَّه يعلم إسرارهم** ﴾ أي : ما يسرون وما يخفون ، اللَّه مطلع عليه وعالم به ، كقوله : ﴿ **واللَّه يكتب ما يبيتون** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ أي : كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض[١] أرواحهم ، وتَعَصَّت الأرواح في أجسادهم ، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب ، كما قال : ﴿ **ولو ترىٰ إذ يتوفىٰ الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوههم وأدبارهم...** ﴾ الآية . وقال : ﴿ **ولو ترىٰ إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكةُ باسطو أيديهم** ﴾ أي : بالضرب ﴿ **أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون علىٰ اللَّه غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾ . ولهذا قال هاهنا : ﴿ **ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط اللَّه وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم** ﴾ .

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج اللَّه أضغانهم** ﴾ أي : اعتقَدَ المنافقون أن اللَّه لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ؟ ! بل سيوضح أمرهم ويجليه حتىٰ يفهمهم ذوو البصائر ، وقد أنزل اللَّه[٢] تعالىٰ في ذلك سورة « براءة » ، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة علىٰ نفاقهم ؛ ولهذا إنما كانت تسمىٰ الفاضحة . والأضغان : جمع ضغن ، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره .

وقوله : ﴿ **ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم** ﴾ يقول تعالىٰ : ولو نشاء - يا محمد - لأريناك أشخاصهم ، فعرفتهم عيانًا ، ولكن لم يفعل تعالىٰ ذلك[٣] في جميع المنافقين سترًا منه علىٰ خلقه ، وحملًا للأمور علىٰ ظاهر السلامة ، وردّ السرائر إلىٰ عالمها ، ﴿ **ولتعرفنهم في لحن القول** ﴾ أي : فيما يبدو من كلامهم الدال علىٰ مقاصدهم ، يفهم

---

[١] - في خ : « لتقيض » . [٢] - سقط من : ز ، خ .

[٣] - سقط من : ز ، خ .

المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول ، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه- : ما أسَرَّ أحد سريرة إلا أبداها الله علىٰ صفحات[١] وجهه ، وفلتات لسانه (٣٨) .

وفي الحديث (٣٩) : « **ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها ؛ إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر** » . وقد ذكرنا ما يستدل به علىٰ نفاق الرجل ، وتكلمنا علىٰ نفاق العمل والاعتقاد في أول « **شرح البخاري** » ، بما أغنىٰ عن إعادته هاهنا . [وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين][٢] .

قال الإمام أحمد(٤٠) : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن سلمة ، عن عياض بن عياض ، عن أبيه ، عن أبي[٣] مسعود عقبة بن عمرو -رضي الله عنه- قال : خَطَبَنا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم خطبةً فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال : « **إن منكم منافقين ، فمن سميت فليقم . ثم قال : قم يا فلان ، قم[٤] يا فلان ، قم[٥] يا فلان - حتىٰ سمىٰ ستة وثلاثين رجلًا - ثم قال : إن فيكم - أو : منكم - فاتقوا الله** » . قال[٦] : فمر عمر برجل ممن سمىٰ مُقَنَّع قد كان يعرفه ، فقال : مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، فقال : بعدًا لك سائر اليوم .

وقوله : ﴿ **ولنبلونكم** ﴾ أي : ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي ، ﴿ **حتىٰ نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم** ﴾ . وليس في تَقَدّم علم الله تعالىٰ بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب ، فالمراد : حتىٰ نعلم وقوعه ؛ ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا : إلا لنعلم ، أي : لنرىٰ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ

(٣٨) - انظر سورة الفتح الآية (٢٩) .

(٣٩) - انظر سورة الفتح الآية (٢٩) .

(٤٠) - المسند (٥/٢٧٣)(٢٢٤٤٩ ، ٢٢٤٥٠) ، وعبد بن حميد (٢٣٧ - منتخب) عن أبي نعيم عن سفيان به . والحديث أخرجه الطبراني في الكبير (١٧ / ٢٤٦ / رقم: ٦٨٧) . من نفس طريق أحمد . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١ / ١١٢) وعزاه لأحمد والطبراني في الكبير وقال: « وفيه عياض بن عياض عن أبيه ، ولم أر من ترجمهما » .

[١] - في خ : « صفحة » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٣] - في ز ، خ : « ابن » .

[٤] - في ز ، خ : « ثم » .

[٥] - في ز ، خ : « ثم » .

[٦] - سقط من : خ .

لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالىٰ عمن كفر وصد عن سبيل الله ، وخالف الرسول وشاقه ، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدىٰ أنه لن يضر الله شيئًا ، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها ، وسيحبط الله عمله ، فلا يثيبه علىٰ سالف ما تقدم من عمله الذي عَقَّبه بردته مثقال بعوضة من خير ، بل يحبطه ويمحقه بالكلية ، كما أن الحسنات يذهبن السيئات .

وقد قال الإمام محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة(*) : حدثنا أبو قدامة ، حدثنا وكيع ، حدثنا أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ؛ قال : كان أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يظنون أنه لا يضر مع « لا إله إلا الله » ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل ، فنزلت : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ . فخافوا أن يبطل الذنب العمل .

ثم روي من طريق عبد الله بن المبارك ، أخبرني بُكَير[١] بن معروف ، عن مقاتل بن حيان ، عن نافع ، عن ابن عمر ؛ قال : كنا معشر أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم نرىٰ أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتىٰ نزلت : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ . فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش ، حتىٰ نزلت : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ . فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك ، فكنا نخاف علىٰ مَنْ أصاب الكبائر والفواحش ، ونرجو لمن لم يصبها .

ثم أمر تعالىٰ [عباده المؤمنين][٢] بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة ، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال ؛ ولهذا قال : ﴿ **ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ أي : بالردة ؛ ولهذا قال بعدها : ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم** ﴾ كقوله : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ...** ﴾ . الآية .

---

[١] - في ز، خ : « بكر » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

ثم قال لعباده المؤمنين : ﴿ فلا تهنوا ﴾ أي : لا[١] تضعفوا عن الأعداء ، ﴿ وتدعوا إلىٰ السلم ﴾ أي : المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عَدَدِكم وعُدَدِكُمْ ؛ ولهذا قال : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلىٰ السلم وأنتم الأعلون ﴾ أي : في حال علوكم على عدوكم ، فأما إذا كان الكفار فيهم[٢] قوة[٣] وكثرة بالنسبة إلىٰ جميع المسلمين ، ورأىٰ الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم حين صدَّه كفار قريش عن مكة ، ودَعوه إلىٰ الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم إلىٰ ذلك .

وقوله : ﴿ واللّٰه معكم ﴾ : فيه بشارة عظيمة بالنصر[٤] والظفر علىٰ الأعداء ، ﴿ ولن يتركم أعمالكم ﴾ أي : ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم[٥] إياها ، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئًا .

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾

يقول تعالىٰ تحقيرًا لأمر الدنيا وتهوينًا لشأنها : ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ أي : حاصلها ذلك إلا ما كان منها[٦] للّٰه - عز وجل - ولهذا قال : ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴾ أي : هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئًا ، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساةً لإخوانكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك عليكم ، ويرجع ثوابه إليكم .

ثم قال : ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ﴾ أي : يحوجكم[٧] تبخلوا : ﴿ ويخرج أضغانكم ﴾ .

---

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - في ز ، خ: « فيه » .
[٣] - سقط من : ز، خ .
[٤] - في ز ، خ: « في النصر » .
[٥] - في ز، خ : ويسليكم .
[٦] - في خ : « فيها » .
[٧] - في ت : « يخرجكم » .

قال قتادة : قد علم الله أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان . وصدق قتادة فإن المال محبوب ، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلىٰ الشخص منه .

وقوله : ﴿ **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل** ﴾ أي : لا يجيب إلىٰ ذلك ، ﴿ **ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه** ﴾ أي : إنما نَقَص نفسَه من الأجر ، وإنما يعود وبال ذلك عليه ، ﴿ **والله الغني** ﴾ أي : عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير إليه[١] دائمًا ؛ ولهذا قال : ﴿ **وأنتم الفقراء** ﴾ أي : بالذات إليه . فوصفُهُ بالغنىٰ وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم ، لا ينفكون عنه[٢] .

وقوله : ﴿ **وإن تتولوا** ﴾ أي : عن طاعته واتباع شرعه ﴿ **يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ أي : ولكن يكونون[٣] سامعين مطيعين له ولأوامره .

وقال ابن أبي حاتم ، وابن جرير (٤١) : حدثنا يونس بن عبد الأعلىٰ ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني مسلم[٤] بن خالد ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم تلا هذه الآية : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ . قالوا : يا رسول الله ؛ من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : فضرب بيده[٥] علىٰ كتف سلمان الفارسي ثم قال : « **هذا وقومه ، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس** » .

تفرد به مسلم بن خالد الزنجي ، ورواه عنه غير واحد ، وقد تكلّم فيه بعض الأئمة ، والله أعلم .

آخر تفسير سورة القتال[٦] .

☆ ☆ ☆

(٤١) - تفسير الطبرى (٦٦/٢٦، ٦٧) ، وعزاه السيوطى أيضاً في الدر المنثور (٧٤/٦) إلى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه .

[١] - سقط من : ز ، خ .

[٢] - في ز ، خ : « منه » .

[٣] - بياض في : ز .

[٤] - في ز : « مسلمة » .

[٥] - في ز : « يده » .

[٦] - في ت : « محمد » .

سورة محمّد عليه السلام

مدنيّة،[1] وقيل:[2] مكّيّة، وهي[3] تسع[4] وثلاثون آيةً،[5]
وقيل: ثمانٍ وثلاثون.[6] وتسمّى سورة القتال أيضًا.[7]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرضوا عن الإسلام وسلوكِ طريقه، مِن "صَدَّ صُدودًا"، أو مَنعوا الناس عن ذلك، مِن "صَدَّه صَدًّا"، كالمُطعِمين يوم بدر.[8] وقيل: هم اثنا عشر رجلًا مِن أهل الشرك، كانوا يصدّون الناس عن الإسلام، ويأمرونهم بالكفر. وقيل: أهل الكتاب الذين كفروا وصدّوا مَن أراد منهم ومِن غيرهم أن يدخل في الإسلام. وقيل: هو عامّ في كلّ مَن كفَر وصدّ.

﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: أبطلَها وأحبطَها، وجعلها ضائعةً لا أثَرَ لها أصلًا، لكن لا بمعنى أنّه أبطلَها وأحبطَها بعد أن لم يكن كذلك؛ بل بمعنى أنّه حكم ببطلانها وضَياعها، فإنّ ما كانوا يعملونها مِن أعمال البرّ كصِلة الأرحام وقِرى الأضياف وفكِّ الأسارى وغيرِها مِن المكارم ليس لها أثَر مِن أصلها؛ لعدم مقارنتها للإيمان، أو أبطلَ ما عملوه مِن الكيد لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---

١ س + عند مجاهد. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٤/٤.

٢ س: وقال الضحّاك وسعيد بن جبير. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٤/٤.

٣ ي - مدنيّة، وقيل: مكّيّة، وهي.

٤ ي: سبع. | و"تسع" أصحّ. قال الداني: «وهي ثلاثون وثماني آيات في الكوفي، وتسع في المدنيّين والمكّي والشامي، وأربعون آيةً في البصري». البيان للداني، ص ٢٢٨.

٥ س ي - آية.

٦ س + آية؛ ي + آية مدنيّة.

٧ س ي - وتسمّى سورة القتال أيضًا.

٨ المطعِمون يومَ بدر اثنا عشر رجلًا، كلّهم مِن قريش، كان يطعم كلّ واحد منهم عشرَ جزر. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٥٥/٤ (الأنفال، ٣٦/٨)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤٥٨/٢ (الأنفال، ٣٦/٨).

والصدِّ عن سبيله بنصر رسوله وإظهارِ دينه على الدّين كلّه. وهو الأوفق لِما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾،[1] وقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾... إلخ.[2]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قيل: هم ناسٌ مِن قريش. وقيل: مِن الأنصار. وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب. / وقيل: عامٌ للكلّ. ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ خُصّ بالذكر الإيمانُ بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويهًا بشأنه، وتنبيهًا على سموّ مكانه مِن بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنّه الأصل في الكلّ، ولذلك أُكِّد بقوله تعالى:[3] ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ بطريق حصر الحقّيّة فيه. وقيل: حقّيّته بكونه ناسخًا غيرَ منسوخ، فـ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ على هذا مقابل الزائل، وعلى الأوّل مقابل الباطل. وأيًا ما كان فقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ حال مِن ضمير ﴿ٱلۡحَقُّ﴾. وقُرئ: "نَزَّلَ"[4] على البناء للفاعل، و"أنزلَ" على البناءَين،[5] و"نَزَلَ" بالتخفيف.[6] [٩٦و]

﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ أي: سترها بالإيمان والعمل الصالح، ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ أي: حالَهم في الدين والدنيا بالتأييد والتوفيق.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ۝٣﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرّ مِن إضلال الأعمال، وتكفيرِ السيّئات، وإصلاحِ البال. وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

[1] محمد، ٨/٤٧.

[2] محمد، ٤/٤٧.

[3] م - تعالى.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن مقسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

[5] "أَنزَلَ" قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. و"أُنزِلَ" قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٩/٩.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

﴿ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ذلك كائن بسبب أنّ الأوّلين اتّبعوا الشيطان -كما قاله مجاهد-[١] ففعلوا ما فعلوا مِن الكفر والصدّ. فبيان سببيّة اتّباعه للإضلال المذكور متضمِّن لبيان سببيّتهما له، لكونه أصلًا مستتبِعًا لهما قطعًا. وبسبب أنّ الآخرين اتّبعوا الحقّ الذي لا محيدَ عنه كائنًا مِن ربّهم، ففعلوا ما فعلوا مِن الإيمان به وبكتابه، ومِن الأعمال الصالحة. فبيان سببيّة اتّباعه لِما ذُكر مِن التكفير والإصلاح بعد الإشعار بسببيّة الإيمان والعمل الصالح له متضمِّن لبيان سببيّتهما له، لكونه مَبدأً ومَنشأً لهما حتمًا، فلا تدافُعَ بين الإشعار والتصريح في شيء مِن الموضعين.

ويجوز أن يُحمل ﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ على ما يقابل "الحقّ"؛ وهو الزائل الذاهب الذي لا أصلَ له أصلًا، فالتصريح بسببيّة اتّباعه لإضلال أعمالهم وإبطالِها لبيان أنّ إبطالها لبطلان مَبناها وزوالِه.

وأمّا حملُه على ما لا يُنتفَع به[٢] فليس كما ينبغي، لِما أنّ الكفر والصدّ أفحشُ منه، فلا وجهَ للتصريح بسببيّته لِما ذُكر[٣] بطريق القَصر بعد الإشعار بسببيّتهما له، فتدبّر.

ويجوز / أن يرادَ بـ﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ نفسُ الكفر والصدّ، وبـ﴿ٱلْحَقَّ﴾ نفسُ الإيمان [٩٦ظ]
والأعمال الصالحة، فيكونَ التنصيص على سببيّتهما لِما ذُكر مِن الإضلال ومِن التكفير والإصلاح تصريحًا بالسببيّة المشعَر بها في الموقعين.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثلَ ذلك الضرب البديع ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي: يُبيّن ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: أحوالَ الفريقين وأوصافَهما الجاريةَ في الغرابة مَجرى الأمثال، وهي اتّباع الأوّلين الباطلَ وخيبتُهم وخسرانُهم، واتّباع الآخرين الحقَّ وفوزُهم وفلاحُهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ④﴾

---

١ جامع البيان للطبري، ٢١/١٨٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣١٥.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٣١٥.

٣ وفي هامش م: مِن إضلال أعمالهم. «منه».

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لترتيب ما في حيّزها مِن الأمر على ما قبلها، فإنّ ضلال أعمال الكفرة وخيبتَهم، وصلاحَ أحوال المؤمنين وفلاحَهم؛ ممّا يوجب أن يُرتَّب[١] على كلٍّ مِن الجانبَين ما يَليق به مِن الأحكام، أي: فإذا كان الأمر كما ذُكر فإذا لقيتموهم في المحاربة ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أصلُه: "فاضربوا الرِّقاب ضربًا"، فحُذف الفعل، وقُدّم المصدر، وأُنيبَ منابَه مضافًا إلى المفعول، وفيه اختصار وتأكيد بليغ. والتعبير به عن القتل تصويرٌ له بأشنع صُوَرِه، وتهويلٌ لأمره، وإرشادٌ للغزاة إلى أيسر ما يكون منه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أي: أكثرتم قَتلَهم، وأغلظتموه، مِن "الشيء الثَّخِين"، وهو الغليظ، أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتّى أذهبتم عنهم النهوضَ، ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ فأسِرُوهم واحفَظوهم. و﴿ٱلۡوَثَاقَ﴾ اسم لما يوثَق به، وكذا "الۡوِثَاقَ" بالكسر، وقد قُرئ بذلك.[٢]

﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: فإمّا تَمنُّون بعد ذلك مَنًّا، أو تَفْدُون فِداءً. والمعنى التخيير بين القتل والاسترقاق والمَنّ والفداء، وهذا ثابت عند الشافعي رحمه الله،[٣] وعندنا منسوخ،[٤] قالوا: نزَل ذلك يوم بدر، ثمّ نُسخ، والحُكم إمّا القتل أو الاسترقاق. وعن مجاهد: «ليس اليوم مَنٌّ ولا فِداء، إنّما[٥] هو الإسلام أو ضرب العنُق».[٦] وقُرئ: "فَدًا"[٧] كـ"عَصًا".

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ أوزارُ الحرب: آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلّا بها مِن السلاح والكراع. أُسنِد وضعها إليها وهو لأهلها / إسنادًا مجازيًّا. [٩٧و]

---

١ س: يترتّب.

٢ لم أجد مَن صرّح بأنّها قراءة غير المؤلّف، وظاهر كلام المفسّرين أنّها لغة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٦/٤؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٢٠/٥؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٦١/٩.

٣ انظر: **الأمّ** للشافعي، ١٨٧/٤؛ **والحاوي الكبير** للماوردي، ٤٠٩/٨.

٤ انظر: **المبسوط** للسرخسي، ٢٤/١٠؛ ١٣٨/١٠؛ **والدرّ المختار** للحصكفي **وحاشية ابن عابدين**، ١٣٩/٤.

٥ س ي: وإنّما.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٦/٤. وانظر: **مصنّف عبد الرزّاق**، ٢١٠/٥ (٩٤٠٤).

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محَيصن وشِبل عن ابن كثير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٩.

و﴿حَتَّىٰ﴾ غاية عند الشافعي رحمه الله لأحد الأمور الأربعة، أو للمجموع، والمعنى: أنّهم لا يزالون على ذلك أبدًا إلى أن لا يكون مع المشركين حرب بأن لا تبقى لهم شَوكة. وقيل: بأن ينزل عيسى عليه السلام.[١]

وأمّا عند أبي حنيفة رضي الله عنه[٢] فإن حُمِلَ الحربُ على حرب بدر فهي غاية للمَنّ والفداء، والمعنى: يُمَنّ عليهم ويُفادَون حتّى تضع حربُ بدرٍ أوزارَها، وإن حُمِلَت على الجنس فهي غاية للضرب والشدّ، والمعنى: أنّهم يُقتَلون ويُؤسَرون حتّى يضع جنس الحرب أوزارَها بأن لا يبقى للمشركين شَوكة.

وقيل: ﴿أَوْزَارَهَا﴾ آثامها، أي: حتّى يترك المشركون شِركَهم ومعاصِيَهم بأن أسلموا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ[٣] ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لَانتقَمَ منهم ببعض أسباب الهلَكة والاستئصال، ﴿وَلَٰكِن﴾ لم يشأ ذلك ﴿لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ فأمرَكم بالقتال، وبَلاكم بالكافرين لتجاهدوهم فتستوجبوا الثواب العظيم بموجَب الوعد، والكافرين بكم ليعاجلَهم على أيديكم ببعض عذابهم كي يرتدع بعضهم عن الكفر.

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: استُشهِدوا. وقُرئ: "قَاتَلُوا"،[٤] أي: جاهَدوا وقُتِلوا وقَتَلوا. ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: فلَن يُضيِّعَها. وقُرئ: "تُضَلَّ أَعْمَالُهُمْ"[٥] على البناء للمفعول، و"تَضِلَّ أَعْمَالُهُمْ"[٦] مِن "ضَلَّ".

---

١ تفسير مجاهد، ص ٦٠٤.

٢ س: رحمه الله.

٣ م س ي: شاء.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٨٦/٩. وهي في مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٣/٩؛ واللباب لابن عادل، ٤٣٣/١٧، كذلك لكن بـ"الياء".

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٨٦/٩؛ واللباب لابن عادل، ٤٣٤/١٧. وهي في مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤١، عن عليّ رضي الله عنه لكن بـ"الياء". وفي شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩، عن الحسن كذلك بـ"الياء".

وعن قتادة أنّها نزلت في يوم أُحُد.[١]

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝﴾

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ في الدنيا إلى أرشدِ الأمور، وفي الآخرة إلى الثواب، أو سَيُثبِت هدايتَهم، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ في الدنيا بذكر أوصافها بحيث اشتاقوا إليها، أو بيّنها لهم بحيث يعلم كلّ أحد مَنزِله ويهتدي إليه، كأنّه كان ساكِنَه مُذ خُلق. وعن مقاتل: «أنّ الملَك الموكَّل بعمله في الدنيا يمشي بين يديه، فيُعرّفه كلَّ شيء أعطاه الله تعالى».[٢] أو طيّبها لهم، مِن "العَرْف"، وهو طِيب الرائحة، أو حدّدَها لهم وأفرزها، مِن "عَرَّف الدارَ"، فجنّة كلّ منهم محدَّدة مُفرَزة. والجملة إمّا مستأنَفة، أو حال بإضمار "قد"، أو بدونه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: دينَه ورسولَه ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على أعدائكم، ويَفتَحْ لكم، ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب ومواقفِها، أو على مَحجّة الإسلام.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝﴾

[٩٧ظ] / ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ التَّعْس: الهلاك، والعِثار، والسقوط، والشرّ، والبُعد، والانحطاط. ورَجلٌ تاعِس وتَعِسٌ. وانتصابه بفعله الواجبِ حذفُه سماعًا، أي: فقال: تَعْسًا لهم، أو فقضَى تَعْسًا لهم. وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ عطفٌ عليه، داخلٌ معه في حيّز الخبريّة للموصول.

---

١ وفي هامش م: أي: في شأنه. «منه». | الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤. وانظر: تفسير عبد الرزّاق، ٢٠٤/٣ (٢٨٧٣)؛ وجامع البيان للطبري، ١٩١/٢١. وفي جامع البيان للطبري، ١٩٠/٢١، كذلك عنه أنّ هذه الآية أنزلت يومَ أُحُد ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الشِّعب.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٣/٩.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن التّعس وإضلالِ الأعمال ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِن القرآن، لِما فيه مِن التوحيد وسائرِ الأحكام المخالفة لِما ألِفوه واشتَهته أنفسهم الأمّارة بالسوء، ﴿فَأَحْبَطَ﴾ لأجلِ ذلك ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لَأُثِيبوا عليها.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠﴾

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أَقَعَدُوا في أماكنهم فلم يسيروا فيها، ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم المكذِّبة، فإنّ آثارَ ديارهم تُنبئ عن أخبارهم.

وقوله تعالى: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن الكلام، كأنّه قيل: كيف كان عاقبتهم؟ فقيل: استأصل الله عليهم ما اختصّ بهم مِن أنفسهم وأهليهم وأموالهم. يقال: "دمّره" أهلكه، و"دمّرَ عليه" أهلَك عليه ما يختصّ به.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ أمثالُ عواقبهم، أو عقوباتِهم، لكن لا على أنّ لهؤلاء أمثالَ ما لأُولئك وأضعافَه؛ بل مِثلَه، وإنّما جُمع باعتبار مماثلته لعواقب متعدّدة حسب تعدّد الأمم المعذّبة. وقيل: يجوز أن يكون عذابهم أشدّ مِن عذاب الأوّلين، وقد قُتِلوا وأُسروا بأيدي مَن كانوا يستخفّونهم ويستضعفونهم، والقتل بيد المِثل أشدّ ألَمًا مِن الهلاك بسبب عامّ. وقيل: المراد بـ"الكافرين" المتقدِّمون، بطريق وضع الظاهر موضع الضمير، كأنّه قيل: دمّر الله عليهم في الدنيا، ولهم في الآخرة أمثالها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ثبوت أمثال عقوبة الأمم السابقة لهؤلاء ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ناصِرُهم على أعدائهم. وقُرئ: "وَلِيُّ الذِينَ"...[1] إلخ.[2]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٤.

[2] س ي - إلخ.

﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فيدفع عنهم ما حلّ بهم مِن العقوبة والعذاب، ولا يخالف هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام، ٦٢/٦]، فإنّ "المَولى" هناك بمعنى "المالك".

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بيان لحُكم ولايته تعالى لهم، وثمرتها الأخرويّة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ أي: ينتفعون في الدنيا بمتاعها، ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا / تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ غافلين عن عواقبهم، ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مَنزلُ ثواءٍ وإقامة. [٩٨و]
والجملة إمّا حال مقدّرة مِن واو ﴿يَأْكُلُونَ﴾، أو استئناف.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَكَأَيِّن﴾ كلمة مركّبة مِن "الكاف" و"أيّ"، بمعنى "كم" الخبريّة، ومحلّها الرفع بالابتداء. وقوله تعالى: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ تمييز لها. وقوله تعالى: ﴿هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ صفة لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، كما أنّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ صفة لـ﴿قَرْيَتِكَ﴾، وقد حُذف عنهما المضاف، وأجريَ أحكامه عليهما، كما يُفصح عنه الخبر الذي هو قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي: وكم مِن أهل قريةٍ هم أشدّ قوّةً مِن أهل قريتك الذين كانوا سببًا لخروجك مِن بينهم.

ووصفُ القرية الأُولى بشدّة القوّة للإيذان بأولويّة الثانية منها بالإهلاك لضَعف قوّتها، كما أنّ وصف الثانية بإخراجه عليه السلام للإيذان بأولويّتها به لقوّة جنايتها، وعلى طريقته قولُ النابغة:

كُلَيبٌ لَعمري كان أكثرَ ناصرًا   وأيسَرَ جُرمًا مِنك ضُرّجَ بالدّمِ[١]

وقوله تعالى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ بيان لعدم خلاصهم مِن العذاب بواسطة الأعوان

---

[١] ديوان النابغة الجعدي، ص ١٦٦.

والأنصار إثرَ بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم. و"الفاء" لترتيب ذِكر ما بالغير على ذكر ما بالذات، وهو حكاية حال ماضية.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ١٤﴾

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تقرير لتباين حالَي فريقي المؤمنين والكافرين، وكونِ الأوّلِين في أعلى علّيّين، والآخرين في أسفل سافلين، وبيانٌ لِعلّة ما لكلٍّ منهما مِن الحال. و"الهمزة" للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، وقد قُرئ بدونها.[1]

و﴿مَن﴾ عبارة عن المؤمنين المتمسّكين بأدلّة الدين. وجعلُها عبارةً عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[2] أو عنه وعن المؤمنين[3] لا يساعده النظم الكريم، على أنّ الموازنة بينه عليه السلام وبينهم ممّا يأباه منصبه الجليل.

والتقدير: أليس الأمر كما ذُكِر؟ فمَن كان مستقِرًّا على حجّة ظاهرة وبرهانٍ نَيّرٍ مِن مالكِ أمره / ومربّيه، وهو القرآن الكريم وسائرُ المعجزات والحججِ العقليّة ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ مِن الشرك وسائر المعاصي مع كونه في نفسه أقبحَ القبائح. [٩٨ظ]

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الزائغةَ، وانهمكوا في فنون الضلالات مِن غير أن يكون لهم شبهةٌ تُوهم صحّة ما هم عليه، فضلًا عن حجّة تدلّ عليه. وجمع الضميرَين الأخيرَين باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ إفراد الأوّلين باعتبار لفظها.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ١٥﴾

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩.

[2] س: عليه السلام. | قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤/٣٢٠.

[3] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/١٢١.

﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ استئناف مَسوق لشرح محاسن الجنّة الموعودة آنِفًا للمؤمنين، وبيانِ كيفيّة أنهارها التي أشيرَ إلى جريانها مِن تحتها. وعُبّر عنهم بالمتّقين إيذانًا بأنّ الإيمان والعمل الصالح مِن باب التقوى الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها، وتركِ السيّئات عن آخرها.

و"مَثَلُها" وصفُها العجيب الشأنِ. وهو مبتدأ محذوف الخبرِ، فقدَّره النضر بن شُميل:[١] "مَثَلُ الجنّة ما تسمعون".[٢] وقوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾... إلخ مفسِّر له، وقدّره سيبويه: "فيما يُتلى عليكم مَثَلُ الجنّة".[٣] والأوّل هو الأنسب بصَدر النظم الكريم. وقيل: "المَثَل" زائدة كزيادة "الاسم" في قول مَن قال:

إلى الحول ثمّ اسمُ السلام عليكما[٤]

و﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ مبتدأ، خبره ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾... إلخ.

﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غيرِ متغيّرِ الطعم والرائحة. وقُرئ: "غَيْرِ أَسِنٍ".[٥]

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بأن صار قارِصًا[٦] ولا حازِرًا[٧] كألبان الدنيا. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لذيذةٍ ليس فيها كراهةُ طعم وريح، ولا غائلةُ سُكر وخمار، وإنّما هي تلذّذ مَحض. و﴿لَّذَّةٍ﴾ إمّا تأنيث "لَذّ" بمعنى "لَذيذ"، أو مصدر نُعِت به مبالغةً. وقُرئ: "لَذَّةٌ" بالرفع[٨] على أنّها صفة ﴿أَنْهَٰرٌ﴾، وبالنصب[٩] على العلّة،

---

١ هو النَّضر بن شُمَيل بن خَرَشة بن زيد المازني البصري، أبو الحسن (ت. ٢٠٣هـ/٨١٩م)، العلّامة، الحافظ، النحوي. أحد الأعلام بمعرفة أيّام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة. ولد بمَرو مِن بلاد خُراسان، وانتقل إلى البصرة مع أبيه -وأصله منها- فأقام زمنًا، وعاد إلى مَرو فوَلي قضاءها. واتّصل بالمأمون العبّاسي فأكرمه وقرّبه. وتُوفّي بمَرو. مِن كتبه الصفات، والسلاح، والمعاني، وغريب الحديث، والأنواء. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٢٨/٩؛ والأعلام للزركلي، ٣٣/٨.

٢ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ١١٤/٥؛ اللباب لابن عادل، ٤٤٠/١٧.

٣ انظر: الكتاب لسيبويه، ١٤٣/١.

٤ تمامه:

ومَن يَبكِ حَولًا كامِلًا فقدِ اعتذَرْ

وهو للَبيد بن ربيعة العامري في ديوانه، ص ٢١٤.

٥ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

٦ القارِص: اللبَن الذي يَحذي اللسان. الصحاح للجوهري، «قرص».

٧ الحازِر: اللبَن الحامِض، وقد حَزَرَ اللبَن، أي: حَمِض. الصحاح للجوهري، «حزر».

٨ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٧/٩.

٩ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٧/٩.

أي: لأجل لذّة الشاربين. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لا يخالِطه الشمع / وفضلاتُ النحل وغيرها. [٩٩و]

وفي هذا تمثيل لِما يجري مَجرى الأشربة في الجنّة بأنواع ما يُستطاب منها ويُستلذّ في الدنيا بالتخلية عمّا ينغِّصها وينقِّصها، والتحليةِ بما يوجب غَزارتها ودَوامها.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ مع ما ذكر مِن فنون الأنهار ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: صِنفٌ مِن كلّ الثمرات، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: ولهم مغفرة عظيمة لا يُقادَر قدرُها.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿مَغْفِرَةٌ﴾، مؤكِّدةٌ[١] لِما أفاده التنكير مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: كائنةٌ مِن ربّهم.

وقوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمَن هو خالد في هذه الجنّة حسبما جرى به الوعد كمَن هو خالد في النار، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾؟[٢] وقيل: هو خبر لـ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ على أنّ في الكلام حذفًا، تقديرُه: أَمَثَلُ الجنّة كمَثَل جزاء مَن هو خالد في النار؟ أو أَمَثَلُ أهل الجنّة كمَثَل مَن هو خالد في النار؟ فعُرِّي عن حرف الإنكار وحُذف ما حُذف تصويرًا لمكابرة مَن يسوّي بين المتمسِّك بالبيّنة وبين التابع للهوى بمكابَرة مَن سوّى بين الجنّة الموصوفة بما فُصّل مِن الصفات الجليلة وبين النار.

﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ مكانَ تلك الأشربة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ مِن فَرط الحرارة. قيل: إذا دنا منهم شَوى وجوهَهم، وانمازَت فَروةُ رءوسهم، فإذا شربوه قَطَّع أمعاءهم.[٣]

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ هم المنافقون، وإفراد الضمير باعتبار لفظة ﴿مَن﴾، كما أنّ جمعه فيما سيأتي باعتبار معناها. كانوا يحضرون مجلس

---

[١] س: مؤكّد.

[٢] محمد، ١٢/٤٧.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٣/٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٢٢/٤.

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيسمعون كلامه ولا يَعُونه ولا يُراعونه حقّ رعايته تهاونًا منهم.

[٩٩ظ] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ / مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ مِن الصحابة رضي الله عنهم ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: ما الذي قال الساعةَ؟ على طريقة الاستهزاء، وإن كان بصورة الاستعلام. و﴿ءَانِفًا﴾ مِن قولهم: "أَنَفُ الشيءِ" لِما تقدّم منه، مستعارٌ مِن الجارحة، ومنه "استَأنَفَ الشيءَ" و"ائْتَنَفَ"، وهو ظرف بمعنى "وقتًا مُؤْتَنَفًا"، أو حال مِن الضمير في ﴿قَالَ﴾. وقُرِئَ: "أَنِفًا".[١]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لعدم توجّهها نحو الخير أصلًا، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلةَ، فلذلك فعلوا ما فعلوا ممّا لا خيرَ فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ١٧﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ إلى طريق الحقّ ﴿زَادَهُمْ﴾ أي: الله تعالى ﴿هُدًى﴾ بالتوفيق والإلهام، ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أعانَهم على تقواهم، أو أعطاهم جزاءها، أو بيّنَ لهم ما يتّقون.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ١٨﴾

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامةَ. وقوله تعالى: ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: تُباغِتَهم بغتةً، وهي المفاجأة؛ بدل اشتمال مِن الساعة. والمعنى: أنّهم لا يتذكّرون بذكر أحوال الأمم الخالية، ولا بالإخبار بإتيان الساعة وما فيها مِن عظائم الأهوال، وما ينتظرون للتذكّر إلّا إتيانَ نفسِ الساعة بغتةً. وقُرِئَ: "بَغَتَّةً" بفتح "الغين".[٢]

---

[١] قرأ بها البزّي عن ابن كثير بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٤.

[٢] أي: وتشديد "التاء". قراءة شاذّة، مرويّة عن الجعفي وهارون عن أبي عمرو. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٤٦٨.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ تعليل لمفاجأتها، لا لإتيانها مطلقًا، على معنى أنّه لم يبقَ مِن الأمور الموجِبة للتذكّر أمر مترقّب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة؛ إذ قد جاء أشراطُها، فلم يرفعوا لها رأسًا، ولم يعدّوها مِن مبادي إتيانها، فيكون إتيانُها بطريق المفاجأة لا محالةَ. و"الأشراط" جمع "شَرَط" بالتحريك، وهي العلامة، والمراد بها مَبعثه صلّى الله عليه وسلّم[1] وانشقاقُ القمر ونحوُهما.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ حكمٌ بخطئهم وفساد رأيهم في تأخير التذكّر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكّر حينئذ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ / وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر، ٢٣/٨٩]، أي: وكيف لهم ذكراهم إذا [١٠٠و]
جاءتهم، على أنّ ﴿أَنَّىٰ﴾ خبر مقدّم، و﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ مبتدأ، و﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ اعتراض وُسِط بينهما رمزًا إلى غاية سرعة مجيئها. وإطلاق المجيء عن قيد البغتة لِما أنّ مدار استحالة نفع التذكّر كونه عند مَجيئه مطلَقًا لا مقيّدًا بقيد البغتة. وقُرئ: "إِنْ تَأْتِهِمْ"،[2] على أنّه شرط مستأنَف، جزاؤه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾... إلخ. والمعنى: إن تأتِهم الساعة بغتةً لأنّه قد ظهَر أماراتها فكيف لهم تذكّرهم واتّعاظهم إذا جاءتهم؟

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: إذا علمت أنّ مدار السعادة هو التوحيد والطاعة، ومناطَ الشقاوة هو الإشراك والعصيان، فاثبُت على ما أنت عليه مِن العلم بالوحدانيّة والعملِ بموجَبه.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ وهو الذي ربّما يصدر عنه عليه السلام مِن ترك الأَولى، عُبّر عنه بالذنب نظرًا إلى منصبه الجليل، كيف لا، وحسناتُ الأبرار سيّئاتُ المقرّبين، وإرشادًا له عليه السلام إلى التواضع وهَضمِ النفس واستقصارِ العمل.

---

[1] س: عليه السلام.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر الرواسي عن أهل مكّة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٨/٩.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: لذنوبهم بالدعاء لهم وترغيبِهم فيما يستدعي غفرانَهم. وفي إعادة صلة الاستغفار تنبيه على اختلاف متعلَّقَيه جنسًا. وفي حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامه إشعار بعَراقتهم في الذنب، وفرطِ افتقارهم إلى الاستغفار.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا، فإنّها مراحلُ لا بدَّ مِن قطعها لا محالةَ، ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ في العُقبى، فإنّها مَوطن إقامتكم، فلا يأمرُكم إلّا بما هو خير لكم فيهما، فبادِروا إلى الامتثال بما أمَركم به، فإنّه المهمّ لكم في المَقامين. وقيل: يعلم جميع أحوالكم، فلا يخفى عليه شيء منها.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حِرصًا منهم على الجهاد: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلّا نُزّلت سورة نُؤمر فيها بالجهاد. ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ بطريق الأمر به، أي: سورة مبيَّنة، لا تشابُهَ ولا احتمالَ فيها لوجهٍ آخَر سوى وجوب القتال. عن قتادة: «كلّ / سورة فيها ذِكرُ القتال فهي محكَمة لم تُنسخ».[١] [١٠٠ظ]
وقُرئ: "فَإِذَا نَزَلَتْ سُورَةٌ".[٢] وقُرئ: "وَذَكَرَ" على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى ونصبِ ﴿ٱلْقِتَالُ﴾.[٣]

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: ضعفٌ في الدين، وقيل: نفاقٌ، وهو الأظهر الأوفق لسياق النظم الكريم. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: تشخَص أبصارهم جُبنًا وهلَعًا كدأب مَن أصابته غَشية الموت.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: فويل لهم. وهو "أَفْعَلَ" مِن "الوَلْي"، وهو القُرب. وقيل: مِن "آلَ". ومعناه الدعاء عليهم بأن يليَهم المكروه، أو يئُولَ إليه أمرهم. وقيل: هو مشتَقّ مِن "الويل"، وأصله "أَوْيَلُ" فقُلبت "العين" إلى ما بعد "اللام"، فوزنه "أَفْلَعُ".

---

١ جامع البيان للطبري، ٢١٠/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٥/٩.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٢٤/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن عمير. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٠/٩.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنَف، أي: أمرُهم طاعةٌ... إلخ، أو طاعةٌ وقولٌ معروف خيرٌ لهم، أو حكايةٌ لقولهم، ويؤيّده قراءة أُبيّ: "يَقُولُونَ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ"،[١] أي: أمرُنا ذلك.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أسنَد العزمَ -وهو الجِدّ- إلى الأمر -وهو لأصحابه- مجازًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ[٢] مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان، ١٧/٣١]. وعامِل الظرف محذوف، أي: خالَفوا وتخلّفوا. وقيل: ناقضوا. وقيل: كرِهوا. وقيل: هو قوله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ على طريقة قولك: "إذا حضَرَني طعام فلو جئتَني لَأطعمتك"، أي: فلو صدَقوه تعالى فيما قالوا مِن الكلام المنبئ عن الحرص على الجهاد بالجري على موجَبه ﴿لَكَانَ﴾ أي: الصدقُ ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾. وفيه دلالة على اشتراك الكلّ فيما حُكي عنهم مِن قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾.[٣] وقيل: فلو صدَقوه في الإيمان، وواطأت قلوبُهم في ذلك ألسنتَهم.

وأيًّا ما كان فالمراد بهم الذين في قلوبهم مرض، وهم المخاطَبون بقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾... إلخ بطريق الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديدِ التقريع، أي: هل يتوقَّع منكم ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمورَ الناس وتأمَّرتم عليهم ﴿أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ تناحُرًا على المُلْك وتَهالكًا على الدنيا، فإنّ مَن شاهَد أحوالَكم الدالّة على الضعف في الدين والحِرص على الدنيا حين أُمِرتم بالجهاد الذي هو عبارة عن إحرازِ كلِّ خير وصلاح، ودفعِ كلِّ شرّ وفساد، / وأنتم مأمورون، شأنُكم الطاعة والقولُ المعروف؛ يتوقّع منكم إذا أُطلِقت [١٠١و]
أعِنّتكم وصِرتم آمِرين ما[٤] ذُكر مِن الإفساد وقَطع الأرحام.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧١/٩.

[٢] م: ذاك.

[٣] محمّد، ٢٠/٤٧.

[٤] س: بما. | وفي هامش م: مفعول "يتوقّع". «منه».

وقيل:[1] إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهليّة مِن الإفساد في الأرض بالتغاوُر والتناهُب وقَطع الأرحام بمُقاتلة بعضِ الأقارب بعضًا ووَأْدِ البنات. وفيه أنّ الواقع في حيّز الشرط في مِثل هذا المقام لا بدَّ أن يكون محذوريّته باعتبار ما يستتبعه مِن المفاسد، لا باعتبار ذاته، ولا ريبَ في أنّ الإعراض عن الإسلام رأسُ كلّ شرّ وفسادٍ، فحقُّه أن يُجعَل عمدةً في التوبيخ، لا وسيلةً للتوبيخ بما دونه مِن المفاسد.

وقُرئ: "وُلِّيتُمْ" على البناء للمفعول،[2] أي: جُعِلتم وُلاةً. وقُرئ: "تُوُلِّيتُمْ"،[3] أي: تَولّاكم وُلاة جَورٍ خرجتم معهم وساعدتموهم في الإفساد وقطيعة الرحم. وقُرئ: "وَتَقَطَّعُوا"[4] مِن "التَّقطّع" بحذف إحدى التاءين، فانتصابُ ﴿أَرۡحَامَكُمۡ﴾ حينئذ على نزع الجارّ، أي: في أرحامكم. وقُرئ: "وَتَقْطَعُوا"[5] مِن "القَطْع".

وإلحاق الضمير بـ"عسى" لغة أهل الحجاز، وأمّا بنو تميم فيقولون: "عسى أن تفعل" و"عسى أن تفعلوا".

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المخاطَبين بطريق الالتفات إيذانًا بأنّ ذِكر هَناتهم أوجَبَ إسقاطَهم عن رتبة الخطاب، وحكايةَ أحوالهم الفظيعة لغيرهم، وهو مبتدأ خبره: ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعدَهم مِن رحمته، ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾ عن استماع الحقّ لتَصامّهم عنه بسوء اختيارهم، ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ لِتَعاميهم عمّا يشاهدونه مِن الآيات المنصوبة في الأنفُس والآفاق.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: ألا يلاحظونه ولا يتصفّحونه وما فيه مِن المواعظ والزواجر حتّى لا يَقعوا فيما وقعوا فيه مِن المُوبِقات، ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾

---

[1] قاله الواحدي في التفسير الوسيط، ١٢٦/٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مغفّل عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠؛ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة، ١١٨/٥.

[3] قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠.

[5] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

فلا يكاد يصِلُ إليها ذِكرٌ أصلًا. و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للانتقال مِن التوبيخ بعدم التدبّر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفَلةً، لا تقبل التدبّر والتفكّر، / و"الهمزةِ"[١] للتقرير. [١٠١ظ]

وتنكير "القلوب" إمّا لتهويل حالها وتفظيعِ شأنها بإبهام أمرها في القساوة والجهالة، كأنّه قيل: على قلوب مُنكَرة، لا يُعرَف حالها، ولا يُقادَر قدرُها في القَسوة، وإمّا لأنّ المراد بها قلوب بعض منهم، وهم المنافقون. وإضافة "الأقفال" إليها للدلالة على أنّها أقفال مخصوصة بها مناسِبةٌ لها غيرُ مجانِسة لسائر الأقفال المعهودة. وقُرئ: "أَقْفُلُهَا"،[٢] و"إِقْفَالُهَا"[٣] على المصدر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي: رَجَعوا إلى ما كانوا عليه مِن الكفر، وهم المنافقون الذين وُصِفوا فيما سلف بمَرض القلوب وغيره مِن قبائح الأفعال والأحوال، فإنّهم قد كفروا به عليه السلام ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بالدلائل الظاهرة والمعجزات القاهرة. وقيل: هم اليهود. وقيل: أهل الكتابَين جميعًا كفروا به عليه السلام بعدَ ما وجدوا نَعْته عليه السلام في كتابهم، وعرَفوا أنّه المنعوت بذلك.

وقوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، وقعَت خبرًا لـ﴿إِنَّ﴾، أي: سهّل لهم ركوبَ العظائم، مِن "السَّوَل"، وهو الاسترخاء. وقيل: مِن "السُّول" المخفَّفِ مِن "السُّؤْل" لاستمرار القلب، فمعنى "سَوَّل له أمرًا" حينئذ: أوقعه في أمنيّته، فإنّ السُّول الأمنيّة. وقُرئ: "سُوِّلَ"[٤] مبنيًا للمفعول على حذف المضاف، أي: كيدُ الشيطان.

---

[١] السياق: وما فيها مِن معنى "بل"... و"الهمزةِ"...

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٤٧٣.

[٣] قراءة شاذّة، غيرُ منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٤٧٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠.

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدَّ لهم في الأمانيّ والآمال. وقيل: أمهلهم الله تعالى، ولم يعاجِلهم بالعقوبة. وقُرئ: "أُمْلِي لَهُمْ"[١] على صيغة المتكلِّم، فالمعنى: أنّ الشيطان يُغويهم، وأنا أُنظِرهم، فـ"الواو" للحال أو للاستئناف. وقُرئ: "أُمْلِيَ لَهُمْ"[٢] على البناء للمفعول، أي: أُمهِلوا ومُدّ في عمرهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن ارتدادهم، لا إلى الإملاء كما نُقل عن الواحدي،[٣] ولا إلى التسويل كما قيل،[٤] لأنّ شيئًا منهما ليس مسبَّبًا عن القول الآتي، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿قَالُواْ﴾ يعني
[١٠٢و] المنافقين المذكورين، لا اليهودَ / الكافرين به عليه السلام بعد ما وجدوا نَعته عليه السلام في التوراة كما قيل،[٥] فإنّ كُفرهم به عليه السلام ليس بسبب هذا القول، ولو فُرض صدورُه عنهم، سواء كان المَقول لهم المنافقين أو المشركين على رأي القائل؛ بل مِن حين بِعثتِه[٦] عليه السلام.

﴿لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي: لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مع علمهم بأنّه مِن عند الله تعالى حسَدًا وطمَعًا في نزوله عليهم، لا للمشركين كما قيل،[٧] فإنّ قوله تعالى: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ عبارة قطعًا عمّا حُكي عنهم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر، ١١/٥٩]، وهم بنو[٨] قُرَيظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادّونهم، وأرادوا بـ"البعض" الذي أشاروا إلى عدم إطاعتهم فيه

---

١ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.
٢ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.
٣ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ١٢٨/٤.
٤ قاله ابن عادل في اللباب، ٤٦١/١٧.
٥ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٢٦/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٣/٥.
٦ س: بعثت.
٧ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٣/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٦١/١٧.
٨ م: بنوا.

إظهارَ كفرهم وإعلانَ أمرهم بالفعل قبل قتالهم وإخراجهم مِن ديارهم، فإنّهم كانوا يأبَون ذلك قبل مَساس الحاجة الضروريّة الداعية إليه، لِما كان لهم في إظهار الإيمان مِن المنافع الدنيويّة.

وإنّما كانوا يقولون لهم ما يقولون سرًّا، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ أي: إخفاءَهم لِما يقولونه لليهود. وقُرئ: "أَسۡرَارَهُمۡ"،[١] أي: جميعَ أسرارهم التي مِن جملتها قولهم هذا. والجملة اعتراض مقرِّر لِما قبله متضمِّن للإفشاء في الدنيا والتعذيب في الآخرة.

﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ٢٧﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها. و﴿كَيۡفَ﴾ منصوب بفِعل محذوف هو العامل في الظرف، كأنّه قيل: يفعلون في حياتهم ما يفعلون مِن الحِيَل، فكيف يفعلون إذا توفّتهم الملائكة؟ وقيل: مرفوع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: فكيف حالهم أو حيلتُهم إذا توفّتهم... إلخ؟ وقُرئ: "تَوَفَّاهُمۡ"[٢] على أنّه / إمّا ماضٍ، أو مضارعٌ قد حُذِف إحدى تاءَيه. [١٠٢ظ]

﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَوَفَّتۡهُمۡ﴾، أو مِن مفعوله، وهو تصوير لتوفّيهم على أهوَل الوجوه وأفظَعها. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لا يتوفّى أحد على معصية إلّا يضرب الملائكة وجهه ودبره».[٣]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفّي الهائل ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ مِن الكفر والمعاصي ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ أي: ما يرضاه مِن الإيمان والطاعة حيث كفروا بعد الإيمان، وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا مِن المعاملة مع اليهود،

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢٧. وذكر نحوه السمعاني في تفسيره، ٥/١٨٢، مِن غير نسبة إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما.

﴿فَأَحْبَطَ﴾ لأجل ذلك ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي عملوها حالَ إيمانهم مِن الطاعات، أو بعد ذلك مِن أعمال البرّ التي لو عملوها حال الإيمان لانتفعوا بها.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون الذين فُصِلت أحوالهم الشنيعة، وُصِفوا بوصفهم السابق لكونه مَدارًا لِما نُعِي عليهم بقوله تعالى: ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾، فـ﴿أَمْ﴾ منقطعة، و﴿أَن﴾ مخففة مِن "أنّ"، وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف، و﴿لَن﴾ بما في حيّزها خبرُها.[1] و"الأضغان" جمع "ضِغْن"، وهو الحقد، أي: بل أحسِبَ الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أنّه لن يخرج الله أحقادَهم، ولن يبرِزَها لرسوله صلّى الله عليه وسلّم وللمؤمنين، فيُبقي أمورهم مستورةً؟ والمعنى أنّ ذلك ممّا لا يكاد يدخل تحت الاحتمال.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ إراءتَهم ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ لعرَّفناكهم بدلائلَ تعرفهم بأعيانهم معرفةً مُتاخِمة للرؤية. والالتفات إلى نون العظَمة لإبراز العناية بالإراءة، ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلامتهم التي نَسِمُهم بها. وعن أنس رضي الله عنه: «ما خفِي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد هذه الآية شيء مِن المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنّا في بعض الغزوات، وفيها تسعة مِن المنافقين يشكوهم الناس، فناموا ذات ليلة، وأصبحوا وعلى وجه كلّ واحد منهم مكتوب: "هذا منافق"».[2]

[١٠٣و] و"اللام" لام الجواب، كُرّرت في المعطوف للتأكيد، و"الفاء" / لترتيب المعرفة على الإراءة، وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ فلجواب قسم محذوف. و﴿لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ نَحوه وأسلوبه، أو إمالتُه إلى جهة تعريضٍ وتَورِية، ومنه قيل للمخطئ: "لاحِن"، لعدله بالكلام عن سَمْت الصواب.

---

[1] س - خبرها.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٢٧/٤.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ فيجازيكم بحسب قصدكم، وهذا وعد للمؤمنين، وإيذان بأنّ حالهم بخلاف حال المنافقين.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾[١] بالأمر بالجهاد ونحوه مِن التكاليف الشاقّة ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ[٢] ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاقّ الجهاد عِلمًا فعليًا يتعلّق به الجزاء، ﴿وَنَبۡلُوَاْ[٣] أَخۡبَارَكُمۡ﴾ ما يُخبَر به عن أعمالكم فيظهر حَسَنها وقبيحها. وقُرئ: "وَيَبْلُو" بـ"الياء".[٤] وقُرئ: "نَبْلُو" بسكون "الواو"،[٥] على "ونحن نَبْلُو".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ الناسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وعادَوه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ بما شاهدوا نعته عليه السلام في التوراة، وبما ظهر على يديه مِن المعجزات، ونزل عليه مِن الآيات، وهم قريظة والنضير، أو المطعِمون يوم بدر.

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ بكفرهم وصدِّهم ﴿شَيۡـٔٗا﴾ مِن الأشياء، أو شيئًا مِن الضرر، أو لن يضرّوا رسول الله تعالى[٦] بمُشاقّته شيئًا، وقد حُذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مُشاقّته.

﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: مكائدَهم التي نصبوها في إبطال دينه تعالى ومُشاقّة رسوله عليه السلام، فلا يَصلون بها إلى ما كانوا يَبغون مِن الغوائل، ولا تثمر لهم إلّا القتلَ والجلاءَ عن أوطانهم.

---

١ م س ي: وليبلونكم. | وهي بالياء رواية شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.

٢ م س ي: يعلم. | وهي بالياء رواية شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.

٣ م س ي: ونبلو.

٤ قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.

٥ قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.

٦ س – تعالى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ بما أبطل به هؤلاء أعمالَهم مِن الكفر والنفاق والعُجب والرياء والمَنّ والأذى ونحوها. وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾
[١٠٣ظ] حكمٌ يَعمّ / كلَّ مَن مات على الكفر، وإن صحّ نزوله في أصحاب القليب.[١]

﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: لا تضعُفوا ﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: ولا تدعوا الكفّار إلى الصلح خوَرًا، فإنّ ذلك إعطاءُ الدنيّة. ويجوز أن يكون منصوبًا بإضمار "أن" على جواب النهي. وقُرئ: "وَلَا تَدَّعُوا" مِن "ادّعَى القوم"، بمعنى "تَداعَوا"، نحو: "ارتَمَوا الصيدَ" و"تَرامَوه"، ومنه "تراءَوا الهلالَ"، فإنّ صيغة التفاعل قد يُراد بها صدور الفعل عن المتعدِّد مِن غير اعتبار وقوعه عليه، ومنه قوله تعالى:[٢] ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ، ١/٧٨] على أحد الوجهين. و"الفاء" لترتيب النهي على ما سبق مِن الأمر بالطاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ جملة حاليّة مقرِّرة لمعنى النهي، مؤكِّدة لوجوب الانتهاء، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فإنّ كونَهم الأغلبين وكونَه عزّ وعلا ناصِرَهم مِن أقوى موجِبات الاجتناب عمّا يوهم الذلّ والضراعة، وكذا توفيته تعالى لأجور الأعمال حسبما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ أي: ولن يُضيِّعَها، مِن "وَتَرْتُ الرجلَ" إذا قتلتَ له قتيلًا مِن ولدٍ أو أخٍ أو حميمٍ فأفردته منه، مِن "الوتر" الذي هو الفرد.

عُبّر عن ترك الإثابة في مقابلة الأعمال بـ"الوتر" الذي هو إضاعة شيءٍ معتدٍّ به مِن الأنفس والأموال -مع أنّ الأعمال غير موجِبة للثواب على قاعدة

---

١ القَلِيب: البئر، والمراد هنا: قَلِيب بَدر. وأصحاب القَلِيب: هم الكفّار الذين قُتلوا يومَ بدر، ورأسُهم أبو جهل بن هشام. انظر: فتح الباري لابن حجر، ١/٢٧١.

٢ م - تعالى.

أهل السنّة- إبرازًا لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحقّ المستَحَق، وتنزيلِ ترك الإثابة منزلةَ إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها، وقد مرّ في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران، ١٩٥/٣].

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثباتَ لها، ولا اعتدادَ بها، ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي: ثوابَ إيمانكم وتقواكم مِن الباقيات الصالحات التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ بحيث يخِلّ أداؤها بمعاشكم، وإنّما اقتصر على نَزْرٍ يسير منها هو ربع العشر تؤدّونها إلى فقرائكم.

﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا﴾ أي: أموالَكم ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي: يَجْهَدْكم بطلب الكلّ، فإنّ الإحفاء والإلحاف المبالغةُ وبلوغ / الغاية، يقال: "أحفى شاربَه"، أي: استأصله، [١٠٤و]
﴿تَبْخَلُوا﴾ فلا تُعطوا، ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ أي: أحقادَكم. وضمير ﴿يُخْرِجْ﴾ لله تعالى، ويعضده القراءة بنون العظَمة،[١] أو للبخل؛ لأنّه سبب الأضغان. وقُرئ: "يَخْرُجْ" مِن الخروج بـ"الياء"[٢] و"التاء"[٣] مسندًا إلى "الأضغان".

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٧/٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الوارث عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٧/٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد وابن سيرين وابن محيصن وأيّوب بن المتوكّل واليماني. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٧/٩.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أنتم أيها المخاطَبون هؤلاء الموصوفون. وقوله تعالى: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استئناف مقرِّر لذلك، أو صلة لـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على أنّه بمعنى "الذين"، أي: ها أنتم الذين تُدعَون، ففيه توبيخ عظيم، وتحقير مِن شأنهم. والإنفاق في سبيل الله يعمّ نفقة الغزو والزكاة وغيرهما.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ﴾ أي: ناسٌ يبخلون، وهو في حيّز الدليل على الشرطيّة السابقة.

﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ فإنّ كلًّا مِن نفع الإنفاق وضرر البخل عائد إليه. و"البخل" يستعمل بـ"عن" و"على"، لتضمّنه معنى الإمساك والتعدّي.

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾ دون مَن عداه ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ فما يأمركم به فهو لاحتياجكم إلى ما فيه مِن المنافع، فإن امتثلتم فلكم، وإن تولّيتم فعليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ عطفٌ على ﴿إِن تُؤۡمِنُواْ﴾،[1] أي: وإن تُعرضوا عن الإيمان والتقوى ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ يخلُق مكانكم قومًا آخرين، ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ في التولّي عن الإيمان والتقوى؛ بل يكونوا راغبين فيهما. قيل: هم الأنصار. وقيل: الملائكة. وقيل: أهل فارس، لِما رُوي أنّه عليه السلام سُئل عن القوم، وكان سلمان إلى جنبه، فضرب على فخذه فقال: «هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان مَنوطًا بالثريّا لتناوله رجال مِن فارس».[2] وقيل: كِندة والنخع. وقيل: العجَم. وقيل: الروم.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة محمّد كان حقًّا على الله عزّ وجلّ أن يسقيه مِن أنهار الجنّة».[3]

والحمد لله ربّ العالمين.

---

١ محمّد، ٣٦/٤٧.

٢ سنن الترمذي، ٣٨٤/٥ (٣٢٦١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٩/٩.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨/٩؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١١٨/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٤٧

سورة محمد

مدنية إلاّ «وكأيّن من قرية» الآيةَ، أو مكية، وهي ثمانٍ أو تسعٌ وثلاثون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة ﴿وصَدُّوا﴾ غيرَهم ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: الإيمان ﴿أَضَلَّ﴾: أحبط ﴿أعمالَهُم﴾ كإطعام الطعام وصلة الأرحام، فلا يرون لها في الآخرة ثوابًا، ويُجزَون بها في الدنيا من فضله ـ تعالى ـ ٢ ـ ﴿والَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: الأنصارُ وغيرهم، ﴿وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ، وآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ أي: القُرآنِ ـ ﴿وهُوَ الحَقُّ مِن رَبِّهِم ـ كَفَّرَ عَنهُم﴾: غفر لهم ﴿سَيِّئاتِهِم، وأصلَحَ بالَهُم﴾ أي: حالهم فلا يعصُونه.

سورة محمد ﷺ

قولُهُ: (مِنْ أَهلِ مَكَّةَ) وغيرِهِم.

قولُهُ: (غَيرَهُم) أو امتَنعوا.

قولُهُ: (أي: الإِيمَانِ) أو سلوكِ طريقِهِ.

قولُهُ: (كإِطعَامِ الطَّعَامِ) أي: جعلَ مكارمَهُم كفكِّ الأسرى وحفظِ الجوارِ وترحُّمِ الأيتامِ وإعانةِ الضُّعفاءِ وإغاثةِ الملهوفينَ ضالَّةً؛ أي: ضائعةً محبطَةً بالكفرِ، أو مغلوبةً مَغمورةً فيه، كما يضلُّ الماءُ في اللَّبنِ أو ضلالاً حيثُ لم يَقصِدوا به وجهَ اللهِ.

قولُهُ: (أي: الأنصَارُ) الظَّاهرُ: من أهلِ مكَّةَ وغيرِهِم.

قولُهُ: (أي القرآنِ) تخصيصٌ تعظيماً له.

قولُهُ: (أي: حَالَهُم) في الدِّينِ والدُّنيا بالتَّوفيقِ والتَّأييدِ.

٣ ـ ﴿ذَلِكَ﴾ أي: إضلال الأعمال وتكفير السيّئات ﴿بِأَنَّ﴾: بسبب أنّ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الباطِلَ﴾: الشيطان ﴿وأنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ﴾: القُرآنَ ﴿مِن رَبِّهِم. كَذلِكَ﴾ أي: مِثْلَ ذلك البيان ﴿يَضرِبُ اللهُ لِلنّاسِ أمثالَهُم﴾: يُبيِّنُ أحوالَهم، فالكافر يُحبِط عملَه، والمُؤمن يَغفر زَلَـلَـهُ.

٤ ـ ٥ ـ ﴿فإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فضَرْبَ الرِّقابِ﴾: مصدرٌ بدل من اللفظ بفعله، أي: فاضربوا رقابهم أي: اقتلوهم. وعُبّر بضرب الرقاب لأنّ الغالب في القتل أن يكون بضرب الرقبة. ﴿حَتَّى إذا أثخَنتُمُوهُم﴾: أكثرتم فيهم القتل ﴿فشُدُّوا﴾، أي: فأمسكوا عنهم وائسِروهم وشُدّوا ﴿الوَثاقَ﴾: ما يُوثق به الأسرى ـ ﴿فإمّا مَنًّا بَعدُ﴾: مصدرٌ بدل من اللفظ بفعله، أي: تَمُنّون عليهم بإطلاقهم من غير شيء، ﴿وإمّا فِداءً﴾: تُفادونهم بمالٍ، أو أسرَى مسلمين ـ ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَربُ﴾ أي: أهلُها ﴿أوزارَها﴾: أثقالها من السلاح وغيره بأن يُسلِمَ الكُفّار أو يدخلوا في العهد. وهذه غاية للقتل والأسر.

قولُهُ: (وتَكفِيرُ السَّيِّئَاتِ) وإصلاحُ البالِ، فالإفرادُ باعتبارِ ما مرَّ، وهو مبتدأٌ.

قولُهُ: (الشَّيطَانَ) أو ضدَّ: الحقِّ، وهو الظَّاهرُ.

قولُهُ: (القُرآنَ) وهو تصريحٌ بما علمَ ظنًّا، ولذلك يسُمَّى تفسيراً في علمِ البيانِ.

قولُهُ: (البَيَانِ) الأظهرُ: التَّبيينِ.

قولُهُ: (أَحوَالَهُم) أي: أحوالَ الفريقينِ، أو أحوالَ النَّاسِ، أو بضربِ أمثالِهم بأن جعلَ اتِّباعَ الباطلِ مثلاً لعملِ الكفَّارِ، والإضلالَ مثلاً لخيبتِهِم، واتِّباعَ الحقِّ مثلاً للمؤمنينَ، وتكفيرَ السَّيِّئاتِ مثلاً لفوزِهِم.

قولُهُ: (رِقَابَهُم) أصلُهُ: فاضرِبوا الرِّقابَ ضرباً، فحُذِفَ الفعلُ وقُدِّمَ المصدرُ وأُنيبَ منابَهُ مضافاً إلى المفعولِ ضمًّا إلى التَّأكيدِ للاختصارِ.

قولُهُ: (لأنَّ الغَالِبَ) أو للإشعارِ بأنَّهُ ينبغي أن يكونَ بضربِ الرَّقبةِ حيثُ ما أمكنَ، وللتَّصويرِ له بأشنعِ صورةٍ.

قولُهُ: (أَكثَرتُم) وأغلظتُمُوهُ من الثَّخينِ، وهو الغَليظُ.

قولُهُ: (وائسِروهم) بهمزةٍ ساكنةٍ وكسرِ السِّينِ؛ أي: احفَظوهُم.

قولُهُ: (الأَسرَى) قيدُ الأسرى واقعيٌّ غيرُ معتبرٍ لغةً.

قوله: (أو أَسرَى) في «المداركِ»[1]: وحكمُ أسارى المشركينَ عندَنا[2] القتلُ أو الاسترقاقُ، والمنُّ والفداءُ المذكورانِ في الآيةِ منسوخٌ بقولِهِ: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]؛ لأنَّ سورةَ «براءة» من آخرِ ما نزلَ، أو المرادُ

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٣٢٢).

(٢) انظر: «الهداية» (٢/ ٣٨٤).

﴿ذلِكَ﴾: خبرُ مُبتدأ مُقدّر، أي: الأمرُ فيهم ما ذُكر، ﴿ولَو يَشاءُ اللهُ لانتَصَرَ مِنهُم﴾ بغير قِتال، ﴿ولكِن﴾ أمركم به، ﴿لِيَبلُوَ بَعضَكُم بِبَعضٍ﴾ منهم في القتال، فيصيرَ من قُتل منكم إلى الجنّة ومنهم إلى النار. ﴿والَّذِينَ قُتِلُوا﴾، وفي قراءة «قاتَلُوا» ـ الآيةُ نزلت يوم أُحد، وقد فشا في المسلمين القتل والجراحات ـ ﴿في سَبِيلِ اللهِ فلَن يُضِلَّ﴾: يُحبِط ﴿أعمالَهُم، سَيَهدِيهِم﴾ في الدنيا والآخرة إلى ما ينفعهم، ﴿ويُصلِحُ بالَهُم﴾: حالهم فيهما، وما في الدنيا لمن لم يُقتل، وأُدرجوا في «قُتِلوا» تَغليبًا، ٦ ـ ﴿ويُدخِلُهُمُ الجَنَّةَ، عَرَّفَها﴾: بيَّنَها ﴿لَهُم﴾، فيهتدون إلى مساكنهم منها وأزواجِهم وخدمهم من غير استدلال.

بالمنِّ أن يمنَّ عليهِم بتركِ القتلِ ويُستَرَقُّوا، أو يمنَّ عليهم فيخلوا لقبولِهم الجزيَةَ، وبالفداءِ أن يُفادى بأساراهم أسارى المشركينَ[١]، فقد رواه الطَّحاويُّ[٢] مذهباً عن أبي حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ، وهو قولُهُما، والمشهورُ: أنَّه لا يرى فداءَهُم لا بمالٍ ولا بغيرِهِ؛ لئلَّا يعودوا حرباً علينا، وعندَ الشَّافعيِّ رحمَهُ اللهُ[٣]: للإمامِ أن يختارَ أحدَ الأمورِ الأربعةِ: القتلَ، والاسترقاقَ، والفداءَ بأسارى المسلمينَ، والمنَّ، انتهى.

قولُهُ: (مَا ذُكِرَ) أو افعَلوا بهم ذلك.

قولُهُ: (وفِي رِوَايَةٍ) الصَّوابُ: في قراءةٍ، بلِ الأولى جعلُها أصلاً؛ لأنَّها قراءةُ الجمهورِ، وقرأ البصريُّ وحفصٌ: ﴿قُتِلُوا﴾[٤] أي: استشهَدوا.

قولُهُ: (يُحبِطَ) الأنسبُ: لن يضيِّعَ.

قولُهُ: (وَمَا فِي الدُّنيَا) أي: من المنفعةِ.

قولُهُ: (تَغلِيباً) والظَّاهرُ أنَّ الهدايةَ تفسَّرُ بحسبِ القراءةِ.

قولُهُ: (بيَّنَهَا) أو طيَّبها لهم من العَرفِ ـ بالفتحِ ـ وهو طيبُ الرَّائحةِ[٥]، وفي الحديثِ: «إنَّ ريحَ الجنَّةِ يُوجَدُ مِن مسيرةِ خمسِ مائةِ عامٍ»[٦].

---

(١) كذا العبارة في الأصول، والأليق أن تكون: المسلمين.

(٢) انظر: «مختصر الطحاوي» (ص: ٢٨٩).

(٣) انظر: «الحاوي الكبير» (٨/ ٤٠٨).

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٠).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٨٣٦) إلا أنه قال: العَرْف: الريح طيبة أو منتنة، وأكثر استعماله في الطيبة.

(٦) رواه ابن ماجه (٢٦١١) من حديث عبد الله بن عَمرو رضي الله عنهما، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣/ ١١٨): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

ورواه عنه البخاري (٦٩١٤) إلا أنه قال: «من مسيرة أربعين عاماً».

٧ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إن تَنصُرُوا اللهَ﴾ أي: دِينَه ورسوله ﴿يَنصُرْكُم﴾ على عدوّكم، ﴿ويُثَبِّتْ أقدامَكُم﴾: يُثَبِّتكم في المعترك. ٨ ـ ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة، مُبتدأ خبره: تَعِسُوا، يدلّ عليه: ﴿فتَعْسًا لَهُم﴾ أي: هلاكًا وخيبة من الله، ﴿وأضَلَّ أعمالَهُم﴾: عطفٌ على «تعسوا». ٩ ـ ﴿ذلِكَ﴾ أي: التعس والإضلال ﴿بِأنَّهُم كَرِهُوا ما أنزَلَ اللهُ﴾ من القُرآن المشتمل على التكاليف، ﴿فأحبَطَ أعمالَهُم﴾.

١٠ ـ ﴿أفلَم يَسِيرُوا في الأرضِ، فيَنظُرُوا: كَيفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم؟ دَمَّرَ اللهُ علَيهِم﴾: أهلكَ اللهُ أنفُسَهم وأولادهم وأموالهم، ﴿ولِلكافِرِينَ أمثالُها﴾: أمثالُ عاقبة مَن قبلهم. ١١ ـ ﴿ذلِكَ﴾ أي: نصرُ المُؤمنين وقهر الكافرين ﴿بِأنَّ اللهَ مَولَى﴾: وليُّ وناصرُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا، وأنَّ الكافِرِينَ لا مَولَى لَهُم﴾.

١٢ ـ ﴿إنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ جَنّاتٍ، تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ، والَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا، ﴿ويأكُلُونَ كَما تأكُلُ الأنعامُ﴾ أي: ليس لهم هِمّة إلاّ بطونهم وفروجهم، ولا يلتفتون إلى الآخرة، ﴿والنّارُ مَثوًى لَهُم﴾: منزلٌ ومُقام ومَصير. ١٣ ـ ﴿وكَأيِّن﴾: وكم ﴿مِن قَريَةٍ﴾ أُريد بها أهلُها، ﴿هِيَ أشَدُّ قُوَّةً مِن قَريَتِكَ﴾ مكّةَ أي: أهلِها ﴿الَّتِي أخرَجَتْكَ﴾ رُوعي لفظ «قرية»، ﴿أهلَكناهُم﴾ ـ رُوعي معنى «قرية» الأُولى ـ ﴿فلا ناصِرَ لَهُم﴾ من إهلاكنا!...................

قولُهُ: (ورَسُولَهُ) تخصيصٌ، والأظهرُ: أو رسولَهُ.

قولُهُ: (في المُعتَرَكِ) وفي القيامِ بحقوقِ الإسلامِ.

قولُهُ: (يَدُلُّ عَليهِ ﴿فتَعْسًا﴾) انتصابُهُ بفعلِهِ الواجبِ إضمارُهُ سماعاً.

قولُهُ: (أي: هَلاكاً) أو عثاراً، أو انحطاطاً.

قولُهُ: (التَّكالِيفِ) من التَّوحيدِ والأوامرِ المخالفةِ لما ألِفوهُ.

قولُهُ: (وأَولادَهُم) الأولى: أهليهم.

قولُهُ: (عَاقِبَةِ) أو عقوبةِ.

قولُهُ: (في الدُّنيَا) أي: ينتفِعونَ بمتاعِ الدُّنيا.

قولُهُ: (ومَصِيرٌ) الواو فيهما؛ بمعنى: أو.

قولُهُ: (لَفظُ القَريَةِ) والإخراجُ باعتبارِ التَّسبُّبِ.

قولُهُ: (مِنْ إِهلاكِنَا) ظاهرُه أنَّ الضَّميرَ في ﴿لَهُم﴾ للقريةِ الأولى، والأظهرُ: أنّه للثّانيةِ.

١٤ ـ ﴿أفَمَن كانَ علَى بَيِّنةٍ﴾: حُجّة وبُرهان ﴿مِن رَبِّهِ﴾ ـ وهم المُؤمنون ـ ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ فرآه حسنًا ـ وهم كُفّار مكّة ـ ﴿واتَّبَعُوا أهْواءَهُم﴾ في عِبادة الأوثان؟ أي: لا مُماثلة بينهما.

١٥ ـ ﴿مَثَلُ﴾ أي: صِفةُ ﴿الجَنّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ﴾، المُشترَكُ بين داخليها، مبتدأ خبره: ﴿فِيها أنهارٌ مِن ماءٍ غَيرِ آسِنٍ﴾ ـ بالمدّ والقصر، كضارِب وحَذِر ـ أي: غيرِ مُتغيّر بخِلاف ماء الدنيا فيتغير لعارض، ﴿وأنهارٌ مِن لَبَنٍ لَم يَتَغَيَّرْ طَعمُهُ﴾ بخِلاف لبن الدنيا لخروجه من الضروع، ﴿وأنهارٌ مِن خَمرٍ لَذّةٍ﴾: لذيذة ﴿لِلشّارِبِينَ﴾ بخِلاف خمر الدنيا فإنها كريهة عند الشرب، ﴿وأنهارٌ مِن عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ بخِلاف عسل الدنيا فإنه بخروجه من بُطون النحل يخالطه الشمع وغيره، ﴿ولَهُم فِيها﴾ أصنافٌ ﴿مِن كُلِّ الثَّمَراتِ، ومَغفِرةٌ مِن رَبِّهِم﴾ ـ فهو راضٍ عنهم مع إحسانه إليهم بما ذُكر بخِلاف سيّد العبيد في الدنيا. فإنه قد يكون مع إحسانه إليهم ساخطًا عليهم ـ ﴿كَمَن هُوَ خالِدٌ في النّارِ﴾: خبرُ مُبتدأ مُقدّر، أي: أم مَن هو في هذا النعيم؟ ﴿وسُقُوا ماءً حَمِيمًا﴾ أي: شديد الحرارة، ﴿فقَطَّعَ أمعاءَهُم﴾ أي: مصارينهم، فخرجت من أدبارهم؟ وهو جمع مِعًى بالقصر، وألفه عن ياء لقولهم: مِعَيانِ.

قولُهُ: (وبُرهَانٍ) بيانٍ، وهو القرآنُ.

قولُهُ: (وهُم كُفَّارُ مَكَّةَ) لا وجهَ للتَّخصيصِ أبداً.

قولُهُ: (في عِبَادَةِ الأَوْثَانِ) وغيرِها ممَّا لا شبهَةَ لهم عليها فضلاً عن حجَّةٍ.

قولُهُ: (المُشتَرَكُ) الظَّاهرُ: المشتركَةُ.

قولُهُ: (خَبَرُهُ) أي: الجملةُ، أو فيما نقصُّ عليك صِفتُها العجيبَةُ، والجملةُ استئنافٌ.

قوله: (والقَصرِ) مكِّيٌّ[1].

قولُهُ: (لَذِيذَةٍ) لا يكون فيها كراهَةُ طعمٍ وريحٍ ولا غائلَةُ سكرٍ وخمارٍ، تأنيثُ: لذٍّ، أو مصدرٌ نُعِتَ به بإضمارٍ أو تجوُّزٍ.

قولُهُ: (بخُرُوجِهِ) في كونِ هذا وما قبلَهُ علةً نظَرٌ ظاهرٌ.

قولُهُ: (وغَيرُهُ) من فَضلاتِ النَّحلِ.

قولُهُ: (أَصنَافٌ) والأظهرُ: صنفٌ، وقولُهُ تعالى: (﴿وَمَغْفِرةٌ﴾) عطفٌ عليه، أو مبتدأٌ خبرُهُ محذوفٌ؛ أي: لهم مغفرَةٌ.

قولُهُ: (شَدِيدَ الحَرَارَةِ) مكانَ تلك الأشربَةِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٠).

١٦ ـ ﴿ومِنهُم﴾ أي: الكُفّارِ ﴿مَن يَستَمِعُ إلَيكَ﴾ في خُطبة الجُمعة ـ وهم المنافقون ـ ﴿حَتَّى إذا خَرَجُوا مِن عِندِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ﴾: لعُلماء الصحابة، منهم ابن مسعود وابن عبّاس، استهزاءً وسخرية: ﴿ماذا قالَ آنِفًا﴾ ـ بالمد والقصر ـ أي: الساعةَ؟ أي: لا يُرجَعُ إليه. ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِم﴾ بالكُفر ﴿واتَّبَعُوا أهواءَهُم﴾ في النِّفاق، ١٧ ـ ﴿والَّذِينَ اهتَدَوا﴾ ـ وهم المُؤمنون ـ ﴿زادَهُمْ﴾ اللهُ ﴿هُدًى، وآتاهُم تَقواهُم﴾: ألهمَهم ما يتّقون به النار.

١٨ ـ ﴿فهَل يَنظُرُونَ﴾: ما ينتظرون، أي: كُفّارُ مكّة ﴿إلاّ السّاعَةَ، أن تأتِيَهُم﴾: بدلُ اشتمال من «الساعةَ»، أي: ليس الأمر إلاّ أن تأتيهم ﴿بَغْتَةً﴾: فجْأة؟ ﴿فقَد جاءَ أشراطُها﴾: علاماتها، منها بَعثُ النبيّ ﷺ وانشقاقُ القمر والدخانُ. ﴿فأنّى لَهُم، إذا جاءَتْهُم﴾ الساعةُ، ﴿ذِكراهُم﴾: تذكّرُهم؟ أي: لا ينفعهم.

١٩ ـ ﴿فاعلَمْ أنَّهُ لا إلـٰهَ إلاّ اللهُ﴾ أي: دُمْ ـ يا مُحمّد ـ على عِلمك بذلك النافع في القيامة، ﴿واستَغفِرْ لِذَنبِكَ﴾ لأجله ـ قيل له ذلك مع عِصمته لتَستنّ به أُمّتُه، وقد فعله قال ﷺ: «إنّي لأستَغفِرُ اللهَ في كُلِّ يَومٍ مِائَةَ مَرّةٍ» ـ ﴿ولِلمُؤمِنِينَ والمُؤمِناتِ﴾. فيه إكرام لهم بأمر نبيهم بالاستغفار لهم. ....

قولُهُ: (في خُطبَةِ الجُمُعَةِ) وغيرِها من المجالِسِ.

قولُهُ: (مِنهُم) لا وجهَ للتَّخصيصِ.

قولُهُ: (استِهزَاءً) أي: في أنفسِهِم، أو استِعلاماً؛ إذ لم يُلقُوا له آذانَهُم تهاوناً به، وهو علَّةٌ لـ﴿قَالُوا﴾.

قولُهُ: (والقَصرِ) للبزِّيِّ بخلفٍ[1].

قولُهُ: (في النِّفَاقِ) فلذلكَ استهزَؤوا بها، وتهاوَنوا بكلامِهِ.

قولُهُ: (وهُمُ المُؤمِنُونَ ﴿زادَهُمْ﴾ اللهُ) بالتَّوفيقِ والإلهامِ، أو قولِ الرَّسولِ.

قولُهُ: (أَلهَمَهُم) أو بيَّنَ لهم، أو أعانَهُم على تقواهُم، أو أعطاهُم جَزاءَها.

قولُهُ: (أي: دُمْ) يعني: إذا علمْتَ سعادةَ المؤمنينَ وشقاوةَ الكافرينَ؛ فاثبُت على ما أنتَ عليهِ من العلمِ بالوحدانيَّةِ، وتكميلِ النَّفسِ بإصلاحِ أحوالِها وأفعالِها وهضمِها بالاستغفارِ.

قولُهُ: (لِتَستَنَّ) أو لإظهارِ العبوديَّةِ ورؤيةِ تقصيرِها، أو لما عَسى صَدرَ عنهُ من خلافِ الأولى.

قولُهُ: (لَهُم) أي: لذنوبِهِم بالدُّعاءِ لهم، والتَّحريضِ على ما يستدعِي غفرانَهُم.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٠٠).

﴿واللهُ يَعلَمُ مُتَقَلَّبَكُم﴾: مُتصرَّفكم لأشغالكم بالنهار، ﴿ومَثواكُم﴾: مأواكم إلى مضاجعكم بالليل، أي: هو عالم بجميع أحوالكم لا يخفى عليه شيء منها. فاحذروه. والخطاب للمُؤمنين وغيرهم.

٢٠ ـ ﴿ويَقولُ الَّذينَ آمَنُوا﴾ طلبًا للجِهاد: ﴿لَولا﴾: هلاّ ﴿نُزِّلَتْ سُورةٌ﴾ فيها ذِكر الجِهاد. ﴿فإذا أُنزلَتْ سُورةٌ مُحكَمَةٌ﴾ أي: لم يُنسخ منها شيء، ﴿وذُكِرَ فِيها القِتالُ﴾ أي: طلبُه، ﴿رأيتَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ أي: شكٌّ ـ وهم المُنافقون ـ ﴿يَنظُرُونَ إليكَ نَظَرَ المَغْشِيِّ عليهِ مِنَ المَوتِ﴾ خوفًا منه وكراهية له، أي: فهم يخافون من القِتال ويكرهونه. ﴿فأَولَى لَهُم﴾: مُبتدأ خبرُه: ٢١ ـ ﴿طاعةٌ وقَولٌ مَعرُوفٌ﴾ أي: حَسَنٌ لك، ﴿فإذا عَزَمَ الأمرُ﴾ أي: فُرِضَ القِتال ﴿فلَو صَدَقُوا اللهَ﴾ في الإيمان والطاعة ﴿لَكانَ خَيرًا لَهُم﴾. وجملة «لو» جوابُ: إذا.

٢٢ ـ ﴿فهَل عَسَيتُم﴾ ـ بفتح السين وكسرها، وفيه التفات عن الغَيبة ـ أي: لعلّكم، ﴿إن تَوَلَّيتُم﴾: أعرضتم عن الإيمان، ﴿أن تُفسِدُوا في الأرضِ، وتُقَطِّعُوا أرحامَكُم﴾،..........................

قولُهُ: (إلى مَضَاجِعِكُم) أو متقلَّبِكُم في الدُّنيا، فإنَّها مراحلُ لا بدَّ من قطعِها، ومثواكُم في العقبى، فإنَّها دارُ إقامتِكُم، فاتَّقوا اللهَ، واستغفرُوهُ وأعدُّوا لمعادِكُم.

قولُهُ: (أي: لَمْ يُنْسَخْ) أو مبيَّنةٌ لا تشابهَ فيها.

قولُهُ: (شَكٌّ) أو ضعفٌ، أو نفاقٌ.

قولُهُ: (خَوفاً) وجُبناً.

قولُهُ: (وخَبَرُهُ) يوهمُ أنَّ الخبرَ ﴿طَاعَةٌ﴾ وليسَ كذلك، بل ﴿أَوْلَى﴾ مبتدأٌ؛ بمعنى: ويلٌ، والخبرُ: ﴿هُمْ﴾ و﴿طَاعَةٌ﴾ استئنافٌ؛ أي: أمرُهُم، أو ﴿طَاعَةٌ وقَولٌ مَعْرُوفٌ﴾ خيرٌ لهم.

قولُهُ: (أي: فُرِضَ القِتَالُ) يعني: صارَ الأمرُ معزوماً؛ أي: تحقَّقَ الأمرُ، أو ﴿عزمَ﴾ بمعنى: جدَّ؛ أي: أصحابُ الأمرِ.

قولُهُ: (فِي الإِيمَانِ) أو فيما زعَمُوا من الحرصِ على الجهادِ (﴿لكانَ﴾) الصِّدقُ.

قولُهُ: (جَوَابُ: ﴿إِذَا﴾) الصَّحيحُ أنَّ عاملَ الظَّرفِ محذوفٌ نحو: كرِهوا.

قولُهُ: (بِكَسرِ السِّينِ) نافعٌ[1].

قولُهُ: (أي: لَعَلَّكُم) أي: فهل يُتَوَقَّعُ منكم، أو توقَّعْتُم من أنفسِكُم.

قولُهُ: (أَعرَضْتُم) أو تولَّيتُم أمورَ النَّاسِ، وهو اعتراضٌ بين «عسى» وخبرِها.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٨١).

أي: تعودوا إلى أمر الجاهليّة من البغي والقِتال؟ ٢٣ ـ ﴿أُولئِكَ﴾ أي: المُفسدون ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ، فأَصَمَّهُم﴾ عن استماع الحقّ، ﴿وأعمَى أبصارَهُم﴾ عن طريق الهداية. ٢٤ ـ ﴿أفلا يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ﴾ فيعرفون الحقّ؟ ﴿أم﴾: بل ﴿علَى قُلُوبٍ﴾ لهم ﴿أقفالُها﴾ فلا يفهمونه.

٢٥ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ ارتَدُّوا﴾ بالنِّفاق ﴿علَى أدبارِهِم مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى الشَّيطانُ سَوَّلَ﴾: زَيَّن ﴿لَهُم وأُملِيَ لَهُم﴾، بضمِّ أوّله، وبفتحِه واللامَ والمُملي: الشيطانُ بإرادته ـ تعالى ـ فهو المُضلّ لهم. ٢٦ ـ ﴿ذلِكَ﴾ أي: إضلالهم ﴿بِأَنَّهم قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ﴾ أي للمُشركين: ﴿سَنُطِيعُكُم في بَعضِ الأمرِ﴾ أمر المُعاونةِ على عداوة النبيِّ ﷺ وتثبيط الناس عن الجِهاد معه. قالوا ذلك سرًّا، فأظهره الله تعالى. ﴿واللهُ يَعلَمُ أسرارَهُم﴾........................

قولُهُ: (تَعُودُوا) أو تحرِصوا على الولايةِ وتجاذبوا لها.

قولُهُ: (والقَتلِ) للأقاربِ والأجانبِ والغارةِ.

قولُهُ: (فَيَعرِفُونَ) أو فلا يجترئُونَ على المعاصِي.

قولُهُ: (بَل) يعني أنَّ ﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ؛ بمعنى: بل والهمزَةِ، ومعناها: التَّقريرُ، والأظهرُ: الاتِّصالُ.

قولُهُ: (لَهُم) تنكيرُ القلوبِ؛ لأنَّ المرادَ قلوبُ بعضٍ.

قولُهُ: (فلا يَفهَمُونَهُ) وإضافةُ الأقفالِ إليها للدِّلالةِ على أقفالٍ مناسبةٍ لها مختصَّةٍ بها لا تجانسُ الأقفالَ المعهودَةَ.

قولُهُ: (بالنِّفَاقِ) لا وجهَ للتَّخصيصِ، والحكمُ عامٌّ.

قولُهُ: (أي: زَيَّنَ) وسهَّلَ.

قولُهُ: (بِضَمِّ أوَّلِهِ) على البناءِ للمفعولِ بصريٌّ[1].

قولُهُ: (الشَّيطَانُ) أي: مدَّ لهم في الآمالِ والأماني، أو أمهلَهُمُ اللهُ تعالى ولم يعاجِلهُم بالعقوبةِ لقراءةِ يعقوبَ: (وَأُمْلِيَ لَهُم)[2]؛ أي: وأنا أُملِي لهم، فتكونُ الواو للحالِ أو الاستئنافِ.

قولُهُ: (أي: إِضْلالُهُم) أو ضلالُهُم، والضَّميرُ للمنافقينَ، أو لهم ولليهودِ.

قولُهُ: (أَمرِ المُعَاوَنَةِ) أي: في بعضِ أمورِكُم، أو في بعضِ ما تأمرونَ به.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠١).

(٢) انظر: «تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص: ٥٥٩).

بفتح الهمزة: جمع سِرّ، وبكسرها مصدر.

٢٧ ـ ﴿فكَيفَ﴾ حالُهم، ﴿إذا تَوَفَّتْهُمُ المَلائكةُ، يَضرِبُونَ﴾: حالٌ من الملائكة ﴿وُجُوهَهُم وأدبارَهُم﴾: ظُهورهم بمقامع من حديد؟ ٢٨ ـ ﴿ذلِكَ﴾ التوفّي، على الحال المذكورة، ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسخَطَ اللهَ، وكَرِهُوا رِضوانَهُ﴾ أي: العملَ بما يُرضيه، ﴿فأحبَطَ أعمالَهُم﴾.

٢٩ ـ ﴿أم حَسِبَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ أن لَن يُخرِجَ اللهُ أضغانَهُم﴾: يُظهرَ أحقادهم على النبيّ ﷺ والمُؤمنين؟ ٣٠ ـ ﴿ولَو نَشاءُ لَأَرَيناكَهُم﴾: عرّفناكهم، وكُرِّرَتِ اللامُ في ﴿فلَعَرَفتَهُم بِسِيماهُم﴾: علامتِهم، ﴿ولَتَعرِفَنَّهُم﴾ ـ الواو: لقسم محذوف، وما بعدها جوابه ـ ﴿في لَحنِ القَولِ﴾ أي: في معناه، إذا تكلّموا عِندك بأن يُعرّضوا بما فيه تهجينُ أمر المُسلمين. ﴿واللهُ يَعلَمُ أعمالَكُم﴾.

٣١ ـ ﴿ولَنَبلُوَنَّكُم﴾: نختبرَنّكم بالجِهاد وغيره ﴿حَتَّى نَعلَمَ﴾ عِلمَ ظُهورٍ ﴿المُجاهِدِينَ مِنكُم والصّابِرِينَ﴾ في الجِهاد وغيره، ﴿ونَبلُوَ﴾: نُظهِرَ ﴿أخبارَكُم﴾ من طاعتكم وعِصيانكم في الجِهاد وغيره. بالياء والنون في الأفعال الثلاثة.

قولُهُ: (جَمْعُ: سِرٍّ) ومنها قولُهُم: هذا الَّذي أفشاهُ اللهُ عليهم.

قولُهُ: (وبِكَسرِهَا) حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ[1].

قولُهُ: (حَالُهم) أي: كيفَ يعمُلونَ ويحتالونَ حينئذٍ.

قولُهُ: (عَلى النَّبِيِّ) أي: للنَّبيِّ متعلِّقٌ بـ«يُظهرَ».

قولُهُ: (عَرَّفْنَاكَهُم) بدلائلَ تعرِّفُ أعيانَهُم.

قولُهُ: (وكُرِّرَتِ اللَّامُ) لجوابِ ﴿لو﴾.

قولُهُ: (أي: مَعنَاهُ) أو أسلوبِهِ، أو إمالتِهِ إلى جهةِ تعريضٍ وتوريةٍ، ومنهُ قيلَ للمُخطِئِ: اللَّاحنُ[2]؛ لأنَّه يعدلُ الكلامَ عن الصَّوابِ.

قولُهُ: (عِلْمَ ظُهُورٍ) يتعلَّقُ به الثَّوابُ والعقابُ.

قولُهُ: (نُظهِرُ) تفسيرٌ بما هو القصدُ من الابتلاءِ؛ أي: ما يخبرُ به عن أعمَالِكُم فيظهرُ حَسَنُها وقبيحُها، أو إخبارُهُم عن إيمانِهِم وموالاتِهِم المؤمنينَ في صدقِها وكذبِها.

قولُهُ: (والنُّونِ) غيرُ شعبةَ[3].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠١).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٢٣٠).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠١).

٣٢ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَن سَبِيلِ﴾: طريقِ ﴿اللهِ، وشاقُّوا الرَّسُولَ﴾: خالفوه ﴿مِن بَعدِ ما تبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى﴾ هو معنى: سبيل الله، ﴿لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيئًا! وسَيُحبِطُ﴾ اللهُ ﴿أعمالَهُم﴾: يُبطلُها من صدَقة ونحوها، فلا يرون لها في الآخرة ثوابًا. نزلتْ في المُطعِمِينَ من أصحاب بدر أو في قُرَيظةَ والنضيرِ.

٣٣ ـ ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، أطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ، ولا تُبطِلُوا أعمالَكُم﴾ بالمعاصي مثلاً.

٣٤ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ﴾: طريقِه وهو الهُدى، ﴿ثُمَّ ماتُوا وهُم كُفّارٌ، فلَن يَغفِرَ اللهُ لَهُم﴾. نزلتْ في أصحاب القَليب. ٣٥ ـ ﴿فلا تَهِنُوا﴾: تَضعُفوا، ﴿وتَدعُوا إلَى السَّلمِ﴾ ـ بفتح السين وكسرها ـ أي: الصُّلحِ مع الكُفّار إذا لقيتُموهم، ﴿وأنتُمُ الأعلَونَ﴾، حُذف منه واوٌ لام الفعل: الأغلبون القاهرون، ﴿واللهُ مَعَكُم﴾ بالعون والنصر، ﴿ولَن يَتِرَكُم﴾: يَنقُصَكم ﴿أعمالَكُم﴾ أي: ثوابَها.

قولُهُ: (طَرِيقِ) بالصَّدِّ أو الصُّدودِ.

قولُهُ: (مَعنَى: سَبِيلِ اللهِ) الظَّاهرُ أنَّه بمعنى الدِّلالةِ الدَّالَّةِ على حقيقةِ السَّبيلِ؛ يعني: بإنزالِ القرآنِ المشتملِ على الأدلَّةِ العقليَّةِ والنَّقليَّةِ، وبإظهارِ سائرِ المعجزاتِ الظَّاهراتِ المظهراتِ للنُّبوَّةِ.

قولُهُ: (يُبْطِلُهَا) أي: ثوابَ حسناتِ أعمالِهم بذلك.

قوله: (بالمَعَاصِي مَثَلاً) قولُهُ: «مثلاً» لغوٌ، ثمَّ مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ أنَّ المعاصِيَ لا تُبطِلُ الأعمالَ، ولذا قالَ القاضِي[1]: وليسَ فيه دليلٌ على إحباطِ الطَّاعاتِ بالكبائرِ، فالصَّوابُ أن يُقالَ: ولا تُبطِلوها بما أبطلَ به هؤلاءِ كالكفرِ والنِّفاقِ، أو بالعجبِ والرِّياءِ والسُّمعةِ والأذى ونحوِها، أو لا تبطِلوها بعدَ الشُّروعِ فيها ولو نفلاً كما هو مذهبُنا مطلقاً[2] ومذهبُ الشَّافعيِّ في الحجِّ والعمرةِ[3].

قولُهُ: (نَزَلَتْ) عامٌّ في كلِّ من ماتَ على الكفرِ وإن صحَّ نزولُهُ في أصحابِ القليبِ، وهو بئرٌ ببدرٍ.

قولُهُ: (وكَسرِهَا) شعبةُ وحمزةُ[4].

قولُهُ: (أي: الصُّلحِ) جُبناً وتذلُّلاً.

قولُهُ: (لامِ الفِعلِ) لأنَّ الضَّمَّةَ على الواوِ ثقيلةٌ، أو لأنَّ الواوَ متحرِّكةٌ، وما قبلها مفتوحٌ، فقُلبَتِ ألِفًا ثمَّ حُذفَتِ الواوُ أو الألفُ لالتقاءِ السَّاكنينِ، وهذا إنَّما ذكرناهُ تبعاً للشَّيخِ، وإلَّا فمثلُ هذا لا يليقُ بمثلِ هذا التَّفسيرِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٢٤).

(٢) انظر: «البناية شرح الهداية» (٤/ ٨٧).

(٣) انظر: «المجموع شرح المهذب» (٦/ ٣٩٣).

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠١).

٣٦ ـ ﴿إِنَّما الحَياةُ الدُّنيا﴾ أي: الاشتغال فيها ﴿لَعِبٌ ولَهوٌ، وإن تُؤمِنُوا وتَتَّقُوا﴾ اللهَ ـ وذلك من أُمور الآخرة ـ ﴿يُؤتِكُم أُجُورَكُم، ولا يَسألكُم أموالَكُم﴾ جميعَها بل الزكاةَ المفروضة فيها. ٣٧ ـ ﴿إن يَسألْكُمُوها فيُحفِكُم﴾: يبالغْ في طلبها ﴿تبخَلُوا، ويُخرِجْ﴾ البخلُ ﴿أضغانَكُم﴾ لِدِين الإسلام. ٣٨ ـ ﴿ها أنتُم﴾ يا ﴿هؤُلاءِ تُدعَونَ لِتُنفِقُوا في سَبِيلِ اللهِ﴾ ما فَرَض عليكم، ﴿فمِنكُم مَن يَبخَلُ، ومَن يَبخَلْ فإنَّما يَبخَلُ عَن نَفْسِهِ﴾ ـ يقال: بَخِلَ عليه وعنه. ﴿واللهُ الغَنِيُّ﴾ عن نفقتكم ﴿وأنتُمُ الفُقَراءُ﴾ إليه ـ ﴿وإن تَتَوَلَّوا﴾ عن طاعته ﴿يَستَبدِلْ قَومًا غَيرَكُم﴾ أي: يجعلْهم بدلَكم، ﴿ثُمَّ لا يَكُونُوا أمثالَكُم﴾ في التولّي عن طاعته، بل مُطيعين له، عزّ وجلّ.

قولُهُ: (بلِ الزَّكَاةَ) كربعِ العشرِ.

قولُهُ: (يُبَالِغْ) بطلبِ الكلِّ، أو الأكثرِ، أو النِّصفِ.

قولُهُ: (البُخلَ) لأنَّهُ سببُ الإضغانِ بالكسرِ أو الفتحِ، أو الضَّميرُ للهِ تعالى، ويؤيِّدُه القراءةُ بالنُّونِ(١).

قولُهُ: (يَا) أي: أنتُم يا مخاطَبونَ، (﴿هؤلاءِ﴾) الموصوفونَ و(﴿تُدْعَونَ﴾) استئنافٌ مقرِّرٌ لذلك، أو صلةٌ لـ﴿هَؤُلَاءِ﴾ على أنَّه بمعنى: الَّذين على رأيِ الكوفيِّينَ من أنَّ الإشاراتِ؛ بمعنى: الموصُولاتِ(٢).

قولُهُ: (مَا فَرَضَ عَلَيكُم) أو هو يعمُّ نفقةَ الغزوِ والزَّكاةِ وغيرِهما.

قولُهُ: (يُقَالُ) يعني: البخلُ يُعَدَّى بـ«عنْ» و«على» لتضمُّنِهِ معنى الإمساكِ والتَّعدِّي، فإنَّهُ إمساكٌ عن مستحقٍّ.

قولُهُ: (إلَيهِ) فما يأمرُكُم به فهو لاحتياجِكُم، فإن امتثَلْتُم فلكُم، وإن تولَّيتُم فعَلَيكُم.

قولُهُ: (عَن طَاعَتِهِ) عُطِف على: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾.

قولُهُ: (نجْعَلْهُم بَدَلَكُم) أي: يُقِم مقامَكُم قَومًا آخرينَ.

قولُهُ: (في التَّوَلِّي) والزُّهدِ في الإيمانِ، وهمُ الفرسُ، أخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ عن أبي هريرةَ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ تلا هذهِ الآيةَ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ؛ مَن هؤلاءِ؟ فضربَ بيدِهِ على كتفِ سلمانَ الفارسيِّ ثمَّ قالَ: «هذا وقومُهُ، ولو كانَ الدِّينُ عندَ الثُّريَّا لنالَهُ الرَّجلُ مِنَ الفرسِ»، كذا في «المبهماتِ»(٣)، وقيلَ: الأنصارُ، أو اليمنُ، أو الملائكةُ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) أي: (ونخرج) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن عباس رضي الله عنهما، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٤٢).

(٢) انظر: «الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين» (٢/ ٥٨٩).

(٣) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١٠٠). ورواه الترمذي (٣٢٦١)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢١٣٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٧١٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ

وتُسمَّى: سورة القتال، وهي مدنيَّةٌ عند الأكثرين ولم يذكروا استثناء، وعن ابن عباس وقتادة أنها مدنيَّةٌ إلا قولَه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ [الآية: ١٣] إلى آخره، فإنه ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار التفتَ إليها وقال: «أنتِ أحبُّ بلاد الله تعالى إلى الله، وأنت أحبُّ بلادِ الله تعالى إليَّ، ولولا أنَّ أهلك أخرجوني منكِ لم أَخرجْ منكِ»، فأنزل الله تعالى ذلك[1]، فيكون مكيًّا بناءً على أن ما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغها النبيُّ ﷺ ـ أعني ما نزل في سفر الهجرة ـ من المكي اصطلاحًا كما يؤخذ من أثرٍ أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي بسنده إلى يحيى بن سلام[2].

وعِدَّةُ آيها أربعون في البصري وثمان وثلاثون في الكوفي وتسع ـ بالتاء الفوقية ـ وثلاثون فيما عداهما، والخلافُ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [الآية: ٤] وقوله تعالى: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الآية: ١٥] ولا يخفى قوةُ ارتباط أوَّلها بآخرِ السورة قبلَها واتصاله وتلاحُمه بحيث لو سقطت من البين البسملة لكانا متصلًا واحدًا لا تنافرَ فيه كالآية الواحدة آخذًا بعضُه بعنق بعض. وكان ﷺ على ما أخرج الطبراني في «الأوسط» عن ابن عمر رضي الله عنهما يقرؤها في صلاة المغرب[3].

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/١٩٨. وأخرجه بنحوه دون ذكر الآية أحمد (١٨٧١٥)، والترمذي (٣٩٢٥) من حديث عبد الله بن عدي رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وينظر ما سيأتي ص١٤٤ من هذا الجزء.

(٢) حيث قال: ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي، وما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدني. ذكره السيوطي في الإتقان ١/٢٦ وورد في مطبوعه: عثمان بن سعد الرازي، بدل: عثمان بن سعيد الدارمي.

(٣) المعجم الأوسط (١٢٣٩)، وأخرجه أيضاً ابن حبان (١٨٣٥). قال الهيثمي في المجمع ٢/١١٨: رجاله رجال الصحيح.

وأخرج ابن مردويه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: نزلت سورة محمد آية فينا وآية في بني أمية[1]. ولا أظنُّ صحةَ الخبر. نعم لكفار بني أُمية الحظُّ الأوفر من عمومات الآيات التي في الكفار كما أنَّ لأهل البيت ﷺ المُعلَّى والرقيب من عُمومات الآيات التي في المؤمنين، وأكثرُ من هذا لا يُقال سوى أني أقول: لعن الله تعالى من قطع الأرحامَ وآذى الآل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: أعرضوا عن الإسلام وسلوك طريقه، أو: منعوا غيرَهم عن ذلك، على أن صدَّ لازمٌ أو مُتعدٍّ، قال في «الكشف»: والأول أظهرُ، لأنَّ الصدَّ عن سبيل الله هو الإعراضُ عمَّا أتى به محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨] فيطابق قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [الآية: ٢] وكثيرٌ من الآثار تُؤيِّد الثاني.

وفسَّر الضحاك «سبيل الله» ببيت الله عز وجل، وقال: صدُّهم عنه مَنْعُهم قاصديه. وليس بذلك.

والآية عامَّةٌ لكلِّ من اتَّصف بعنوان الصِّلة. وقال ابن عباس: هم ـ أي: الذين كفروا وصدُّوا على الوجه الثاني في «صدوا» ـ المطعمون يومَ بدر الكبرى. وكأنه عنَى من يدخل في العموم دخولًا أوليًّا، فإن أولئك كانوا صادِّين بأموالهم وأنفسهم، فصدُّهم أعظمُ من صدِّ غيرهم ممن كفر وصدَّ عن السبيل. وأولُ من أطعم منهم ـ على ما نُقل عن سيرة ابن سَيِّد الناس[2] ـ أبو جهل عليه اللعنة؛ نحرَ لكفار قريش حين خرجوا من مكة عشرًا من الإبل، ثم صفوان بن أمية نحر تسعًا بِعُسْفان، ثم سهل بن عمرو نحر بِقُدَيْد عشرًا، ثم شيبة بن ربيعة وقد ضلُّوا الطريق نحر تسعًا، ثم عُتبة بن ربيعة نحر عشرًا، ثم مِقْيس الجُمحي بالأبواء نحر تسعًا، ثم

(١) الدر المنثور ٦/٤٦.
(٢) عيون الأثر ١/٢٤٩.

العباس نحر عشرًا، والحارث بن عامر نحر تسعًا، وأبو البَخْتري على ماء بدر نحر عشرًا، ومِقْيَس تسعًا؛ ثم شغلتهم الحرب فأكلوا من أزوادهم.

وقيل: كانوا ستَّة نفر: نبيه ومنبّه ابنا الحجاج، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل والحارث ابنا هشام، وضمَّ مقاتلٌ إليهم ستَّةً أُخرى وهم: عامر بن نوفل، وحكيم بن حزام، وزمعة بن الأسود، والعباس بن عبد المطلب، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب، أَطعم كلٌّ واحد منهم يومًا الأحابيش والجنود يستظهرون بهم على حرب رسول الله ﷺ. ولا يُنافي عدُّ أبي سفيان ـ إنْ صحَّت الرواية ـ من أولئك كونَه مع العِير، لأنَّ المرادَ بيوم بدر زمنُ وقعتها، فيشمل مَنْ أطعم في الطريق وفي مُدَّتها حتى انقضت.

وقال مقاتل: هم اثنا عشر رجلًا من أهل الشِّرك كانوا يصدُّون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر.

وقيل: هم شياطين من أهل الكتاب صدُّوا من أراد منهم أو من غيرهم عن الدخول في الإسلام.

والموصول مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ①﴾ أي: أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعةً لا أثرَ لها ولا نَفْعَ أصلًا، لا بمعنى أنه سبحانه أبطلها وأحبطها بعد أن لم تكن كذلك، بل بمعنى أنه عز وجل حَكَم ببطلانها وضياعها، وأُريد بها ما كانوا يعملونه من أعمال البرِّ كصلةِ الأرحام وقِرى الأضياف وفكِّ الأسارى وغيرها من المكارم.

وجوِّز أن يكون المعنى: جعلها ضلالًا، أي: غير هدى، حيث لم يُوفِّقهم سبحانه لأنْ يقصدوا بها وجه سبحانه، أو جعلها ضالَّة، أي: غير مُهتديةٍ، على الإسناد المجازي.

ومن قال: الآية في المُطْعِمين وأضرابهم قال: المعنى: أبطل جل وعلا ما عَمِلوه من الكيد لرسول الله ﷺ كالإنفاق الذي أنفقوه في سفرهم إلى محاربته عليه الصلاة والسلام وغيره بنصر رسوله ﷺ وإظهار دينه على الدين كلِّه، ولعله أوفقُ بما بعدَه، وكذا بما قيل: إن الآية نزلت ببدر.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال ابن عباس ـ فيما أخرجه عنه جماعةٌ منهم الحاكم وصحَّحه ـ: هم أهلُ المدينة الأنصار، وفسَّر رضي الله عنه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأهل مكة قريش[1]. وقال مقاتل: هم ناسٌ من قريش، وقيل: مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: أعمُّ من المذكورين وغيرهم، فإن الموصول من صيغ العموم ولا داعي للتخصيص.

﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ من القرآن، وخُصَّ بالذكر الإيمان بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويهًا بشأنه وتنبيهًا على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمانُ به وأنه الأصل في الكلِّ، ولذلك أُكِّد بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهو جملةٌ معترضةٌ بين المبتدأ والخبر مُفيدة لحصر الحَقِّية فيه على طريقة الحصر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢] وقولك: حاتم الجواد، فيرادُ بالحقِّ ضدُّ الباطل.

وجُوِّز أن يكونَ الحصرُ على ظاهرِه، والحقُّ: الثابتُ، وحقِّيَّة ما نزل عليه عليه الصلاة والسلام لكونه ناسخًا لا يُنسخ، وهذا يقتضي الاعتناءَ به ومنه جاء التأكيد.

وأيًّاما كان فقوله تعالى: «من ربهم» حال من ضمير «الحقِّ».

وقرأ زيد بن عليٍّ وابن مقسم: «نَزَّل» مبنيًّا للفاعل، والأعمش: «أُنزِلَ» معدًّى بالهمزة مبنيًّا للمفعول. وقُرِئ: «أَنزل» بالهمز مبنيًّا للفاعل، «ونَزَلَ» بالتخفيف[2].

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: سترها بالإيمان والعمل الصالح، والمراد: أزالها ولم يُؤاخِذْهم بها ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ أي: حالهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد، وتفسير البال بالحال مرويٌّ عن قتادة، وعنه تفسيره بالشأن، وهو الحال أيضًا، أو ما لَه خطر، وعليه قول الراغب: البالُ: الحال التي يكترثُ بها، ولذلك يقال: ما باليتُ بكذا بالةً، أي: ما اكترثتُ به[3]. ومنه قوله ﷺ: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ»

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٦، والمستدرك ٢/ ٥٥٧، وأخرجه أيضاً الطبري ٢١/ ١٨٠-١٨١.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٣.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (بال).

الحديث[١]. ويكون بمعنى الخاطر القلبي، ويُتَجَّوز به عن القلب كما قال الشهاب[٢].

وفي «البحر»: حقيقة البال: الفكر والموضع الذي فيه نظرُ الإنسان، وهو القلب، ومَن صلح قلبه صلحتْ حالُه، فكأن اللفظَ مُشيرٌ إلى صلاح عقيدتهم، وغير ذلك من الحال تابعٌ له[٣]. وحُكي عن السفاقسي تفسيره هنا بالفكر، وكأنه لنحو ما أُشير إليه. وهو كما في «البحر» أيضًا مما لا يُثنَّى ولا يُجمع، وشذَّ قولُهم في جمعه: بالات.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرَّ من الإضلال والتكفير والإصلاح، وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ذلك كائنٌ بسبب اتباع الأولين الباطل واتِّباع الآخرين الحقَّ.

والمراد بالحقِّ والباطل معناهما المشهور. وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد تفسير «الباطل» بالشيطان. وفي «البحر»: قال مجاهد: «الباطل»: الشيطان وكلُّ ما يأمُر به، و«الحقّ»: هو الرسولُ والشرع، وقيل: «الباطلُ» ما لا ينتفع به[٤].

وجوَّز الزمخشري[٥] كون «ذلك» خبرَ مبتدأ محذوف، و«بأن» إلخ في محلِّ نصب على الحال، والتقدير: الأمرُ ذلك ـ أي: كما ذُكر ـ مُلتبسًا بهذا السبب، والعامل في الحال إما معنى الإشارة، وإما نحو: أثبته وأحقه، فإن الجملةَ تدلُّ على ذلك لأنه مضمونُ كلِّ خبر. وتعقَّبه أبو حيان[٦] بأن فيه ارتكابًا للحذف من غير داعٍ له.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٧١٢)، وأبو داود (٤٨٤٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وتتمته عند أحمد «... لا يُفتح بذكر الله، فهو أبتر»، وعند أبي داود: «... لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم». وسلف ١/ ١٨٧.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٤٠.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٧٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٣٠.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٧٣.

والجارُّ والمجرور أعني «من ربهم» في موضع الحال على كلِّ حال. والكلامُ ـ أعني قوله تعالى: «ذلك بأن» إلى قوله سبحانه: «من ربهم» ـ تصريحٌ بما أشعر به الكلام السابق من السببية لما فيه من البناء على الموصول، ويُسمِّيه علماء البيان: التفسير، ونظيره ما أنشده الزمخشري لنفسه:

به فُجعَ الفرسانُ فوق خيولهم كما فُجعت تحت الستور العَواتِقُ
تساقط من أيديهم البيضُ حَيْرةً وزعزع عن أجيادهنَّ المخانق[1]

فإنَّ فيه تفسيرًا على طريق اللفِّ والنَّشر كما في الآية، وهو من محاسن الكلام.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْلَ ذلك الضرب البديع ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي: يُبيِّن ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: لأَجْلهم ﴿أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: أحوالَ الفريقين المؤمنين والكافرين وأوصافَهما الجاريةَ في الغرابة مجرى الأمثال، وهي اتِّباع المؤمنين الحقَّ، وفوزُهم وفلاحُهم، واتِّباع الكافرين الباطلَ وخيبتهم وخُسرانُهم. وجوَّز أن يراد بِضَرْب الأمثال التمثيل والتشبيه بأن جعل سبحانه اتباع الباطل مثلًا لعمل الكفار، والإضلال مثلًا لخيبتهم، واتباع الحقِّ مثلًا لعمل المؤمنين، وتكفير السيئات مثلًا لفوزهم، والإشارةُ بذلك لما تضمَّنه الكلام السابق. وجوز كون ضمير «أمثالهم» للناس.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لترتيب ما في حيِّزها من الأمر على ما قبلها، فإنَّ ضلالَ أعمال الكَفَرة وخَيْبتهم، وصلاحَ أحوالِ المؤمنين وفلاحهم، مما يُوجب أن يترتَّب على كلٍّ من الجانبين ما يليقُ به من الأحكام، أي: إذا كان الأمر كذلك فإذا لقيتموهم في المحارب ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾. وقال الزمخشري: «لقيتم» من اللقاء وهو الحرب. و«ضَرْبَ» نصب على المصدرية لفعل محذوف، والأصل: اضربوا الرقابَ ضربًا، فحذف الفعل وقُدِّم المصدر وأُنيب منابه مضافًا إلى المفعول[2]. وحَذْفُ الفعل الناصب في مثل ذلك

(١) ذكرهما الشهاب في حاشيته ٨/ ٤١.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٠.

مما أُضيف إلى معموله واجبٌ، وهو أحدُ مواضعَ يجب فيها الحذفُ ذُكِرتْ في مطوَّلات كتب النحو، وليس منها نحو: ضربًا زيدًا، على ما نصَّ عليه ابن عصفور.

وذكر غيرُ واحد أن فيما ذكر اختصارًا وتأكيدًا، ولا كلام في الاختصار، وأما التأكيد فظاهرُ القول به أن المصدر بعد حذف عامله مؤكِّد، وقال الحمصي في «حواشي التصريح»(١): إن المصدر في ذلك مؤكِّد في الأصل، وأما الآن فلا، لأنه صار بمنزلة الفعل الذي سدَّ هو مسدَّه فلا يكون مؤكِّدًا، بل كلُّ مصدر صار بدلًا من اللفظ بالفعل لا يكون مؤكِّدًا ولا مُبيِّنًا لنوع ولا عدد.

و«ضربَ الرقاب» مجازٌ مرسل عن القتل، وعبَّر به عنه إشعارًا بأنه ينبغي أن يكون بضرب الرقبة حيث أمكن، وتصويرًا له بأشنع صورة لأن ضربَ الرقبة فيه إطارةُ الرأس الذي هو أشرفُ أعضاء البدن ومَجْمع حواسِّه، وبقاء البدن مُلقى على هيئةٍ مُنكرة، والعياذ بالله تعالى، وذكر أنَّ في التعبير المذكور تشجيعَ المؤمنين، وأنهم منهم بحيث يتمكَّنون من القتل بضرب أعناقهم في الحرب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أوقعتم القتلَ بهم بشدَّة وكثرة، على أنَّ ذلك مستعارٌ من ثِخَنِ المائعات لمنعه عن الحركة، والمراد: حتى إذا أكثرتُم قتلَهم وتمكَّنتم من أَخْذِ من لم يقتل ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي: فَأْسِرُوهم واحفظوهم، فالشدُّ وكذا ما بعدُ في حقِّ من أُسِرَ منهم بعد إثخانهم لا للمثخَن إذْ هو بالمعنى السابق لا يُشَدُّ ولا يُمَنُّ عليه ولا يُفدَى، لأنه قد قُتل.

أو المعنى: حتى إذا أثقلتموهم بالجراح ونحوه بحيث لا يستطيعون النهوضَ فَأْسِرُوهم واحفظوهم؛ فالشدُّ وكذا ما بعدُ في حقِّ المُثخن لأنه بهذا المعنى هو الذي لم يصل إلى حدِّ القتل لكن ثَقُلَ عن الحركة فصار كالشيء الثخين الذي لم يَسِلْ ولم يستمرّ في ذهابه، والإثخان عليه مجازٌ أيضًا.

---

(١) كتاب التصريح بمضمون التوضيح للشيخ خالد الأزهري، وكتاب التوضيح هو كتاب أوضح المسالك لابن هشام النحوي. والحمصي: هو الشيخ ياسين العليمي، توفي سنة (١٠٦١هـ)، له حاشية على كتاب التصريح. خلاصة الأثر ٤/ ٤٩١، وكشف الظنون ١/ ١٥٤.

و«الوَثاق» في الأصل مصدرٌ كالخَلاص، وأُريد به هنا ما يُوثَق به. وقرئ: «الوِثاق» بالكسر[(١)]، وهو اسمٌ لذلك، ومجيء فِعال اسمَ آلة كالحِزام والرِّكاب نادرٌ على خلاف القياس، وظاهرُ كلام البعض أن كلًّا من المفتوح والمكسور اسمٌ لِمَا يُوثَق به، ولعل المرادَ بيانُ المراد هنا.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: فإما تمنُّون منًّا وإما تفدون فداءً، والكلام تفصيلٌ لعاقبةِ مضمون ما قبله من شدِّ الوثاق، وحذفُ الفعل الناصب للمصدر في مثل ذلك واجبٌ أيضًا، ومنه قوله:

لأجهدنَّ فإمَّا دَرْءَ واقعةٍ تُخْشَى وإما بلوغَ السُّؤْل والأملِ[(٢)]

وجوَّز أبو البقاء[(٣)] كونَ كلٍّ من «مَنًّا» و«فداء» مفعولًا به لمحذوف، أي: أَوْلُوهم منًّا، أو: اقبلوا منهم فداءً، وليس ـ كما قال أبو حيان[(٤)] ـ إعرابَ نحويٍّ.

وقرأ ابن كثير في رواية شِبل: «وإما فَدًى» بالفتح والقصر[(٥)] كعصا. وزعم أبو حاتم أنه لا يجوز قصره لأنه مصدر فاديته، قال الشهاب: ولا عبرةَ به فإن فيه أربعَ لغات: الفتحُ والكسر مع المدِّ والقصر، ولغة خامسة البناء مع الكسر كما حكاه الثقات[(٦)]. انتهى.

وفي «الكشف» ـ نقلًا عن الصحاح ـ: الفداء إذا كُسر أوله يُمَدُّ ويُقصَر، وإذا فُتح فهو مقصور[(٧)]. ومن العرب من يكسر الهمزة، أي: يبنيه على الكسر إذا جاور لامَ الجرِّ خاصَّة لأنه اسمُ فعل بمعنى الدعاء، وأنشد الأصمعي بيت النابغة:

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٤١.
(٢) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ٧٥، وقال في الدرر اللوامع ٣/ ٧٥: لم أعثر على قائله.
(٣) إملاء ما منَّ به الرحمن ٤/ ٣٢٤.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٧٥.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٧٥، وهي غير المشهورة عن ابن كثير، وذكرها القرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٤٤، دون نسبة.
(٦) حاشية الشهاب ٨/ ٤١.
(٧) الصحاح (فدى).

مــهــلًا فــداءٍ لــك. . . . . [(١)]

وهذا الكسر مع التنوين كما صرّح به في «البحر»[(٢)].

وظاهرُ الآية ـ على ما ذكره السيوطي في أحكام القرآن العظيم ـ امتناع القتل بعد الأسر، وبه قال الحسن[(٣)]. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أنه قال: أُتي الحجَّاج بأُسارى، فدفع إلى ابن عمر ﵄ رجلًا يقتله، فقال ابن عمر: ليس بهذا أُمرنا إنما قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[(٤)].

وفي حُكم الأسارى خلافٌ، فذهب الأكثرون إلى أن الإمام بالخِيار إنْ شاء قتلهم إنْ لم يُسلموا؛ لأنه ﷺ قَتَلَ صبرًا عُقبة بنَ أبي مُعيط وطعيمة بنَ عدي والنضر بنَ الحارث التي قالت فيه أخته أبياتًا منها تُخاطب النبيَّ ﷺ:

مـا كـان ضـرَّكَ لـو مـنـنـتَ وربـمَّـا مَنَّ الفتى وهو المَغيظ المُحْنَقُ[(٥)]

ولأنَّ في قتلهم حَسْمَ مادة فسادهم بالكلية، وليس لواحدٍ من الغُزاة أن يقتل أسيرًا بنفسه، فإنْ فعل بلا مُلجئ كخوف شرِّ الأسير، كان للإمام أنْ يُعزِّره إذا وقع على خلاف مقصوده ولكن لا يضمن شيئًا. وإن شاء استرقَّهم لأنَّ فيه دَفْعَ شرِّهم مع وفور المصلحة لأهل الإسلام، وإن شاء تركهم ذِمَّةً أحرارًا للمسلمين كما فعل عمر ﵁ ذلك في أهل السواد، إلا أسارى مشركي العرب والمرتدِّين، فإنهم لا تُقبل منهم جزية، ولا يجوز استرقاقهم، بل الحكم فيهم إما الإسلام أو السيف، وإن أسلم الأُسارى بعد الأسر لا يقتلهم لاندفاع شرِّهم بالإسلام، ولكن يجوز استرقاقُهم ـ فإن الإسلام لا يُنافي الرقَّ ـ جزاءً على الكفر الأصلي، وقد وُجد بعد انعقاد سببِ الملك، وهو الاستيلاءُ على الحربي غير المشرك من العرب، بخلاف

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٣٦، والبيت بتمامه:

مــهــلاً فــداءٍ لــك الأقــوامُ كــلُّــهــم ومــا أُثــمِّــر مــن مــال ومــن ولــدِ

(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٥.

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ص٢٣٨.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٦، وتفسير الطبري ٢١/ ١٨٥.

(٥) السيرة النبوية ١/ ٦٤٤ و٢/ ٤٢، والبيت سلف ٦/ ٢٨.

ما لو أسلموا من قبل الأخذِ، فإنهم يكونون أحرارًا لأنه إسلامٌ قبل انعقاد سبب المِلك فيهم.

ولا يُفادى بالأسارى في إحدى الروايتين عن الإمام أبي حنيفة ﷺ لما في ذلك من معونةِ الكفر؛ لأنه يعود الأسير الكافر حربًا علينا، ودفعُ شرِّ حرابته خيرٌ من استنقاذ المسلم؛ لأنه إذا بقي في أيديهم كان ابتلاءً في حقِّه فقط، والضررُ بدفع أسيرهم إليهم يعود على جماعة المسلمين.

والروايةُ الأُخرى عنه أنه يُفادَى، وهو قول محمد وأبي يوسف والإمام الشافعي ومالك وأحمد، إلا بالنساء، فإنه لا يجوز المُفاداة بهنَّ عندهم. ومنع أحمد المفاداة بصبيانهم، وهذه رواية «السير الكبير». قيل: وهو أظهرُ الروايتين عن الإمام أبي حنيفة. وقال أبو يوسف: تجوزُ المُفاداة بالأسارى قبلَ القِسمة لا بعدَها. وعند محمد تجوز بكلِّ حال.

ووجه ما ذكره الأئمَّة من جواز المفاداة أنَّ تخليصَ المسلم أولى من قَتْلِ الكافر للانتفاع به، ولأنَّ حرمته عظيمة، وما ذُكر من الضرر الذي يعود إلينا بدَفْعه إليهم يدفعه ظاهرًا المسلمُ الذي يتخلَّص منهم، لأنه ضررُ شخصٍ واحد، فيقوم بدفعه واحدٌ مثلُه ظاهرًا، فيتكافأان وتبقى فضيلةُ تخليصِ المسلم وتمكينه من عبادة الله تعالى، فإن فيها زيادةَ ترجيح.

ثم إنه قد ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ؛ أخرج مسلم وأبو داود والترمذي وعبد بن حُميد وابن جرير عن عمران بن حُصين أن رسول الله ﷺ فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين(١).

ويُحتجُّ لمحمد بما أخرجه مسلم أيضًا عن إياس بن سَلَمة عن أبيه سَلَمة قال: خرجنا مع أبي بكر ﷺ أمَّره علينا رسول الله ﷺ، إلى أن قال: فلقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق فقال: «يا سلمة هَبْ لي المرأة» يعني التي نفَّله أبو بكر إياها،

---

(١) صحيح مسلم (١٦٤١)، وسنن أبي داود (٣٣١٦)، وسنن الترمذي (٢٧١٤)، وهو عند أحمد (١٩٨٦٣).

فقلت: يا رسولَ الله، لقد أعجبتني وما كشفتُ لها ثوبًا، ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق فقال: «يا سلمة هَبْ لي المرأةَ لله أبوك» فقلت: هي لك يا رسولَ الله، فوالله ما كشفتُ لها ثوبًا، فبعث بها رسولُ الله ﷺ ففدى بها ناسًا من المسلمين أُسِروا بمكة[1].

ولا يُفادى بالأسير إذا أسلم وهو بأيدينا لأنه لا يُفيد، إلا إذا طابت نفسه وهو مأمونٌ على إسلامه فيجوز؛ لأنه يُفيد تخليصَ مسلم من غير إضرار بمسلم آخر.

وأما المفاداة بمال فلا تجوز في المشهور من مذهب الحنفية لِمَا بيّن في المفاداة بالمسلمين من رَدِّهم حربًا علينا. وفي «السير الكبير»: أنه لا بأسَ به إذا كان بالمسلمين حاجةٌ، قيل: استدلالًا بأسارى بدر؛ فإنه لا شكَّ في احتياج المسلمين بل في شدَّة حاجتهم إذْ ذاك، فليكن محملُ المفاداة الكائنة في بدر بالمال.

وأما المنُّ على الأسارى وهو أن يُطلقهم إلى دار الحرب من غير شيء فلا يجوز عند أبي حنيفة ومالك وأحمد، وأجازه الإمام الشافعي لأنه ﷺ مَنَّ على جماعة من أسرى بدر منهم أبو العاص بن الربيع[2] على ما ذكره ابن إسحاق بسنده، وأبو داود من طريقه إلى عائشة: لما بَعَثَ أهلُ مكة في فِداء أسراهم بعثت بنتُ رسول الله ﷺ في فداءِ أبي العاص بمال وبعثَتْ فيه بقلادة كانت خديجةُ أدخلتها بها على أبي العاص حين بنائه عليها، فلما رأى النبيُّ ﷺ ذلك رقَّ لها رِقَّة شديدة، وقال لأصحابه: «إنْ رأيتُم أن تُطلقوا لها أسيرَها وتردُّوا لها الذي لها» ففعلوا ذلك مُغتبطِين به. ورواه الحاكم وصحَّحه وزاد: وكان النبيُّ ﷺ قد أخذ عليه أن يُخلِّي زينب إليه، ففعل[3].

(١) صحيح مسلم (١٧٥٥).
(٢) في الأصل و(م): ابن أبي الربيع، والصواب المثبت. ينظر تجريد أسماء الصحابة للذهبي ص١٨١.
(٣) السيرة النبوية ١/ ٦٥٢، وسنن أبي داود (٢٦٩٢)، والمستدرك ٣/ ٢٣.

ومَنَّ ﷺ على ثُمامة بن أُثَال بن النعمان الحنفي سيِّد أهل اليمامة، ثم أسلم وحَسُنَ إسلامه، وحديثه في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة(١).

ويكفي ما ثبت في «صحيح البخاري» من قوله عليه الصلاة والسلام: «لو كان المُطعِم بن عدي حيًّا ثم كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى ـ يعني أسارى بدر ـ لتركتُهم له»(٢)، فإنه ﷺ أخبر وهو الصادقُ المصدوق بأنه يُطلقهم لو سأله المُطعم، والإطلاق على ذلك التقدير لا يثبتُ إلا وهو جائزٌ شرعًا لمكان العصمة، وكونُه لم يَقَعْ لعدم وقوعِ ما عُلِّق عليه لا ينفي جوازه شرعًا.

واستدلَّ أيضًا بالآية التي نحن فيها فإنَّ الله تعالى خيَّر فيها بين المنِّ والفداء، والظاهر أنَّ المرادَ بالمنّ الإطلاقُ مجانًا؛ وكونُ المرادِ المنَّ عليهم بترك القتل وإبقاءهم مستَرقِّين أو تخليتهم لقبول الجزية وكونهم من أهل الذِّمة خلافُ الظاهر، وبعضُ النفوس تجد طعمَ الألاء(٣) أحلى من هذا المنّ.

وأجاب بعضُ الحنفية بأن الآيةَ منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ من سورة براءة [الآية: ٥] فإنه يقتضي عدمَ جواز المنّ وكذا عدمَ جواز الفِداء، وهي آخرُ سورة نزلَتْ في هذا الشأن، وزعم أن ما وقع من المنِّ والفِداء إنما كان في قضية بدر، وهي سابقةٌ عليها وإن كان شيء من ذلك بعد بدر فهو أيضًا قبل السورة.

والقول بالنَّسْخ جاء عن ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد في روايات ذكرها الجلال السيوطي في «الدر المنثور»(٤). وقال العلامة ابن الهُمام(٥): قد يقال إنَّ ذلك ـ يعني ما في سورة براءة ـ في حقِّ غيرِ الأسارى بدليل جوازِ الاسترقاق فيهم فيعلم أنَّ القتلَ المأمورَ به في حقِّ غيرهم. وما ذكره في جواز الاسترقاق ليس على

---

(١) صحيح مسلم (١٧٦٤).
(٢) صحيح البخاري (٣١٣٩) من حديث جبير بن مطعم بن عدي، وهو عند أحمد (١٦٧٣٣).
(٣) الألاء كسحاب ويقصر: شجر مرٌّ. القاموس (ألو).
(٤) ٦/ ٤٦.
(٥) في فتح القدير ٤/ ٣٠٨.

إطلاقه، إذ لا يجوز كما علمتَ استرقاقُ مشركي العرب.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: آلاتها وأثقالها من السلاح وغيره، قال الأعشى:

وأعددت للحربِ أوزارها رماحًا طوالًا وخيلًا ذكورا
ومِن نَسْجِ داود موضونةً تساق إلى الحرب عِيرًا فعيرا[1]

وهي في الأصل: الأحمال، فاستُعيرت لما ذكر استعارةً تصريحية، ويجوز أن يكونَ في «الحرب» استعارة مكنية بأن تُشبَّه بإنسان يحمل حملًا على رأسِهِ أو ظهره، ويثبت لها ما أثبت تخييلًا، وكلامُ «الكشاف»[2] أَمْيَلُ إليه.

وقيل: هي أحمالُ المحارِب، أُضيفت للحرب تجوّزًا في النسبة الإضافية وتغليبًا لها على الكُراع[3]، وإسناد الوضع للحرب مجازي أيضًا. وليس بذاك.

وعدَّ بعضُ الأماثل الكلامَ تمثيلًا، والمراد: حتى تنقضي الحربُ، وقال: يجوز أن يكون إرادة ذلك من باب المجاز المتفرّع على الكناية، كما في قوله:

فألقَتْ عصاها واستقرَّ بها النوى[4]

فإنه كنَى به عن انقضاء السفر والإقامة.

وقيل: الأوزار جمع وِزْر بمعنى إثْم، وهو هنا الشِّرك والمعاصي، «وتضع» بمعنى تترك، مجازًا، وإسناده للحرب مجاز، أو بتقدير مضاف، والمعنى: حتى يضعَ أهلُ الحرب شِرْكَهم ومعاصيهم. وفيه أنه لا يستحسن إضافةُ الأوزار بمعنى الآثام إلى الحرب.

و«حتى» عند الشافعي عليه الرحمة ـ ومن قال نحو قوله ـ غايةٌ للضرب، والمعنى: اضرِبوا أعناقَهم حتى تنقضيَ الحربُ، وليس هذا بدلًا من الأول ولا تأكيدًا له بناءً على ما قرّروه من أنَّ «حتى» الداخلة على «إذا» الشرطية ابتدائية أو غايةٌ

(١) ديوان الأعشى ص١٤٩.
(٢) ٣/ ٥٣١، والكلام من حاشية الشهاب ٨/ ٤١.
(٣) اسم للخيل؛ لأنها تخبط كراعها في الدفع عن نفسها. حاشية الشهاب ٨/ ٤٢.
(٤) سلف ١٠/ ١٠٢، وعجزه: كما قرَّ عينًا بالإياب المسافر.

للشدِّ، أو للمنِّ والفداء معًا، أو للمجموع من قوله تعالى: «فضرب الرقاب» إلخ، بمعنى أنَّ هذه الأحكام جاريةٌ فيهم حتى لا يكون حربٌ مع المشركين بزوال شوكتهم، وقيل: بنزول عيسى عليه السلام، ورُوي ذلك عن سعيد بن جُبير والحسن، وفي الحديث ما يُؤيِّده؛ أخرج أحمد والنسائي وغيرُهما عن سَلَمة بن نُفيل قال: بينما أنا جالسٌ عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، إنَّ الخيلَ قد سُيِّبت ووضع السلاح، وزعم أقوامٌ أن لا قتالَ وأنْ قد وضعت الحربُ أوزارَها، فقال رسول الله ﷺ: «كذبوا، فالآن جاء القتالُ، ولا تزال طائفةٌ يُقاتلون في سبيل الله لا يضرُّهم من خالفهم، يُزيغُ الله تعالى قلوبَ قوم ليرزقهم منهم، وتُقاتلون حتى تقومَ الساعةُ، ولا تزالُ الخيلُ معقودًا في نواصيها الخيرُ حتى تقومَ الساعةُ، ولا تضعُ جنسُ الحربُ أوزارَها حتى يخرجَ يأجوج ومأجوج»[١].

وهي عند من يقول: لا مَنَّ ولا فِداء اليوم غايةٌ للمَنِّ والفِداء إنْ حمل «الحرب»[٢] على حرب بدر بجعل تعريفه للعهد، والمعنى: يُمَنُّ[٣] عليهم ويُفادون حتى تضعَ حربُ بدر أوزارها، وغايةٌ للضرب والشَّدِّ إن حُملت على الجنس، والمعنى أنهم يقتلون ويُؤسرون حتى يضع جنسُ الحرب أوزارها بأن لا يبقى للمشركين شوكةٌ، ولا تُجعل غاية للمنِّ والفِداء مع إرادة الجنس، وفي زعم جوازه والتزام النسخ كلامٌ، فتأمل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك، فهو في محلِّ رفع خبر مبتدأ محذوف، أو في محلٍّ نصب مفعول لفعل كذلك، والإشارة إلى ما دلَّ عليه قوله تعالى: (فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ) إلخ لا إلى ما تقدَّم من أول السورة إلى هاهنا؛ لأن افعلوا لا يقع على جميع السالف، وعلى الرفع ينفكُّ النظم الجليل إنْ لم يُحمل عليه لأنَّ ما بعدُ كلام فيهم.

---

(١) مسند أحمد (١٦٩٦٥)، وسنن النسائي ٦/ ٢١٤، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٥٢٤) واللفظ له. وعند أحمد أن الذي جاء إلى النبي ﷺ وكلَّمه هو سلمة بن نُفيل نفسه.

(٢) قبلها في (م): على، وهو خطأ، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٨/ ٩٣.

(٣) في الأصل و(م): المن، والمثبت من تفسير أبي السعود.

﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لانتقم منهم ببعض أسبابِ الهلاك من خَسْف أو رَجْفة أو غَرَق أو موت جارف ﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ ولكن أمركم سبحانه بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين بأن يُجاهدوهم فينالوا الثوابَ ويُخلَّد في صحف الدهر ما لهم من الفضل الجسيم، والكافرين بالمؤمنين بأن يُعاجِلَهم عز وجل ببعض انتقامه سبحانه فيتَّعظ به بعضٌ منهم ويكون سببًا لإسلامه؛ واللام متعلِّقة بالفعل المقدَّر الذي ذكرناه.

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: استشهدوا. وقرأ الجمهور: «قاتلوا» أي: جاهدوا[١]، والجحدري بخلاف عنه: «قَتَلوا» بفتح القاف والتاء بلا ألف، وزيد بن ثابت والحسن وأبو رجاء وعيسى والجحدري أيضًا: «قُتِّلوا» بالبناء للمفعول وشدِّ التاء[٢].

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤﴾ فلن يُضيِّعها سبحانه، وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: «يُضَلَّ» مبنيًّا للمفعول «أعمالُهم» بالرفع على النيابة عن الفاعل، وقرئ: «يَضِلَّ» بفتح الياء من ضَلَّ «أعمالُهم» بالرفع على الفاعلية[٣]. والآية قال قتادة - كما أخرجه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم -: ذكر لنا أنها نزلَتْ في يوم أُحد ورسول الله ﷺ في الشِّعب وقد فَشَتْ فيهم الجِراحات والقتل وقد نادى المشركون يومئذ: اعلُ هُبل. ونادى المسلمون: اللهُ أعلى وأجلّ. فنادى المشركون: يومٌ بيوم بدر، وإنَّ الحرب سِجال، لنا عُزَّى ولا عُزَّى لكم. فقال رسولُ الله ﷺ: «اللهُ مولانا ولا مَوْلى لكم، إنَّ القَتْلى مُختلفة؛ أما قتلانا فأحياءٌ مرزوقون، وأما قتلاكم ففي النار يُعذَّبون»[٤]. ومنه يعلم وجه قراءة: «قُتِّلوا» بصيغة التفعيل.

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ سَيُوصلهم إلى ثواب تلك الأعمال من النعيم المُقيم والفضل العظيم، وهذا كالبيان لقوله سبحانه: «فلن يضل أعمالهم». أو سيُثبِّتُ جلَّ شأنه في

(١) السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠٠، وقرأ أبو عمرو وحفص ويعقوب: «قُتِلوا».
(٢) القراءات الشاذة ص١٤٠، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٥٠.
(٣) القراءات الشاذة ص١٤٠، والبحر المحيط ٨/ ٧٥.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٨، وتفسير الطبري ٢١/ ١٩٠-١٩١، وبعض ألفاظه في صحيح البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

الدنيا هدايتهم، والمراد الوعد بأن يحفظهم سبحانه ويصونهم عمَّا يُورث الضلال وحَبْط الأعمال، وهو كالتعليل لذلك، ويجوز أن يكون كالبيان له أيضًا.

﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ أي: شأنهم، قال الطبرسي: المراد إصلاحُ ذلك في العُقبى[1]. فلا يتكرَّر مع ما تقدَّم، لأنَّ المرادَ به إصلاحُ شأنهم في الدين والدنيا فلا تغفُل.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ في موضع الحال بتقدير «قد» أَوْ بدونه، أو استئناف كما قال أبو البقاء[2]. والتعريف في الآخرة؛ أخرج عبد بن حُميد وابن جرير عن مجاهد أنه قال: يُهدى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم وحيث قسم الله تعالى لهم منها لا يُخطؤون، كأنهم ساكنوها منذ خُلقوا لا يستدِلُّون عليها أحدًا[3]. وفي الحديث: «لأحدُكم بمنزله في الجنة أعرفُ منه بمنزله في الدنيا»[4] وذلك بإلهام منه عز وجل.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن مقاتل أنه قال: بلغنا أن المَلَك الذي كان وُكِّل بحفظ عملِ الشخص في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ويتبعه الشخصُ حتى يأتيَ أقصى منزل هو له فيُعرِّفه كلَّ شيء أعطاه الله تعالى في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف المَلَكُ عنه[5].

وورد في بعض الآثار أن حسناتِه تكون دليلًا له إلى منزله فيها.

وقيل: إنه تعالى رسم على كلِّ منزل اسمَ صاحبه، وهو نوعٌ من التعريف.

وقيل: تعريفها تحديدها، يقال: عرف الدار وأرَّفها، أي: حدَّدها، أي: حدَّدها لهم بحيث يكون لكلٍّ جنةٌ مُفرزة.

---

(١) مجمع البيان ٢٦/ ٣١.
(٢) إملاء ما منَّ به الرحمن ٤/ ٣٢٥.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٨، وتفسير الطبري ٢١/ ١٩٢.
(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١١٠٩٥)، والبخاري (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٤٨، وذكره عنه أيضاً ابنُ كثير في تفسيره عند تفسير هذه الآية.

وقيل: أي: شرَّفها لهم ورفعها وعلَّاها، على أنَّ «عرَّفها» من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها.

وعن ابن عباس في رواية عطاء ـ ورُوي عن مُؤرج ـ أي: طيَّبها لهم، على أنه من العَرْف، وهو الريحُ الطيبة هاهنا، ومنه: طعام مُعَرَّف، أي: مُطَيَّب، وعَرَّفت القِدْرَ طيَّبتها بالمِلح والتابل.

وعن الجُبَّائي أن التعريف في الدنيا، وهو بذكر أوصافها، والمراد أنه تعالى لم يَزَلْ يمدحها لهم حتى عشقوها فاجتهدوا فيما يُوصلهم إليها:

والأذن تعشقُ قبلَ العين أحيانا[1]

وعلى هذا المرادِ قيل:

أشتاقه من قبل رؤيته كما ... تُهْوَى الجنانُ بطيِّب الأخبار

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: دينه ورسولَه ﷺ لا على أن الكلام على تقدير مضاف بل على أن نصرة الله فيه تجوُّزٌ في النسبة، فنصرته سبحانه نصرة رسوله ودينه إذ هو جل شأنه وعلا المعين الناصر وغيره سبحانه المعان المنصور. ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على أعدائكم ويفتح لكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ في مواطن الحرب ومواقفها، أو على محجَّة الإسلام، والمراد: يقويكم أو يوفِّقكم للدوام على الطاعة. وقرأ المفضل عن عاصم: «ويُثبِتْ» مخفَّفًا[2].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ من تَعَسَ الرجل بفتح العين تعسًا، أي: سقط على وجهه، وضدُّه انتعش، أي: قام من سقوطه، وقال شمر وابن شميل وأبو الهيثم وغيرهم: تَعِسَ بكسر العين، ويقال: تعسًا له ونُكسًا، على أن الأول ـ كما قال ابن السِّكيت ـ بمعنى السقوط على الوجه، والثاني بمعنى السقوط على الرأس، وقال الحمصي في حواشيه على «التصريح»: تعس تعسًا، أي: لا انتعش من عثرته، ونُكسًا بضمِّ النون وقد تُفتح إما في لغة قليلة وإما إتباعًا لِتَعْسًا، والنُّكس بالضَّمِّ:

---

(١) قائله بشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٥٣٣، وصدره: يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٦، وهي غير المشهورة عن عاصم.

عَوْدُ المرض بعد النَّقه؛ ويُراد بذلك الدعاء، وكَثُرَ في الدعاء على العاثر: تعسًا له، وفي الدعاء له: لَعًا له، أي: انتعاشًا وإقامة، وأنشدوا قول الأعشى يصف ناقة:

كَلَّفتُ مجهولةً نفسي وشايَعَني ... همِّي عليها إذا ما آلُها لَمعا
بذات لَوثٍ عَفَرْناةٍ إذا عَثَرتْ ... فالتَّعْسُ أولى لها من أنْ أقولَ لعا[(١)]

وقال ثعلب وابن السكيت أيضًا: التعسُ: الهلاك، ومنه قول مُجمِّع بن هلال:

تقول وقد أفرَدْتُها من حَلِيلها ... تَعَسْتَ كما أتْعَسْتَني يا مُجَمِّع[(٢)]

وفي «القاموس»: التعس: الهلاك، والعِثار، والسقوط، والشَّرُّ، والبعد، والانحطاط، والفعل كَمَنَعَ وسَمِعَ، أو إذا خاطبت قلت: تَعَسْتَ، كَمَنَعَ، وإذا حكيتَ قلت: تَعِسَ، كَسَمِعَ، ويقال: تعسه الله تعالى، وأتعسه، ورجل تاعسٌ وتَعِسٌ[(٣)].

وانتصابه على المصدر بفعل من لفظه يجب إضماره، لأنه للدعاء كسقيًا ورعيًا، فيجري مجرى الأمثال إذا قصد به ذلك، والجارُّ والمجرور بعده متعلِّقٌ بمقدَّر للتبيين عند كثير، أي: أعني له، مثلًا، فنحو: تعسًا له، جملتان. وذهب الكوفيون إلى أنه كلامٌ واحد، ولابن هشام كلامٌ في هذا الجارِّ مذكور في بحث لام التبيين، فلينظر هناك[(٤)].

واختلفت العبارات في تفسير ما في الآية الكريمة، فقال ابن عباس: أي: بُعدًا لهم. وابن جريج والسدي: أي: حزنًا لهم. والحسن: أي: شتمًا لهم. وابن زيد: أي: شقاء لهم. والضحاك: أي: رغمًا لهم. وحكى النقاش تفسيره بِقُبحًا لهم.

---

(١) ديوان الأعشى ص١٥٣، وحاشية الشهاب ٨/ ٤٣، ورواية الديوان: مجهولها، بدل: مجهولة، وأدنى، بدل: أولى. قال الشهاب: اللوث: القوة. وناقة عفرناة، أي: قوية.

(٢) البيت في درة الغواص ص١١٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٧١٧، وخزانة الأدب١٠/ ٤٠٣. والمعنى: قالت لي وقد سبيتها وفرَّقت بينها وبين زوجها: تعست...، وقال المرزوقي: وسمي الزوج حليلاً والمرأة حليلة لأن كل واحد منهما يَحُلُّ مع صاحبه. ووقع في الأصل وبعض المصادر: خليلها.

(٣) القاموس المحيط (تعس).

(٤) مغني اللبيب ص٢٩١-٢٩٢.

وقال غير واحد: أي: عثورًا وانحطاطًا لهم، وما ألطف ذكر ذلك في حقِّهم بعد ذكر تثبيتِ الأقدام في حقِّ المؤمنين.

وفي رواية عن ابن عباس: يريد في الدنيا القتل، وفي الآخرة التردِّي في النار.

وأكثر الأقوال ترجع إلى الدعاء عليهم بالهلاك.

وجوَّز الزمخشري[1] في إعرابه وجهين: الأول: كونه مفعولًا مطلقًا لفعل محذوف، كما تقدَّم. والثاني: مفعولًا به لمحذوف، أي: فقضى تعسًا لهم، وقدَّر على الأول القول، أي: فقال: تعسًا لهم، والذي دعاه لذلك ـ على ما قيل ـ جَعْلُ «الذين» مبتدأً والجملة المقرونة بالفاء خبرًا له، وهي لإنشاء الدعاء، والإنشاءُ لا يقع خبراً بدون تأويل، فإما أن يقدَّر معها قول أو تجعل خبرًا بتقدير قضى، وجَعَل قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ⑧﴾ عطفًا على ما قدّر.

وفي «الكشف»: المراد مِن قال: تعسًا لهم: أهلكهم الله، لا أن ثَمَّ دعاءً وقولًا، وذلك لأنه لا يُدعى على شخص إلا وهو مستحِقٌّ له، فإذا أخبر تعالى أنه يدعو عليه دلَّ على تحقُّق الهلاك، لاسيما وظاهرُ اللفظ أن الدعاء منه عز وجل، وهذا مجازٌ على مجاز، أعني: أن القول مجاز، وكذلك الدعاء بالتعس، ولم يَجْعل العطف على «تعسًا» لأنه دعاء، و«أضل» إخبار، ولو جُعِل دعاءً أيضًا عطفًا على «تعسًا» على التجوُّز المذكور لكان له وجه. انتهى.

وأنت تعلم أن اعتبارَ ما اعتبره الزمخشري ليس لأجل أمرِ العطف فقط، بل لأجل أمر الخبرية أيضًا، فإنْ قيل بصحة الإخبار بالجملة الإنشائية من غير تأويل استغني عما قاله بالكلية. ودخلت الفاء في خبر الموصول لِتضمُّنه معنى الشرط.

وجوز أن يكون الموصولُ في محلٍّ نصب على المفعولية لفعل مقدَّر يُفسِّره الناصب لـ «تعسًا»، أي: أتعس اللهُ الذين كفروا، أو: تعس الله الذين كفروا تعسًا، لما سمعت عن «القاموس»، وقد حكي أيضًا عن أبي عُبيدة، والفاء زائدة في الكلام كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣] ويزيدها العرب في مثل ذلك

---

(١) في الكشاف ٣/ ٥٣٢.

على توهُّم الشرط. وقيل: يقدّر الفعل مضارعًا معطوفًا على قوله تعالى: «يُثبِّت» أي: ويُتعس الذين.. إلخ، والفاء للعطف، فالمراد إتعاسٌ بعد إتعاس، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] أو لأن حقّ المُفسِّر أن يُذكَر عَقِبَ المُفسَّر كالتفصيل بعد الإجمال، وفيه مقال.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من التعس والإضلال ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ بسبب أنهم ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام المُخالفة لما أَلِفوه واشتَهَتْهُ أنفسهم الأمّارة بالسوء، وهذا تخصيصٌ وتصريحٌ بسببية الكُفر بالقرآن للتعس والإضلال إذْ قد عُلم من قوله تعالى: «والذين كفروا» إلخ سببيَّةُ مطْلَق الكفر الداخل فيه الكفر بالقرآن دخولًا أوليًّا لذلك. ﴿فَأَحۡبَطَ﴾ لأجل ذلك ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩﴾ التي لو كانوا عَمِلوها مع الإيمان لَأُثِيبوا عليها. وذِكْر الإحباط مع ذكر الإضلال المراد هو منه إشعارًا بأنه يلزم الكفرَ بالقرآن ولا ينفكُّ عنه بحال.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أَقَعدوا في أماكنهم فلم يسيروا فيها ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ من الأمم المُكذِّبة، فإن آثار ديارهم تُنبئ عن أخبارهم.

وقوله تعالى: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ كأنه قيل: كيف كانت عاقبتهم؟ فقيل: أهلكَ ما يختصُّ بهم من النفس والأهل والمال، يقال: دمَّره: أهلكه، ودمّر عليه: أهلك ما يختصُّ به، فـ: دمَّر عليه، أبلغُ من: دمَّره، وجاءت المبالغة من حذفِ المفعول وجَعْلِه نسيًا منسيًّا، والإتيانِ بكلمة الاستعلاء، وهي لتضمُّن التدمير معنى الإيقاع أو الهجوم أو نحوه.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهؤلاء الكافرين السائرين سيرتهم ﴿أَمۡثَٰلُهَا ١٠﴾ أمثالُ عاقبتهم أو عقوبتهم لدلالة ما سبق عليها، لكن لا على أن لهؤلاء أمثالَ ما لأولئك وأضعافه، بل مثله، وإنما جُمع باعتبار مُماثلته لعواقبَ متعدِّدة حسب تعدُّد الأُمم المعذَّبة. وقيل: يجوز أن يكون عذابهم أشدَّ من عذاب الأوَّلين، وقد قُتلوا وأسروا بأيدي من كانوا يستخفُّونهم ويستضعفونهم، والقتل بيد المثلِ أشدُّ من الهلاك بسبب عامٍّ. وقيل: المرادُ بالكافرين المتقدِّمون، بطريق وضع الظاهر موضعَ الضمير، كأنه قيل: دمَّر الله تعالى عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ثبوت أمثال عاقبة أو عقوبة الأمم السالفة لهؤلاء، وقيل: إشارة إلى النصر، وهو كما ترى ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ناصرهم على أعدائهم، وقرئ: «وَلِيُّ الذين آمنوا»(١).

﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ فيدفع ما حلَّ بهم من العقوبة والعذاب، ولا يُناقض هذا قولَه تعالى: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٠] لأن المولى هناك بمعنى المالك، فلم يتوارد النفي والإثبات على معنى واحد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بيانٌ لحكم ولايته تعالى لهم وثمرتها الأخروية.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ﴾ أي: ينتفعون بمتاع الدنيا أيامًا قلائل ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ الكاف في موضع نصب إما على الحال من ضمير المصدر كما يقول سيبويه، أي: يأكلونه ـ أي: الأكل ـ مُشْبِهًا أكلَ الأنعام، وإما على أنه نعتٌ لمصدر محذوف كما يقول أكثرُ المُعربين، أي: أكلًا مثلَ أكل الأنعام، والمعنى: أن أكلهم مجرَّدٌ من الفكر والنظر، كما تقول للجاهل: تعيش كما تعيش البهيمة، لا تُريد التشبيه في مطلق العيش ولكن في خواصِّه ولوازمه، وحاصله أنهم يأكلون غافلين عن عواقبهم ومنتهى أُمورهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ أي: موضع إقامة لهم، حالٌ مُقدَّر من واو «يأكلون». وجوِّز أن يكون استئنافًا، وكأنَّ قوله تعالى: «يتمتعون ويأكلون» في مقابلة قوله سبحانه: «وعملوا الصالحات» لما فيه من الإيماء إلى أنهم عَرَفوا أن نعيمَ الدنيا خيالٌ باطل وظلٌّ زائل، فتركوا الشهواتِ وتفرَّغوا للصالحات، فكان عاقبتهم النعيمَ المُقيم في مقام كريم، وهؤلاء غَفَلوا عن ذلك فرتعوا في دِمْنهم كالبهائم حتى ساقهم الخِذلان إلى مَقرِّهم من دَرْك النيران. وهذا ما ذكره العلامة الطيبي في بيان التقابل بين الآيتين.

وقال بعضُ الأجِلَّة: في الكلام احتباكٌ، وذلك أنه ذكر الأعمال الصالحة

(١) قرأ بها ابن مسعود رضي الله عنه. تفسير القرطبي ١٩/٢٥٦.

ودخولَ الجنة أولًا دليلًا على حذف الأعمال الفاسدة ودخولِ النار ثانيًا، وذكر التمتع والمثوى ثانيًا دليلًا على حذف التقلُّل والمأوى أولًا. والأول أحسنُ وأدقُّ.

وأَسندَ إدخال الجنة إلى الله تعالى ولم يسلك نحو هذا المَسلك في قوله تعالى: «والنار مثوى لهم» وخُولف بين الجملتين فعلية واسمية للإيذان بسبق الرحمة والإعلام بمصير المؤمنين والوعدِ بأنَّ عاقبتهم أنَّ الله سبحانه يُدخلهم جناتٍ وأن الكافرين مثواهم النار، وهم الآن حاضرون فيها ولا يدرون، وكالبهائم يأكلون.

﴿وَكَأَيِّن﴾ بمعنى «كم» الخبرية، وهي مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ تمييزٌ لها، وقوله سبحانه: ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ صفة لـ «قريةٍ»، كما أنَّ قوله عز وجل: ﴿الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ صفة لـ «قريتك»، وقد حُذف عنهما المضاف وأجري أحكامه عليهما كما يُفصح عنه الخبر الذي هو قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي: وكم من أهل قرية هم أشدُّ قوة من أهل قريتك الذين أخرجوك أهلكناهم بأنواعِ العذاب. وجُوِّز أن لا يكون هناك حذفٌ، وإنما أُطلق المحلُّ وأُريد الحالُّ مجازًا.

وإسنادُ الإخراج إلى أهل قريته ﷺ وهي مكة المكرمة مجازٌ من باب الإسناد إلى السبب لأنهم عاملوه ﷺ بما عاملوه، فكانوا بذلك سببًا لإخراجه حين أَذِنَ الله تعالى له عليه الصلاة والسلام بالهجرة منها، ونظيرُ ذلك: أَقدمني بلدك حقٌّ لي عليك. وأنت تعلم أنه على ما حقَّقه الأجِلَّة يحتمل أوجهًا ثلاثة: مجازًا في الإسناد إذا كان الإقدام مستعملًا في معناه الذي وُضع له وإن كان موهومًا. ومجازًا في الطرف إذا كان مستعملًا في معنى الحمل على القدوم. واستعارةً بالكناية إن كان الحقُّ مستعملًا في المقدم.

والشيخ يقول في مثل ذلك: إن الفعل المتعدِّي موهومٌ لا فاعلَ له ليصير الإسنادُ إليه حقيقةً، فلا إقدامَ مثلًا في قصد المُتكلِّم، وإنما هو تصويرُ القُدوم بصورة الإقدام، وإسناده إلى الحقِّ المصوَّر بصورة المُقْدِم مبالغةٌ في كونه داعيًا للقدوم، وارتضاه السيالكوتي في حواشي شرح مختصر «التلخيص»، وذبَّ عنه القال والقيل، وتمام الكلام هناك، والكلام في الآية على طرز ذاك.

ووصفُ القرية الأولى بشدة القوة للإيذان بأولوية الثانية منها بالإهلاك لضعف قوتها، كما أن وصفَ الثانية بإخراجه عليه الصلاة والسلام للإيذان بأولويتها به لقوة جنايتها، وعلى طريقته قول النابغة[١]:

كليبٌ لعمري كان أكثرَ ناصرًا وأيسرَ جُرْمًا منك ضُرِّجَ بالدم

وقوله تعالى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ بيانٌ لعدم خلاصهم بواسطة الأعوان والأنصار إثرَ بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم، والفاء لترتيب ذكر ما بالغير على ذكر ما بالذات، وهو حكايةُ حال ماضية كما في قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] ولا نُسلِّم أنَّ اسمَ الفاعل إذا لم يعمل حقيقةٌ في الماضي.

والآية تسليةٌ له ﷺ، فقد أخرج عبد بن حُميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن النبيَّ ﷺ لما خرج من مكةَ إلى الغار التفتَ إلى مكة وقال: «أنت أحبُّ بلادِ الله تعالى إلى الله وأنتِ أحبُّ بلادِ الله تعالى إليَّ، ولولا أنَّ أهلك أخرجوني منكِ لم أَخرجْ منكِ، فأعدى الأعداء مَن عَدَا على الله تعالى في حرمه، أو قَتَلَ غيرَ قاتله، أو قَتَلَ بذُحُولِ أهل الجاهلية» فأنزل الله سبحانه: (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ) إلخ[٢]، وقد تقدم ما يتعلَّق بذلك أول السورة فتذكَّر.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تقريرٌ لتباين حال الفريقين المؤمنين والكافرين؛ وكونِ الأوَّلينَ في أعلى عِلِّيِّين والآخرين في أسفل سافلين، وبيانٌ لعلَّة ما لكلٍّ منهما من الحال، والهمزة لإنكار استوائهما أو لإنكار كون الأمر ليس كما ذُكر، والفاء للعطف على مُقدَّر يقتضيه المقام، وقد قُرئ بدونها[٣]، و«مَنْ» عبارة عن

(١) هو النابغة الجعدي، والبيت في ديوانه ص١٤٣.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٤٨، وهو في تفسير الطبري ٢١/ ١٩٨، والمطالب العالية ٣/ ٣٧١ عن أبي يعلى. ولقوله: «أعدى الأعداء من عدا على الله في حرمه، أو قَتَل غيرَ قاتله، أو قَتَل بذُحُول الجاهلية». شاهد من حديث عبد الله بن عمرو، وهو عند أحمد (٦٦٨١). قال ابن الأثير في النهاية (ذحل): الذَّحل: الوِتْر وطلب المكافأة بجناية جُنيت عليه من قتل أو جرح ونحو ذلك، والذَّحل: العداوة أيضاً. اهـ. وتصحفت العبارة في البحر المحيط ٨/ ٧٨ (والكلام منه): وقيل: بدخول الجاهلية.

(٣) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٧٨.

المؤمنين المُتمسِّكين بأدلة الدين كما أنها في قوله تعالى: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عبارةٌ عن أضدادهم من المشركين.

وأخرج جماعة عن ابن عباس أن مَنْ كان على بيِّنة من ربِّه: هو رسولُ الله ﷺ، ومَنْ زُيِّن له سوءُ عمله هم المشركون. ورُوي عن قتادة نحوه[1]، وإليه ذهب الزمخشري[2]. وتُعقِّب بأنَّ التخصيصَ لا يُساعده النظم الكريم ولا داعيَ إليه، قيل: ومثله كون «مَنْ» الأُولى عبارةً عنه ﷺ وعن المؤمنين، والمعنى: أيستوي الفريقان: أو أليس الأمر كما ذكر، فمن كان ثابتًا على حُجَّة ظاهرة وبرهان نيِّر من مالك أمرِه ومُربِّيه وهو القرآن العظيم وسائر المعجزات والحُجج العقلية كمن زيَّن له الشيطانُ عملَه السيئ من الشِّرك وسائر المعاصي، كإخراجك من قريتك، مع كون ذلك في نفسه أقبحَ القبائح.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ في ذلك العمل السيئ، وقيل: بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَآءَهُم ١٤﴾ الزائغة من غير أن يكون لهم شُبهة تُوهم صحَّةَ ما هم عليه فضلًا عن حُجَّةٍ تدلُّ عليها. وجمع الضميرين الأخيرين باعتبار معنى «مَن» كما أنَّ إفراد الأولين باعتبار لفظها.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ إلى آخره، استئنافٌ مسوقٌ لشرح محاسن الجنة الموعودة آنفًا للمؤمنين، وبيانِ كيفية أنهارها التي أُشير إلى جريانها من تحتها، وعبَّر عنهم بالمتَّقين إيذانًا بأنَّ الإيمان والعمل الصالحَ من باب التقوى الذي هو عبارةٌ عن فعل الواجبات وترك السيئات.

والمَثَلُ: الوصفُ العجيبُ الشأن، وهو مبتدأ باتفاق المُعربين، واختُلف في خبره، فقيل: محذوفٌ، فقال النضر بن شُميل: تقديره: ما تسمعون، وقوله عز وجل: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ إلى آخره مُفسِّر له. وقال سيبويه: تقديره: فيما يُتلى عليكم، أو فيما قَصَصْنا عليك، ويُقدَّر مقدَّمًا، و«فيها أنهار» إلخ بيانٌ لذلك المَثَل. وقدَّره ابنُ

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٨، وعزاه لعبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر، ولم نقف عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٣.

عطية: ظاهرٌ في نفس من وَعَى هذه الأوصافَ[١]. وليس بذاك. ولعلَّ الأنسبَ بصدر النظم الكريم تقدير النَّضْرِ.

وقيل: هو مذكور، فقيل: هو قوله تعالى: «فيها أنهار» إلخ على معنى: مَثَلُ الجنة وصفتُها مضمونُ هذا الكلام، ولا يحتاج مِثْلُ هذا الخبر إلى رابط. وقيل: هذه الجملة هي الخبر إلا أنَّ لفظ «مثل» زائدٌ زيادةَ اسم في قولِ مَن قال:

إلى الحول ثم اسمُ السلامِ عليكما[٢]

فالمبتدأ في الحقيقة هو المضافُ إليه، فكأنه قيل: الجنةُ فيها أنهار.. إلخ. وليس بشيء. وقيل: الخبر قوله تعالى الآتي: «كمن هو خالد في النار» وسيأتي إن شاء الله تعالى بسطُ الكلام فيه.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه وابن عباس وعبد الله والسُّلمي: «أمثال الجنة» أي: صفاتها، قال ابن جنيٍّ[٣]: وهذا دليل على أن قراءة العامة بالتوحيد معناها الكثْرة لما في «مثل» من معنى المصدرية، ولذا جاز: مررت برجل مثل رجلين، و: برجلين مثل رجال، وبامرأة مثل رجل. وعن عليّ كرم الله تعالى وجهه أيضًا أنه قرأ: «مِثالُ الجنة»[٤] ومثال الشيء في الأصل نظيره الذي يُقابَل به.

﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير مُتغيِّر الطَّعم والريح لطول مُكْث ونحوه، وماضيه: أَسَنَ بالفتح من باب ضَرَبَ ونَصَرَ، وبالكسر من باب عَلِمَ، حكى ذلك الخفاجي عن أهل اللغة[٥]. وفي «البحر»[٦]: أَسَنَ الماءُ: تغيَّر ريحُه، يَأْسِنُ ويَأْسُنُ؛ ذكره

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٤.

(٢) قائله لبيد بن ربيعة، وهو في ديوانه ص٧٩، وعجزه: ومن يبك حولًا كاملًا فقد اعتذر. وسلف ١١/ ٤٥٦.

(٣) في المحتسب ٢/ ٢٧٠، والقراءة السابقة فيه وفي القراءات الشاذة ص ١٤٠.

(٤) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١١٤، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٥٩.

(٥) حاشية الشهاب ٨/ ٤٥.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٧٠.

ثعلب في «الفصيح»، والمصدر: أُسونٌ، وأَسِن بكسر السين يأسَن بفتحها لغة أسنًا، قاله اليزيدي، وأَسِن الرجل بالكسر لا غير إذا دخل البئرَ فأصابته ريحٌ مُنتنة منها فَغُشي عليه أو دار رأسُه، ومنه قول الشاعر:

قد أترك القِرن مُصْفَرًّا أنامله   يميدُ في الرمح[1] ميدَ المائح الأسِن[2]

وقرأ ابن كثير وأهلُ مكة: «أَسِنٍ» على وزن حَذِر[3]، فهو صفةٌ مُشبَّهةٌ أو صيغةُ مبالغة، وقرئ: «يَسِنٍ» بالياء، قال أبو عليٍّ[4]: وذلك على تخفيف الهمزة.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ لم يحمض ولم يَصِرْ قارصًا ولا حاذرًا كألبان الدنيا، وتَغيُّر الريح لا يُفارق الطَّعم ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لذيذة لهم، ليس فيها كراهةُ طَعْم وريح، ولا غائلةُ سُكر وخمار كخمور الدنيا، فإنها لا لذَّةَ في نفس شُربها، وفيها من المكاره والغوائل ما فيها، وهي صفة مشبَّهة مؤنَّث لذٍّ، وُصفت بها الخمر لأنها مؤنَّثة وقد تذكَّر، أو مصدر نُعت به بتقدير مضاف، أو بجَعْلِها عينَ اللذة مبالغةً على ما هو المعروف في أمثال ذلك. وقُرئت بالرفع على أنها صفة «أنهار» وبالنصب على أنها مفعولٌ له[5]، أي: كائنة لأجل اللذة لا لشيء آخر من الصّداع وسائر آفاتِ خمورِ الدنيا.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ مما يُخالفه، فلا يُخالطه الشَّمَع[6] وفضلات النحل وغيرها، ووصفُه بـ«مصفًّى»؛ لأن الغالبَ على العسل التذكير، وهو مما يُذكَّر

---

(١) في الأصل و(م): الريح. والمثبت من المصادر. وجاء في هامش الأصل: رأيت في بعض النسخ: الرمح، بدل الريح.

(٢) البيت لزهير، وهو في شرح ديوانه ص١٢١، وروايته فيه:

يغادر القرن مصفرًّا أنامله   يميل في الرمح ميل المائح الأسن

القِرْن: كفؤك في الشجاعة. الصحاح (قرن). قال شارح الديوان: مصفرًّا أنامله: دنا موته فاصفرَّت أنامله، والمائح: الذي ينزل إلى أسفل البئر يملأ الدلو إذا قلَّ ماؤه.

(٣) التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥.

(٤) الحجة للقراء السبعة ٦/ ١٩١.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٧٩.

(٦) في هامش الأصل: بفتح الميم، والعامة تسكِّنها، وهو إمَّا لحنٌ أو لغة رديئة. قاله الخفاجي.

ويؤنَّث كما نصَّ عليه أبو حيان[١] وغيره، وهذا ـ على ما قيل ـ تمثيلٌ لما يجري مجرى الأشربة في الجنة بأنواع ما يُستطاب منها أو يستلذُّ في الدنيا، بالتخلية عمَّا ينقصها ويُنغِّصها، والتحلية بما يُوجب غَزارتها ودوامها.

وبُدئ بالماء لأنه في الدنيا مما لا يُستغنى عنه، ثم باللبن إذ كان يجري مجرى المطعم لكثير من العرب في كثير من أوقاتهم، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الرِّي والمطعوم تشوَّفت النفس إلى ما يُلتذُّ به، ثم بالعسل لأنَّ فيه الشفاءَ في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخِّر بالرُّتبة.

وجاء عن ابن عباس أن لبنَ تلك الأنهار لم يُحلَب، وقال سعيد بن جُبير: إنه لم يخرج من بين فَرْث ودم، وإنَّ خمرَها لم تَدُسها الرجالُ بأرجلها، وإن عسلَها لم يخرج من بطون النحل. وأخرج ابنُ جرير عن سعد قال: سألت أبا إسحاق عن قوله تعالى: «مِنْ ماء غير آسن» فقال: سألت عنه الحارث فحدَّثني أنَّ ذلك الماء تسنيم، وقال: بلغني أنه لا تمسُّه يدٌ وأنه يجيء الماء هكذا حتى يدخلَ الفم[٢].

وفي حديثٍ أخرجه ابنُ مردويه عن الكلبي: أن نهر دِجلةَ نهر الخمر في الجنة، وأن عليه إبراهيمَ عليه السلام، ونهر جيحون نهر الماء فيها، ويقال له: نهر الربّ، ونهر الفرات نهر اللبن وأنه لِذُرِّيَّة المؤمنين، ونهر النيل نهر العسل[٣].

وأخرج الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» والبيهقي عن كعب قال: نهرُ النيل نهرُ العسل، ونهرُ دجلة نهر اللبن، ونهر الفرات نهرُ الخمر، ونهر سيحان نهر الماء في الجنة[٤].

وأنت تعلم أن المذكورَ في الآية لكلٍّ «أنهارٌ» بالجمع، والله تعالى أعلم بصحة

(١) البحر المحيط ٨/ ٧٩.
(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٢٠٠.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٩.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٩، ومسند الحارث (١٠٤٢ - زوائد)، وأخرجه أيضاً الخطيب في تاريخ بغداد ١/ ٥٥.

هذه الأخبار ونحوها، ثم إنها إنْ صحَّت لا يبعدُ تأويلها، وإن كانت القُدرة الإلهية لا يتعاصاها شيء.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ مع ما ذكر من فنون الأنهار ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: أنواع من كلّ الثمرات، فالجارُّ والمجرور صفةُ مبتدأ مقدَّر، وقدَّره بعضُهم: زوجان، وكأنه انتزعه من قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢]. وقيل: «مِنْ» زائدةٌ، أي: ولهم فيها كلُّ الثمرات.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ خبره محذوفٌ، والجملة عطفٌ على الجملة السابقة، أي: ولهم مغفرة، وجُوِّز أنْ يكون عطفًا على المبتدأ قبلُ بدون قيد فيها؛ لأنَّ المغفرةَ قبل دخول الجنة، أو بالقيد والكلام على حذف مضاف، أي: ونعيمُ مغفرةٍ، أو جعل المغفرة عبارة عن أثرها وهو النعيم، أو مجازًا عن رضوان الله عز وجل.

وقد يقال: المراد بالمغفرة هنا سترُ ذنوبهم وعدمُ ذِكْرها لهم لئلا يستحوا فتتنغَّص لَذَّتهم، والمغفرة السابقة سترُ الذنوب وعدم المُؤاخذة بها، وحينئذ العطفُ على المبتدأ من غير ارتكاب شيء مما ذكر. وقد رأيتُ نحو هذا بَعْدَ كتابته للطبرسي[1] مقتصرًا عليه، ولعله أَولى مما قالوه.

وتنوين: «مغفرة» للتعظيم أي: مغفرة عظيمة لا يُقادَر قدرها، وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ صفةٍ لها مؤكِّدةٍ لما أفاده التنكير من الفَخامة الذاتية بالفَخامة الإضافية، أي: كائنةٌ من ربِّهم.

وقوله عز وجل: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره: أَمَنْ هو خالد في هذه الجنة حَسْبَما جرى به الوعدُ كمَن هو خالدٌ في النار كما نطق به قوله تعالى: «والنار مثوى لهم». وجُوِّز أن يكون بدلًا من قوله سبحانه: «كمن زين له سوء عمله» وما بينهما اعتراضٌ لبيان ما يمتاز به مَن على بينة في الآخرة تقريرًا لإنكار المساواة، وفيه بُعْدٌ.

---

(١) مجمع البيان ٢٦/ ٣٥.

وذهب جارُ الله إلى أنه خبر «مَثَلُ الجنة» وأن ذاك مرتَّب على الإنكار السابق، أعني قوله تعالى: «أفمن كان» إلخ، والمعنى: أَمَثَلُ الجنة كمَثَل جزاء من هو خالدٌ في النار، فالمضافان محذوفان: الجزاء بقرينةِ مقابلة الجنة، ولفظ المَثَل بقرينة تقدُّمه، ومثله كثير. وفائدة التعرية عن حرف الإنكار أنَّ من اشتبه عليه الأول - أعني حال المتمسِّك بالبينة وحال التابع لهواه - فالثاني مثلُه عنده[١]، وإذ ذاك لا يستحقُّ الخطاب، ونظيرُ ذلك قولُ حضرمي بن عامر:

أفــــرحُ أنْ أُرْزَأَ الـــــكــــرامَ وأنْ   أُورَثَ ذودًا شـصـائـصًـا نَـبَـلا[٢]

فإنه كلامُ منكرٍ للفرح برزية الكرام ووراثةِ الذُّود مع تعرِّيه من حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم من قال له: أتفرح بموت أخيك وبوراثة إبله؟! وذلك من التسليم الذي يقلُّ تحته كلُّ إنكار.

وجَعل قولَه تعالى: «فيها أنهار» كالتكرير للصلة - أي: صلة بعد صلة - يتضمَّن تفصيلَها لأنه كالتفصيل للموعود، ولهذا لم يتخلَّل العاطفُ بينهما، وجَوَّز أن يكون في موضع الحال على أنَّ الظرفَ في موضع ذلك، و«أنهار» فاعله، لا على أنه مبتدأ والظرفُ خبرٌ مقدَّم والجملة الاسمية حال لعدم الواو فيها، وقد صرَّحوا بأن الاكتفاء فيها بالضمير غيرُ فصيح، واعتبارها فعليَّة بتقدير متعلَّق الظرف استقرَّ لا يخفى حاله. وقيل: في الحال ضعفٌ من حيث المعنى لمجيئه مجيء الفضلات، وهي أُمُّ الإنكار، وأيضًا هو حالٌ من الجنة لا من ضميرها في الصلة، وفي العامل تكلُّف، ثم الحال غير مقيّدة، وجَعْلُها مؤكِّدةً وقد عُلم كونها كذلك من إخباره تعالى فيه أيضًا تكلُّف. وأن يكون[٣] خبرَ مبتدأ محذوف والجملة استئنافٌ بياني، قال في «الكشف»: وهو الوجه، والتقدير: هي فيها

---

(١) في الكشاف ٣/ ٥٣٣: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصويرٍ لمكابرة مَن يسوي بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة مَن يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها الأنهار، وبين النار التي يسقى أهلها الحميم.

(٢) سلف ١٨/ ٥١٧.

(٣) أي: وجوَّز (يعني الزمخشري) أن يكون. . . . الكشاف ٣/ ٥٣٤.

أنهارٌ. وكأنه قيل: أنّى يكون صفةُ الجنة وهي كذا وكذا كصفة النار؟ فالاستئنافُ هاهنا بمنزلة قولك: وهي كذا وكذا، اعتراضًا لِمَا في لفظ المثل من الإشعار بالوصف العجيب، وليس خبر الجملة السابقة وهو «كمن هو خالد في النار» مَوْرِدَ السؤال ليعترض بوقوع الاستئناف قبل مُضِيِّه. وأُورد أنه لا حاجة إلى تقدير المبتدأ لأن «فيها أنهار» جملة برأسها. والجواب أن التقدير: مَثَلُها فيها أنهار، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مُقامه، فصار مرفوعًا، ثم حُذف، ولهذا قال في السؤال: كأنَّ قائلًا قال: وما مَثَلُها؟ ويجري ما قرّر في قراءة الأمير كرم الله تعالى وجهه ومن معه: «أمثال» بالجمع فيقال: التقدير: أمثالُ الجنة كأمثالِ جزاء من هو خالد في النار، ويُقدَّر المضاف الأول جمعًا للمطابقة. ولعمري لقد أبعد جارُ الله المغزى، وقد استحسن ما ذكره كثيرٌ من المُحقِّقين؛ قال صاحب «الكشف» بعد تقرير جعل «كمن هو خالد» خبرًا لـ «مَثَلُ الجنة»: هذا هو الوجه اللائح المناسبُ للمساق.

وقال ابن المُنيِّر: في «الانتصاف»[1] بعد نقله: كم ذكر الناسُ في تأويل هذه الآية، فلم أرَ أطلى ولا أحلى من هذه النُّكت التي ذكرها،، لا يعوزها إلا التنبيه على أنَّ في الكلام محذوفًا ليتعادل، والتقدير: مثلُ ساكن الجنة كمن هو خالد في النار، ومن هذا النمط قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩] إلخ. وما قدَّرناه لتحصيل التعادل أَولى وإنْ كان فيه كثرةُ حذف، فتأمَّل ذاك والله تعالى يتولّى هداك.

والضمير المفرد ـ أعني «هو» ـ راجعٌ إلى «مَنْ» باعتبار لفظها كما أن ضمير الجمع في قوله سبحانه: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ راجعٌ إليها باعتبار معناها، والمراد: وسُقوا ماءً حارًّا مكانَ تلك الأشربة، وفيه تهكُّمٌ بهم.

﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ من فَرْطِ الحرارة، رُوي أنه إذا أُدنيَ منهم شوى وجوهَهم وامتازَتْ فروةُ رؤوسهم، فإذا شربوه قطَّع أمعاءهم، وهي جمع: معى

(١) ٣/ ٥٣٣ (بهامش الكشاف).

بالفتح والكسر[١]: ما ينتقل الطعام إليه بعد المعدة، ويقال له: عفاج[٢]، وهو مذكَّر وقد يُؤنَّث.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ هم المنافقون، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ كما أنَّ جمعه بعدُ باعتبار المعنى، قال ابن جُريج: كانوا يحضرون مجلسَ رسول الله ﷺ فيسمعون كلامَه ولا يَعُونه ولا يُراعونه حقَّ رعايته تَهاونًا منهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: لأُولي العلم من الصحابة ﷺ. وقيل: هم الواعون لكلامه عليه الصلاة والسلام الراعون له حقَّ رعايته من الصحابة ﷺ: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: ما الذي قال قُبيل هذا الوقت، ومقصودهم من ذلك الاستهزاء وإنْ كان بصورة الاستعلام، وجُوِّز أن يكون مرادُهم حقيقةَ الاستعلام، إذ لم يُلقوا له آذانهم تهاونًا به ولذلك ذُمُّوا.. والأول أولى. قيل: قالوا ذلك لابن مسعود. وعن ابن عباس: أنا منهم، وقد سُميت فيمن سُئل[٣]، وأراد ﷺ أنه من الذين أُوتوا العلم بنصِّ القرآن، وما أحسن ما عبَّر عن ذلك.

و«آنفًا» اسمُ فاعل على غير القياس، أو بتجريد فعله من الزوائد لأنه لم يُسمع له فعلٌ ثلاثي، بل استأنف وائتنف، وذكر الزجَّاج[٤] أنه من استأنفتُ الشيء: إذا ابتدأته، وكأنَّ أصل معنى هذا: أخذت أنفه، أي: مبدأه. وأصلُ الأنف الجارحةُ المعروفة، ثم يُسمَّى به طرفُ الشيء ومُقدَّمه وأشرفه، وذكر غيرُ واحد أنَّ «آنفًا» من ذلك؛ قالوا: إنه اسمٌ للساعة التي قبلَ ساعتك التي أنت فيها، من الآنف بمعنى المتقدِّم، وقد استُعير من الجارحة لتقدُّمها على الوقت الحاضر، وقيل: هو بمعنى زمان الحال.

---

(١) يعني بفتح وكسر الميم، والعين تُفتح مع كسر الميم وتسكن مع فتحها. القاموس المحيط (معي).

(٢) كذا في الأصل و(م): عفاج، والصواب: أعفاج، وهو جمع عَفْج، وبالكسر والتحريك وككَتِف.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٠٤.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ١٠.

وهو على ما ذهب إليه الزمخشري[١] نصبٌ على الظرفية، ولا يُنافي كونه اسم فاعل كما في بادئ، فإنه اسمُ فاعل غُلِّب على معنى الظرفية في الاستعمال. وقال أبو حيان[٢]: الصحيح أنه ليس بظرف، ولا نعلم أحدًا من النحاة عدَّه في الظروف، وأَوجبَ نَصْبَه على الحال من فاعل «قال»، أي: ماذا قال مبتدئًا، أي: ما القول الذي ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه، وإلى ذلك يُشير كلامُ الراغب[٣].

وقرأ ابنُ كثير: «أَنِفًا» على وزن فَعِل[٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فَعدِمَ توجُّههم[٥] نحو الخير ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ۝١٦﴾ فتوجَّهوا نحو كلِّ ما لا خيرَ فيه، فلذلك كان منهم ما كان.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ إلى طريق الحقِّ ﴿زَادَهُمْ﴾ أي: الله عز وجل ﴿هُدًى﴾ بالتوفيق والإلهام، والموصول يحتمل الرفعَ على الابتداء والنصبَ بفعلٍ محذوف يُفسِّره المذكور، و«هدى» مفعولٌ ثانٍ، لأنَّ: زاد، قد يتعدَّى لمفعولين، ويحتمل أن يكون تمييزًا، والأول هو الظاهر، وتنوينه للتعظيم، أي: هدى عظيمًا.

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ أي: أعطاهم تقواهم إيَّاه جل شأنه، بأنْ خَلَقها فيهم بناءً على ما يقوله الأشاعرة في أفعال العباد، أو بأنْ خلقَ فيهم قُدرةً عليها مؤثِّرةً في فِعْلها بإذنه سبحانه على ما نسبه الكوراني إلى الأشعري، وسائرُ المحقِّقين في أفعال العباد من أنها بقدرةٍ خَلَقها الله تعالى فيهم مُؤثِّرة بإذنه تعالى، وقول بعضهم: بأن جعلهم جلَّ شأنه مُتَّقين له سبحانه، يمكن تطبيقُه على كلٍّ من القولين.

وقال البيضاوي[٦]: أي: بيَّن لهم ما يتَّقون، أو: أعانهم على تقواهم، أو:

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٩.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن (أنف).
(٤) وهي غير المشهورة عنه. ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٧٩.
(٥) في تفسير أبي السعود ٨/ ٩٦: لعدم توجههم.
(٦) في تفسيره مع حاشية الشهاب ٨/ ٤٦.

أعطاهم جزاءَها، فالإيتاء عنده مجازٌ عن البيان أو الإعانة، أو هو على حقيقته والتقوى مجازٌ عن جَزائها لأنها سببه، أو فيه مضافٌ مقدَّر، وليس في شيء من ذلك ما يأباه مذهبُ أهلِ الحقِّ. وذكر الزمخشري[1] الثاني والثالثَ من ذلك، واختار الطيبي الأول من هذين الاثنين، وقال: هو أوفقُ لتأليف النظم الكريم لأنَّ أغلبَ آيات هذه السورة الكريمة رُوعي فيها التقابلُ، فقوبل «أولئك الذين طبع الله على قلوبهم» بقوله سبحانه: «والذين اهتدوا زادهم هدى» لأن الطَّبْع يحصل من تزايد الرين وترادف ما يزيد في الكفر، وقوله تعالى: «واتبعوا أهواءهم» بقوله جل وعلا: «وآتاهم تقواهم» فيحمل على كمال التقوى، وهو أن يتنزَّه العارف عمَّا يشغل سِرَّه عن الحقِّ، ويتبتَّل إليه سبحانه بشراشره، وهو التقوى الحقيقية المعنية بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] فإن المزيدَ على مَزيد الهدى مَزيدٌ لا مَزيدَ عليه، وفي الترفُّع عن متابعة الهوى النزوعُ إلى المولى والعزوبُ عن شهوات الحياة الدنيا، ثم في إسناد إيتاء التقوى إليه تعالى وإسناد متابعة الهوى إليهم إيماءٌ إلى معنى قوله تعالى حكاية: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] وتلويحٌ إلى أن متابعة الهوى مرض روحاني وملازمة التقوى دواءٌ إلهي. انتهى.

وما ذكره من التقابل جارٍ فيما ذكرناه أيضًا، وكذا يجري التقابل على تفسير إيتاء التقوى ببيان ما يتَّقون لإشعار الكلام عليه بأن ما هم فيه ليس من ارتكاب الهوى والتشهِّي، بل هو أمرٌ حقٌّ مبنيٌّ على أساس قوي، وتفسير ذلك بإعطاء جزاء التقوى مَرويٌّ عن سعيد بن جبير وذهب إليه الجُبَّائي، والكلامُ عليه أَفيدُ وأَبعدُ عن التأكيد من غير حاجة إلى حمل التقوى على أعلى مراتبها، وأمر التقابل هيِّنٌ، فإنه قد يقال: إن قوله تعالى: «اهتدوا» في مقابلة «اتبعوا أهواءهم» وقوله سبحانه: «زادهم هدى» في مقابلة «طبع الله على قلوبهم»، فليتدبَّر.

وقيل: فاعل «زادهم» ضمير قوله ﷺ المفهوم من قوله تعالى: «ومنهم من يستمع إليك» وقولِه سبحانه: «ماذا قال آنفًا»، وكذا فاعل «آتاهم» أي: أعانهم أو بيَّن لهم، والإسنادُ مجازيٌّ. ولا يخفى أنه خلافُ الظاهر، وأيضًا إذا كان قوله

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٤.

تعالى: «زادهم هدى» في مقابلة قوله سبحانه: «طبع الله على قلوبهم» فالأولى أن يتَّحدَ فاعلُه مع فاعله ويجري نحو ذلك على ما قاله الطيبي لئلا يلزم التفكيك.

وجُوِّز أن يكون ضميرًا عائدًا على قول المنافقين فإن ذلك مما يَعجَبُ منه المؤمن فيحمد الله تعالى على إيمانه، ويَزيد بصيرة في دينه. وهو بعيدٌ جدًّا، بل لا يكاد يُلتفَتُ إليه.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة، وقوله تعالى: ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ ـ أي: تُباغتهم بغتة، وهي المفاجأة ـ بدلُ اشتمالٍ من «الساعة»، أي: لا يتذكَّرون بأحوال الأمم الخالية ولا بالأخبار بإتيان الساعة وما فيها من عظائم الأحوال، فما ينتظرون للتذكر إلا إتيان الساعة نفسها.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ ـ أي: علاماتها وأماراتها، كما في قول أبي الأسود الدُّؤلي:

فإنْ كنتَ قد أزمعتَ بالصَّرم بيننا ... فقد جَعَلَتْ أشراطُ أوَّلِهِ تبدو[1]

وهي جمع شَرَط بالتحريك ـ تعليل لمفاجأتها، على معنى أنه لم يَبْقَ من الأمور المُوجبة للتذكُّر أمرٌ مترقَّب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة؛ إذ قد جاء أشراطُها فلم يرفعوا لها رأسًا ولم يعدُّوها من مبادئ إتيانها، فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة، كذا في «إرشاد العقل السليم»[2].

وظاهر كلام «الكشاف»[3] أنه تعليلٌ للإتيان مطلقًا، أي: ما ينتظرون إلا إتيان الساعة لأنه قد جاء أشراطُها، وبعد مجيئها لا بدَّ من وقوع الساعة، وتعليلُ المقيَّد دون قيدِه لا يخلو عن بُعد، قيل: ويُقرِّبه هنا أنَّ انتظارَهم ليس إلا لإتيان الساعة، وتقييده بـ «بغتة» ليس إلا لبيان الواقع.

وقال بعض المحققين: هو تعليلٌ لانتظار الساعة؛ لأن ظهورَ أمارات الشيء

(١) الأغاني ١٢/ ٣٣٤، والكشاف ٣/ ٥٣٥، والصرم: الهجران. اللسان (صرم).
(٢) وهو تفسير أبي السعود ٨/ ٩٧.
(٣) ٣/ ٥٣٥.

سببٌ لانتظاره، وفي جعله تعليلًا للمفاجأة خَفاءٌ لأنها لا تناسب مجيء الأشراط إلا بتأويل، وأنت تعلم أن البدلَ هو المقصودُ فالانتظار لإتيان الساعة بغتةً، فالتعليل المذكور تعليلٌ للمقيَّد دون قيده أيضًا، فكان ما في «الإرشاد» متعيِّنٌ وإن كان فيه نوعُ تأويل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ على ما أفاده بعضُ الأجلة تعجيبٌ من نفع الذكرى عند مجيء الساعة وإنكارٌ لعدم تشمُّرهم لها ولانتظارهم إياها هُزءاً وجحودًا، وفي «الإرشاد»[1]: وقوله تعالى: «فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم» حكمٌ بخطئهم وفسادِ رأيهم في تأخير التذكُّر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكُّر حينئذٍ كقوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣] أي: فكيف لهم ذِكراهم؟ على أنَّ «أنى» خبرٌ مقدَّم، و«ذكراهم» مبتدأ، و«إذا جاءتهم» اعتراضٌ وُسِّط بينهما رمزًا إلى غاية سُرعة مجيئها، وإطلاقُ المجيء عن قيد البغتة لما أنَّ مدارَ استحالة نفع التذكُّر كونُه عند مجيئها مطلقًا لا مقيدًا بقيد البغتة.

وقيل: «أنى» خبرٌ مقدَّم لمبتدأ محذوف، أي: فأنى لهم الخَلاص إذا جاءتهم الذِّكرى بما يُخبَرون به فينكرونه منوطةً بالعذاب. ولا يخفى حاله.

وقرأ أبو جعفر الرُّؤاسي عن أهل مكة: «إنْ تَأْتِهم»[2] على أنه شرطٌ مستأنفٌ، جزاؤه: «فأنى لهم» إلخ، أي: إنْ تأتهم الساعةُ بغتةً إذْ قد جاء أشراطُها فأنَّى تنفعهم الذِّكرى وقتَ مجيئها، و«إن» هنا بمعنى «إذا»، لأن إتيانَ الساعة متيقَّن، ولعلَّ الإتيان بها للتعريض بهم، وأنهم في رَيْبٍ منها، أو لأنها لِعدم تعيين زمانها أشبهت المشكوكَ فيه، وإذا جاءتهم باعتبار الواقع فلا تعارضَ بينهما كما يُتوهم في النظرة الحمقاء.

وفي «الكشف»: «إذا» على هذه القراءة لمجرَّد الظرفية لئلا يلزم التمانع بين: «إذا جاءتهم» و«إن تأتهم»، وفي الإتيان بـ «إنْ» مع الجزم بالوقوع تقويةُ أمرِ التوبيخ والإنكار كما لا يخفى. انتهى. وعلى ما ذكرنا لا يحتاج إلى جعل «إذا» لمجرَّد الظرفية.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ٩٧.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٠، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢٦٦.

وقرأ الجعفي وهارون عن أبي عمرو: «بَغَتَّةً» بفتح الغين وشدِّ التاء[1]. قال صاحب «اللوامح»: وهي صفةٌ وانتصابها على الحال، ولا نظير لها في المصادر ولا في الصفات، بل في الأسماء نحو الجَرَبَّة - وهي القطيع من حُمر الوحش، وقد يُسمَّى الأقوياء من الناس إذا كانوا جماعةً متساوين: جَرَبَّة - والشَّرَبَّة، وهي اسمُ موضع، وكذا قال أبو العباس بن الحاج من أصحاب أبي علي الشلوبين في كتابه: «المصادر».

وقال الزمخشري[2]: وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي عن أبي عمرو، وأن يكون الصوابُ: «بَغَتة» بفتح الغين من غير تشديد كقراءة الحسن فيما تقدَّم.

وتعقَّبه أبو حيان[3] بأن هذا على عادته في تغليط الرواة.

والظاهر أن المرادَ بأشراط الساعة هنا علاماتُها التي كانت واقعةً إذ ذاك، وأُخبروا أنها علاماتٌ لها كبعثة نبينا ﷺ، فقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بُعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى[4]. وأراد عليه الصلاة والسلام مَزيد القُرب بين مبعثه والساعة، فإن السبابة تقربُ من الوسطى طولًا فينا، وهكذا فيه ﷺ، وزعمُ بعضِهم أنَّ أمر الطول والقِصَر في وسطاه وسبابته عليه الصلاة والسلام على عَكْس ما فينا خطأٌ لا يُلتفت إليه إلا أنْ يكون أراد ذلك في أصابع رجليه الشريفة ﷺ.

وأخرج أحمد عن بُريدة ﵁ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بُعثت أنا والساعة جميعًا وإن كادتْ لتسبقني»[5]، وهذا أبلغُ في إفادة القُرب، وعدُّوا منها انشقاقَ القمر الذي وقع له ﷺ، والدخانَ الذي وقع لأهل مكة.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٧١، والبحر ٨/ ٨٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٥.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٠.

(٤) مسند أحمد (١٢٢٤٥)، وصحيح البخاري (٦٥٠٤)، وصحيح مسلم (٢٩٥١): (١٣٥)، وسنن الترمذي (٢٢١٤)، وفي الباب عن عدد من الصحابة. تنظر في حاشية مسند أحمد.

(٥) مسند أحمد (٢٢٩٤٧).

وأما أشراطُها مطلقًا فكثيرةٌ أُلِّفت فيها كتبٌ مختصرة ومطولة، وهي تنقسم إلى:

مضيقة لا تبقى الدنيا بعد وقوعها إلا أيسرَ يسير، كخروج المهدي ﷺ على ما يقول أهلُ السنة دون ما يقوله الشيعة القائلون بالرجعة، فإن الدنيا عندهم بعد ظهوره تبقى مدةً معتدًّا بها، وكنزولِ عيسى عليه السلام، وخروجِ الدجَّال، وطلوعِ الشمس من مغربها، وخروج الدابَّة، وغير ذلك.

وغير مضيقة: وهي أكثرُ الأشراط، ككون الحُفاة الرُّعاة رؤوسَ الناس، وتطاولهم في البنيان، وفُشُوِّ الغِيبة، وأكل الربا، وشُرب الخمر، وتعظيم ربِّ المال، وقلَّة الكرام، وكَثْرة اللِّئام، وتباهي الناس في المساجد واتِّخاذها طرقًا، وسوء الجوار، وقطيعة الأرحام، وقلَّة العلم، وأنْ يُوسَّد الأمرُ إلى غير أهله، وأنْ يكون أسعدُ الناس بالدنيا لُكَعَ بن لكع، إلى ما يطول ذِكْرُه.

ومن وقف على الكتب المُؤلَّفة في هذا الشأن واطَّلع على أحوال الأزمان رأى أنَّ أكثرَ هذه العلاماتِ قد بَرزتْ للعِيان، وامتلأت منها البلدان، ومع هذا كلِّه أمرُ الساعة مجهول ورداءُ الخَفاء عليه مَسدول، وقُصارى ما ينبغي أن يقال: إن ما بقي من عمر الدنيا أقلُّ قليل بالنسبة إلى ما مضى.

وفي بعض الآثار أنه عليه الصلاة والسلام خطب أصحابه بعد العصر حين كادت الشمس تغرب ولم يبقَ منها إلا شِفٌّ[(١)] ـ أي: شيء ـ فقال: «والذي نفسُ محمد بيده، ما مَثَلُ ما مضَى من الدنيا فيما بقي منها إلا مثلُ ما مضى من يومِكم هذا فيما بقي منه، وما بقي منه إلا اليسير»، ولا ينبغي أن يقال: إن الألف الثانية بعد الهجرة، وهي الألف التي نحن فيها هي ألفٌ مخضرمة، أي: نصفُها من الدنيا ونصفُها الآخر من الآخرة.

(١) في الأصل و(م): أسف. والمثبت من مصادر التخريج والنهاية لابن الأثير (شفف). والخبر أخرجه البزار كما ذكر ابن كثير عند تفسير الآية الأولى من سورة القمر، والطبري في تاريخه ١/ ١١-١٢، والضياء في المختارة ٧/ ١٢١ من حديث أنس ﷺ. وورد عند الطبري: شقّ، بدل: شفّ.

وقال الجلال السيوطي في رسالة سمَّاها: «الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف»[(١)]: الذي دلَّت عليه الآثارُ أن مدَّة هذه الأمة تزيدُ على ألف سنة، ولا تبلغ الزيادة عليها ألف سنة. وبنى الأمر على ما ورد من أن مدَّة الدنيا سبعةُ آلافِ سنة، وأن النبيَّ ﷺ بُعث في آخر الألف السادسة، وأنَّ الدجال يخرجُ على رأس مئة، وينزل عيسى عليه السلام فيقتله، ثم يمكثُ في الأرض أربعين سنة، وأن الناسَ يمكُثون بعد طلوع الشمس من مغربها مئة وعشرين سنة، وأن بين النفختين أربعين سنة، وذكر الأحاديث والأخبار في ذلك.

وفي «بهجة الناظرين وآيات المستدلين»[(٢)]: قد احتجَّ كثيرٌ من العلماء على تعيين قُرب زمانها بأحاديثَ لا تخلو عن نَظَر، فمنهم من قال: بقي منها كذا، ومنهم من قال: يخرجُ الدجَّال على رأس كذا، وتطلعُ الشمسُ على رأس كذا، وأفرد الحافظ السيوطي رسالةً لذلك كلِّه، وقال: تقوم الساعةُ في نحو الألف والخمس مئة. وكلُّ ذلك مردودٌ، وليس للمتكلِّمين في ذلك إلا ظنٌّ وحسبان لا يقوم عليه من الوحي برهان. انتهى، ونقله السفاريني في «البحور الزاخرة في علوم الآخرة».

وذكر السيوطي عِدَّةَ أخبار في كون مدَّة الدنيا سبعة آلاف سنة، أولها ما أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنما الشفاعة يومَ القيامة لمن عَمِلَ الكبائرَ من أُمتي ثم ماتوا عليها، فهم في الباب الأول من جهنم» وساق بقيةَ الحديث، وفيه: «وأطولهم مُكثًا فيه من يمكثُ فيها مثلَ الدنيا منذ خلقت إلى يوم أُفنيت، وذلك سبعةُ آلاف سنة» الحديث[(٣)]، وتعقَّبه السفاريني بقوله: ذكر الحافظ ابنُ رجب في كتابه «صفة النار» أنَّ هذا الحديث

---

(١) وهي ضمن كتاب الحاوي للفتاوي ٢/ ١٦٨، وينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٨٧) من سورة الأعراف.

(٢) لمؤلفه مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي ـ نسبة إلى طور كرم ـ أحد أكابر علماء الحنابلة انتقل إلى القاهرة، وتوفي فيها سنة (١٠٣٣هـ). خلاصة الأثر ٤/ ٣٥٨.

(٣) نوادر الأصول ص١٣٩.

خرَّجه ابنُ أبي حاتم وغيره، وخرَّجه الإسماعيلي مطولًا، وقال الدارقطني في كتاب «المختلف»: هو حديث منكرٌ، وذكر علله[1].

ومما ذكره السيوطي في ذلك ما نَقَل هو ضَعْفَ إسنادِ رَفْعِه.

وقد يَرِدُ عليه بأنه قد مضى من زمن البعثة إلى يومنا هذا ألفٌ ومئتان وثمانٍ وستون سنة، وإذا ضُمَّ إليها ما ذكره من سِني مُكْثِ عيسى عليه السلام وبقاء الدنيا بعد طلوع الشمس من مغربها وما بين النفختين، وهي مئتا سنة، تصير ألفًا وأربعَ مئة وثمانٍ وسبعين، فيبقى من المدة التي ذكرها اثنتان وعشرون سنة، وإلى الآن لم تطلع الشمسُ من مَغْربها، ولا خرج الدجال الذي خروجه قبل طلوعها من مغربها بعدة سنين، ولا ظهرَ المهديُّ الذي ظهوره قبل الدجَّال بسبع سنين، ولا وقعت الأشراطُ التي قبلَ ظُهور المهدي، ولا يكاد يقال: إنه يظهر بعد خمس عشرة سنة ويظهر الدجال بعدَها بسبع سنين على رأس المئة الثالثة من الألف الثانية؛ لأن قبل ذلك مقدِّمات تكون في سنين كثيرة.

فالحقُّ أنه لا يعلم ما بقي من مدة الدنيا إلا اللهُ عز وجل، وأنه ـ وإنْ طال ـ أقصرُ قصير، وما متاع الحياة الدنيا إلا قليل، وكذا فيما أرى مبدأ خَلْقها لا يعلمه إلا الله تعالى، وما يذكرونه في المبدأ لو صحَّ فإنما هو في مبدأ خَلْق الخليفة آدم عليه السلام لا مبدأ خلق السماء والأرض والجبال ونحوها.

وحكى الشيخ محيي الدين قُدِّس سرُّه عن إدريس عليه السلام ـ وقد اجتمع معه اجتماعًا روحانيًا وسأله عن العالم ـ أنه قال: نحن معاشرَ الأنبياء نعلم أن العالم حادثٌ، ولا نعلم متى حدث.

والفلاسفة على المشهور يزعُمون أنَّ من العالم ما هو قديمٌ بالشخص وما هو قديمٌ بالنوع، مع قولهم بالحدوث الذاتي ولا يدَّثر عندهم.

وذهب الملا صدر الشيرازي أنهم لا يقولون إلا بقدمِ العقول المجرَّدة دون

(١) التخويف من النار لابن رجب ص١٨٩.

عالم الأجسام مطلقًا، بل هم قائلون بحدوثها ودثورها، وأطال الكلام على ذلك في الأسفار، وأتى بنصوص أَجِلَّتهم كأرسطو وغيره.

وحكى البعضُ عنهم أنه خلقَ هذا العالم الذي نحن فيه وهو عالم الكون والفساد والطالع السنبلة، ويدثر عند مُضي ثمانية وسبعين ألف سنة، وذلك عند مُضي مدة سلطان كلٍّ من البروج الاثني عشر ووصول الأمرِ إلى برج الميزان، وزعموا أن مدةَ سلطان الحَمَل اثنا عشر ألف سنة، ومدة سلطان الثور أقلُّ بألف، وهكذا إلى الحوت.

ونقل البكري عن هرمس أنه زعم أنه لم يكن في سلطان الحمل والثور والجوزاء على الأرض حيوان، فلما كان سلطانُ السرطان[1] تكوَّنت دوابُّ الماء وهوامُّ الأرض، فلما كان سلطانُ الأسد تكوَّنت الدوابُّ ذواتُ الأربع، فلما كان سلطانُ السنبلة تولَّد الإنسانان الأولان آدمانوس وحوانوس، وزعم بعضُهم أن مدةَ العالم مقدار قطع الكواكب الثابتة لدرج الفلك التي هي ثلاث مئة وستون درجة، وقطعها لكلٍّ درجة على قول كثير منهم في مئة سنة، فتكون مدته ستًّا وثلاثين ألف سنة، وكلُّ ذلك خبطٌ لا دليلَ عليه.

ومن أعجب ما رأيتُ ما زعمه بعضُ الإسلاميين من أن الساعة تقومُ بعد ألف وأربع مئة وسبع سنين أخذًا من قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ وقوله سبحانه: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧] بناء على أن عدة حروف «بغتة» بالجُمَّل الكبير ألفٌ وأربع مئة وسبع، ويُوشك أن يقول قائلٌ: هي ألفٌ وثمان مئة واثنان، وبحسب تاء التأنيث: أربع مئة لا خمسة، فإنه رأي بعض أهل الحساب كما في فتاوى خير الدين الرَّملي، ويجيء آخر ويقول: هي أكثرُ من ذلك أيضًا، ويعتبر بسط الحروف على نحو ما قالوا في اسم محمد ﷺ إنه مُتضمِّن عدَّة المرسلين عليه السلام، وأنت تعلم أن مثلَ ذلك مما لا ينبغي لعاقل أن يُعوِّل عليه، أو يلتفتَ إليه، والحزم الجزمُ بأنه لا يعلم ذلك إلا اللطيف الخبير.

---

(١) في الأصل و(م): الأسد، والمثبت مما سلف عند تفسير الآية (١٨٧) من سورة الأعراف.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مسبَّبٌ عن مجموع القصة من مُفتتح السورة لا عن قوله تعالى: «فهل ينظرون»، كأنه قيل: إذا علمتَ أن الأمرَ كما ذكر من سعادةِ هؤلاء وشقاوةِ هؤلاء فاثْبُتْ على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية، فهو من مُوجبات السعادة، وفسِّر الأمر بالعلم بالثَّبات عليه لأنَّ علمَه ﷺ بالتوحيد لا يجوز أن يترتَّب على ما ذكره سبحانه من الأحوال، فإنه عليه الصلاة والسلام مُوحِّد عن علم حال ما يُوحى إليه، ولأن المعنى: فتمسَّكْ بما أنت فيه من مُوجبات السعادة لا بطلب السعادة.

وقال بعضُ الأفاضل: إنَّ الثَّبات أيضًا حاصلٌ له عليه الصلاة والسلام، فأَمْرُه بذلك ﷺ تذكيرٌ له بما أنعم الله تعالى عليه توطئةً لما بعدَه. وتُعُقِّب بأنَّ المرادَ بالثَّبات الاستمرارُ، وهو بالنظر إلى الأزمنة الآتية، وذلك وإنْ كان مما لابدَّ من حُصوله له عليه الصلاة والسلام لمكان العِصمة، لكن المعصوم يُؤمَر ويُنهى، فيأتي بالمأمور ويترك المنهي، ولا بدَّ للعصمة.

والأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ قيل: على معنى الثَّبات أيضًا، وجعل الاستغفار كنايةً عمَّا يلزمه من التواضع وهَضْمِ النفس والاعتراف بالتقصير لأنه ﷺ معصومٌ أو مغفورٌ لا مصرٌّ ذاهلٌ عن الاستغفار.

وقيل: التحقيق أنه توطئة لما بعده من الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات.

ولعلَّ الأولى إبقاؤه على الحقيقة من دون جعله توطئةً، والنبيُّ ﷺ كان يُكثر الاستغفار، أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان عن الأغرِّ المُزَني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه لَيُغان على قلبي، وإني لأستغفرُ اللهَ كلَّ يوم مئة مرة»[(١)]، وأخرج النسائي وابن ماجه وغيرهما عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصبحتُ غداةً قطُّ إلا استغفرتُ اللهَ فيها مئةَ مرة»[(٢)]، وأخرج

---

(١) مسند أحمد (١٧٨٤٨)، وصحيح مسلم (٢٧٠٢)، وسنن أبي داود (١٥١٥)، وعمل اليوم والليلة للنسائي (٤٤٣)، وصحيح ابن حبان (٩٣١).

(٢) سنن النسائي الكبرى (١٠٢٠٢)، وسنن ابن ماجه (٣٨١٦)، ولفظ ابن ماجه: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة». وهو في مسند أحمد (١٩٦٧٢).

أبو داود والترمذي ـ وصحَّحه ـ والنسائي وابن ماجه وجماعة عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: إنَّا كنَّا لنعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس يقول: «ربِّ اغفِرْ لي وتُبْ عليَّ، إنك أنت التوابُ الرحيم» مئة مرة. وفي لفظ: «التوَّاب الغفور»(١) إلى غير ذلك من الأخبار الصحيحة.

والذنبُ بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام تركُ ما هو الأَوْلى بمنصبه الجليل، ورُبَّ شيء حسنة من شخص سيئة من آخر، كما قيل: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المُقرَّبين؛ وقد ذكروا أنَّ لنبينا ﷺ في كلِّ لحظة عروجًا إلى مقام أعلى مما كان فيه، فيكون ما عَرَجَ منه في نَظَره الشريف ذنبًا بالنسبة إلى ما عَرَجَ إليه فيستغفر منه، وحملوا على ذلك قولَه عليه الصلاة والسلام: «إنه ليُغان على قلبي» الحديثَ، وفيه أقوالٌ أُخَر.

وقوله تعالى: «وللمؤمنين» على حذف مُضاف بقرينة ما قبلُ، أي: ولذنوبِ المؤمنين. وأُعيد الجارُّ؛ لأن ذنوبَهم جنسٌ آخرُ غير ذَنْبه عليه الصلاة والسلام، فإنها معاصٍ كبائر وصغائر، وذَنْبه ﷺ تركُ الأَولى بالنسبة إلى منصبه الجليل، ولا يبعدُ أن يكونَ بالنسبة إليهم من أجلِّ حسناتهم.

قيل: وفي حذف المُضاف وتعليق الاستغفار بذواتهم إشعارٌ بفرط احتياجهم إليه، فكأنَّ ذواتهم عينُ الذنوب، وكذا فيه إشعارٌ بكثرتها.

وجوَّز بعضُهم كونَ الاستغفار للمؤمنين بمعنى طلب المغفرة لهم وطلب سببها كأمرهم بالتقوى، وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز مع أنَّ في صحته كلامًا، فالظاهر إبقاء اللفظِ على حقيقته.

وفي تقديم الأمر بالتوحيد إيذانٌ بمزيد شَرَف التوحيد، فإنه أساسُ الطاعات ونبراس العبادات. وفي الكلمة الطيبة أبحاثٌ شريفة ولطائفُ مُنيفة لا بأس بذكر بعضها وإنْ تقدَّم شيء من ذلك، فنقول: المشهورُ أنَّ «إلا» للاستثناء، والاسم

---

(١) سنن أبي داود (١٥١٦)، وسنن الترمذي (٣٤٣٤)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٢١٩)، وسنن ابن ماجه (٣٨١٤)، وأخرجه أحمد (٤٧٢٦).

الجليل بدلٌ من محلِّ اسم «لا» النافية للجنس، وخبر «لا» محذوف، واستُشكل الإبدال من جهتين: أُولاهما أنه بدلُ بعض، وليس معه ضميرٌ يعود على المُبدل منه، وهو شرطٌ فيه. وأُجيب بمنع كونه شرطًا مطلقًا، بل هو شرطٌ حيث لا تُفهم البعضية بقرينةٍ، وهاهنا قد فُهمت بقرينة الاستثناء. ثانيتهما: أن بين المُبدَل منه والبدل مخالفةً، فإنَّ الأولَ منفيٌّ والثاني مُوجب.

وأجاب السيرافي بأنه بدلٌ عن الأول في عمل العامل، والتخالفُ نفيًا وإيجابًا لا يمنع البدلية؛ لأن مذهب البدل أن يجعل الأول كأنه لم يذكر، والثاني في موضعه، وقد تتخالف الصفةُ والموصوف في ذلك نحو: مررتُ برجل لا كريم ولا لبيب، على أنه لو قيل: إنَّ البدلَ في الاستثناء قِسمٌ على حياله مُغايرٌ لغيره من الأبدال، لكان له وجه.

واستُشكل أمرُ الخبر بأنه إنْ قُدِّر «مُمكنٌ» يلزم عدمُ إثباتِ الوجود بالفعل للواحد الحقيقي تعالى شأنه، أو «موجودٌ» يلزم عدمُ تنزيههِ تعالى عن إمكان الشَّركة، وتقدير خاصّ مناسبٍ لا قرينةَ عليه، قيل: ولصعوبة هذا الإشكال ذهب صاحب «الكشاف» وأتباعُه إلى أن الكلمة «لا» غيرُ محتاجة إلى خبر، وجَعَلَ «إلا الله» مبتدأ و«لا إله» خبره، والأصل: اللهُ إلهٌ، أي: معبودٌ بحقٍّ، لكنْ لمَّا أُريد قصرُ الصفة على الموصوف قُدِّم الخبر وقُرن المبتدأ بـ «إلا»، إذ المقصورُ عليه هو الذي يلي «إلا»، والمقصور هو الواقع في سياق النفي، والمبتدأ إذا اقترن بـ «إلا» وجب تقديمُ خبره.

وتُعقِّب بأنه مع ما فيه من التمحُّل يلزم منه بناءُ الخبر مع «لا»، وهي لا يُبنى معها إلا المبتدأ، وأيضًا لو كان الأمر كذلك لم يكن لنصبِ الاسم الواقع بعدَها وجهٌ، وقد جوَّزه جماعة.

وقال بعضُ الأفاضل: إن «لا إله إلا الله» على هذا المذهب قضيةٌ معدولة الطرفين بمنزلة: غير الحي لا عالم، بمعنى: الحي عالم، ولا يدفع الاعتراض كما لا يخفى.

وقال بعضهم: إن الخبر هو «إلا الله» أعني «إلا» مع الاسم الجليل. وأُورد عليه أن الجنسَ مُغاير لكلٍّ من أفرادِه فكيف يصدقُ حينئذ سلبُ مغايرة فردٍ عنه، اللهم إلا أن يقال: إنَّ ذلك بناءً على تضمين معنى «من»، وأن المفهوم منه أنه انتفى من هذا الجنس غير هذا الفرد، والوجه ـ كما قيل ـ أن يقال: إن المُغايرةَ المنفيَّة هي المغايرةُ في الوجود لا المغايرةُ في المفهوم حتى لا يصدق، ولا شكَّ أن المرادَ من الجنس المنفيِّ بـ «لا» هذه هو المفهوم من غير اعتبار حصوله في الأفراد كلِّها أو بعضها، فيكون محمولًا لا بمعنى اعتبار عدم حصوله فيها أصلًا حتى لا يصح حملُه؛ إذْ لا يلزم من عدمِ اعتبار شيء اعتبارُ عَدَمِهِ، ومتى تحقَّق الحمل تحقَّق عدمُ المُغايرة في الوجود، فتدبَّره.

وقال بعضهم: لا خبر لـ «لا» هذه أصلًا على ما قاله بنو تميم فيها. وأُورد عليه أنه يلزم حينئذ انتفاء الحكم والعقد، وهو باطلٌ قطعًا ضرورةَ اقتضاء التوحيد ذلك.

ولا يبعد أن يقال: إنَّ القولَ بعدم احتياج «لا» إلى الخبر لا يُخرج المركَّب منها ومن اسمها عن العقد، وذلك لأن معنى المركب نحو: لا رجل، على هذا التقدير انتفى هذا الجنسُ، فإذا قلنا: لا رجلَ إلا حاتمٌ، كان معناه: انتفى هذا الجنس في غير هذا الفرد. ويَخدِشُه أنَّ تركُّب الكلام من الحرف والاسم مما ليس إليه سبيل، وربما يدفعُ بما قيل في النداء مثل: يا زيد، من أنه قائمٌ مقام: ادعوه، والشريف العلَّامة قُدِّس سرُّه صرَّح في بيان ما نقل عن بني تميم من عدم إثبات خبر «لا» هذه بأنه يحتمل أن يكونَ بناءً على أن المفهوم من التركيب كما ذُكر آنفًا انتفاءُ هذا الجنس.

ثم إن كلمةَ «إلا» على هذا التقدير بمعنى «غير»، ولا مجال لكونها للاستثناء، لا لما يُتوهَّم من التناقض بناءً على أن سَلْبَ الجنس عن كلِّ فردٍ فرد يُنافي إثباته لواحد من أفراده، فإنه مدفوعٌ بنحو ما اختاره نجم الأئمة[1] في دفع التناقض المتوهَّم في مثل: ما قام القومُ إلا زيدًا، لوجوب شمول القوم المنفيِّ عنهم الفعلُ

(١) هو رضي الدين الأَسْترابادي، كما جاء عند تفسير الآية (١٣٣) من سورة النساء.

لزيد المثبت هو له فيما يتبادر، بأن يقال: إن الجنسَ الخارج عنه هذا الفرد منتفٍ في ضمن كلِّ ما عداه، ولا لِمَا قد يُتوهَّم من عدم تناول الجنس المنفي لما هو بعد «إلا» وهو شرطُ الاستثناء لِمَا عرفت من الفرق بين الجنس بدون اعتبار حصوله في الأفراد وبينه مع اعتبار عدمِ حصوله فيها = بل لأنها لو كانت للاستثناء لما أفاد الكلامُ التوحيدَ؛ لأنه يكون حاصله حينئذ أن هذا الجنس على تقدير عدمِ دخول هذا الفرد فيه منتفٍ، فيفهم منه عدمُ انتفائه في أفراد غير خارج عنها ذلك الفرد، فأين التوحيد، فالواجب حملُها على معنى «غير» وجعلها تابعةً لمحلِّ اسم «لا» بدلًا عنه، أو صفة كما في قوله:

وكـلُّ أخٍ مُـفـارقُـه أخـوه   لـعَـمْـرُ أبـيـكَ إلا الـفـرقـدان[1]

كذا رأيته في بعض نسخٍ قديمة، وذكره بعضُ شيوخ مشايخنا العلامة الطبقجلي[2] في رسالته «شرح الكلمة الطيبة» ولم يتعقَّبه بشيء، وعندي أن ما ذكر في نفي كون «إلا» للاستثناء على ذلك التقدير لا يخلو عن نظر.

ثم إنه قيل: إذا كان مضمون المركَّب على ذلك التقدير أنَّ هذا الجنس مُنتفٍ فيما عدا هذا الفرد كانت القضية شخصيةً، ولها لازمٌ هو قضية كلية، أعني قولنا: كلّ ما يُعتبر فردًا له سوى هذا الفرد فهو مُنتفٍ، ولا استبعاد في شيء من ذلك.

وذهب الكثيرُ إلى تقدير الخبر: موجودٌ، وأجاب عن الإشكال بأنه يلزم نفي الإمكان العامِّ من جانب الوجود عن الآلهة غير الله تعالى، وذلك مبنيٌّ على مقدمة قطعيةٍ معلومةٍ للعقلاء هي أن المعبودَ بالحقِّ لا يكون إلا واجبَ الوجود، فيصير المعنى: لا معبودَ بحقٍّ موجودٌ إلا اللهُ، وإذْ ليس موجودًا ليس مُمكنًا لأنه لو كان ممكنًا لكان واجبًا بناءً على المقدّمة القطعية فيكون موجودًا، وقد أفادت الكلمة الطيبة أنه ليس بموجود فليس بممكن؛ لأن نفي اللازم يدلُّ على نفي الملزوم.

واعترض بأنَّ المقدمة القطعية وإنْ كانت صحيحةً في نفس الأمر لكنها غير

---

(١) البيت نسب لعمرو بن معدي كرب، وسلف ٣/ ٣٧٠.

(٢) هو محمد سعيد بن محمد أمين البغدادي الحنفي، توفي سنة (١٢٧٣هـ). هدية العارفين ٦/ ٣٧٤.

مسلَّمة عند المشركين؛ لأنهم يعبدون الأصنام ويعتقدونها آلهةً مع اعترافهم بأنها ممكنةٌ محتاجةٌ إلى الصانع ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فيمكن أنْ يعترفَ المكلَّف بالكلمة الطيبة ويعتقد أنَّ نفي الوجود لا يستلزم نفي الإمكان، فيمكن عنده وجودُ آلهة غير الله تعالى، فلا يكون التلفُّظ بالكلمة نصًّا على إيمانه. ولو كانت المقدِّمة المذكورة مسلَّمةً عند الكلِّ لأمكن أن يقدَّر الخبرُ من أول الأمر: موجود بالذات، أي: لا إلهَ موجودٌ بالذات إلا الله، وإذا لم يكن غيره تعالى موجودًا بالذات لم يكن مستحقًّا للعبادة لأن المستحقَّ لها لا يكون إلا واجبًا لذاته.

وقد قُرِّر الجوابُ بوجهين آخرين:

الأول: أنَّ لا إله موجودٌ، قضيةٌ سالبة حملية لا بدَّ لها من جهة، وهي الإمكان العامُّ، فيكون المعنى أن الجانبَ المخالفَ للسلب ـ وهو إثباتُ الوجود ـ ليس ضروريًّا للآلهة إلا الله تعالى، فإنه موجودٌ بالإمكان العامِّ، أي: جانب السلب ليس ضروريًّا له تعالى، فيكون الوجود ضروريًّا له سبحانه تحقيقًا للتناقض بين المستثنى والمستثنى منه.

الثاني: أنَّ لا إله موجودٌ بالإمكان العامِّ، سالبة كلية مُمكنة عامة، فيكون المتحصِّل بالاستثناء الذي هو نقيض مُوجبة جزئية ضرورية، أي: الله موجودٌ بالضرورة.

وأُورد على التقريرين أنهما إنما يتمَّان إذا كان كلٌّ من طرفي المستثنى والمستثنى منه قضيةً مستقلة، وهو ممنوعٌ، والصحيحُ عند أهل العربية أنهما كلامٌ واحد مُقيَّد بالاستثناء فلا يجري فيهما أحكامُ التناقض إلا أن يُؤوَّل بالمعنى اللغوي، وأيضًا جَعلُ الله موجود بالضرورة قضيةً جزئية فيه تساهلٌ.

وقيل: يمكن أن يقال: الخبر المقدَّر هو الموجود مطلقًا سواء كان بالفعل أو بالإمكان على استعمال المشترك في كِلا مَعنييه، أو على تأويله بما يُطلق عليه اسمُ الموجود. وهو كما ترى.

وقيل: يجوز تقديره: ممكن، ونفي الإمكان يستلزم نفي الوجود، لأنَّ الإله واجبُ الوجود، وإمكان اتصاف شيء بوجوبِ الوجود يستلزم اتصافَه بالفعل بالضرورة، فإذا استُفيد من الكلمة الطيبة إمكانه يُستفاد منه وجودُه أيضًا، إذْ كلُّ ما لم يوجد يستحيل أن يكونَ واجبَ الوجود، ويعلم ما فيه مما مرَّ، فلا تغفل.

وقال بعضهم: الخبر المقدَّر: مُستحِقٌّ للعبادة، فالمعنى: لا إله مُستحِقٌّ للعبادة إلا الله، ولا محذورَ فيه. واعتُرض بأنّ هذا كونٌ خاصٌّ، ولا بدَّ في حَذْفه من قرينة ولا قرينة فلا يصحُّ الحذف. وأُجيب بأنها كنارٍ على عَلَم، لأنَّ الإله بمعنى المعبود، فدلَّ على العبادة واستحقاقها، ويُؤيِّده ملاحظة المقام واعتبار حال المخاطَبين؛ لأنَّ هذه الكلمة الطيبة واردةٌ لردِّ اعتقاد المشركين الزاعمين أن الأصنام تستحقُّ العبادة.

واعتُرضَ أيضًا بأنه لا يدلُّ على نفي التعدُّد مطلقًا، أي: لا بالإمكان ولا بالفعل، لجواز وجودِ إله غيره سبحانه لا يستحقُّ العبادة. وأيضًا يمكن أن يقال: المرادُ إما نفي إله مستحقٌّ للعبادة غيره تعالى بالفعل أو بالإمكان، فعلى الأول لا ينفي إمكان إله مستحِقٍّ للعبادة أيضًا غيره عز وجل، وعلى الثاني لا يدلُّ على استحقاقه تعالى للعبادة بالفعل. ورُدَّ بأن وجوب الوجود مبدأ جميع الكمالات، ولذا فرَّعوا عليه كثيرًا منها، فلا ريبَ أنه يوجب استحقاقَ التعظيم والتبجيل، ولا معنى لاستحقاق العبادة إلا ذلك، فإذا لم يستحقَّ غيره تعالى العبادةَ لم يوجد واجب وجود غيره سبحانه، وإلا لاستحقَّ العبادة قطعًا، وإذا لم يوجد لم يكن ممكنًا أيضًا، فثبت أنَّ نفي استحقاق العبادة يستلزم نفي التعدُّد جزمًا.

وتُعقب بأن فيه البناءَ على أنَّ الإله لا يكون إلا واجبَ الوجود، وقد سمعت أنها وإن كانت قطعيةَ الصِّدق وفي نفس الأمر إلا أنها غيرُ مُسلَّمة عند المشركين.

ومن المحقِّقين من قال: إنه لا يلتفت إلى عدم تسليمهم لمكابرتهم ما عسى أن يكون بديهيًا. نعم ربما يقال: إنَّ الكلمةَ الطيبةَ على ذلك التقدير إنما تدلُّ على نفي المعبود بالفعل بناءً على ما قُرِّر في المنطق أنَّ ذاتَ الموضوع يجب اتصافُه بالعنوان بالفعل. ويجاب بمنع وجوب ذلك، بل يكفي الاتصاف بالإمكان كما صرَّح به

الفارابي، وأما ما نُقل عن الشيخ فمعناه كونه بالفعل بحسب الفرض العقلي لا بحسب نفس الأمر كما تدلُّ عليه عبارته في «الشفاء» و«الإشارات»، فيرجع إلى معنى الإمكان.

والفرقُ بين المذهبين أنَّ في مذهب الشيخ زيادةَ اعتبار ليس في مذهب الفارابي، وهي أن الشيخ اعتبر مع الإمكان بحسب نفس الأمر فرض الاتصاف بالفعل ولم يعتبره الفارابي.

وبالجملة إنَّ الاتصاف بالفعل غير لازم، فكلُّ ما يمكن اتِّصافُه بالمعبودية داخلٌ في الحكم بأنه لا يستحقُّ العبادة، ولما كانت القضيةُ سالبةً صدقت وإن لم يوجد الموضوع.

ولعلَّ التحقيق في هذا المقام أنَّ الكلمةَ الطيبة جاريةٌ بين الناس على متفاهم اللغة والعرف لا على الاصطلاحات المنطقية والتدقيقات الفلسفية، وهي كلامٌ ورد في ردِّ اعتقاد المُشرك الذي اعتقد أنَّ آلهةً غير الله سبحانه تستحقُّ العبادة، فإذا اعترف المُشرك بمضمونه من أنه لا معبودَ مُستحِقٌّ للعبادة إلا الله تعالى عُلم من ظاهر حاله الإيمان، ولهذا اكتفى به الشارع عليه الصلاة والسلام، وأما الكافرُ الذي يعتقد إمكان وجود ذاتٍ تستحقُّ العبادةَ بعدُ فلا تكفي هذه الكلمة الطيبةُ في إيمانه كما لا تكفي في إيمان مَن أنكر النبوة أو المعاد أو نحو ذلك مما يجب الإيمان به، بل لا بدَّ من الاعتراف بالحكم الذي أنكره، ولا محذورَ في ذلك، ولما كان الكفرة الذين يعتقدون أن آلهةً غير الله تعالى تستحقُّ العبادةَ هم المشهورون دون من يعتقد إمكانَ وجودِها بعدُ، اعتُبرت الكلمة عَلمًا للتوحيد بالنسبة إليهم.

ويعلم من هذا أنه لو قُدِّر الخبر المحذوف من أولِ الأمر: موجودٌ، أمكن دفعُ الإشكال بهذا الطريق، أعني متفاهم اللغة وعُرف الناس من الأوساط، وأما أنَّ نفي الوجود لا يستلزم نفي الإمكان فلا يلزم من الكلمة الطيبة حينئذ نفيُ إمكان آلهة غير الله تعالى، فمما لا يسبق إلى الأفهام، ولا يكاد يوجد كافرٌ يعتقد نفيَ وجودِ إله غيره تعالى مع اعتقاد إمكان وجودِ إله غيره سبحانه بعد ذلك.

ومن الناس مَنْ أيَّد تقديرَ الخبر كذلك بأنَّ الظاهرَ أنَّ «لا» نافية للجنس، ونفي الماهية نفسها بدون اعتبار الوجود واتصافها به كنفي السواد نفسهِ لا نفي وجودِه عنه، بعيدٌ، فكما أن جعل الشيء باعتبار الوجود إذْ لا معنى لجعل الشيء وتصييره نفسه، فكذلك نفيُه ورفعه أيضًا باعتبار رَفْع الوجود عنه.

وتُعقِّب بأن هذا هو الذي يقتضيه النظر الجليل، وأما النظرُ الدقيق فقد يحكم بخلافه لأنَّ نفيَ الماهية باعتبار الوجود ينتهي بالآخرة إلى نفي ماهية ما باعتبار نفسها، وذلك لأنَّ نفي اتصافها بالوجود لا يكون باعتبار اتِّصاف ذلك الاتصاف به إلى ما لا يتناهى، فلا بدَّ من الانتهاء إلى اتصافٍ مُنتفٍ بنفسه لا باعتبار اتصافه بالوجود، دفعًا للتسلسل.

وقيل: الظاهر أن نفي الأعيان كما في الكلمة الطيبة إنما هو باعتبار ذلك، وأما غيرها فتارةً وتارةً، فتدبَّر.

و«إلا» على التقدير المذكور للاستثناء ورفع الاسم الجليل على ما سمعتَ من المشهور. وقيل: هي فيه بمعنى «غير» صفة الاسم لا باعتبار المحلِّ، أي: لا إله غير الله تعالى موجودٌ.

واعترض بأنَّ المقصودَ من الكلام أمران: نفي الألوهية عن غيره تعالى، وإثباتها له سبحانه، وهو إنما يتمُّ إذا كانت «لا» فيه للاستثناء، إذْ يُستفاد النفي والإثبات حينئذ بالمنطوق، أما إن كانت بمعنى «غير» فلا يُفيد بمنطوقه إلا نفي الألوهية عن غيره تعالى، وفي كون إثباتها له تعالى بالمفهوم ويُكتفى به بحثٌ؛ لأنَّ ذلك إنْ كان مفهومَ لقب فلا عبرة عند القائلين بالمفهوم على الصحيح، خلافًا للدقَّاق والصيرفي من الشافعية، وابن خويزمنداد من المالكية، ومنصور بن أحمد من الحنابلة. وإنْ كان مفهومَ صفة فمن البيِّن أنه غيرُ مُجْمَعٍ عليه، بل أبو حنيفة رضي الله عنه لم يقل بشيء من مفاهيم المخالفة أصلًا.

وأنت تعلم أن ما ذكره من إفادة الكلمة الطيبة إثبات الإلهية لله تعالى ونفيها عمَّا سواه عز وجل على تقدير كون «إلا» للاستثناء غيرُ مَجْمَع عليه أيضًا، فإن الاستثناء

من النفي ليس بإثبات عند أبي حنيفة ﷺ، وجعل الإثبات في كلمة التوحيد بعرف الشرع، وفي المُفرَّغ نحو: ما قام إلا زيدٌ، بالعرف العامِّ، وما له وما عليه في كتب الأصول فلا تغفل.

وتمامُ الكلام فيما يتعلَّق بإعراب هذه الكلمة الطيبة في كتب العربية، وقد ذكرنا ذلك في تعليقاتنا على شرح السيوطي للألفية.

وهي عند السادة الصوفية قُدِّست أسرارُهم جامعة لجميع مَراتب التوحيد، ودالَّة عليها إما منطوقًا أو بالاستلزام، ومراتبه أربع: الأُولى: توحيد الألوهية، الثانية: توحيد الأفعال، الثالثة: توحيد الصِّفات، وإن شئت قلت: توحيد الوجوب الذاتي، فإنه يستلزم سائر الصفات الكمالية كما فرَّعها عليه بعضُ المحقِّقين، الرابعة: توحيدُ الذات، وإن شئت قلت: توحيد الوجود الحقيقي، فإنَّ المآل واحدٌ عندهم، وبيانُ ذلك أنَّ: لا إله إلا الله، منطوقُه ـ على ما يتبادر إلى الأذهان، وذهب إليه المُعْظَم ـ قصرُ الألوهية على الله تعالى قصرًا حقيقيًّا، أي: إثباتُها له تعالى بالضرورة ونفيها عن كلِّ ما سواه سبحانه كذلك، وهو يستلزم توحيد الأفعال وتوحيدَ الصفات وتوحيد الذات.

أما الأول الذي هو قصر الخالقية فيه تعالى: فلأن مقتضى قصر الألوهية عليه تعالى قصرًا حقيقيًّا هو أن الله عز وجل هو الذي يستحقُّ أن يعبدَه كلُّ مخلوق، فهو النافع الضارُّ على الإطلاق، فهو سبحانه وتعالى الخالقُ لكلِّ شيء، فإنَّ كلَّ مَنْ لا يكون خالقًا لكلِّ شيء لا يكون نافعًا ضارًّا على الإطلاق، وكلّ مَنْ لا يكون كذلك لا يستحقُّ أن يعبدَه كلُّ مخلوق؛ لأن العبادةَ هي الطاعةُ والانقيادُ والخضوعُ، ومَنْ لا يملك نفعًا ولا ضرًّا بالنسبة إلى بعض المخلوقين لا يستحقُّ أن يعبدَه ذلك البعضُ ويُطيعَه وينقادَ له، فإنَّ مَنْ لا يقدر على إيصال نفعٍ إلى شخص أو دفعِ ضرٍّ عنه لا يرجوه، ومن لا يقدرُ على إيصال ضرٍّ إليه لا يخافه، وكلُّ من لا يُخاف ولا يُرجى أصلًا لا يستحقُّ أن يُعبدَ؛ وهو ظاهر، لكن الذي يقتضيه قصرُ الألوهية عليه تعالى قصرًا حقيقيًّا هو أنَّ الله تعالى هو الذي يستحقُّ أن يعبدَه كلُّ مخلوق فهو النافع الضارُّ على الإطلاق، فهو الخالقُ لكلِّ شيء، وهو المطلوب.

وأما الثاني: فلأن الكلمةَ الطيبةَ تدلُّ على أن الألوهيةَ ثابتةٌ له تعالى ثُبوتًا مستمرًّا ممتنعَ الانفكاك ومُنتفيةٌ عن غيره انتفاء كذلك، وكلُّ ما[1] كان كذلك فهي دالَّةٌ على أنه عز وجل واجبُ الوجود، وأن كلَّ موجود سواه تعالى ممكنُ الوجود؛ وكلّ ما كان كذلك كان وجوبُ الوجود مقصورًا عليه تعالى، وهو مستلزمٌ لسائر صفات الكمال، وهو المطلوب.

أما دلالتها على أنه عز وجل واجبُ الوجود فلأن الألوهية لا تكون إلا لموجودٍ حقيقةً اتفاقًا، وكلُّ ما لا يكون صفةً إلا لموجود إذا دلَّ كلامٌ على أنه ثابتٌ لشيء ثبوتًا ممتنعَ الانفكاك سرمدًا فقد دلَّ على أن الوجودَ ثابتٌ لذلك الشيء ثبوتًا ممتنعَ الانفكاك سرمدًا، ولا يكون كذلك إلا إذا كان موجودًا لذاته، وهو المعنيُّ بواجب الوجود لذاته، وحيث دلَّت على ثبوت الأُلوهية ثبوتًا مستمرًّا ممتنعَ الانفكاك فقد دَلَّت على وجوب وجوده تعالى وهو مستلزمٌ لسائر صفات الكمال، وهو المطلوب.

وأما دلالتها على أن كلَّ موجود سواه فهو ممكنُ الوجود فلأن موجودًا مّا سواه لو كان واجبَ الوجود لذاته لكان مُستحِقًّا أن يُعبد، لكنها قد دلَّت على أنه لا يستحقُّ أن يُعبدَ إلا الله، فقد دلَّت على أنه لا واجبًا وجودُه لذاته إلا الله تعالى، فكلُّ ما سواه فهو ممكنٌ، وهو المطلوب.

أو يقال: إنها قد دلَّت على أنه تعالى هو النافعُ الضارُّ على الإطلاق، فهو الجامع لصفاتِ الجلال والإكرام، فهو سبحانه المُتَّصفُ بصفاتِ الكمال كلِّها، وهو المطلوب.

وأما الثالث: فقد قال حُجَّةُ الإسلام الغزالي في باب الصدق من «الإحياء»[2]: كلُّ ما تقيَّد العبدُ به فهو عبدٌ له، كما قال عيسى عليه السلام: يا عبيدَ الدنيا، وقال نبينا ﷺ: «تَعِسَ عبدُ الدينار، تَعِسَ عبدُ الدِّرهم وعبد الحُلَّة وعبدُ الخَميصة»[3]، سمَّى كلَّ من تقيَّد قلبه بشيء عبدًا له. وقال في باب الزهد منه: مَنْ طلب غيرَ الله

---

(١) في الأصل: وكلما.

(٢) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٨٨.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٨٦).

تعالى فقد عبدَه؛ وكلُّ مطلوب معبودٌ، وكلُّ طالب عبدٌ بالإضافة إلى مَطْلبه[١].

وقال في الباب الثالث من كتاب العلم منه: كلُّ مُتَّبِعٍ هواه فقد اتخذ هواه معبودًا؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقال ﷺ: «أبغضُ إله عُبد في الأرض عند الله تعالى هو الهوى»[٢]. انتهى.

ومن المعلوم أنه ما في الوجود شيء إلا وهو مطلوبٌ لطالب ما، وقد صحَّ بما مرَّ إطلاقُ الإله عليه ولا إله إلا الله، فما في الوجود حقيقة إلا الله.

ومنهم مَنْ قرَّر دلالة الكلمة الطيبة على توحيدِ الذات ونفي وجود أحدٍ سواه عز وجل بوجه آخر، وهو أن «إلا» بمعنى «غير» بدل من الإله المنفي فيكون النفي في الحقيقة متوجهًا إلى الغير، ونفي الغير توحيدٌ حقيقيٌّ عندهم، وإذا تبين لك دلالتها على جميع مراتب التوحيد لاحَ لك أن الشارع لأمرٍ ما جعلها مفتاحَ الإسلام وأساسَ الدين ومهداةَ الأنام، وفي حديث أخرجه أبو نُعيم عن عِياض الأشعري أنه ﷺ قال: «لا إله إلا اللهُ كلمة كريمة، ولها عند الله مكانٌ جمعت وسوّلت، مَن قالها صادقًا مِن قلبه دخل الجنة»[٣]. وفي حديث أخرجه ابن النجّار عن دينار عن أنس أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا إله إلا الله كلمةٌ عظيمة كريمة على الله تعالى مَنْ قالها مُخلصًا استوجب الجنة»[٤]. وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اذهب بنعليَّ هاتين، فمن لقيتَ من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه، فبشِّره بالجنة»[٥]، وحديثُ

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٢٦.

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٣٣. والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٣)، والطبراني في الكبير (٧٥٠٢) عن أبي أمامة ﷺ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٨: فيه الحسن بن دينار وهو متروك الحديث، وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٣٢٦: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، والحسن بن دينار والخصيب ـ وهو ابن جحدر ـ كذابان.

(٣) كنز العمال (٢٢٨)، وأخرجه أيضاً ابن قانع في معجم الصحابة ٢/ ٢٧٧، والديلمي في مسند الفردوس (٧٢٨١)، ولم ترد فيهما عبارة: جمعت وسوّلت.

(٤) ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ١٧/ ٢٣٤.

(٥) صحيح مسلم (٣١).

البطاقة أشهرُ من أن يُذكر[1]، وكذا الحديث القدسي المرويُّ عن عليّ الرضا عن آبائه عليهم السلام[2]، وجاء: «مَنْ كان آخرُ كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخلَ الجنة»[3] أي: بلا حساب، وإلا فما الفرقُ بين ذلك ومَنْ قالها ولم تكن آخرَ كلامه من الدنيا.

وبالجملة إنَّ فضلها لا يُحصى، وإنها لتُوصِل قائلها إلى المقام الأقصى، وقد أُلِّفت كتبٌ في فضلها وكيفية النُّطق بها وآداب استعمالها فلا نُطيل الكلامَ في ذلك.

بقي هاهنا بحثٌ، وهو أن المسلمين أجمعوا على وجوب معرفة الله تعالى، وإن اختلفوا في كونه شرعيًّا أو عقليًّا، وأما النظر في معرفته تعالى لأجل حصولها بِقَدَرِ الطاقة البشرية فقد قال العلَّامة التفتازاني في «شرح المقاصد»: لا خلافَ بين أهل الإسلام في وجوبه، لأنه أمرٌ مقدورٌ يتوقَّف عليه الواجب المطلق الذي هو المعرفة، وكلُّ مقدور يتوقَّف عليه الواجبُ المُطلَق فهو واجبٌ شرعًا إنْ كان وجوب الواجب المُطلَق شرعيًّا كما هو رأي الأصحاب، وعقلًا إنْ كان عقليًّا كما هو رأي المعتزلة لئلا يلزم تكليف المُحال. أما كون النظر مقدورًا فظاهرٌ، وأما توقُّف المعرفةِ عليه فلأنها ليست بضرورية، بل نظرية، ولا معنى للنظري إلا ما يتوقَّف على النظر ويتحصَّل به[4].

وظاهر كلام السَّيِّد السند في «شرح المواقف»[5] إجماعُ المسلمين كافَّةً على ذلك أيضًا. والحقُّ وقوع الخلاف في وجوب النظر كما يدلُّ عليه كلام ابن الحاجب في «مختصره» والعَضُد في «شرحه» وكلام التاج السُّبكي في «جمع

---

(١) أخرجه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.
(٢) أخرجه الشهاب في مسنده (١٤٥١) من حديث علي ﷺ بلفظ «يقول الله تعالى: لا إله إلا الله حصني، فمن دخله أمن عذابي»، ويرويه عن علي الرضا أحمد بن علي بن صدقة، قال فيه الذهبي في الميزان ١/ ١٢٠: روى نسخة مكذوبة، اتهمه الدارقطني بوضع الحديث.
(٣) أخرجه أحمد (٢٢٠٣٤) من حديث معاذ بن جبل ﷺ.
(٤) شرح المقاصد ١/ ٢٦٢-٢٦٣.
(٥) ١/ ٢٥١.

الجوامع» والجلال المَحلِّي في «شرحه»(١)، وقول شيخ الإسلام في حاشيته عليه: محلُّ الخلاف في وجوب النظر في أصول الدين وعدمِ وجوبه في غير معرفة الله تعالى منها، أما النظرُ فيها فواجبٌ إجماعًا كما ذكره السعد التفتازاني كغيره = اعترضه المحقِّق ابنُ قاسم العبَّادي في حاشيته «الآيات البينات» بقوله: إن الظاهرَ أنَّ ما نقله السعد من الإجماع على وجوبِ النظر في معرفة الله تعالى غيرُ مُسلَّم عند الشارح وغيره، ألا ترى إلى تمثيل الشارح لمحلِّ الخلافِ بقوله: كحدوث العالم ووجودِ الباري تعالى وما يجبُ له جلَّ شأنه وما يمتنع عليه سبحانه من الصفات، فإن قوله: ووجود الباري تعالى.. إلخ يتعلَّق بمعرفته عز وجل، إلى آخر ما قال. نعم قال كثيرٌ ـ ورجَّحه الإمام الرازي والآمدي ـ: إنه يجب النظرُ في مسائل الاعتقاد، ومعرفةُ الله تعالى أُسُّها، فيجب فيها بالأولى، وقالوا في ذلك: لأن المطلوبَ اليقين لقوله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وقد عَلِم ذلك، وقال تعالى للناس: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ويقاس غير الوحدانية عليها، ولا يتمُّ الاستدلال إلا بضمِّ توقُّف حصول اليقين على النظر. وهؤلاء لم يُجوِّزوا التقليدَ في الأصول، وهو أحدُ أقوال في المسألة، ثانيها قول العنبري: إنه يجوز التقليدُ فيها بالعقد الجازم ولا يجب النظر لها، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يكتفي في الإيمان بالعقد الجازم، ويُقاس غيرُ الإيمان عليه.

والمراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يكتفي بذلك نظرًا إلى ظاهر الحال، فإن الخبرَ كما صرَّحَ به المحقِّق عيسى الصفوي(٢) في شرحه للفوائد الغياثية على ما نقله عنه تلميذُه ابن قاسم العبادي في «الآيات البيِّنات» دالٌّ وضعًا على صورة ذهنية على وجه الإذعان تحكي الحال الواقعية، ولا شكَّ أنَّ لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله من قِسْم الخبر، فهما دالَّان وضعًا على أنَّ قائلهما ولو تحت ظلال السيف معتقدٌ لمضمونهما على وجه الإذعان، وعدم كونه معتقدًا في نفس الأمر احتمالٌ عقليٌّ، والمُطَّلع على ما في القلوب علَّامُ الغيوب.

---

(١) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي لجمع الجوامع ٢/ ٤٤٢ وما بعدها.
(٢) المتوفى سنة (٩٥٥هـ). كشف الظنون ٢/ ١٢٩٩.

وثالث الأقوال: أنه يجب التقليدُ بالعقد الجازم ويحرمُ النظرُ لأنه مَظِنَّة الوقوع في الشُّبه والضلال لاختلاف الأذهان بخلاف التقليد، وهذا ليس بشيء أصلًا. والذي أوجب النظرَ من المحقِّقين لم يُرِدْ النظرَ على طريق المتكلِّمين بل صرَّح كما في «الجواب العتيد» للكوراني بأن المعتبر هو النظرُ على طريق العامة، والظاهرُ أنه ليس مَظِنَّة الوقوع فيما ذكر، وهل القائلُ بوجوبه من أولئك جاعلٌ له شرطًا لصحة الإيمان أَمْ لا؟ ففيه خلاف. فيفهم من بعض عبارات «شرح الأربعين» لابن حجر أنه جاعل له كذلك فلا يصحُّ إيمانُ المُقلِّد عنده، بل يُفهم منها أن النظر المُعتَبر عند ذلك هو النظرُ على طريق المُتكلِّمين، وكلامُ الجلال المحلِّي في «شرح جمع الجوامع» صريحٌ في أن القائلين بوجوب النظر غيرَ أبي هاشم ليسوا جاعلين النظرَ شرطًا لصحة الإيمان، ولا زاعمين بطلان إيمان المُقلِّد، بل هو صحيحٌ عندهم مع الإثم بترك النظر الواجب. نعم سيأتي إن شاء الله تعالى نقلُ الإمام حُجَّة الإسلام في كتابه «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» نقل الاشتراط عن طائفة من المتكلِّمين مع ردِّه. وأما ما نُقل عن الشيخ الأشعري من الاشتراط، وأنه لا يصحُّ إيمانُ المُقلِّد، فكذبٌ عليه كما قاله الأستاذ أبو القاسم القشيري.

وقال التاج السبكي[1]: التحقيق أنه إن كان التقليدُ أخذًا بقول الغير بغير حُجَّة مع احتمال شَكٍّ أو وهم فلا يكفي، وإن كان جزمًا فيكفي، خلافًا لأبي هاشم. والظاهرُ أن القائلَ بكفاية التقليد مع الجزم يمنع القولَ بأن المعرفةَ لا تحصل إلا بالنظر، ويقول: إنها قد تحصلُ بالإلهام أو التعليم أو التصفية، فمن حصل له العقدُ الجازم بما يجب عليه اعتقادُه فقد صحَّ إيمانه من غير إثم لحصول المقصود، ومَنْ لم يحصل له ذلك ابتداءً أو تقليدًا أو ضرورة فالنظر عليه متعين: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢] ويكفي دليلًا للصحة اكتفاءُ النبيِّ ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم مِن عَوامِّ العَجَم كأجلاف العرب وإن أسلمَ أحدُهم تحت ظلِّ السيف بمجرَّد الإقرار بـ: لا إله إلا الله محمد رسول الله، الدالّ بحسب ظاهرِ حالهم على أنهم يعتقدون مضمونَ ذلك ويُذعنون له، ولو كان الاستدلال فرضًا

(١) جمع الجوامع (مع حاشية العطار) ٢/ ٤٤٥.

لأُمروا به بعد النُّطق بالكلمتين، أو عُلِّموا الدليل ولُقِّنوه كما لُقِّنوهما، وكما عُلِّموا سائرَ الواجبات، ولو وَقَعَ ذلك لَنُقِلَ إلينا فإنه من أهمِّ مُهِمَّات الدين، ولم يُنقل أنهم أمروا أحدًا منهم أَسلمَ بترديد نظر، ولا سألوه عن دليل تصديقه، ولا أرجؤوا أمره حتى ينظر، فلو كان النظرُ واجبًا على الأعيان ولو إجماليًّا على طريق العامَّة لما اكتفى النبيُّ ﷺ من أولئك العوامِّ والأجلافِ بمجرَّد الإقرار، لأنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام وأصحابه لا يُقِرُّون أحدًا على ترك فرض العين من غير عُذر، فلا يكون تاركه آثمًا فضلًا عن أنْ يكونَ بتركه غيرَ صحيح الإيمان، ويشهد لذلك ما قاله ﷺ لأسامةَ بن زيد عند اعتذاره عن قتل مِرداس بن نهيك من أهل فَدَك[(١)]، وغيره من الأخبار الكثيرة.

وما في «المواقف» و«المقاصد» وشرح المختصر العضدي وغيرها من كتب الكلام والأصول من أن النبيَّ ﷺ وأصحابه كانوا يعلمون أنهم ـ أي: العوامُّ وأجلاف العرب ـ يعلمون الأدلة إجمالًا كما قال الأعرابي: البعرةُ تدلُّ على البعير وأَثَر الأقدام على المسير، أفسماءٌ ذاتُ أبراج وأرض ذات فِجاج لا تدلُّ على اللطيف الخبير؟! أي: فلذلك لم يُلزموهم النظر ولا سألوهم عنه، ولا أرجؤوا أمرهم، وكلُّ ما كان كذلك لم يكن اكتفاؤهم بمجرَّد الإقرار دليلًا على أنَّ النظرَ ليس واجبًا على الأعيان، ولا على أنَّ تاركه غير آثم = دعوى لا دليلَ عليها.

وحكايةُ الأعرابي إنْ كانت مَسوقةً للاستدلال لا تدلُّ، غاية ما في الباب أن ذلك الأعرابي كان عالمًا بدليل إجمالي، ولا يلزم منه أن جميعَ الأجلافِ والعوامِّ كانوا عالمين بالأدلة الإجمالية في عهد النبوَّة وغيره، وإلا لكانت حجةً على أنه لا مقلِّد في الوجود، على أن بعضهم أسندَ ذلك القول إلى قُسِّ بن ساعدة وكان في الفترة، والجلال المحَلِّي ذكره لأعرابي قاله في جواب الأصمعي[(٢)]، وكان في زمن الرشيد، بل قد يقال: إن ظاهرَ كثير من الآيات والأخبار يدلُّ على أن كثيرًا من

(١) وهو قوله ﷺ: «هلا شققت عن قلبه فنظرت إليه». والحديث عند الطبري ٧/ ٣٥٧، وسلف ٦/ ٢٢٦، وأصل الخبر عند مسلم (٩٦).

(٢) شرح جمع الجوامع (مع حاشية العطار) ٢/ ٤٤٤.

المشركين في عهده عليه الصلاة والسلام لم يكونوا عالمين بأدلَّة التوحيد مطلقًا، وذلك كقوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦] وقول بعضهم في بعض الحروب: اعلُ هُبل اعلُ هبل.

وما ذكره المحقِّق العضد في «شرح المختصر» من الدليل على عدمِ جواز التقليد حيث قال: إنَّ الأمة أجمعوا على وجوبِ معرفة الله تعالى، وأنها لا تحصل بالتقليد لثلاثة أوجه: أحدها: أنه يجوز الكذبُ على المُخبِر، فلا يحصل بقوله العلمُ. ثانيها: أنه لو أفاد العلم لأفاده بنحو حدوث العالم من المسائل المختلف فيها، فإذا قلّد واحد في الحدوث والآخر في القِدَم كانا عالمين بهما فيلزم حَقِّيتهما[1]، وأنه مُحال. ثالثها: أن التقليدَ لو حصَّل العلمَ، فالعلم بأنه صدق فيما أخبر به إما أن يكون ضروريًّا أو نظريًّا، لا سبيل إلى الأول بالضرورة فلا بدَّ له من دليل، والمفروض أنه لا دليلَ إذْ لو علم صِدْقه بدليله لم يبقَ تقليدًا = تعقَّبه العلامة الكوراني فقال: فيه بحثٌ، أما في الوجه الأول فلأن من جوَّز التقليدَ مَثَّلَ المُقلِّدَ بمن نشأ على شاهق جبل ولم ينظر في ملكوت السماوات والأرض، وأخبره غيرُه بما يلزمه اعتقاده وصدَّقه بمجرد إخباره من غير تفكُّر وتدبُّر، وهو صريحٌ في أن الكلامَ في مقلِّد أخبره غيرُه بما يلزمه اعتقاده، وما يلزمه اعتقاده لا يكون إلا صدقًا، فإن الكذب لا يلزم أحدًا اعتقاده، وأما من أخبر بالأكاذيب فاعتقدها فهو لم يعتقد إلا أكاذيبَ، والأكاذيب ليست من معرفة الله تعالى في شيء، فكيف يحكم عليه أحدٌ من العقلاء بأنه مؤمن بالله تعالى عارفٌ به مع أنه لم يعتقد إلا الأكاذيب؟ وهو ظاهر.

وأما في الوجه الثاني: فلمثل ما مرَّ، لأنا لا نقول: إنَّ كل تقليدٍ مُفيد للعلم، ولا أنَّ كلَّ مُقلِّد عالمٌ، كيف وليس كلُّ نظر مفيدًا للعلم، ولا كلُّ ناظر مُصيبًا، فإذا لم يكن النظرُ موجبًا للعلم مطلقًا، وإنما الموجبُ النظر الصحيح، فكذلك نقول: ليس كلُّ تقليد مُفيدًا للعلم، وإنما المفيدُ التقليدُ الصحيح، وهو أن يُقلِّد عالمًا

(١) في الأصل: حقيقتهما.

بمسائل معرفة الله تعالى صادقًا فيما يخبره به، فإن الكلامَ إنما هو في صحةِ إيمان مثل هذا المُقلِّد لا مطلقًا.

وأما في الثالث: فلأنَّا نختار أنَّ عِلْمه بأنه صدق فيما أخبر به ضروريّ، قولكم: لا سبيلَ إليه بالضرورة، قلنا: ممنوعٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقد رُوي مرفوعًا أنه ﷺ سُئل عن شرح الصدر فقال عليه الصلاة والسلام: «نورٌ يقذفه الله في قلب المؤمن فينفسح»[١]، فصرَّح ﷺ بأنه نور لا يحصل من دليل، وإنما يقذفه اللهُ تعالى في قلبه فلا يقدر على دَفْعه من غير فِكْر ولا رَوِيَّة ولا نظر ولا استدلال، وقد صرَّح بعضُ أكابر المُحقِّقين بأن توحيدَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن علم ضروري وجدوه في نفوسهم لم يَقْدروا على دَفْعه، وبأنَّ من أهل الفترة من وجد كذلك، بل قد صرَّح بأن الإيمان علمٌ ضروري يَجِدُه المؤمن في قلبه لا يقدرُ على دَفْعه، فكم مَنْ آمن بلا دليل ومَنْ لم يُؤمن مع الدليل، وقلَّما يُوثَق بإيمان من آمن عن دليل، فإنه مُعرَّضٌ للشُّبَه القادحة فيه.

وفي الباب المئة والاثنين والسبعين، والمئة والسابع والسبعين، والمئتين والسابع والسبعين من «الفتوحات المكية»[٢] ما يُؤيِّد ذلك.

وقال الإمام حُجَّةُ الإسلام في «فيصل التفرقة»[٣]: مِن أشدِّ الناس غُلوًّا وانحرافًا طائفةٌ من المُتكلِّمين كفَّروا عوامَّ المسلمين وزعموا أن مَن لا يعرف الكلامَ معرفتنا ولم يعرف الأدلَّةَ[٤] الشرعية بأدلتنا التي حرَّرناها فهو كافرٌ، فهؤلاء ضيَّقوا رحمة الله تعالى الواسعةَ على عباده أولًا، وجعلوا الجنة وقفًا على شِرْذمةٍ يسيرة من

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٩/ ٥٤١-٥٤٢ عن أبي جعفر عبد الله بن المسور مرسلًا. وابن مسور هذا قال فيه أحمد: أحاديثه موضوعة، وقال النسائي والدارقطني: متروك. ميزان الاعتدال ٢/ ٥٠٤. وينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٢٥) من سورة الأنعام.

(٢) ٢/ ٢٨٨ و٢٩٧ و٥٩٨.

(٣) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص٣٣-٣٦.

(٤) في فيصل التفرقة: العقائد.

المتكلِّمين، ثم جهلوا ما تواترتْ به السنةُ ثانيًا، إذْ ظهر من عصر رسول الله ﷺ وعصر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين حُكْمُهم بإسلام طوائفَ من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن، ولم يشتغلوا بتعلم الدلائل، ولو اشتغلوا بها لم يفهموها، ومن ظنَّ أن مدرك الإيمان الكلام والأدلَّة المحررة[1] والتقسيمات المرتَّبة فقد أبعد[2]، لا بل الإيمان نورٌ يقذفُه الله تعالى في قلب عبده عطيةً وهدايةً من عنده، تارةً بتنبهٍ في الباطن لا يمكن التعبير عنه، وتارةً بسبب رؤيا في المنام، وتارةً بمشاهدةِ حالِ رجلٍ متديِّن وسرايةِ نوره إليه عند صحبته ومُجالسته، وتارةً بقرينة حال، فقد جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ جاحدًا له منِكرًا، فلما وقع بصرُه على طلعته البهية، وغُرَّته الغريرة السَّنيَّة، فرآها يتلألأ منها نورُ النبوة، قال: واللهِ ما هذا وجه كذَّاب. وسأله أن يعرضَ عليه الإسلام فأسلم[3].

وجاء آخرُ فقال: أنشدك الله بعثك الله نبيًّا؟ فقال ﷺ: «بلى، إني[4] واللهِ، اللهُ بعثني نبيًّا» فصدَّقه بيمينه وأسلم[5]، فهذا وأمثاله أكثرُ من أن يُحصى، ولم يشتغل واحدٌ منهم قطُّ بالكلام وتعلُّم الأدلَّة، بل كانت تبدو أنوار الإيمان أولًا بمثل هذه القرائن في قلوبهم لمعة بيضاء، ثم لا تزال تزداد وضوحًا وإشراقًا بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة وبتلاوة القرآن وتصفيةِ القلوب. وليت شعري مَنْ نَقَل عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة إحضارَه أعرابيًّا أسلم وقوَّله الدليل على أنَّ العالم حادثٌ، لأنه لا يخلو عن الأعراض وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، وأنَّ اللهَ تعالى عالم بعلم وقادرٌ بقدرة كلاهما زائدٌ على الذات لا هو ولا غيره، إلى غير ذلك من رسوم

---

(١) في فيصل التفرقة: المجردة.

(٢) في فيصل التفرقة: أبدع.

(٣) أخرج أحمد (٢٣٧٨٤)، والترمذي (٢٤٨٥) عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم النبي ﷺ انجفل الناس عليه، فكنت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

(٤) في فيصل التفرقة: إي.

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٨٠) من حديث ابن عباس ﷺ مطولًا، والذي استحلف النبيَّ ﷺ هو ضمام بن ثعلبة ﷺ.

المُتكلِّمين. ولست أقول: لم تجرِ هذه الألفاظ، بل لم يجرِ أيضًا ما معناه معنى هذه الألفاظِ، بل كان لا تنكشف مَلْحمة إلا عن جماعة من الأجلاف يُسلِمون تحت ظلال السيوف، وجماعةٍ من الأسارى يُسلمون واحدًا واحدًا بعد طول الزمان أو على القُرب، وكانوا إذا نطقوا بكلمة الشهادة علِّموا الصلاةَ والزكاة ورُدُّوا إلى صناعتهم من رعاية الغنم أو غيرها.

نعم لست أُنكر أنه يجوز أن يكونَ ذكر أدلة المُتكلِّمين أحدَ أسباب الإيمان في حقِّ بعض الناس، ولكن ذلك ليس بمقصور عليه، وهو نادرٌ أيضًا.

وساق الكلام إلى أن قال: والحقُّ الصريح أن كلَّ من اعتقد أنَّ ما جاء به الرسول ﷺ واشتمل عليه القرآن حقٌّ اعتقادًا جزمًا فهو مؤمن وإن لم يعرف أدلَّته، فالإيمان المستفاد من الدلائل الكلامية ضعيفٌ جدًّا مُشرف على التزلزل بكلِّ شُبهة، بل الإيمان الراسخ إيمان العوامِّ الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع والحاصل بعد البلوغ بقرائن لا يمكن العبارة عنها. اهـ، وفيه فوائدُ شتى، ولذا نقلناه بطوله.

ومتى جاز أن يقذفَ الله تعالى في قلب العبد نورَ الإيمان فيؤمن بلا نظر واستدلال، جاز أن يقذفَ سبحانه في قلبه صِدْقَ المُخبِر بحيث لا يقدرُ على دَفْعه، ولا يدري أنه من أين جاء، لاسيما إذا كان المُخبِرُ هو النبيَّ ﷺ، فإن مِن لازِمِ قذفِ نور الإيمان في قلب المؤمن به عليه الصلاة والسلام أن يقذف في قلبه صدقه ﷺ لأن الإيمان لا يتمُّ إلا بذلك، فقد ظهر أن دعوى الضرورة في أنه لا سبيل إلى العلم بصدق المُخبِر فيما أخبر به علمًا ضروريًّا إن لم تكن مُكابرة، فمنعها ليس مُكابرة أيضًا، فإنَّ الدليل قد قام على جواز حصول العلم الضروري بصدقه، بل على وقوعه، فليست تلك الدعوى من المقدمات الضرورية التي يكون منعها مُكابرة غير مسموعة.

وقد اتَّضح من جميع ما ذُكر أنَّ ما قاله السعد في «شرح المقاصد»[1] من أن الحقَّ أن المعرفةَ بدليل إجمالي يرفع الناظر من حَضيض التقليد فرضُ عين لا مَخرج

(١) ١/ ٢٦٦.

عنه لأحد من المُكلَّفين، وبدليل تفصيلي يتمكَّن معه من إزاحة الشُّبه وإلزام المُنكرين وإرشاد المسترشدين فرضُ كفاية لا بدَّ من أن يقومَ به البعضُ = لا يخلو عن نظر على ما قيل. لكن الظاهر عندي أنَّ الحقَّ مع السعد من جهة أن الإيمان بمعنى التصديق مُكلَّف به، وشرط المكلَّف به كونه اختياريًّا، وقد صرَّحوا أن التكليفَ بما ليس باختياري تكليفٌ في الحقيقة بما يتوقَّف عليه من الأمور الاختيارية، وأن التصديقَ نفسه لكونه غير اختياري كان التكليف به في الحقيقة تكليفًا بما يتوقَّف هو عليه من النظر الاختياري، فالإيمان الذي يحصل بقذفه تعالى النور في القلب من غير فكر ولا روية ولا نظر ولا استدلال ليس اختياريًّا بنفسه ولا باعتبار ما يحصل هو منه فكيف يكون مُكلَّفًا به، وما مرادُ السعد ومن وافقه بالمعرفة إلا المعرفة من حيث إنها مُكلَّف بها كما يُشير إليه قوله: لا مَخرج عنه لأحد من المُكلَّفين، وكون ذلك مُكلَّفًا به باعتبار أمر اختياريٍّ غير النظر، كتحصيل الاستعداد لإفاضة النور، وخَلْق العلم الضروري في قلب العبد، غيرُ ظاهر.

نعم لست أنكر أنَّ من المعرفة ما لا يتوقَّف على نظر في دليل إجمالي أو غيره، كمعرفة الأنبياء عليهم السلام على ما سمعت عن بعضهم، وكمعرفة مَنْ شاء الله تعالى من عباده سبحانه غيرهم، ولا أُسمِّي نحو هذه المعرفة تقليدية، وكذا لا أُنكر أن المعرفةَ الحاصلة مِن قَذْف النور فوقَ المعرفةِ الحاصلة من النظر في الدليل، فإنها يُخشى عليها من عواصفِ الشُّبه، وأذهب إلى أن النظرَ في الدليل مطلقًا واجبٌ على من لم يحصل له العقد الجازمُ إلا به، وأما من حصل له ذلك بأي طريق كان دونه فلا يجب عليه وكذا لا يأثمُ بتركه، وحكايةُ الإجماع على إثمه به لا يخفى ما فيها، وتوجيهُ ذلك بأنَّ جزمَ المؤمن حينئذ لا ثقةَ به، إذ لو عَرَضَت له شُبهةٌ فات وبقي متردِّدًا بخلاف الجزم الناشئ عن الاستدلال، فإنه لا يفوتُ بذلك = غيرُ ظاهر؛ لأنه إذا سُلِّم أنَّ مَنْ ثَمَّ جزمُه من غير نظر فقد أتى بواجب الإيمان فلا وجهَ لتأثيمه بترك النظر بناءً على مجرد احتمال عُروض شُبهة مُشوِّشة لجزمه، لأنه إذا سُلِّم أن الواجبَ عليه ليس إلا أن يجزمَ وقد جزمَ فقد أدَّى واجب الوقت وما ترك منه شيئًا، وكلُّ من لم يترك واجبًا معيَّنًا في وقت معيَّن لا معنى

لتأثيمه في ذلك الوقت من جهة ذلك الواجب، وكما يحتمل عقلًا أن تعرضَ له شبهةٌ تُشوِّش عليه الجزمَ لعدم الدليل كذلك يحتمل عقلًا أن يحصلَ له الدليل على ما جزم به قبلَ عُروض شُبهة، ولعل هذا الاحتمال أقوى وأقربُ إلى الوقوع.

وإذا أحطت خُبرًا بجميع ما ذكرنا علمت أنَّ الاستدلالَ بقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ على وجوبِ النظرِ فيه نظرٌ؛ لتوقُّفه على صحة قولهم: إن العلم لا يحصل إلا بالنظر وقد سمعتَ ما فيه. ويقوِّي ذلك إذا قلنا: إنَّ عِلْمه ﷺ بالوحدانية ضروري، إذ يكون المرادُ الأمرَ بالثَّبات والاستمرار على ما هو ﷺ فيه من اجتناب ما يُخِلُّ بالعلم.

وقد يقال: يجوز أن يكونَ الاستدلالُ نظرًا إلى ظاهر اللفظ من حيث إنه أمرٌ بالعلم بالوحدانية فلا بدَّ أن يكون مقدورًا بنفسه أو باعتبار ما يحصل هو منه، وحيث انتفى كونه مقدورًا بنفسه تعين كونُه مقدورًا باعتبار ما يحصلُ هو منه، والظاهرُ أنه النظر.

وأنت تعلم أنه إن كان التقليدُ سببًا من أسباب العلم أيضًا لم يتمَّ هذا وإن لم يكن سببًا تمَّ، فتأمل.

ثم اعلم أنَّ النظرَ الذي قالوا به في الأصول الاعتقادية أعمُّ من النظر في الأدلة العقلية، والنظر في الأدلة السمعية، فإنَّ منها ما ثبت بالسمع، كالأمور الأُخروية، ومَدْخلُ العقل فيها ليس إلا بأنها أمورٌ مُمكنة أخبر الصادق بوقوعها، وكلُّ مُمكن أخبر الصادقُ بوقوعه واقعٌ، فتلك الأمورُ واقعةٌ. وأما النظرُ في معرفة الله تعالى ـ أعني التصديقَ بوجوده تعالى وصفاته العلا ـ فقيل: يتعيَّن أن يكون المرادُ به النظرَ في الأدلة العقلية فقط، ولا يجوز أن يكونَ النظرُ في الأدلة السمعية طريقًا إليها؛ لاستلزامه الدور.

وفي «الجواب العتيد»: الدورُ لازمٌ لكن لا مطلقًا، بل بالنسبة إلى كلِّ مطلوب يتوقَّف العلمُ بصدق الرسول ﷺ على العلم به، وذلك لأنَّ النظرَ في الأدلة السمعية إنما يكون طريقاً إلى المعرفة إذا كانت صادقةً عند الناظر فيها، وصدقُها في علم

الناظر موقوفٌ على علمه بأنَّ هذا الذي يدَّعي أنه رسولُ الله الذي جاء بها صادقٌ[١] في دعواه الرسالةَ، وعلمه بذلك موقوفٌ على العلم بأنَّ اللهَ تعالى قد أظهر المُعجزاتِ على يده تصديقًا له في دعواه، وعِلمه بذلك موقوفٌ على العلم بأن ثَمَّت إلهًا على صفةٍ يمكن بها أن يبعثَ رسولًا، ككونه حيًّا عالمًا مُريدًا قادرًا، وهو من معرفة الإله سبحانه، فلو استنفدنا العلم بوجود الله تعالى وبتلك الصفات من الدلائل السمعية الموقوفةِ على صدقِ الرسول عليه الصلاة والسلام لَزِمَ الدور كما ترى.

نعم إذا قيل: إنَّ المُكلَّف بعد ما آمن بالرسول ﷺ واعتقد اعتقادًا جازمًا بصِدْقه في جميع ما جاء به من عند الله تعالى بأيِّ وجه كان ذلك الجزمُ بالضرورة أو بالنظر أو بالتقليد، فله أن يأخذَ عقيدتَه من القرآن من غير تأويل ولا مَيْل من غير أن ينظرَ في دليل عقليٍّ = كان ذلك كلامًا صحيحًا لا غُبارَ عليه، ولا يلزم منه تحصيلٌ للحاصل بالنسبة إلى ما حصله أولًا من المسائل التي يتوقَّف عليها صدقُ الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّ التحصيلَ الثاني من حيث إن الجائي بدلائلها صادقٌ فيها، والتحصيل الأول كان بالنظر العقلي من غير اعتبار صدقِ الرسول عليه الصلاة والسلام، فاختلفت الحيثية، فليفهم، والله تعالى أعلم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ في الآخرة، وخصَّ المتقلَّب بالدنيا والمثوَى بالآخرة، لأنَّ كلَّ أحدٍ متحرِّكٌ في الدنيا دائمًا نحو مَعاده غير قارٍّ، وفي الآخرة مُقيمٌ لا حركةَ له نحوَ دارٍ وراءَها. والمرادُ مِن علمه تعالى بذلك تحذيرُهم من جزائه وعقابه سبحانه، أو الترغيب في امتثال ما يأمرهم جلَّ شأنه به والترهيب عمَّا ينهاهم عز وجل عنه على طريق الكناية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «مُتقلَّبكم» تصرفكم في حياتكم الدنيا، و«مثواكم» في قبوركم وآخرتكم. وقال عكرمة: «مُتقلَّبكم» في أصلاب الآباء إلى أرحام الأُمَّهات، و«مثواكم» إقامتُكم في الأرض.

(١) في الأصل و(م): صادقًا.

وقال الطبري[١]: وغيره: «مُتقلَّبكم» تصرُّفكم في يقظتكم، و«مثواكم» منامكم.

وقيل: «مُتقلَّبكم» في معايشكم ومتاجركم، و«مثواكم» حيث تستقرُّون من منازِلكم. وقيل: «مُتقلَّبكم» في أعمالكم، و«مثواكم» من الجنة والنار.

واختار أبو حيان[٢] عمومَهما في كلِّ متقلّب وفي كلِّ إقامة. ونحوه ما قيل: المرادُ: يعلم جميعَ أحوالكم، فلا يخفى عليه سبحانه شيء منها.

وقرأ ابن عباس: «مُنْقلبكم» بالنون[٣].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حرصًا على الجهاد لما فيه من الثواب الجزيل، فالمرادُ بهم المؤمنون الصادقون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلَّا أنزلت سورةٌ يُؤمَر فيها بالجهاد، فـ «لولا» تحضيضية.

وعن ابن مالك أن «لا» زائدة، والتقدير: لو أُنزلت سورة. وليس بشيء.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي: بطريق الأمر به، والمرادُ بـ «محكمة»: مُبيّنة لا تشابه ولا احتمال فيها لوجهٍ آخر سوى وجوب القتال، وفسَّرها الزمخشري[٤] بـ: غير منسوخة الأحكام.

وعن قتادة: كلُّ سورة فيها القتال فهي مُحكمة، وهو أشدُّ القرآن على المنافقين، وهذا أمرٌ استقرأه قتادة من القرآن لا بخصوصية هذه الآية، والمُتحقّق أن آياتِ القتال غيرُ منسوخةٍ، وحكمُها باقٍ إلى يوم القيامة. وقيل: مُحكمة بالحلال والحرام.

وقُرئ: «نَزَلت سورةٌ» بالبناء للفاعل من نَزَل الثلاثي المجرَّد، ورفع «سورةٌ» على الفاعل[٥].

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٢٠٩.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٠.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٠.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٥ وفسرها الزمخشري بالتفسير الذي ذكره المصنف قبل.
(٥) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٣٥، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٧٠.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «نزلت» كذلك إلا أنه نصب «سورةً محكمةً»، وخُرِّج ذلك على كون الفاعل ضميرَ السورة، و«سورةً محكمةً» نُصب على الحال. وقرأ هو وابن عُمير: «وذَكَر» مبنيًّا للفاعل، وهو ضميره تعالى، «القتال» بالنصب على أنه مفعول به(١).

﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: نفاق، وقيل: ضَعْفٌ في الدين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: نظر المُحتَضر الذي لا يطرفُ بصره، والمراد: تشخصُ أبصارُهم جُبنًا وهَلَعًا، وقيل: يفعلون ذلك من شِدَّة العداوة له عليه الصلاة والسلام، وقيل: مِن خشية الفضيحة، فإنهم إنْ تخلَّفوا عن القتال افتضحوا وبانَ نِفاقُهم. وقال الزمخشري: كانوا يدَّعون الحِرصَ على الجهاد ويتمنَّونه بألسنتهم، ويقولون: لولا أُنزلت سورةٌ في معنى الجهاد، فإذا أُنزلت وأُمروا فيها بما تمنَّوا وحَرَصوا عليه كاعوا وشقَّ عليهم وسُقِطَ في أيديهم كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾(٢). والظاهر ما ذكرناه أولًا من أن القائلين هم الذين أخلصوا في إيمانهم، وإنما عرا المنافقين ما عرا عند نزول أمر المؤمنين بالجهاد لدخولهم فيهم بحسب ظاهرِ حالهم. وقد جوَّز هو أيضًا إرادةَ الخُلَّص من الذين آمنوا، لكن كلامه ظاهرٌ في ترجُّح ما ذكره أولًا عنده، والظاهرُ أن في الكلام عليه إقامةَ الظاهر مقامَ المُضمر.

وجوّز أن يكون المطلوب في قوله تعالى: «لولا أُنزلت سورة» إنزال سورة مُطلقًا حيث كانوا يستأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ، ورُوي نحوه عن ابن جُريج. أخرج ابن المنذر عنه أنه قال في الآية: كان المؤمنون يشتاقون إلى كتاب الله تعالى وإلى بيانِ ما ينزلُ عليهم فيه، فإذا نزلت السورةُ يُذكَر فيها القتال رأيتَ يا محمدُ المنافقين ينظرون إليك.. إلخ(٣).

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠﴾ تهديدٌ ووعيدٌ على ما رُوي عن غير واحد، وعن أبي عليٍّ أن

(١) البحر المحيط ٨/ ٨١.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٥-٥٣٦.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٦٣.

«أولى» فيه عَلَمٌ لِعَيْنِ الويل مبني على زِنَةِ أفعل من لفظ الويل على القلب، وأصله أَوْيَل، وهو غير منصرف للعلميَّة والوزن، فالكلام مبتدأ وخبر.

واعتُرض بأن الويل غير متصرف فيه، ومثل يوم أيْوم مع أنه غير مُنقاس لا يُفرد عن الموصوف ألبتة، وأن القلبَ خلافُ الأصل لا يُرتكب إلا بدليل، وأنَّ علمَ الجنس شيء خارجٌ عن القياس مُشكل التعقُّل خاصَّة فيما نحن فيه.

ثم قيل: إن الاشتقاقَ الواضحَ من الوَلْي بمعنى القُرب، كما في قوله:

يُكلِّفني ليلى وقد شطَّ وَلْيُها وعادتْ عوادٍ بيننا وخطوبُ[1]

يُرشد إلى أنه للتفضيل في الأصل غُلِّب في قُرب الهلاك ودعاء السوء، كأنه قيل: هلاكًا أولى لهم، بمعنى: أهلكهم الله تعالى هلاكًا أقربَ لهم من كلِّ شرٍّ وهلاك، وهذا كما غُلِّب: بُعدًا وسُحقًا، في الهلاك، وهو على هذا منصوبٌ على أنه صفةٌ في الأصل لمصدر محذوفٍ، وقد أُقيم مُقامه والجارُّ متعلِّقٌ به. وفي «الصحاح» عن الأصمعي: أَوْلى له: قَاربه ما يُهلكه، أي: نزل به، وأنشد:

فعادى بين هاديتين منها وأولى أن يزيدَ على الثلاث

أي: قارب أن يزيد. قال ثعلب: ولم يقل أحدٌ في: أولى، أحسنَ مما قاله الأصمعي[2]. وعلى هذا هو فعلٌ مُستتر فيه ضمير الهلاك بقرينة السِّياق.

وقريبٌ منه ما قيل: إنه فعلٌ ماضٍ وفاعله ضميرُه عز وجل واللامُ مَزيدة، أي: أَوْلاهم الله تعالى ما يكرهون، أو غير مَزيدة، أي: أدنى الله عز وجل الهلاك لهم، والظاهر زيادةُ اللام على ما سمعت عن الأصمعي، ومَن فسَّره بقرَّبَ جوَّز الأمرين.

وقيل: هو اسمُ فعل، والمعنى: وَلِيهم شرٌّ بعد شرّ.

وقيل: هو فَعْلى من: آلَ، بمعنى رَجَع، لا أفعل من الوَلْي، فهو في الأصل دعاءٌ عليهم بأنْ يرجع أمرُهم إلى الهلاك، والمراد: أَهلكهم اللهُ تعالى، إلا أن التركيبَ مبتدأ وخبر.

(١) البيت لعلقمة بن عبدة بن النعمان، وهو في المفضليات ص٣٩١.
(٢) الصحاح (ولي)، والشاهد ذكره أيضاً البغدادي في الخزانة ٩/ ٣٤٥.

وقال الرضي: هو علمٌ للوعيد، مِن: وَلِيه الشرُّ، أي: قربه، والتركيب مبتدأ وخبر أيضًا. واستدلَّ بما حكى أبو زيد من قولهم: أولاة ـ بتاء التأنيث ـ على أنه ليس بأفعل تفضيل ولا أفعل فَعْلى، وأنه علمٌ وليس بفعل، ثم قال: بل هو مِثْلُ: أَرْمل وأَرْملة إذا سُمِّي بهما، ولذا لم ينصرف، وليس اسمَ فعل أيضًا بدليل أَولاة في تأنيثه بالرفع، يعني أنه مُعرب، ولو كان اسمَ فعل كان مبنيًّا مثله. وتُعقِّب: بأنه لا مانع من كون أَولاة لفظًا آخرَ بمعناه، فلا يرد من ذلك على قائلي ما تقدَّم أصلًا. وجاء أَوَّل أَفعل تفضيل وظرفًا كـ : قَبل، وسُمِعَ فيه: أَوَّلة، كما نقله أبو حيان[١].

وقيل: الأحسن كونه أفعل تفضيل بمعنى أَحقُّ وأَحرى، وهو خبرٌ لمبتدأ محذوف يُقدَّر في كلِّ مقام بما يَليق به، والتقدير هاهنا: العقابُ أَولى لهم، ورُوي ذلك عن قتادة، ومال إلى هذا القول ابنُ عطية[٢].

وعلى جميع الأقوال قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلامٌ مستقلٌّ محذوفٌ منه أحدُ الجزأين، إما الخبر وتقدِيره: خيرٌ لهم، أو: أمثل، وهو قول مجاهد ومذهب سيبويه[٣] والخليل، وإما المبتدأ، وتقديره: الأمرُ ـ أو: أَمرُنا ـ طاعةٌ، أي: الأمر المرضي لله تعالى طاعةٌ. وقيل: أي: أمرُهم طاعةٌ معروفة وقولٌ معروف، أي: معلومٌ حالُه أنه خديعة. وقيل: هو حكايةُ قولهم قبلَ الأمر بالجهاد، أي: قالوا: أمرُنا طاعةٌ، ويشهد له قراءة أُبيٍّ: «يقولون طاعة وقول معروف»[٤].

وذهب بعضٌ إلى أن «أولى» أفعل تفضيل مبتدأ، و«لهم» صِلته، واللام بمعنى الباء، «وطاعة» خبرٌ، كأنه قيل: فأَولى بهم من النظر إليك نظرَ المَغشيِّ عليه من الموت طاعةٌ وقولٌ معروف، وعليه لا يكون كلاماً مستقلًا، ولا يُوقَف على «لهم».

ومما لا ينبغي أن يُلتفتَ إليه ما قيل: إن «طاعة» صفة لسورة في قوله تعالى:

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٨/ ٤٨.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١٧.
(٣) الكتاب ١/ ١٤١ و٢/ ١٣٦.
(٤) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٣٦، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٧١.

«فإذا أُنزلت سورة» والمرادُ: ذات طاعة، أو: مُطاعة. وتعقَّبه أبو حيان[١] بأنه ليس بشيء لحيلولة الفَصْل الكثير بين الصفة والموصوف.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جدَّ، والجِدُّ ـ أي: الاجتهاد ـ لأصحاب الأمر، إلا أنه أُسند إليه مجازاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] ومنه قول الشاعر:

قـد جَـدَّت الـحـرب بـكـم فـجـدُّوا[٢]

والظاهرُ أن جوابَ «إذا» قوله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وهو العاملُ فيها، ولا يضرُّ اقترانُه بالفاء ولا تمنع من عمل ما بعدَها فيما قبلها في مثله كما صرَّحوا به، وهذا نحو: إذا جاء الشتاء فلو جئتني لكسوتك.

وقيل: الجوابُ محذوفٌ تقديرُه: «فإذا عَزَمَ الأمر» كرهوا، أو نحو ذلك، قاله قتادة.

وفي «البحر»[٣]: مَنْ حَمَلَ «طاعةٌ وقولٌ معروفٌ» على أنهم يقولون ذلك خديعةً، قدَّر: فإذا عزم الأمر ناقضوا وتعاصَوْا. ولعلَّ مَنْ يجعل القولَ السابقَ للمؤمنين في ظاهر الحال، وهم المنافقون، جوَّز هذا التقدير أيضاً، وقدَّر بعضهم الجوابَ: فاصدُقْ، وهو كما ترى. وأيًّا ما كان، فالمراد: فلو صَدَقوا الله فيما زعموا من الحرص على الجهاد، ولعلَّهم أظهروا الحرصَ عليه كالمؤمنين الصادقين. وقيل: في قولهم: «طاعة وقول معروف»، وقيل: في إيمانهم ﴿لَكَانَ﴾ أي: الصدق ﴿خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ مما ارتكبوه، وهذا مبنيٌّ على ما في زَعْمهم من أنَّ فيه خيراً، وإلا فهو في نفس الأمر لا خيرَ فيه.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ خطابٌ لأولئك الذين في قلوبهم مرضٌ بطريق الالتفات لتأكيدِ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٢.

(٢) الرجز في الكامل للمبرد ٢/ ٤٩٤، وقد تمثل به الحجاج في خطبته لأهل الكوفة، وقبله:
قـد شـمَّـرت عـن سـاقـهـا فـشـدُّوا وجـدَّت الـحـرب ....

(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٢.

التوبيخ وتشديد التقريع، و«هل» للاستفهام، والأصل فيه أن يدخلَ [على][1] الخبر للسؤال عن مضمونه، والإنشاء الموضوع له «عسى» ما دلَّ عليه هنا بالخبر، أي: فهل يُتوقَّع منكم ويُنتظَر ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمورَ الناس وتأمَّرتم عليهم، فهو من الولاية، والمفعول به محذوف. ورُوي ذلك عن محمد بن كعب وأبي العالية والكلبي ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ تناحُرًا على الولاية وتكالبًا على جيفة الدنيا.

والمتوقِّع كلُّ من يقفُ على حالهم إلا الله عز وجل؛ إذْ لا يصحُّ منه سبحانه ذلك، والاستفهام أيضًا بالنسبة إلى غيره جل وعلا، فالمعنى: إنكم لِمَا عُهد منكم من الأحوال الدالَّة على الحرص على الدنيا حيث أُمرتم بالجهاد الذي هو وسيلةٌ إلى ثوابِ الله تعالى العظيم فكرهتموه، وظهرَ عليكم ما ظهر أحقَّاءُ بأن يقول لكم كلُّ مَنْ ذاقكم وعَرَفَ حالَكم: يا هؤلاء ما تَرونَ هل يُتوقَّع منكم إن تولَّيتم أن تُفسدوا في الأرض.. إلخ.

وفسَّر بعضُهم التولِّي بالإعراضِ عن الإسلام، فالفعل لازمٌ، أي: فهل عسيتم إنْ أَعرضتُم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتغاوُر والتناهُب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضًا، ووأد البنات.

وتُعقِّب بأنَّ الواقع في حيِّز الشرط في مثل هذا المقام لا بدَّ أن تكون محذوريَّته باعتبار ما يتبعه من المفاسد لا باعتبار ذاته، ولا ريبَ في أن الإعراضَ عن الإسلام رأسُ كلِّ شرٍّ وفساد، فحقُّه أن يُجعلَ عُمدةً في التوبيخ، لا وسيلة للتوبيخ بما دونه من المفاسد.

ويُؤيِّد الأول قراءةُ بعض: «وُلِّيتم» مَبنيًّا للمفعول[2]، وكذا قراءته عليه الصلاة والسلام على ما ذُكر في «البحر»، ورُويت عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه ورُويس

---

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٤٨.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٢، والبحر المحيط ٨/ ٨٢.

ويعقوب: «تُوُلِّيتم» بالبناء للمفعول أيضًا[١]، بناءً على أنَّ المعنى: تولّاكم الناسُ واجتمعوا على مُوالاتكم، والمرادُ: كنتم فيهم حُكَّامًا، وقيل: المعنى: تولّاكم ولاةٌ غشمةٌ خرجتم معهم ومَشيتم تحت لوائهم، وأَفسدتم بإفسادهم.

واستظهر أبو حيان[٢] تفسيره بالإعراض، إلا أنه قال: المعنى: إن أعرضتم عن امتثال أمر الله تعالى في القتال أن تفسدوا في الأرض بعدم مَعونةِ أهل الإسلام على أعدائهم وتقطّعوا أَرحامَكم، لأنَّ من أرحامكم كثيرًا من المسلمين، فإذا لم تُعينوهم قطعتم ما بينكم وبينهم من الرَّحِم.

وتُعقِّب بأنَّ حملَ الإفساد على الإفساد بعدم المَعونة فيه خَفاء، وكذا الإتيان بـ «إنْ» عليه دون «إذا» من حيث إنَّ الإعراضَ عن امتثال أمر الله تعالى في القتال كالمُحقَّق من أولئك المنافقين، فتأمل.

و«أن تفسدوا» خبر «عسى»، و«إن توليتم» اعتراضٌ، وجوابُ «إنْ» محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبله.

وزعم بعضُهم أن الأظهرَ جعل «إن تولَّيتم» حالًا مقدرة، وفيه أن الشرطَ بدون الجواب لم يُعهد وقوعُه حالًا في غير «إن» الوصلية، وهي لا تُفارق الواو.

وإلحاق الضمائر بـ «عسى» كما في سائر الأفعال المتصرِّفة لغةُ أهل الحجاز، وبنو تميم لا يُلحقونها به ويلتزمون دخولَه على «أنْ» والفعل، فيقولون: الزيدان عسى أَنْ يقوما، والزيدون عسى أن يقوموا. وذكر الإمام[٣] هاتين اللغتين ثم قال: وأما قول مَنْ قال: عسى أنت تقوم، وعسى أنا أَقومُ، فدون ما ذكرنا للتطويل الذي فيه، فإن كان مقصودُه حكايةَ لغةٍ ثالثة هي انفصال الضمير، فنحن لا نعلم أحدًا مِن نَقَلَةِ اللسان العربيِّ ذَكَرها، وإنْ كان غيرَ ذلك فليس فيه كثيرُ جدوى.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٠، والمحتسب ٢/ ٢٧٢، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢٧٤، والبحر المحيط ٨/ ٨٢، وقراءة يعقوب من رواية رويس في النشر ٢/ ٣٧٤ وهي من العشرة.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٢.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٦٣-٦٤.

وقرأ نافع: «عَسِيتم» بكسر السين المُهملة[١]، وهو غريب.

وقرأ أبو عمرو[٢] ـ في رواية ـ وسلام ويعقوب وأبان وعِصمة: «تَقْطَعوا» بالتخفيف مضارع قطع، والحسن: «تَقَطَّعوا» بفتح التاء والقاف وشدِّ الطاء، وأصله: تتقطَّعوا بتاءين حُذفت إحداهما، ونصبوا «أرحامَكم» على إسقاط الحرف[٣]، أي: في أرحامكم لأنَّ تقطَّع لازم.

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المُخاطَبين بطريق الالتفات إيذانًا بأنَّ ذِكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن درجة الخطاب، ولو على جهة التوبيخ وحكاية أقوالهم الفظيعة لغيرهم، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعدهم من رحمته عز وجل ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحقِّ لتصامِّهم عنه لسوء اختيارهم ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ لتعاميهم عمَّا يُشاهدونه من الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق.

وجاء التركيب «فأصمَّهم» ولم يأتِ: فأصمَّ آذانَهم، كما جاء: «وأعمى أبصارهم»، أو: أعماهم، كما جاء: «فأصمهم»، قيل: لأنَّ الأذن لو أُصيبت بقَطْع أو قَلْع لَسُمِعَ الكلام فلم يحتج إلى ذكر الأذن، والبصر وهو العين لو أُصيب لامتنع الإبصار، فالعين لها مدخلٌ في الرؤية، والأذن لا مدخلَ لها في السمع. انتهى. وهو كما ترى.

وقال الخفاجي[٤]: لأنه إذا ذُكر الصَّمَم لم يبقَ حاجةٌ إلى ذِكْر الآذان، وأما العمى فَلشيوعه في البصر والبصيرة حتى قيل: إنه حقيقةٌ فيهما، وهو ظاهر ما في «القاموس»[٥]، فإذا كان المرادُ أحدَهما حَسُنَ تقييدُه.

وقيل في وجه ذلك بناءً على كون العمى حقيقة فيما كان في البصر: إنَّ نحو:

---

(١) التيسير ص٨١، والنشر ٢/ ٢٣٠.
(٢) وهي غير المشهورة عنه.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٢، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٤٨.
(٥) القاموس المحيط (عمي).

أعمى اللهُ أبصارَهم، بحسب الظاهر من باب: أبصرته بعيني، وهو يقال في مقامٍ يحتاج إلى التأكيد، ولما كان أولئك الذين حكى حالهم في أمرِ الجهاد غيرَ ظاهرٍ إعماؤهم ظهورَ إصمامهم، كيف وفي الآيات السابقة ما يُؤذن بعدم انتفاعهم بالمسموع من القرآن، وهو من آثار إصمامهم، وليس فيها ما يُؤذن بعدم انتفاعهم بالآيات المرئية المنصوبة في الأنفس والآفاق الذي هو من آثار إعمائهم = ناسب أن يسلكَ في كلٍّ من الجملتين ما سلك، مع ما في سلوكه في الأخير من رعاية الفواصل، وهو أدقُّ مما قبل.

هذا، والأرحام جمعُ: رَحِم ـ بفتح الراء وكسر الحاء ـ وهي على ما في «القاموس»[١] ـ القرابة، أو أصلُها وأسبابُها، وقال الراغبُ: الرَّحِم: رَحِم المرأة، أي: بيت مَنْبِت وَلَدِها ووِعاؤه، ومنه استُعير الرَّحِم للقرابة، لكونهم خارجين من رَحِم واحدة[٢]. ويقال للأقارب: ذَوُو رحم، كما يقال لهم: أرحام. وقد صرَّح ابنُ الأثير بأنَّ ذا الرحم يقع على كلِّ من يجمع بينك وبينه نسبٌ، ويُطلق في الفرائض على الأقارب من جِهة النساء[٣]. والمذكور في كتبها تفسيره بكلِّ قَريب ليس بذي سهم ولا عَصَبة، وعدُّوا مِن ذلك أولادَ الأخوات لأبوين أو لأب، وعمَّاتِ الآباء.

وظاهرُ كلام الأئمة في قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ مَلَكَ ذا رَحِمٍ مَحْرم فهو حُرٌّ»[٤] دخولُ الأبوين والولد في ذي الرحم لغةً، حيث أجمعوا على أنهم يَعتِقون على مَنْ مَلَكهم لهذا الخبر، وإن اختلفوا في عتق غيرهم. وصرَّح ابن حجر الهيتمي في «الزواجر»[٥] بأن الأولاد من الأرحام، وظاهرُ عطف الأقربين على

---

(١) القاموس المحيط (رحم).
(٢) المفردات (رحم).
(٣) النهاية في غريب الحديث (رحم).
(٤) أخرجه أحمد (٢٠١٦٧)، وأبو داود (٣٩٤٩)، والترمذي (١٣٦٥) من حديث سمرة بن جندب ﷺ.
(٥) ٢/ ٧٤.

الوالدَين في الآية[1] يقتضي عدمَ دخولهما في الأقارب، فلا يدخلون في الأرحام لأنهم كما قالوا الأقارب. وكلام فقهائنا نصٌّ في عدمِ دخول الوالدَين والولد في ذلك حيث قالوا: إذا أوصى لأقاربه أو لِذَوي قرابته أو لأرحامه فهي للأقرب فالأقرب من كلِّ ذي رَحِم مَحْرم، ولا يدخل الوالدان والولد.

وأما الجدُّ ووَلَدُ الولد فنقل أبو السعود عن العلَّامة قاسم عن «البدائع»[2] أن الصحيحَ عدمُ دخولهما، واختاره في «الاختيار»[3]، وعلَّله بأن القريبَ من يتقرَّب إلى غيره بواسطة غيره وتكون الجزئية بينهما مُنعدِمة، وشرح الحموي أنَّ دخولَهما هو الأصحُّ. وفي «متن المواهب»: وأدخل ـ أي: محمد ـ الجدَّ والحَفَدة، وهو الظاهر عنهما، وذكر أنَّ مثلَ الجدِّ الجدَّةُ.

وقد يقال: إنَّ عدمَ دخول الوالدين والولد في ذلك، وكذا الجدّ والحَفَدة عند من يقول بعدمِ دخولهم، ليس لأنَّ اللفظَ لا يصدقُ عليهم لغةً، بل لأنه لا يصدقُ عليهم عُرفًا، وهم اعتبروا العُرفَ كما قال الطحطاوي في أكثرِ مسائل الوصية. وفي «جامع الفصولين»[4]: إنَّ مطلقَ الكلام فيما بين الناس ينصرف إلى المُتعارَف، وما ذكره في «المعراج»[5] من خبر: من سمَّى والده قريبًا عقَّه[6]، لا يدلُّ على أنه ليس قريبًا لغةً، بل هو بيانُ حكم شرعيٍّ مَبناهُ أن في ذلك إيذاءً للوالد وحطًّا من قَدْره عُرفًا، وهذا كما لو ناداه باسمه وكان يكره ذلك.

---

(١) كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥]. وقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧].

(٢) بدائع الصنائع ١٠/ ٥١٦.

(٣) الاختيار لتعليل المختار ٢/ ٥٣٩.

(٤) لابن قاضي سيماونة. المتوفى سنة (٨٢٣هـ)، وهو كتاب مشهور متداول لكونه في المعاملات خاصة. كشف الظنون ١/ ٥٦٦.

(٥) هو كتاب معراج الدراية، أحد شروح الهداية، لمحمد الكاكي الحنفي، المتوفى سنة (٧٤٩هـ). كشف الظنون ٢/ ٢٠٣٣.

(٦) ونقله عنه ابن عابدين في حاشيته ٦/ ٦٨٦، ولم نقف على الخبر مسنداً.

وأمرُ العطف في الآية الكريمة سهلٌ لجواز عطفِ العامّ على الخاصّ، كعطف الخاصّ على العامّ، فالذي يترجَّح عندي أنَّ الأرحامَ كما صرَّحوا به الأقاربُ بالقرابة الغير السببية، والمراد بهم ما يُقابل الأجانب، ويدخلُ فيهم الأصولُ والفروع والحواشي من قِبل الأب أو من قِبل الأمّ، وحُرمة قَطْعِ كلٍّ لا شكَّ فيها لأنه ـ على ما قلنا ـ رَحِم، والآيةُ ظاهرةٌ في حرمة قطع الرحم. وحكى القرطبي في «تفسيره»[1] اتفاقَ الأمة على حرمةِ قَطْعها ووجوب صِلتها، ولا ينبغي التوقُّف في كون القطع كبيرة، والعجبُ من الرافعي عليه الرحمة كيف توقَّف في قول صاحب «الشامل»: إنه من الكبائر، وكذا تقرير النووي ـ قُدِّس سِرُّه ـ له على توقُّفه[2].

واختلف في المراد بالقطيعة؛ فقال أبو زرعة: ينبغي أن تختصَّ بالإساءة، وقال غيره: هي ترك الإحسان ولو بدون إساءة؛ لأن الأحاديث آمرةٌ بالصلة ناهية عن القطيعة ولا واسطةَ بينهما، والصلة إيصالُ نوع من أنواع الإحسان كما فسَّرها بذلك غيرُ واحد، فالقطيعة ضدُّها، فهي ترك الإحسان. ونظر فيه الهيتمي[3] بناءً على تفسير العقوق بأنْ يَفعل مع أحدِ أبويه ما لو فعله مع أجنبيٍّ كان محرَّمًا صغيرةً، فينتقل بالنسبة إلى أحدِهما كبيرةً، وأن الأبوين أعظمُ من بقية الأقارب، ثم قال: فالذي يتَّجه ليوافق كلامهم وفرقهم بين العقوق وقطع الرحم أنَّ المرادَ بالأول أن يفعلَ مع أحدِ الأبوين ما يتأذَّى به، فإن كان التأذِّي ليس بالهيِّن عُرفًا كان كبيرةً وإنْ لم يكن مُحرَّمًا لو فعله مع الغير. وبالثاني قطعُ ما ألفَ القريبُ منه من سابق الوصلة والإحسان بغير عُذر شرعي؛ لأن قطعَ ذلك يُؤدِّي إلى إيحاش القلوب وتأذِّيها، فلو فرضَ أن قريبَه لم يصل إليه إحسانٌ ولا إساءة قطُّ لم يفسقْ بذلك؛ لأنَّ الأبوين إذا فُرض ذلك في حقِّهما من غير أن يفعلَ معهما ما يقتضي التأذِّي العظيم ـ لغناهما مثلًا ـ لم يكن كبيرة فأولى بقية الأقارب؛ ولو فرض أنَّ الإنسانَ لم يقطع عن قريبه ما ألِفه منه من الإحسان لكنه فعل معه مُحرَّمًا صغيرة، أو قطَّب في وجهه، أو لم

(١) ٦/ ١٤.

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢/ ٧٣.

(٣) في الزواجر ٢/ ٧٣، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

يَقُمْ له في مَلَأٍ ولا عَبَأَ به، لم يكن ذلك فسقًا، بخلافه مع أحد الأبوين، لأن تأكُّد حقِّهما اقتضى أن يتميزا على بقية الأقاربِ بما لا يُوجد نظيرُه فيهم.

وعلى ضبط الثاني بما ذكرته فلا فرق بين أن يكون الإحسانُ الذي أَلِفَه منه قريبُه مالًا أو مُكاتبةً أو مُراسلةً أو زيارة أو غير ذلك، فقطع ذلك كلّه ـ بعد فعله ـ لغير عذر كبيرةٌ، وينبغي أن يُراد بالعذر في المال فَقْدُ ما كان يصله به، أو تجدّد احتياجه إليه، أو أن يندبه الشارعُ إلى تقديم غير القريب عليه لكونه أحوجَ أو أصلحَ، فعدم الإحسان إلى القريب أو تقديمُ الأجنبي عليه لهذا العذر يرفع عنه [الفسق] وإن انقطع بسبب ذلك ما أَلِفَه منه القريبُ؛ لأنه إنما راعى أمرَ الشارع بتقديم الأجنبيِّ عليه. وواضحٌ أن القريبَ لو أَلِفَ منه قَدْراً معيَّنًا من المال يُعطيه إياه كلَّ سنة مثلًا فَنَقَصه لا يفسق بذلك، بخلاف ما لو قَطَعه من أصله لغير عُذْر.

وأما عُذر الزيارة فينبغي ضبطُه بعذر الجمعة لجامع أنَّ كلًّا فرضُ عين، وتركُه كبيرة. وأما عُذر ترك المُكاتبة والمُراسلة فهو أن لا يَجِدَ من يَثِقُ به في أداء ما يُرسله معه. والظاهرُ أنه إذا ترك الزيارةَ التي أُلِفَتْ منه في وقتٍ مخصوصٍ لعُذر لا يلزمه قضاؤها في غير ذلك الوقت.

والأولاد والأعمام من الأرحام، وكذا الخالة، فيأتي فيهم وفيها ما تقرَّر من الفَرْق بين قَطْعهم وعقوقِ الوالدين، وأما قول الزركشي: صحَّ في الحديث أنَّ: «الخالة بمنزلة الأم»[(١)] و: «أنَّ عَمَّ الرجل صنوُ أبيه»[(٢)]، وقضيتهما أنهما مثلُ الأب والأمِّ حتى في العقوق = فبعيدٌ جدًّا، ويكفي مُشابَهتهما في أمرٍ ما كالحضانة تَثبتُ للخالةِ كما تثبتُ للأمِّ، وكذا المَحْرميَّة، وكالإكرام في العمِّ والمَحْرميَّة وغيرهما مما ذكر. انتهى المراد منه.

ولو قيل: إنَّ الصغيرةَ تُعَدُّ كبيرةً لو فُعلت مع القريبِ لكنها دون ما لو فُعلت مع أحدِ الأبوين، لم يبعدْ عندي لِتفاوتِ قُبحِ السيئات بحسب الإضافات، بل لا يبعدُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٩) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٧٢٥) من حديث علي ﷺ مطولًا.

على هذا أن يكون قبحُ قَطع الرحم متفاوتاً باعتبار الشخص القاطع وباعتبار الشخص المقطوع، ومتى سُلِّم التفاوت فليُقَلْ به في العقوق، ويكون عقوقُ الأمِّ أقبحَ من عقوق الأب، وكذا عقوقُ الولدِ الذي يعبأ به أقبح من عقوق الولدِ الذي لا يعبأ به، ويتفرَّع من ذلك ما يتفرَّع مما لا يخفى على فقيه.

واستدلَّ بالآية عمرُ بن الخطاب ﷺ على منع بيعِ أمِّ الولد؛ روى الحاكم في «المستدرك» ـ وصحَّحه ـ وابن المنذر عن بُريدة قال: كنتُ جالسًا عند عمر إذ سمع صائحًا فسأل فقيل: جاريةٌ من قريش تباعُ أُمُّها. فأرسل يدعو المهاجرين والأنصارَ، فلم تمضِ ساعةٌ حتى امتلأت الدارُ والحُجرة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أما بعدُ، فهل تعلمونه كان مما جاء به محمدٌ ﷺ القطيعة، قالوا: لا، قال: فإنها قد أصبحَتْ فيكم فاشيةً، ثم قرأ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ ثم قال: وأيُّ قطيعةٍ أقطعُ من أنْ تُباع أُمُّ امرئ فيكم؟! قالوا: فاصنَعْ ما بدا لك. فكتب في الآفاقِ أنْ لا تُباعَ أمُّ حُرٍّ، فإنها قطيعةُ رحم، وأنه لا يحلُّ(١).

واستدلَّ بها أيضًا على جوازِ لعن يزيدَ عليه من الله تعالى ما يستحقُّ، نقل البرزنجي في «الإشاعة» والهيتمي في «الصواعق» أن الإمام أحمد لما سأله ولدُه عبد الله عن لعن يزيدَ، قال: كيف لا يُلعن مَنْ لَعَنه الله تعالى في كتابه، فقال عبد الله: قد قرأتُ كتابَ الله عز وجل فلم أجِدْ فيه لعنَ يزيد؟! فقال الإمام: إن الله تعالى يقول: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية، وأيُّ فسادٍ وقطيعة أشدُّ مما فعله يزيد(٢)؟! انتهى.

وهو مبنيٌّ على جواز لعنِ العاصي المُعيَّن من جماعة لُعنوا بالوصف، وفي ذلك خلافٌ، فالجمهور على أنه لا يجوز لعنُ المُعيَّن فاسقًا كان أو ذميًا، حيًّا كان أو ميتًا ولم يُعلم موته على الكفر، لاحتمال أن يُختَم له أو خُتِمَ له بالإسلام، بخلاف من عُلم موته على الكفر كأبي جهل.

---

(١) المستدرك ٢/٤٥٨.

(٢) الصواعق المحرقة ص٢٢٢.

وذهب شيخ الإسلام السراج البُلقيني إلى جواز لعنِ العاصي المُعيَّن لحديث «الصحيحين»: «إذا دعا الرجل امرأتَه إلى فراشِه فأبَتْ أن تجيءَ فباتَ غضبانَ، لعنتها الملائكةُ حتى تُصبح» وفي رواية: «إذا باتَتِ المرأة مهاجرةً فراشَ زوجها لعنتها الملائكةُ حتى تصبحَ»[1]. واحتمالُ أن يكون لعنُ الملائكةِ عليهم السلام إياها ليس بالخصوص بل بالعموم، بأن يقولوا: لعنَ اللهُ من باتَتْ مهاجرةً فراشَ زوجها = بعيدٌ، وإنْ بحثَ به معه ولده الجلال البُلقيني.

وفي «الزواجر»: لو استدلَّ لذلك بخبر مسلم: أنه ﷺ مَرَّ بحمار وُسِمَ في وجهه فقال: «لَعَنَ اللهُ مَنْ فعلَ هذا»[2] لكان أظهرَ، إذ الإشارةُ بهذا صريحةٌ في لعنِ مُعَيَّن إلا أن يؤوَّل بأن المراد الجنس، وفيه ما فيه[3]. انتهى.

وعلى هذا القول لا توقُّفَ في لعن يزيدَ لِكَثْرَةِ أوصافه الخبيثة وارتكابِهِ الكبائر في جميعِ أيام تكليفهِ، ويكفي ما فعله أيامَ استيلائه بأهل المدينةِ ومكةَ، فقد روى الطبراني بسند حسن: «اللَّهمَّ مَنْ ظَلَم أهلَ المدينة وأخافهم فأَخِفه، وعليه لعنةُ الله والملائكة والناسِ أجمعين، لا يُقبل منه صَرْفٌ ولا عَدْل»[4] والطامَّةُ الكبرى ما فعله بأهل البيت ورضاهُ بقتل الحسين على جدِّه وعليه الصلاة والسلام، واستبشاره بذلك، وإهانته لأهل بيته مما تواتر معناه وإنْ كانَتْ تفاصيلُه آحادًا، وفي الحديث: «ستَّةٌ لعنتهم ـ وفي رواية لعنهم اللهُ وكلُّ نبيٍّ مُجاب الدعوة ـ: المُحرِّف لكتاب الله ـ وفي رواية: الزائدُ في كتاب الله ـ والمُكذِّب بقَدَر الله، والمُتسلِّط بالجبروت لِيُعزَّ مَنْ أذلَّ اللهُ ويُذِلَّ من أعزَّ اللهُ، [والمستحلُّ لحرم الله] والمُستحلُّ من عِتْرتي، والتارك لِسُنَّتي»[5].

---

(١) أخرجه أحمد (٩٦٧١)، والبخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والرواية الثانية عند البخاري (٥١٩٤).

(٢) صحيح مسلم (٢١١٧) من حديث جابر رضي الله عنه، وهو في مسند أحمد (١٤١٦٤).

(٣) الزواجر ٢/٥٦.

(٤) المعجم الكبير (٦٦٣٦) من حديث السائب بن خلاد.

(٥) أخرجه الترمذي (٢١٥٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، وما بين حاصرتين منه، وذكر أن الأصحَّ عن علي بن حسين عن النبي ﷺ مرسلاً.

وقد جزم بكفره وصرَّح بلَعْنه جماعةٌ من العلماء منهم الحافظُ ناصرُ السنة ابن الجوزي، وسبقه القاضي أبو يعلى. وقال العلامة التفتازاني: لا تَوقُّف في شأنه بل في إيمانه، لعنة الله تعالى عليه وعلى أنصاره وأعوانه(١). وممن صرَّح بلعنه الجلالُ السيوطي عليه الرحمة.

وفي «تاريخ ابن الوردي» وكتاب «الوافي بالوَفَيات»(٢) أن السبي لما وردَ من العراق على يزيدَ، خرج فلقي الأطفالَ والنساء من ذُرِّية عليٍّ والحسين ﵄ والرؤوس على أطرافِ الرِّماح وقد أَشرفوا على ثنية جيرون، فلما رآهم نعب غراب فأنشأ يقول:

لما بَدَتْ تلك الحمولُ وأشرقَتْ ... تلك الرؤوس على شفا جيرونِ
نَعَبَ الغرابُ فقلت قل أو لا تقل ... فقد اقتضيت من الرسول ديوني

يعني أنه قتلَ بمن قتلَه رسولُ الله ﷺ يومَ بدر كجدِّه عُتبة وخالهِ ولد عُتبة وغيرهما. وهذا كفرٌ صريحٌ، فإذا صحَّ عنه فقد كفرَ به، ومثلُه تمثُّله بقول عبد الله بن الزِّبعرى قبلَ إسلامه:

ليتَ أشياخي.......... الأبيات(٣)

وأفتى الغزالي(٤) عفا الله عنه بحرمة لَعْنه، وتعقَّب السفارينيُّ من الحنابلة نَقْلَ البرزنجي والهيتمي السابق عن أحمد رحمه الله تعالى، فقال: المحفوظُ عن الإمام أحمد خلافُ ما نَقَلا، ففي «الفروع» ما نصُّه: ومن أصحابنا من أخرجَ الحجَّاج عن الإسلام، فيتوجَّه عليه يزيدُ ونحوه، ونصُّ أحمدَ خلافُ ذلك، وعليه الأصحاب.

---

(١) ونقله عنه المناوي في الفيض ٣/ ٨٤.

(٢) وكذا ذكر الرحيباني في مطالب أولي النهى، فصل: تلزم السيد نفقة وكسوة وسكنى عرفاً، وعبارته فيه: قال الوافي في الوفيات: إن السبي... إلخ. والأبيات التي سترد قريباً مذكورة فيه، وكذا ما بعدها من الكلام. ولم نقف عليه في الوافي بالوفيات للصفدي.

(٣) أبيات ابن الزبعرى في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٣٦، وهذا البيت بتمامه:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

(٤) إحياء علوم الدين ٣/ ١٢٤.

ولا يجوز التخصيصُ باللعنة، خلافًا لأبي الحسين وابن الجوزي وغيرهما، وقال شيخ الإسلام - يعني - والله تعالى أعلم - ابن تيمية -: ظاهرُ كلام أحمد الكراهة[1].

قلت: والمختارُ ما ذهب إليه ابنُ الجوزي وأبو حسين القاضي[2] ومَنْ وافقهما. انتهى كلام السفاريني. وأبو بكر بن العربي المالكي عليه من الله تعالى ما يستحقُّ أعظمَ الفِرْيَة، فزعمَ أنَّ الحسينَ قُتل بسيف جدِّه ﷺ[3]، وله من الجَهَلةِ موافقون على ذلك ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

قال ابنُ الجوزي عليه الرحمة في كتابه «السر المصون»: من الاعتقادات العامة التي غَلبت على جماعة مُنتسبين إلى السنة أن يقولوا: إن يزيدَ كان على الصواب، وإنَّ الحسينَ رضي الله عنه أخطأ في الخروج عليه، ولو نظروا في السير لعلموا كيف عُقدت له البيعة وألزم الناس بها، ولقد فعل في ذلك كلَّ قبيح، ثم لو قدَّرنا صحة عَقْد البيعة فقد بَدَتْ منه بوادٍ كلُّها تُوجب فسخ العقد، ولا يميل إلى ذلك إلا كلُّ جاهل عاميِّ المذهب يظن أنه يُغِيظُ الرافضة.

هذا، ويعلم من جميع ما ذكره اختلاف الناس في أمره؛ فمنهم من يقول: هو مسلمٌ عاصٍ بما صدر منه مع العِتْرة الطاهرة، لكن لا يجوز لعنه، ومنهم من يقول: هو كذلك ويجوز لعنه، مع الكراهة أو بدونها، ومنهم من يقول: هو كافر ملعون، ومنهم من يقول: إنه لم يعصِ بذلك، ولا يجوز لعنه، وقائلُ هذا ينبغي أن يُنظَم في سلسلة أنصار يزيد.

وأنا أقول: الذي يغلبُ على ظني أن الخبيثَ لم يكن مُصدقًا برسالةِ النبيِّ ﷺ وأنَّ مجموعَ ما فعل مع أهلِ حَرَمِ الله تعالى وأهلِ حَرَم نبيِّه عليه الصلاة والسلام وعِتْرته الطَّيبين الطاهرين في الحياة وبعد الممات وما صَدَر منه من المَخازي ليس بأضعف دلالة على عدم تصديقه من إلقاء ورقةٍ من المصحف الشريف في قَذَر،

---

(١) الفروع لابن مفلح ١٠/ ١٩٠، وكلام شيخه ابن تيمية في كتابه منهاج السنة النبوية ٢/ ٢٥٢.

(٢) الذي ذكره المصنف آنفاً هو: القاضي أبو يعلى. وهو أبو أبي الحسين القاضي، المذكور هنا، ولعل الأب والابن قالا بالتصريح بلعن يزيد.

(٣) العواصم من القواصم ص٢٣٢ (القسم الذي حقَّقه محب الدين الخطيب).

ولا أظن أنَّ أمرَه كان خافيًا على أَجِلَّة المسلمين إذ ذاك، ولكن كانوا مَغْلوبين مقهورين لم يَسَعهم إلا الصبر ليقضي اللهُ أمراً كان مفعولًا، ولو سُلِّم أن الخبيثَ كان مسلمًا فهو مسلمٌ جمع من الكبائر ما لا يُحيط به نِطاق البيان، وأنا أذهبُ إلى جوازِ لَعْن مثله على التعيين، ولو لم يُتَصَوَّر أن يكون له مِثْلٌ من الفاسقين، والظاهرُ أنه لم يَتُبْ، واحتمالُ توبتِهِ أضعفُ من إيمانه، ويلحقُ به ابنُ زياد وابن سعد(١) وجماعةٌ، فلعنةُ الله عز وجل عليهم أجمعين، وعلى أنصارهم وأعوانهم وشِيعتهم ومن مال إليهم إلى يوم الدين ما دَمَعَتْ عينٌ على أبي عبد الله الحسين، ويُعجبني قولُ شاعرِ العصر ذو الفضل الجلي عبد الباقي أفندي العمري الموصلي(٢) وقد سُئل عن لَعْنِ يزيد اللعين:

يزيد على لعني عريض جنابه فأغدو به طول المدى ألعن اللعنا

ومَنْ كان يخشى القال والقيل من التصريح بلعن ذلك الضلِّيل فليقل: لعنَ اللهُ عز وجل مَنْ رضي بقتل الحسين ومَنْ آذى عِتْرَةَ النبيِّ ﷺ بغيرِ حقٍّ ومَنْ غَصَبهم حَقَّهم، فإنه يكون لاعنًا له لدخوله تحت العموم دخولًا أَوَّلِيًّا في نفس الأمر، ولا يُخالِفُ أحدٌ في جواز اللعن بهذه الألفاظ ونحوها سوى ابن العربي المارِّ ذِكْرُه وموافقيه، فإنهم على ظاهرِ ما نُقل عنهم لا يُجوِّزون لعن من رضي بقتل الحسين رضي الله عنه، وذلك لعمري هو الضلالُ البعيد، الذي يكادُ يزيدُ على ضلال يزيد.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي: لا يُلاحظونه ولا يتصفَّحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من المُوبقات ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ تمثيلٌ لعدم وصولِ الذِّكر إليها وانكشاف الأمر لها، فكأنه قيل: أفلا يتدبَّرون القرآن إذْ وصل إلى قلوبهم أم لم يَصِلْ إليها، فتكون «أمْ» متصلةً على مذهب سيبويه، وظاهر كلام بعضٍ اختيارُه.

(١) وهما: عبيد الله بن زياد والي الكوفة والبصرة زمن يزيد، وعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذي قتل الحسين رضي الله عنه.

(٢) هو عبد الباقي بن سليمان، شاعر، مؤرخ، ولي بالموصل وبغداد أعمالًا حكومية، له ديوان شعر، ونزهة الدهر في تراجم فضلاء العصر. توفي ببغداد سنة (١٢٧٩هـ)، الأعلام ٣/ ٢٧١.

وذهب أبو حيان[١] وجماعة إلى أنها منقطعة، وما فيها من معنى «بل» للانتقال من التوبيخ بترك التدبُّر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مُقفلة لا تقبل التدبُّر والتفكُّر، والهمزة للتقرير.

وتنكيرُ القلوب لتهويل حالها وتفظيع شأنها وأمرها في القساوة والجهالة، كأنه قيل: على قلوب مُنكرة لا يُعرف حالها ولا يُقادر قَدْرُها في القساوة، وقيل: لأنَّ المرادَ قلوبُ بعضٍ منهم، وهم المنافقون، فتنكيرُها للتبعيض أو للتنويع كما قيل. وإضافةُ الأقفال إليها للدلالة على أنها أقفالٌ مخصوصة بها مناسبةٌ لها غير مُجانسة لسائر الأقفال المعهودة.

وقرئ: «إقفالها» بكسر الهمزة[٢]، وهو مصدر من الإفعال، و«أَقْفُلها» بالجمع[٣] على أَفْعُل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي: رَجَعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، قال ابن عباس وغيره: نزلت في منافقين كانوا أسلموا، ثم نافقَتْ قلوبهم.

وفي «إرشاد العقل السليم»[٤]: هم المنافقون الذين وُصِفوا فيما سلف بمرض القلوب وغيره من قبائح الأحوال، فإنهم قد كفروا به عليه الصلاة والسلام ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بالدلائل الظاهرة والمُعجزات الباهرة القاهرة.

وأخرج عبد الرزاق وجماعة عن قتادة أنه قال: هم أعداءُ الله تعالى أهل الكتاب يعرفون بَعْثَ النبيِّ ﷺ ويجدونه مكتوبًا في التوراة والإنجيل، ثم يكفرون به عليه الصلاة والسلام[٥]. وأخرج ابن المنذر عن ابن جُريج أنه قال: «إن الذين ارتدوا» إلخ: اليهودُ ارتدُّوا عن الهُدى بعد أن عَرَفوا أن محمدًا ﷺ نبيٌّ[٦]. والمختار ما تقدَّم.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤٠.

(٤) ٨/ ٩٩.

(٥) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٢٤.

(٦) الدر المنثور ٦/ ٦٦.

وأيًّاما كان فالموصولُ اسمُ «إنَّ»، وجملة قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ خبرها، كقولك: إن زيدًا عمرو مَرَّ به. أي: سهَّلَ لهم ركوبَ العظائم، من السَّوَل ـ بفتحتين ـ وهو الاسترخاء، استُعير للتسهيل، أي: لعدِّه سهلًا هيِّنًا حتى لا يُبالى به، كأنَّه شُبِّه بإرخاء ما كان مشدودًا.

وقيل: أي: حملهم على الشهوات، من السُّؤل، وهو التمنِّي، وأصلُه حملهم على سؤلهم، أي: ما يشتهونه ويتمنَّونه، فالتفعيل للحمل على المصدر، كغَرَّبه إذا حمله على الغُربة، إلا أنهم جعلوا المصدر بمعنى اسم المفعول، ونُقل ذلك عن ابن السِّكيت. واعتُرض بأنَّ السُّؤل بمعنى التمنِّي من السؤال، فهو مهموزٌ، والتسويل واويٌّ، ومعناه التزيين، فلا مناسبةَ لا لفظًا ولا معنى، فالقول باشتقاق سَوَّل منه خطأ. ورُدَّ بأن السُّؤل من السؤال، وله استعمالان فيكون مهموزًا، وهو المعروف، ومعتلًّا، يقال: سالَ يَسال كخاف يخاف، وقالوا منه: يتساولان ـ بالواو ـ فيجوز كون التسويل من السُّؤل على هذه اللغة، أو هو على المشهورة خُفِّف بقلب الهمزة، ثم التزم، ونظيره: تَدَيَّرَ من الدار لاستمرار القلب في ديَّار، وكذلك تحيَّز لاستمرار القلب في حيز[1]، ويكون مآلُ المعنى على هذا: حَمَلَهم على الشهوات.

وقرأ زيدُ بن عليٍّ ﷺ: «سُوِّل لهم» مبنيًّا للمفعول[2]، وخرج ذلك على تقدير مضاف، أي: كيد الشيطان سوِّل لهم، وجُوِّز تقديره: سَوَّل كيدُه لهم، فحذف وقام الضمير المجرور مُقامه، فارتفع واستتر، قيل: وهو أولى، لأنه تقديرٌ في وقت الحاجة، ولا يخفى أن الأولَ أقلُّ تكلُّفًا.

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥﴾ أي: ومَدَّ لهم الشيطانُ في الأماني والآمال، ومعنى المَدِّ فيها توسيعُها وجعلها ممدودةً بنفسها أو بزمانها، بأن يُوسوس لهم بأنكم تنالون في الدنيا كذا وكذا مما لا أصلَ له حتى يعوقهم عن العمل، وأصلُ الإملاء: الإبقاء ملاوةً من الدهر، أي: بُرهة، ومنه قيل: المعنى: وعدَهم بالبقاء الطويل.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٣.

(٢) ينظر تفصيل هذه المسألة عند تفسير الآية (١٦) من سورة الأنفال.

وجعل بعضُهم فاعلَ «أملى» ضميرَه تعالى، والمعنى: أمهلهم ولم يُعاجلهم بالعقوبة؛ وفيه تفكيكٌ، لكن أُيِّد بقراءة مجاهد وابن هُرمز والأعمش وسلام ويعقوب: «وأُمْلِيْ» بهمزة المتكلم[١]، مضارع: أَملى، فإنَّ الفاعلَ حينئذ ضميرُه تعالى على الظاهر، والأصل توافقُ القراءتين، وجُوِّز أن يكون ماضيًا مجهولًا من المَزيد سُكِّن آخره للتخفيف كما قالوا في بَقِيَ بَقِي بسكون الياء. وعلى الظاهر جُوِّز أن تكونَ الواو للاستئناف وأن تكون للحال، ويُقدَّر مبتدأ بعدَها، أي: وأنا أملي، لئلا يكون شاذًّا، كـ: قُمت وأَصُكُّ وجهه، وجُوِّزت الحالية في قراءة الجمهور أيضًا على جعل الفاعل ضميرَه تعالى، فحينئذ تُقدَّر «قد» على المشهور.

وقرأ ابن سيرين والجحدري وشيبة وأبو عمرو وعيسى: «وأُمليَ» بالبناء للمفعول[٢]، فـ «لهم» نائب الفاعل، أي: أُمهلوا ومُدَّ في أعمارهم، وجُوِّز أن يكون ضميرَ الشيطان، والمعنى: أُمهل الشيطانُ لهم، أي: جُعل من المُنْظَرين إلى يوم القيامة لأجلهم، ففيه بيانٌ لاستمرارِ ضلالهم وتقبيح حالهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من ارتدادهم، لا إلى الإملاء كما نُقل عن الواحدي[٣]، ولا إلى التسويل كما قيل، لأن شيئًا منهما ليس مُسبَّبًا من القول الآتي، وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قَالُوا۟﴾ يعني المنافقين ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ هم بنو قريظة والنضير من اليهود الكارهين لنزول القرآن على النبيِّ عليه الصلاة والسلام مع عِلْمهم بأنه من عند الله تعالى؛ حسدًا وطمعًا في نزوله على أحدٍ منهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في بعض أموركم وأحوالكم، وهو ما حكي عنهم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١] وقيل: في بعض ما تأمرون به كالتناصر على رسول الله ﷺ.

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٣، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٣، وقراءة أبي عمرو في النشر ٢/ ٣٧٤.
(٣) الوسيط ٤/ ١٢٨.

وقيل: القائلون اليهود الكافرون به ﷺ بعد ما وجدوا نَعْته الشريف في كتابهم، والمَقولُ لهم المنافقون؛ كان اليهود يَعِدونهم النُّصرة إذا أعلنوا بعداوة رسول الله عليه الصلاة والسلام. وقيل: القائلون أولئك اليهود والمَقولُ لهم المشركون كانوا يَعِدونهم النُّصرة أيضًا إذا حاربوا. وتُعقِّب كلا القولين بأنَّ كُفرَ اليهود به عليه الصلاة والسلام ليس بسبب هذا القول ولو فرض صدورُه عنهم على رأي القائل، بل من حيث إنكارهم بَعْثه عليه الصلاة والسلام وقد عَرَفوه كما عرفوا أبناءَهم وآباءهم، ومنه يُعلم ما في قول بعضهم: إنَّ القائلين هم المنافقون واليهود، والمَقول لهم المشركون، وما فسَّرنا به الآية الكريمةَ مَرويٌّ عن الحِبْر رضي الله عنه.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ أي: إخفاءهم ما يقولونه لليهود، أو كلّ قبيح، ويدخل ذلك دخولًا أوليًّا.

وقرأ الجمهور: «أسرارهم» بفتح الهمزة[1]، أي: يعلم الأشياء التي يُسرُّونها، ومنها قولهم هذا الذي أظهره سبحانه لتفضيحهم. وقال الإمام[2]: الأظهر أنْ يقال: المرادُ: يعلم سبحانه ما في قلوبهم من العلم بصدقِ رسوله ﷺ. وفيه ما لا يخفى.

والجملةُ اعتراضٌ مقرِّر لما قبله متضمِّن للوعيد.

والفاء في قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لترتيب ما بعدَها على ما قبلها، «وكيف» منصوبٌ بفعل محذوف هو العاملُ في الظرف، كأنه قيل: يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحِيل، فكيف يفعلون إذا توفَّتهم الملائكة، وقيل: مرفوعٌ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: فكيف حالهم أو حيلتهم إذا توفَّتهم.. إلخ، وزعم الطبري[3] أن التقدير: فكيف عِلْمه تعالى بأسرارهم إذا توفَّتهم.. إلخ. وليس بشيء.

ووقت التوفِّي هو وقتُ الموت، والملائكة عليهم السلام مَلَكُ الموت وأعوانُه.

---

(١) قرأ بالكسر حفص وحمزة والكسائي وخلف، والباقون بالفتح. التيسير ص ٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٤.

(٢) تفسير الرازي ٢٨/ ٦٧.

(٣) في تفسيره ٢١/ ٢٢١.

وقرأ الأعمش: «توفَّاهم» بالألف بدل التاء[1]، فاحتمل أن يكون ماضياً، وأن يكونَ مضارعاً حُذف منه أحدُ تاءيه، والأصل: تتوفاهم.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ حالٌ من الملائكة، وجوِّز كونه حالاً من ضمير «توفتهم»، وضَعَّفه أبو حيان[2]، وهو على ما قيل تصويرٌ لتوفِّيهم على أهول الوجوه وأفظعها، وإبرازٌ لما يخافون منه ويَجْبُنون عن القتال لأجله، فإنَّ ضربَ الوجوه والأدبار في القتال والجهاد مما يُتَّقى، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يُتوفَّى أحدٌ على معصية إلا تضربُ الملائكةُ في وجهه وفي دُبره[3]. والكلام على الحقيقة عنده، ولا مانعَ من ذلك وإن لم يحسَّ بالضرب مَنْ حضر، وما ذلك إلا كسؤال المَلكين وسائرِ أحوال البرزخ.

والمراد بالوجه والدُّبر، قيل: العضوان المعروفان. أخرج ابنُ المنذر عن مجاهد أنه قال: يضربون وجوههم واستاههم، ولكن الله سبحانه كريم يكني[4].

وقال الراغب وغيره: المراد: القُدَّام والخَلْف[5].

وقيل: وقتُ التوفِّي وقت سوقهم في القيامة إلى النار، والملائكةُ ملائكة العذاب يومئذ. وقيل: هو وقت القتال، والملائكةُ ملائكةُ النصر تضرب وجوههم إن ثبتوا وأدبارَهم إنْ هربوا نُصرةً لرسول الله ﷺ. وكلا القولين كما ترى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفِّي الهائل ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ ما يرضاه عز وجل من الإيمان والطاعات حيث كفروا بعد الإيمان وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع إخوانهم اليهود.

وقيل: «ما أسخط الله» كتمانُ نعت الرسول ﷺ، و«رضوانه» ما يُرضيه سبحانه من إظهار ذلك. وهو مبنيٌّ على أنَّ ما تقدَّم إخبارٌ عن اليهود، وقد سمعتَ ما فيه.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٠، والبحر ٨/ ٨٤.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٤.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٧، وذكره القرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٨١ بنحوه.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٦٦.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (دبر).

ولمَّا كان اتِّباعُ ما أسخط الله تعالى مقتضيًا للتوجُّه ناسبَ ضَرْبَ الوجه، وكراهة رضوانه سبحانه مقتضيًا للإعراض ناسبَ ضَرْبَ الدُّبر، ففي الكلام مُقابلة بما يُشبه اللَّفّ والنَّشر.

﴿فَأَحْبَطَ﴾ لذلك ﴿أَعْمَالَهُمْ ۝٢٨﴾ التي عَمِلوها حالَ إيمانهم من الطاعات، وجُوِّز أنْ يُرادَ ما كان بعدُ من أعمال البرِّ التي لو عَمِلوها حالَ الإيمان لانتفعوا بها.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون الذين فُصِّلَتْ أحوالهم الشنيعة وُصِفوا بوصفهم السابق لكونه مدارًا لما نعي عليهم بقوله تعالى: ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ۝٢٩﴾ فـ «أم» منقطعة، و«أنْ» مُخفَّفة من «أنَّ»، واسمها ضميرُ الشأن، والجملة بعدَها خبرُها. والأضغان جمعُ ضِغْن: وهو الحِقْد، وقيَّده الراغبُ[١] بالشديد، وقد ضَغِنَ بالكسر، وتضاغن القومُ واضطغنوا: أبطنوا الأحقاد، ويقال: اضطغنت الصبيَّ إذا أخذتَه تحت حضنك، وأنشد الأحمر:

كــأنَّــه مُــضْــطَــغِــنٌ صَــبِــيَّــا[٢]

وفرس ضاغن: لا يُعطي ما عنده من الجري إلَّا بالضرب، وأصلُ الكلمة من الضغن وهو الالتواء والاعوجاج في قوائم الدابة والقناة وكلّ شيء، قال بشر:

كــذات الـضِّـغْـنِ تـمـشـي فـي الـرِّفـاق[٣]

وأنشد الليث:

إنَّ قــنــاتــي مــن صــلــيــبــات الــقــنَــا

(١) المفردات (ضغن).

(٢) الصحاح (ضغن)، وعزاه في اللسان (سوس) لامرأة عامرية، وقبله:

لــقــد رأيــت رجــلاً دُهــريًّــا يــمــشــي وراء الــقــوم سَــيْــتَــهِــيًّــا

(٣) عجز بيت لبشر بن أبي خازم، وهو في ديوانه ص ١٧٨، وصدره: فإنِّي والشكاةَ مِنَ الِ لَأمٍ. والرفاق: أن يُشدَّ حبل من عنق البعير إلى رُسغه. ووقع في الأصل و(م): الرقاق.

مـا زادهـا الـتـثـقـيـفُ إلا ضَـغْـنـا[1]

والحقد في القلب يُشبَّه به.

وقال الليث وقطرب: الضِّغن: العداوة، قال الشاعر:

قـل لابـن هـنـدٍ مـا أردتَ بـمـنـطـقٍ ساء الـصـديـقَ وشـيَّـد الأضـغـانـا[2]

وهذا لا يُنافي الأول، لأنَّ الحقدَ العداوة لأمر يُخفيه المرء في قلبه، والإخراج مختصٌّ بالأجسام، والمرادُ به هنا الإبراز، أي: بل أَحَسِبَ الذين في قلوبهم حقدٌ وعداوةٌ للمؤمنين أنه لن يُبرِزَ الله تعالى أحقادَهم ويُظهرها للرسول ﷺ والمؤمنين فتبقى مستورةً، والمعنى: إن ذلك مما لا يكادُ يدخل تحت الاحتمال.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ إراءتك إيَّاهم ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي: لعرَّفناكهم، على أنَّ الرؤية علمية ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ تفريعٌ لمعرفته ﷺ على تعريفِ الله عز وجل، ويجوزُ أن تكونَ الرؤيةُ بصريةً على أن المعنى: أنه ﷺ يعرفهم معرفةً متفرِّعة على إراءته إياهم. والالتفاتُ إلى نون العظمة للإيماء إلى العناية بالإراءة، والسِّيما: العلامة، والمعنى هنا على الجمع لعمومها بالإضافة، لكنها أُفردت للإشارة إلى أنَّ علاماتِهم متَّحدةُ الجنس، فكأنها شيء واحدٌ، أي: فَلَعرفتهم بعلاماتٍ نَسِمُهم بها.

ولام «فلعرفتهم» كلامِ «لأريناكهم» الواقعة في جواب «لو» لأن المعطوفَ على الجوابِ جواب، وكُرِّرت في المعطوف للتأكيد، وأما التي في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ فواقعةٌ في جوابِ قَسَم محذوف، والجملةُ معطوفةٌ على الجملة الشرطية.

و«لحن القول» أسلوبٌ من أساليبه مطلقًا، أو المائلة عن الطريق المعروفة، كأن يعدلَ عن ظاهره من التصريح إلى التعريض والإبهام، ولذا سُمِّي خطأ الإعراب به لِعدوله عن الصواب. وقال الراغب: اللَّحن: صرفُ الكلام عن سَنَنه الجاري عليه؛ إما بإزالة الإعراب، أو التصحيف وهو المذمومُ، وذلك أكثرُ استعمالًا، وإما بإزالته

---

(١) الرجز في تهذيب اللغة ٨/ ١١، واللسان (ضغن).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٨٢.

عن التصريح وصَرْفه بمعناه إلى تعريض وفحوى، وهو محمودٌ من حيث البلاغة، وإليه أشار بقوله الشاعر عند أكثر الأدباء:

منطقٌ صائبٌ وتلحنُ أحيا نًا وخيرُ الحديث ما كان لحنا

وإيَّاه قصد بقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾(١).

وفي «البحر»(٢): يقال: لَحَنْتُ له ـ بفتح الحاء ـ أَلْحَنُ لحنًا، قلت له قولًا يفهمه عنك ويخفى على غيره، ولَحِنَه هو ـ بالكسر ـ فَهِمه، وأَلْحنته أنا إيَّاه، ولاحَنْتُ الناسَ: فاطَنْتُهم.

وقيل: «لحنُ القول» الذهابُ عن الصواب. وعن ابن عباس: «لحن القول» هنا هو قولهم: ما لنا إنْ أطعنا من الثواب؟ ولا يقولون: ما علينا إنْ عَصَينا من العقاب؟ وكان هذا الذي ينبغي منهم. وقال بعض من فسَّره بالأسلوب المائل عن الطريق المعروفة: إنهم كانوا يصطلحون فيما بينهم على ألفاظ يُخاطبون بها الرسول ﷺ مما ظاهرُه حسنٌ ويعنون به القبيحَ، وكانوا أيضًا يتكلَّمون بما يُشعر بالاتِّباع وهم بخلاف ذلك، كقولهم إذا دعاهم المؤمنون إلى نصرهم: إنا معكم، وبالجملة إنهم كانوا يتكلَّمون بكلام ذي دسائسَ، وكان ﷺ يعرفهم بذلك.

وعن أنس ﷺ: ما خَفِيَ بعدَ هذه الآيةِ على رسول الله ﷺ شيء من المنافقين، كان عليه الصلاة والسلام يعرفهم بسيماهم، ولقد كُنَّا في بعض الغزوات، وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناسُ، فناموا ذاتَ ليلة وأصبحوا وعلى جبهةِ كلٍّ واحد منهم مكتوبٌ: هذا منافق(٣). وفي دعواه أنه ﷺ كان يعرفهم بسيماهم إشكال، فإن «لو» ظاهرها عدمُ الوقوع، بل المناسبُ معرفتهم من لَحن

---

(١) المفردات (لحن)، والبيت لمالك بن أسماء بن خارجة الفزاري، وهو في الشعر والشعراء ٢/ ٧٨٢، والأغاني ١٧/ ٢٣٦.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٧١.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٧، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥١: ذكره الثعلبي بغير سند، ولم أجده.

القول، وكأنه حمله على أنه وعدٌ بالوقوع دالٌّ على الامتناع فيما سلف، ولقد صدق وعده، واستشهد عليه بما اتفق في بعض الغزوات.

ولا تنحصر السيما بالكتابة، بل تكون بغيرها أيضاً مما يَعرفهم به النبيُّ ﷺ كما يعرفُ القائفُ حالَ الشخص بعلاماتٍ تدلُّ عليه، وكثيراً ما يعرف الإنسان مُحِبَّه ومُبغِضَه من النظر، ويكادُ النظرُ يَنطِقُ بما في القلب، وقد شاهدنا غيرَ واحدٍ يعرف السُّنِّيَّ والشيعيَّ بسماتٍ في الوجه، وإنْ صحَّ أنَّ بعضَ الأولياء قُدِّسَتْ أسرارُهم كان يعرف البرَّ والفاجرَ والمؤمنَ والكافر، ويقول: أَشَمُّ من فلان رائحةَ الطاعة، ومن فلان رائحةَ المعصية، ومن فلانٍ رائحةَ الإيمان، ومن فلان رائحةَ الكفر، ويظهرُ الأمرُ حسبما أشار، فرسول الله ﷺ بتلك المعرفة أَولى وأَولى؛ ولعلَّها بعلامات وراء طَور عقولنا، والنور المذكور في خبر: «اتقوا فِراسةَ المؤمن فإنه ينظرُ بنورِ الله تعالى»[1] متفاوتُ الظُّهور بحسب القابليات، وللنبي ﷺ أتمُّه.

وذكروا من علامات النِّفاق بُغضَ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه؛ فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: ما كُنَّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ إلا ببغضهم عليَّ بن أبي طالب. وأخرج هو وابن عساكر عن أبي سعيد الخُدري ما يُؤيِّده[2]، وعندي أن بُغْضَه رضي الله عنه من أقوى علاماتِ النفاق، فإنْ آمنتَ بذلك فيا ليت شعري ماذا تقول في يزيد الطَّريد أكان يحبُّ عليًا كرم الله تعالى وجهه أَمْ كان يبغضه؟ ولا أظنكَ في مِرْية من أنه عليه اللعنة كان يبغضه رضي الله عنه أشدَّ البُغض، وكذا يبغضُ ولديه الحسنَ والحسين على جدِّهما وأبويهما وعليهما الصلاة والسلام كما تدلُّ على ذلك الآثارُ المتواترة معنى، وحينئذ لا مجالَ لك من القول

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب. وأخرجه الشهاب في مسنده (٦٦٣) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وفيه عطية العوفي، وهو ضعيف كما في التقريب. وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١٥١٠) و(١٥١١) و(١٥١٢) و(١٥١٣) وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وانظر بقية الكلام عليه ثمة.

(٢) الخبران في الدر المنثور ٦/ ٦٦-٦٧، والخبر الثاني عند ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ٢٨٥-٢٨٦، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٣١٢٥) من حديث جابر رضي الله عنه.

بأنَّ الخبيث[١] كان منافقاً، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة علاماتٌ للنفاق غير ما ذُكر كقوله عليه الصلاة والسلام: «علامات المنافق ثلاث» الحديث[٢]. لكن قال العلماء: هي علاماتٌ للنفاق العمليِّ لا الإيماني. وقيل: الحديثُ خارجٌ مخرجَ التنفير عن اتِّصاف المؤمن المُخلص بشيء منها لما أنها كانت إذ ذاك من علامات المنافقين.

واستَدَلَّ بقوله تعالى: (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) مَن جَعَلَ التعريضَ بالقذف موجبًا الحَدَّ. ولا يخفى حاله.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ فيجازيكم عليها بحسب قَصْدكم، وهذا ـ على ما قيل ـ وعدٌ للمؤمنين وإيذانٌ بأنَّ حالهم بخلافِ حال المنافقين. وقيل: وعيدٌ للمنافقين وإيذانٌ لهم بأنَّ المجزيَّ عليه ما يقصدونه لا ما يُعرِّضون أو يُورُّون به، واستظهر أنه خطابٌ عامٌّ فهو وعدٌ ووعيدٌ.

وحُمل على العموم قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقَّة ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ على مَشاقِّ التكاليف علمًا فعليًّا يتعلَّق به الجزاء، وفي معناه ما قيل: أي: حتى يظهر علمنا، وقال ابنُ الحاجب في ذلك: العلم يُطلق باعتبار الرؤية، والشيء لا يُرى حتى يقعَ، يعني على المشهور، وهو هنا بمعنى ذلك، أو بمعنى المجازاة، والمعنى: حتى نُجازي المجاهد منكم والصابرين ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ فيظهر حسنُها وقبيحها، والكلامُ كنايةٌ عن بلاء أعمالهم، فإنَّ الخبرَ حَسَنه وقَبيحه على حسب المُخبَر عنه، فإذا تميَّز الحسنُ عن الخبر القبيح فقد تميَّز المُخبَر عنه، وهو العمل كذلك، وهذا أبلغُ من: تبلو أعمالكم. والظاهرُ عمومُ الأخبار، وجُوِّز كون المراد بها: أخبارهم عن إيمانهم وموالاتهم للمؤمنين على أنَّ إضافتها للعهد، أي: وتبلو أخبارَ إيمانكم ومُوالاتكم فيظهر صِدْقُها وكَذِبُها.

---

(١) في (م): اللعين.

(٢) أخرجه أحمد (٩١٥٨)، والبخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

وقرأ أبو بكر الأفعال الثلاثة المُسندة إلى ضمير العظمة بالياء، وقرأ رويس: «ونبلُوْ» بالنون وسكون الواو[1]، والأعمش بسكونها وبالياء[2]، فالفعلُ مرفوعٌ بضمَّة مُقدَّرة بتقدير: ونحن نبلو، والجملة حالية، وجُوِّز أن يكونَ منصوبًا ـ كما في قراءة الجمهور ـ سُكِّن للتخفيف كما في قوله:

أبـى اللهُ أنْ أسـمـو بـأمٍّ ولا أبِ[3]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ الناسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ صاروا في شقٍّ غير شِقِّه، والمرادُ عادوه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ لِمَا شاهدوا من نَعْته عليه الصلاة والسلام في التوراة، أو بما ظهر على يديه ﷺ من المُعجزات ونزل عليه عليه الصلاة والسلام من الآيات، وهم بنو قُريظة والنَّضير، أو المُطعمون يوم بدر، وقد تقدَّم ذكرهم، وقيل: أناسٌ نافقوا بعد أن آمنوا.

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ بِكُفرهم وصَدِّهم ﴿شَيْـًٔا﴾ من الأشياء أو شيئًا من الضرر، أو لن يضرُّوا رسولَ الله ﷺ بمشاقَّته شيئًا؛ وقد حُذف المضاف لتعظيمه عليه الصلاة والسلام بجعل مَضَرَّته وما يلحقه كالمنسوب إلى الله تعالى، وفيه تفظيعُ مُشاقَّته ﷺ.

﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٣٢﴾ في مَكايدِهم التي نصبوها في إبطال دينه تعالى ومُشاقَّة رسوله عليه الصلاة والسلام، فلا يَصِلون بها إلى ما كانوا يبغُون من الغوائل ولا تُثمر لهم إلا القتل والجَلاء عن أوطانهم ونحو ذلك، وجُوِّز أن يُرادَ أعمالهم التي عَمِلوها في دينهم يرجون بها الثواب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٣﴾ قيل: إنَّ بني أسد أَسلموا وقالوا لرسول الله ﷺ: قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا، كأنهم مَنُّوا بذلك، فنزلت فيهم هذه وقولُه تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ﴾ [الحجرات: ١٧] ومن هنا قيل: المعنى: لا تُبطلوا أعمالَكم بالمَنِّ بالإسلام، وعن ابن عباس: بالرِّياء

(١) التيسير ص٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٧٥، والبحر ٨/ ٨٥.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٥.
(٣) عجز بيت لعامر بن الطفيل، وهو في ديوانه ص٧٠، وصدره: فما سوَّدتني عامر عن وراثةٍ.

والسُّمعة، وعنه أيضًا: بالشكِّ والنِّفاق، وقيل: بالعُجْب فإنه يأكل الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطب.

وقيل: المراد بالأعمال الصدقات، أي: تُبطلوها بالمَنِّ والأذى.

وقيل: لا تُبطلوا طاعاتِكم بمعاصيكم، أخرج عبد بن حُميد وابن جرير عن قتادة أنه قال في الآية: مَن استطاع منكم أن لا يُبطل عملًا صالحًا بعمل سوء فَلْيفعَلْ، ولا قوة إلا بالله تعالى(١).

وأخرج عبد بن حُميد ومحمد بن نَصْر المَرْوَزي في كتاب «الصلاة» وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: كان أصحابُ رسول الله ﷺ يرونَ أنه لا يضرُّ مع لا إله إلا الله ذنبٌ، كما لا ينفعُ مع الشِّرك عملٌ حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فخافوا أن يُبطلَ الذنبُ العمل. ولفظ عبد بن حُميد: فخافوا الكبائر أن تُحبِطَ أعمالهم.

وأخرج ابن نصر وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنَّا معاشرَ أصحاب محمد ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولًا حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا: ما هذا الذي يُبطل أعمالَنا؟ فقلنا: الكبائر المُوجبات والفواحش، فكنا إذا رَأَينا مَنْ أصاب شيئًا منها قلنا: قد هلك، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فلما نزلَتْ كَفَفْنا عن القول في ذلك، وكنَّا إذا رأينا أحدًا أصاب منها شيئًا خفنا عليه، وإنْ لم يُصب منها شيئًا رجونا له(٢).

واستدلَّ المعتزلةُ بالآية على أنَّ الكبائرَ تُحبط الطاعات، بل الكبيرة الواحدة تُبطل مع الإصرار الأعمال ولو كانت بعدد نجوم السماء، وذكروا في ذلك من الأخبار ما ذكروا.

وفي «الكشف»: لا بدَّ في هذا المقام من تحرير البحث بأن يقال: إنْ أراد

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٦٧، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٢٦.

(٢) الخبران في الدر المنثور ٦/ ٦٧، والثاني عند الطبري ٢٠/ ٢٢٩.

المعتزلة أن نحو الزنى إذا عقب الصلاة يُبطل ثوابَها مثلًا فهذا لا دليلَ عليه نقلًا وعقلًا، بل هما متعادلان على ما دلَّ عليه صحاحُ الأحاديث، وكفى بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] حُجَّةً بالغة، وإنْ أرادوا أن عقابه قد يَكْبر حتى لا يُعادِلَه صغارُ الحَسنات، فهذا صحيحٌ، والكلامُ حينئذ في تسميته إحباطًا، ولا بأس به، لكن عندنا أنَّ هذا الإحباطَ غيرُ لازم، وعندهم لازم، وهو مبنيٌّ على جواز العفو، وهي مسألةٌ أُخرى، وأما الكبيرةُ التي تختصُّ بذلك العمل كالعُجب ونحو المَنِّ والأذى بعد التصدُّق فهي مُحبطة لا محالةَ اتِّفاقًا، وعليه يُحمل ما نُقل من الآثار، ومَنْ لا يُسميه إحباطًا لأنه يجعله شرطًا للقَبول، والإحباطُ أن يصيرَ الثوابُ زائلًا، وهذا لا يتأتّى إذا لم يثبت له ثوابٌ، فله ذلك، وهو أمرٌ يرجعُ إلى الاصطلاح. انتهى، وهو من الحُسن بمكان.

وإعادة الفعل في «وأطيعوا الرسول» للاهتمام بشأن إطاعته عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ امتنعوا عن الدُّخول في الإسلام وسلوك طريقه، أوصدُّوا الناس عنه ﴿ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۞﴾ نزلَتْ في أهل القَليب كما قيل، وحُكمها عامٌّ كما قال غيرُ واحد في كلِّ من مات على كفره، وهو ظاهرٌ على التفسير الأول لـ «صدُّوا عن سبيل الله»، وأما على التفسير الثاني له فقيل عليه: إنَّ العمومَ مع تخصيص الكفر بصدِّ الناس عن الإسلام محلُّ نظر، ويُفهم من كلام بعض الأجِلَّة أن العمومَ لأنَّ مدارَ عدم المغفرة هو الاستمرار على الكفر حسبما يُشعر اعتباره قيدًا في الكلام، فتدبَّر.

واستدل بمفهوم الآية بعضُ القائلين بالمفهوم على أنه تعالى قد يغفر لمن لم يَمُتْ على كُفره سائرَ ذنوبه.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي: إذا علمتم أنَّ الله تعالى مُبطلٌ أعمالهم ومُعاقبهم فهو خاذِلهم في الدنيا والآخرة، فلا تُبالوا بهم ولا تُظهروا ضعفًا، فالفاء فصيحةٌ في جواب شرطٍ مفهوم مما قَبله، وقيل: هي لترتيب النهي على ما سبق من الأمر بالطاعة.

﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ عطفٌ على «تهنوا» داخلٌ في حيِّز النهي، أي: ولا تدعوا الكُفَّار إلى الصُّلح خَوَرًا وإظهارًا للعجز، فإن ذلك إعطاءُ الدَّنية. وجُوِّز أن يكونَ منصوبًا بإضمار «أنْ» فيعطف المصدر المَسبوك على مصدر مُتصيَّد مما قبلَه، كقوله:

لا تَـنْـهَ عـن خُـلـقٍ وتـأتـيَ مـثـلَـه[1]

واستدلَّ الكيا بهذا النهي على منع مُهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وعلى تحريم تركِ الجهاد إلا عند العَجْز[2].

وقرأ السلمي: «وتدَّعوا» بتشديد الدال[3] مِن ادَّعى بمعنى دعا. وفي «الكشاف»[4] ذَكَر «لا» في هذه القراءة، ولعلَّ ذلك روايةٌ أُخرى.

وقرأ الحسن وأبو رجاء والأعمش وعيسى وطلحة وحمزة وأبو بكر: «السِّلم» بكسر السين[5].

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: الأغلبون، والعُلُوُّ بمعنى الغَلبة مجازٌ مشهور، والجملة حاليةٌ مقرِّرة لمعنى النهي مُؤكِّدة لوجوب الانتهاء، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: ناصرُكم، فإن كونهم الأغلبين وكونه عز وجل ناصرهم من أقوى مُوجبات الاجتناب عمَّا يُوهم الذُّلَّ والضَّراعة.

وقال أبو حيان[6]: يجوز أن يكونا جُملتين مستأنفتين أُخبروا أولًا أنهم الأعلون، وهو إخبارٌ بمغيَّب أبرزه الوجود، ثم ارتقى إلى رُتبةٍ أعلى من التي قبلها، وهي كون الله تعالى معهم.

---

(١) وعجزه: عارٌ عليك إذا فعلت عظيم. وهو في الخزانة ٨/ ٥٦٤. واختلف في قائله، فنُسب للمتوكِّل الكناني وللمتوكل الليثي، والمشهور أنه لأبي الأسود الدؤلي، ولعل المتوكِّل أخذه من شعر أبي الأسود. قاله البغدادي.

(٢) أحكام القرآن ٤/ ٣٧٥.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤١، والمحتسب ٢/ ٢٧٣، والبحر المحيط ٨/ ٨٥.

(٤) ٣/ ٥٣٩.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٨٥، وقراءة حمزة وأبي بكر في النشر ٢/ ٢٢٧، والتيسير ص٢٠١.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٨٥.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٥﴾ قال: ولن يظلمكم، وقيل: ولن ينقصكم، وقيل: ولن يُضيِّعها، وهو كما قال أبو عُبيد والمبرِّد: من وَتَرت الرجلَ إذا قتلتَ له قتيلاً من ولدٍ أو أخٍ أو حميم، أو سلبته ماله وذهبتَ به. قال الزمخشري[1]: وحقيقته: أَفردته من قريبه أو ماله، من الوِتْر، وهو الفرد، فَشبَّه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر، وهو من فصيح الكلام، وفيه هنا من الدَّلالة على مَزيد لُطفِ الله تعالى ما فيه، ومنه قوله ﷺ: «مَنْ فاتَتْه صلاةُ العصرِ فكأنما وُتِرَ أهلَه ومالَه»[2]. والظاهر على ما ذكره أنه لا بدَّ من تضمين وَتَرته معنى السَّلب ونحوه ليتعدَّى إلى المفعول الثاني بنفسه، وفي «الصحاح»[3] أنه من التِّرة، وحمله على نزع الخافض، أي: جعلته مَوْتُورًا لم يُدرك ثأره في ذلك، كأنه نقصه فيه، وجعله نظيرَ: دخلتُ البيت، أي: فيه. وهو سديدٌ أيضًا.

وجوَّز بعضهم «يتر» هاهنا متعدِّياً لواحد، و«أعمالكم» بدل من ضمير الخطاب، أي: لن يَتِرَ أعمالَكم من ثوابها.

والجملة قيل: معطوفةٌ على قوله تعالى: «معكم»، وهي وإن لم تَقَعْ حالًا استقلالاً لتصديرها بحرف الاستقبال المُنافي للحال على ما صرَّح به العلامة التفتازاني وغيره لكنه يُغتفر في التابع ما لا يُغتفر في غيره. وقيل: المانعُ من وقوع المُصدَّرة بحرف الاستقبال حالاً مخالفتُه للسَّماع، وإلا فلا مانعَ من كونها حالاً مُقدَّرة، مع أنه يجوز أن تكون «لن» لمجرد تأكيدِ النفي. والظاهرُ أن المانعين بَنَوا المنعَ على المُنافاة، وأنها إذا زالت باعتبار أحدِ الأمرين فلا منع، لكن قيل: إنَّ الحال المقصود منها بيانُ الهيئة غير الحال الذي هو أحدُ الأزمنة، والمنافاة إنما هي بين هذا الحال والاستقبال. وهذا نظيرُ ما قال مُجوِّزو مَجيء الجملة الماضية حالاً بدون «قد»، وما لذلك وما عليه في كتب النحو، وإذا جعلت الجملة قبلُ مستأنفة لم يكن إشكالٌ في العطف أصلاً.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٩.

(٢) أخرجه أحمد (٦٣٢٤)، والبخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦) (٢٠١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) مادة: (وتر).

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌۚ﴾ لا ثَبات لها ولا اعتدادَ بها ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي: ثوابَ إيمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦﴾ عطفٌ على الجزاء، والإضافة للاستغراق، والمعنى: إن تُؤمنوا لا يسألكم جميعَ أموالكم كما يأخذ من الكافر جميعَ ماله، وفيه مقابلة حسنةٌ لقوله تعالى: «يؤتكم أجوركم» كأنه قيل: يُعطِكم كلَّ الأجور ويسألكم بعضَ المال، وهو ما شرعه سبحانه من الزكاة، وقول سفيان بن عيينة: أي: لا يسألكم كثيرًا من أموالِكم إنما يسألُكم ربعَ العُشر فَطيِّبوا أنفسكم، بيانٌ لحاصل المعنى.

وقيل: أي: لا يسألكم ما هو مالكم حقيقة وإنما يسألُكم ماله عز وجل، وهو المالكُ لها حقيقةً وهو جل شأنه المُنعم عليكم بالانتفاع بها. وقيل: أي: لا يسألُكم أموالَكم لحاجته سبحانه إليها، بل ليرجع إنفاقُكم إليكم. وقيل: لا يسألكم الرسولُ ﷺ شيئاً من أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦] ووجهُ التعليق عليها غيرُ ظاهر، وفي بعضها أيضاً ما لا يخفى.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ أي: أموالكم ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ فيُجهدكم بطلب الكُلِّ، فإنَّ الإحفاءَ والإلحاف المبالغةُ وبلوغُ الغايةِ في كلِّ شيء، يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح، وأحفى شاربَه استأْصله وأَخذَه أخذًا مُتناهياً. وأصلُ ذلك على ما قال الراغب(١): مِنْ أَحفيتُ الدابَّة جعلته حافياً، أي: مُنْسحِجَ الحافر، والبَعير جعلته مُنْسحِج الفِرْسن من المشي حتى يَرِقَّ.

﴿تَبْخَلُوا۟﴾ جواب الشرط، والمرادُ بالبخل هنا تركُ الإعطاء، إذ هو على المعنى المشهور أمرٌ طبيعيٌ لا يترتَّب على السؤال.

﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ۝٣٧﴾ أي: أحقادَكم لمزيد حُبِّكم للمال، وضمير «يخرج» لله

(١) المفردات (حفي).

تعالى، ويَعضُده قراءة يعقوب ورُويت أيضاً عن ابن عباس: «ونُخْرِجْ» بالنون مضمومة[١]. وجُوِّز أن يكون للسؤال أو للبخل، فإنه سببُ إخراج الأضغان، والإسناد على ذلك مجازيٌّ. وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «ويُخْرِجُ» بالرفع على الاستئناف[٢]، وجُوِّز جعل الجملة حالاً بتقدير: وهو يخرجُ، وحكاها أبو حاتم عن عيسى، وفي «اللوامح»: عن عبد الوارث عن أبي عمرو: «ويَخْرُجُ» بالياء التحتية وفتحها وضمِّ الراء والجيم «أضغانُكم» بالرفع على الفاعلية[٣]. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن سيرين وابن مُحيصن وأيوب بن المُتوكِّل واليماني: «وتَخْرُجِ» بتاء التأنيث ورفع «أضغانُكم»[٤]. وقرئ: «ويُخرَجَ» بضمِّ الياء التحتية وفتح الراء «أضغانُكم» رفعاً على النيابة عن الفاعل، وهي مَرويةٌ عن عيسى إلا أنه فَتح الجيم بإضمار «أن»[٥]، فالواو عاطفةٌ على مصدر مُتصيَّد، أي: يكن بُخْلكم وإخراجُ أضغانكم.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أنتم أيها المخاطبون هؤلاء الموصوفون بما تضمَّنه قولُه تعالى: «إن يسألكموها» إلخ، والجملةُ مبتدأ وخبر، وكُرِّرت «ها» التنبيهية للتأكيد، وقوله سبحانه: ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلخ، استئنافٌ مُقرِّرٌ ومُؤكِّد لذلك لاتِّحاد محصل معناهما، فإنَّ دعوتهم للإنفاق هو سُؤل الأموال منهم، وبُخل ناسٍ منهم هو معنى عدم الإعطاء المذكور مجملًا أولًا أو صلة لـ «هؤلاء» على أنه بمعنى «الذين»، فإنَّ اسمَ الإشارة يكون موصولًا مطلقًا عند الكوفيين، وأما البصريون فلم يثبتوا اسمَ الإشارة موصولًا إلا إذا تقدَّمه «ما» الاستفهامية باتفاق، أو «مَن» الاستفهامية باختلاف، والإنفاق في سبيل الله تعالى هو الإنفاقُ المرضي له تعالى شأنه مطلقًا فيشمل النفقة للعِيال والأقارب والغزو

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤١، وهي غير المشهورة عن يعقوب.

(٢) القراءات الشاذة ص١٤١، والمحتسب ٢/ ٢٧٣، والبحر المحيط ٨/ ٨٦.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٦، لكن بالتاء لا بالياء، وقال الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٣٩: ويَخْرج» بالياء والتاء مع فتحهما ورفع «أضغانكم».

(٤) القراءات الشاذة ص ١٤١، والبحر المحيط ٨/ ٨٦.

(٥) رواية عيسى في البحر المحيط ٨/ ٨٦.

وإطعام الضيوف والزكاة وغير ذلك، وليس مخصوصًا بالإنفاق للغزو أو بالزكاة كما قيل.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي: ناس يَبْخلون ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فلا يتعدَّى ضررُ بُخله إلى غيرها، يقال: بَخِلْت عليه وبَخِلْتُ عنه؛ لأنَّ البخل فيه معنى المنع، ومعنى التضييقِ على مَنْ مُنع عنه المعروف والإضرار، فناسبَ أن يُعدَّى بـ «عن» للأول، وبـ «على» للثاني، وظاهرٌ أنَّ مَنْ منع المعروف عن نفسه فإضرارُه عليها، فلا فرقَ بين اللفظين في الحاصل.

وقال الطيبي: يمكن أن يقال: «يبخل عن نَفْسه» على معنى يصدرُ البخلُ عن نفسه؛ لأنها مكان البخل ومَنْبعه كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ [الحشر: ٩]. وهو كما ترى.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾ لا غيره عز وجل ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ الكاملون في الفقر، فما يأمركُم به سبحانه فهو لاحتياجِكم إلى ما فيه من المنافع التي لا تقتضي الحِكمة أيضًا لها بدون ذلك، فإن امتثلتُم فلكم، وإنْ تولَّيتم فعليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ عطفٌ على قوله سبحانه: «إن تؤمنوا» أي: وإن تُعرضوا عن الإيمان والتقوى ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلقْ مكانكم قومًا آخرين، وهو كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]، ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ في التولِّي عن الإيمان والتقوى، بل يكونون راغبين فيهما.

و«ثم» للتراخي حقيقةً أو لبعدِ المَرْتبة عمَّا قبلُ. والمرادُ بهؤلاء القوم أهلُ فارس، فقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حُميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «الدلائل» والترمذي ـ وهو حديث صحيح على شرط مسلم ـ عن أبي هريرة قال: تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآيةَ: «وإنْ تتولَّوا» إلخ، فقالوا: يا رسولَ الله، مَنْ هؤلاء الذين إنْ تولَّينا استُبدِلوا بنا ثم لا يكونون أمثالَنا؟ فضرب رسولُ الله ﷺ على مَنْكِب سلمان ثم قال: «هذا

وقومُه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطًا بالثُّريا لتناولَه رجالٌ من فارس»[1]. وجاء في رواية ابن مردويه عن جابر: «الدينُ» بدل: «الإيمان»[2]. وقيل: هم الأنصار. وقيل: أهلُ اليمن. وقيل: كِندة والنخع. وقيل: العجم. وقيل: الروم. وقيل: الملائكة، وحملُ القوم عليهم بعيدٌ في الاستعمال، وحيث صحَّ الحديث فهو مذهبي.

والخطاب لقريش أَوْ لأهل المدينة، قولان، والظاهرُ أنه للمخاطَبين قبلُ والشرطية غير واقعة، فعن الكلبي: شَرَط في الاستبدال تولِّيهم لكنهم لم يتولَّوا، فلم يستبدل سبحانه قومًا غيرهم. والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومما قاله بعضُ أرباب الإشارة في بعض الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ نُصرة الله تعالى من العبد على وجهين صورةً ومعنًى، أما نُصرته تعالى في الصورة فنصرة دِينه جلَّ شأنه بإيضاح الدليل وتبيينه وشرح فرائضه وسُننه وإظهارِ معانيه وأسرارِه وحقائقه، ثم بالجهاد عليه وإعلاء كلمته وقمع أعدائه؛ وأما نُصْرته في المعنى فبإفناءِ الناسوت في اللاهوت[3].

ونصرة الله سبحانه للعبد على وجهين أيضًا صورةً ومعنى، أما نُصرته تعالى للعبد في الصورة فبإرسال الرُّسل وإنزال الكتب وإظهار المُعجزات والآيات وتبيين السُّبل إلى النعيم والجحيم، ثم بالأمر بالجهاد الأصغر والأكبر وتوفيق السعي فيهما طلبًا لِرضاه عز وجل، وأما نُصرته تعالى له في المعنى فبإفناء وجوده في وجوده سبحانه بتجلِّي صفاتِ جماله وجلاله.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٦٧، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٣٣، والأوسط (٨٨٣٨)، والترمذي (٣٢٦١). والخبر مذكور عند البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١) في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ من سورة الجمعة.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٦٧.

(٣) الناسوت واللاهوت من مصطلحات الصوفية التي استخدمها ابن عربي حيث يعني بالناسوت الجسم البشري، وباللاهوت الروح. المعجم الصوفي ص٢٣٣.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ يُشير إلى جنة قلوبِ أرباب الحقائق الذين اتَّقوا عمَّا سواه جلَّ وعلا ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ هو ماءُ الحياة الروحانية لم يتغير بطول المُكْث ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ﴾ وهو العلم الحقَّاني الذي هو غذاءُ الأرواح، أو لبن الفطرة التي فُطِرَ الناس عليها ﴿لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ بحموضة الشُّكوك والأوهام، أو الأهواء والبدع ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ وهي خمر الشوق والمحبة:

يقولون لي صِفْها فأنت بوصفها خبيرٌ أجَلْ عندي بأوصافها عِلْمُ
صفاءٌ ولا ماءٌ ولطفٌ ولا هوى ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جسمُ

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ﴾ وهو عسلُ الوِصال ﴿مُصَفًّى﴾ عن كَدَرِ الملال وخوف الزَّوال ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ اللذائذ الروحانية ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ستر لذنب وجودِهم كما قيل:

وجودك ذنب لا يُقاس به ذنب

﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ نار الجفاء ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ وهو ماءُ الخِذلان ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ من الحِرْمان.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ وهي ظُلمةٌ في وجوههم تُدرَك بالنظر الإلهي. قيل: المؤمن ينظر بنور الفِراسة، والعارفُ بنور التحقيق، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام ينظر بالله عز وجل. وقيل: كلُّ من رُزِق قرب النوافل ينظر به تعالى؛ لحديث: «لا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبَصَره الذي يُبصِرُ به» الحديث[1]. وحينئذ يُبصر كلَّ شيء، ومن هنا بعضُ الأولياء الكاملين يرى ـ على ما حُكي عنه ـ أعمال العبادِ حين يُعرَج بها، وسبحان السميع البصير اللطيف الخبير.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(سورة محمد ﷺ، وقيل سورة القتال وسورة الذين كفروا)

(مدنيّة وقيل مكيّة وهي ثمان وثلاثون آية أو تسع وثلاثون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **(أي أعرضوا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام أو صدّوا غيرهم عنه)**. قال الجوهري: صدّ عنه يصدّ صدودًا أعرض،

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: (سورة محمد ﷺ، وقيل: سورة القتال وسورة الذين كفروا مدنية وقيل: مكية وهي ثمان وثلاثون آية أو تسع وثلاثون آية) وخمسمائة وتسع وثلاثون كلمة وألفان وثلاثمائة وتسعة وأربعون حرفًا.

قوله: (أي أعرضوا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام أو صدّوا غيرهم عنه. . .) الخ يعني أن صدّ يجيء لازمًا ومتعديًا وما في الآية يمكن حمله عليهما فإن حمل على المتعدي يكون عطفه على قوله: ﴿كَفَرُوا۟﴾ من قبيل عطف الخاص على العام للدلالة على أن منع الغير عن الدخول في الإسلام أشدّ توغّلًا في الكفر والضلال بحيث يكون مظنة لأن يتوهم أنه أمر مغاير للكفر لا يدل عليه الذين

وصدّه عن الأمر صدًا منعه وصرفه عنه. **(وهم المطعمون يوم بدر)** أو أهل الكتاب أو عام في كل مَن كفر وصدّ ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أبطلها وأحبطها، وحقيقته جعلها ضالّة ضائعة ليس لها مَن يتقبلها ويثيب عليها كالضالّة من الإبل، وأعمالهم ما عملوه في كفرهم من صلة الأرحام وإطعام الطعام وعمارة المسجد الحرام، أو ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ والصدّ عن سبيل الله.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هم ناس من قريش أو من الأنصار أو من أهل الكتاب أو عام ﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ وهو القرآن، وتخصيص الإيمان بالمنزل على رسوله من بين ما يجب الإيمان به لتعظيم شأنه، وأكّد ذلك بالجملة الاعتراضية وهي قوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي القرآن. وقيل: إن دين محمد هو الحق **(إذ لا يرد عليه النسخ)** وهو ناسخ لغيره ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ستر بإيمانهم

كفروا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: الآية ٩٨] ﴿وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: الآية ٩٨] وإن حمل على اللازم يكون عطفه للبيان والتفسير لأن الامتناع من الدخول في الإسلام هو الكفر لا غير.

قوله: **(وهم المطعمون يوم بدر)** قيل: هم ستة نفر من أغنياء قريش أطعم كل واحد منهمْ الجنود الذين اجتمعوا لحرب رسول الله ﷺ يومًا واحدًا إلى انقضاء حادثة بدر وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وبنيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو جهل والحارث ابنا هشام وقال مقاتل: كانوا اثني عشر هؤلاء الستة والباقون عامر بن نوفل وحكيم بن حزام وزمعة بن الأسود وأبو سفيان بن حرب وصفون ابن أمية والعباس بن عبد المطلب أطعم كل واحد منهم الأحابيش(١) يومًا.

قوله: **(إذ لا يرد عليه النسخ)** فالحق على هذا مقابل الزايل وعلى الأول مقابل الباطل.

---

(١) في الصحاح الحباشة بالضم الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة وكذلك الأحبوش والأحابيش.

وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور الدين وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ وما بعده خبره أي ذلك الأمر وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيئات الثاني والإصلاح كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهو الشيطان وهؤلاء الحق وهو القرآن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي يبين الله ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ والضمير راجع إلى الناس أو إلى المذكورين من الفريقين على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم، **(وقد جعل اتباع الباطل مثلًا لعمل الكافرين)**، واتباع **(الحق مثلًا لعمل المؤمنين، أو جعل الإضلال مثلًا لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلًا لفوز الأبرار)**.

قوله: (وقد جعل اتباع الباطل مثلًا لعمل الكافرين) أي شبيهًا شبّه به حال الكافر وعمله وكذا جعل اتباع **(الحق مثلًا لعمل المؤمنين)** أي شبيهًا شبه به حال المؤمن وعمله.

قوله: (أو جعل الإضلال مثلًا لخيبة الكفار) أي أو شبه خيبتهم وحرمانهم من ثواب مكارمهم بإضلالهم إياها وكونها كالبعير الضال الذي لا يهتدي إليه صاحبه إذ ليس ثمة إضلال الثواب حقيقة وإنما المتحقق هو الحرمان منه.

قوله: (وتكفير السيئات مثلًا لفوز الأبرار) أي وشبه فوزهم بسعادة الآخرة بتكفير السيّئات إذ ليس ثمة إلا فوز المؤمن بفضله تعالى ورحمته وعبر عنه بتكفير السيئات وإصلاح البال فظهر أنه تعالى بين من أول السورة إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ ما يشبه به أعمال الفريقين وعاقبة أمرهما من خيبة أحدهما وفوز الآخر ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي يبيّن ما يشبه به أعمالهم وعواقبهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضربًا فحذف الفعل (**وقدّم المصدر**) فأُنيب منابه مضافًا إلى المفعول، وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد لأنك تذكر المصدر وتدلّ على الفعل بالنصبة التي فيه «وضرب الرقاب» عبارة عن القتل لا أن الواجب أن تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضاء، ولأن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته فوقع عبارة عن القتل وإن ضرب غير رقبته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أكثرتم فيهم القتل ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ فأسروهم والوثاق بالفتح والكسر اسم ما يوثق به، والمعنى فشدّوا وثاق الأسارى حتى (**لا يفلتوا**) منكم ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعْدُ﴾ أي بعد أن تأسروهم ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ ﴿مَنًّا﴾ و﴿فِدَآءً﴾ منصوبان بفعليهما مضمرين أي فإما تمنون منًّا أو تفدون فداء، والمعنى التخيير بن الأمرين عندنا القتل أو أن يمنّوا عليهم فيطلقوهم وبين أن يفادوهم، وحكم أسارى المشركين عندنا القتل أو الاسترقاق، والمنّ والفداء المذكوران في الآية منسوخ بقوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: الآية ٥] لأن سورة «براءة» من آخر ما نزل. (**وعن مجاهد: ليس اليوم منّ ولا فداء إنما هو الإسلام أو ضرب العنق**). أو المراد بالمنّ أن يمنّ عليهم بترك القتل ويسترقوا، أو يمنّ عليهم فيخلوا لقبولهم

قوله: (**وقدّم المصدر**) حيث جعل متصلًا بالفاء التي كانت في فاضربوا.
قوله: (**لا يفلتوا**) في المصباح أفلت الطائر وغيره إفلاتًا تخلص وأفلتّه إذا أطلقه خلّصته يستعمل لازمًا ومتعديًا وفلت فلتًا من باب ضرب لغة وفلتُّه أنا يستعمل أيضًا لازمًا ومتعديًا. اهـ. **قوله:** (**وعن مجاهد**[1]) بن جبر بفتح الجيم وسكون الموحدة أبي الحجاج المخزومي مولاهم المكي ثقة إمام في التفسير وفي العلم من الثالثة مات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع ومائة وله ثلاث وثمانون. اهـ تقريب (**ليس اليوم منّ ولا فداء إنما هو الإسلام أو ضرب العنق**) وهذا في مشركي العرب خاصة لأنهم لا يسترقون ولا تقبل منهم الجزية وأما في غيرهم إن شاء جعلهم

---

(١) أحد أعلام التابعين.

الجزية وبالفداء أن يفادى بأسراهم أسارى المسلمين فقد رواه **(الطحاوي)** مذهبًا **(عن أبي حنيفة النعمان)** رحمه الله وهو قولهما، والمشهور أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره لئلا يعودوا حربًا علينا، **(وعند الشافعي)** رحمه الله تعالىٰ: للإمام أن يختار أحد الأمور الأربعة: القتل والاسترقاق والفداء بأسارى المسلمين والمنّ. ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ **(أثقالها وآلاتها)** التي لا تقوم إلا بها **(كالسلاح والكراع)**. وقيل: أوزارها آثامها يعني حتى يترك أهل الحرب وهم المشركون شركهم بأن يسلموا وحتى لا يخلو من أن يتعلق بالضرب والشدّ أو بالمنّ والفداء، فالمعنى على كلا المتعلقين ـ عند الشافعي رحمه الله ـ أنهم لا يزالون على ذلك أبدًا إلى أن لا يكون حرب مع المشركين، وذلك إذا لم يبق لهم شوكة. وقيل: إذا نزل عيسى عليه السلام. وعند أبي حنيفة رحمه الله: إذا علق بالضرب والشدّ فالمعنى أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار، وذلك حين لا تبقى شوكة للمشركين. وإذا علق بالمنّ والفداء فالمعنى أنه يمنّ عليهم ويفادون **(حتى تضع حرب بدر)**

الإمام ذمّة وإن شاء استرقهم وإن شاء قتلهم. **قوله: (الطحاوي)** بفتح الطاء والحاء المهملتين وبعد الألف واو، نسبة إلى طحا قرية بصعيد مصر هو الفقيه الإمام الحافظ أبو جعفر أحمد بن محمد بن سَلامة الطحاوي المصري صاحب كتاب شرح الآثار كان إمامًا فقيهًا من الحنفيين وُلد سنة تسع وعشرين ومائتين ومات سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة صحب خاله المزني وتفقّه به ثم ترك مذهبه وصار حنفي المذهب وكان ثقة ثبتًا كذا قاله السمعاني. **قوله: (عن أبي حنيفة النعمان)** بن ثابت الكوفي رضي الله تعالى عنه وُلد سنة ثمانين ومات سنة خمسين ومائة. **قوله: (وعند الشافعي)** هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن شافع بن السائب المكيّ نزيل مصر مات سنة أربع ومائتين وله أربع وخمسون سنة رضي الله تعالى عنه. **قوله: (أثقالها وآلاتها)** فإن الأوزار جمع وزر وهو الحمل والثقل فيتناول آلات الحرب كلها قال الأعشى:

وأعددت للحرب أوزارها رماحًا طوالًا وخيلًا ذكورا

ومن فسّر الأوزار بالآثام شبّه الإثم بالحِمْل فسماه وزرًا على طريق الاستعارة. **قوله: (كالسلاح)** أي الأسلحة. **قوله: (والكُراع)** اسم للخيل. **قوله: (حتى تضع حرب بدر)** فعلى هذا يكون شرعية المن والفداء في حرب بدر فقط.

أوزارها **(إلا أن يتأوّل المنّ والفداء بما ذكرنا من التأويل)** ﴿ذَٰلِكَ﴾ **(أي الأمر ذلك)** فهو مبتدأ وخبر أو افعلوا بهم ذلك فهو في محل النصب ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لانتقم منهم بغير قتال ببعض أسباب الهلاك كالخسف **(أو الرجفة)** أو غير ذلك ﴿وَلَٰكِن﴾ أمركم بالقتال ﴿لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي المؤمنين بالكافرين **(تمحيصًا)** للمؤمنين **(وتمحيقًا)** للكافرين (﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾) بصري **(وحفص. ﴿قاتلوا﴾)** غيرهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾إلى طريق الجنة أو إلى الصواب **(في جواب منكر ونكير)** ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ يرضي خصماءهم ويقبل أعمالهم ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ عن مجاهد: عرفهم مساكنهم فيها حتى لا يحتاجون أن يسألوا **(أو طيبًا لهم من العرف وهو طيب الرائحة)**.

قوله: (إلّا أن يتأول المنّ والفداء بما ذكرنا من التأويل) في قوله: أو المراد بالمنّ أن يمنّ عليهم بترك القتل... الخ فحينئذٍ يكون المعنى ما سبق لا التقييد بحرب بدر. **قوله: (أي الأمر ذلك)** وهو وجوب ضرب رقاب الذين كفروا على الوجه المذكور لينقطع دابر الكافرين ويكون الدين كله لله. **قوله: (أو الرجفة)** الزلزلة الشديدة من الأرض والصيحة من السماء. **قوله: (تمحيصًا)** أي تطهيرًا. **قوله: (وتمحيقًا)** أي إهلاكًا. **قوله:** (﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾) بضم القاف وكسر التاء بلا ألف مبنيًا للمفعول بصري أي أبو عمرو وسهل ويعقوب وليسا من السبعة **(وحفص. ﴿قاتلوا﴾)** بفتح القاف وتخفيف التاء وألف بينهما من المفاعلة غيرهم.

قوله: (في جواب منكر) مفعول من أنكر بمعنى نكر إذا لم يعرف أحد **(ونكير)** فعيل بمعنى مفعول من نكر بالكسر إذا لم يعرفه أحد فهما كلاهما ضد المعروف سميا بهما لأن الميت لم يعرفهما ولم يرَ صورة مثل صورتهما. **قوله: (أو طيبًا لهم من العرف)** في لسان العرب التعريف التطييب من العَرْف وقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ أي طيّبها. اهـ. وأيضًا فيه العَرْف الريح طَيّبة كانت أو خبيثة يقال: طيبَ عَرْفه. اهـ. وأيضًا فيه قال ابن سِيده العَرف الرائحة الطيّبة والمنْتِنة. اهـ. **قوله: (من العرف)** بفتح العين **(وهو طيب الرائحة)** وفي الحديث أن ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ (**أي دين الله ورسوله** ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ **على عدوكم**) ويفتح لكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب أو على محجة الإسلام ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في موضع رفع بالابتداء (**والخبر** ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾) وعطف قوله ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ على الفعل الذي نصف ﴿تعسًا﴾ لأن المعنى فقال تعسًا لهم والتعس (**العثور**). وعن ابن عباس ﵄: يريد في الدنيا القتل وفي الآخرة (**التردي**) في النار. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي التعس والضلال ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي القرآن ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾ ۞ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني كفار أُمتك ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أهلكهم هلاك استئصال ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ﴾ مشركي قريش ﴿أَمْثَـٰلُهَا﴾ أمثال تلك الهلكة لأن التدمير يدلّ عليها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي نصر المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وليهم وناصرهم ﴿وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي لا ناصر لهم فإن الله مولى العباد جميعًا من جهة (**الاختراع**) وملك التصرّف فيهم، ومولى المؤمنين خاصة من جهة النصرة.

قوله: (**أي دين الله ورسوله**) إشارة إلى أن إيقاع النصرة على الله تعالى مجاز عقلي وليس إشارة إلى تقدير المضاف إذ تقدير المضافين غير متعارف إلّا أن يقال إن حاصل المضافين متحد نصرة دينه العمل بمقتضاه ونصرة رسوله ظاهر فالمراد بالنصرة عموم المجاز المنتظم لنصرة الدين وهي مجازية ونصرة رسوله وهي حقيقية ولو اكتفى بنصرة رسوله لكان أقل مؤنة وفيه تشريف الرسول حيث جعل نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام كنصرته تعالى.

قوله: (﴿يَنصُرْكُمْ﴾ **على عدوكم**) أي يغلبكم على عدوكم ولذا عدى النصرة بعلى. **قوله**: (**والخبر** ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾) دخلت الفاء على الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط. **قوله**: (**العثور**) بمعنى السقوط على الوجه. **قوله**: (**التردّي**) السقوط. **قوله**: (**الاختراع**) الإنشاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا (**أيامًا قلائل**) ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ غافلين غير متفكرين في العاقبة ﴿كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ في معالفها ومسارحها غافلة عما هي (**بصدده**) من (**النحر والذبح**) ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (**منزل ومقام**).

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي وكم من قرية للتكثير (**وأراد بالقرية أهلها**) ولذلك قال: ﴿أهلكناهم﴾ ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ أي وكم من قرية أشد قوة من قومك الذين أخرجوك (**أي كانوا سبب خروجك**) ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي فلم يكن لهم مَن ينصرهم ويدفع العذاب عنهم ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي على حجة من عنده وبرهان وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات يعني رسول الله ﷺ ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ هم أهل مكة الذين زيّن لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله. وقال سوء عمله ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ للحمل على لفظ من ومعناه.

قوله: (**أيامًا قلائل**) مستفاد من لفظ يتمتعون وقوله: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمّد: الآية ١٢] ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرّعد: الآية ٢٦] ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: الآية ٣٩]. **قوله**: (**بصدده**) في المصباح الصدد بفتحتين القرب. اهـ. **قوله**: (**النحر والذبح**) النحر قطع العروق في أسفل العنق عند الصدر والذبح قطعها في أعلاه تحت اللحيين. اهـ زيلعي. **قوله**: (**منزل ومقام**) معنى مَثْوى إذا الثواء الإقامة.

قوله: (**وأراد بالقرية أهلها**) على المجاز بذكر المحل وإرادة الحال. **قوله**: (**أي كانوا سبب خروجك**) أي الإخراج باعتبار التسبب وإلا فالمخرج عندنا حقيقة هو الله تعالى فإسناد الإخراج إلى أهل القرية مجاز عقلي وإلى القرية مجاز عقلي كما كان مجازًا في الحذف فاجتمع فيه مجازان فلا تغفل وتسبب أهل مكة لأنهم

﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ **(صفة الجنة العجيبة)** الشأن ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عن الشرك (﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ **داخل في حكم الصلة كالتكرير لها**) ألا ترى إلى صحة قولك التي فيها أنهار، **(أو حال)** أي مستقرة فيها أنهار ﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ غير متغير اللون والريح والطعم. يقال: **(أسن الماء)** إذا تغيّر طعمه وريحه (﴿**أسِن**﴾ **مكي**) ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ كما تتغير ألبان الدنيا إلى **(الحموضة)** وغيرها ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ (﴿لَّذَّةٍ﴾ **تأنيث لذ وهو لذيذ**) ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي ما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل **(ولا خمار ولا صداع)** ولا آفة من آفات الخمر ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه **(الشمع)** وغيره ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ﴿مثل﴾ مبتدأ خبره ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ حارًّا في

همّوا به وبسوء القصد إليه فكانوا بذلك سببًا لخروجه حين أمره الله تعالى بالهِجْرَة عنها إلى المدينة.

قوله: (صفة الجنة العجيبة) الشأن تفسير للمثل. **قوله:** (﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ **داخل في حكم الصلة كالتكرير لها**) يريد أنها صلة بعد صلة كالخبر والحال والصفة. **قوله:** **(أو حال)** من العائد المحذوف إذ التقدير وعدها المتقون أو وعد المتقون إياها. **قوله:** **(أسن الماء)** بالفتح من باب ضرب ونصر وبالكسر من باب علم. **قوله:** (﴿ءَاسِنٍ﴾ **مكي**) أي قرأه ابن كثير المكيّ بغير مد بعد الهمزة صفة مشبّهة من أسن الماء بالكسر كحذر يأسن فهو أسن كحذر تغيّر والباقون بالمدّ على وزن ضارب اسم فاعل من أسن الماء بالفتح يأسن بالكسر والضم. **قوله:** **(الحُموضة)** في مختار الصحاح الحُموضة طعم الحامض وقد حَمُض الشيء من باب سَهل ونصر فهو حامض. اهـ. **قوله:** ((﴿لَّذَّةٍ﴾ **تأنيث لذ وهو لذيذ**) فهو صفة مشبّهة. **قوله:** **(ولا خُمار)** بالضم صداع وقيل: الخمار بقية السكر. اهـ. **قوله:** **(ولا صداع)** في المصباح الصداع وجع الرأس. اهـ. **قوله:** **(الشمع)** في الصحاح الشمع بفتحتين الذي يستصبح به قال الفراء: هذا كلام العرب والمولدون يقولون شمع

النهاية ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ والتقدير: أمثل الجنّة كمثل جزاء مَن هو خالد في النار؟ وهو كلام في صورة الإثبات ومعناه النفي لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار ودخوله في حيّزه وهو قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾. وفائدة حذف حرف الإنكار زيادة تصوير (**مكابرة**) من يسوي (**بين المتمسك بالبينة**) والتابع لهواه وأنه بمنزلة مَن يثبت التسوية بين الجنّة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يسقى أهلها الحميم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ هم المنافقون كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له بالًا تهاونًا منهم، فإذا خرجوا قالوا لأولي العلم من الصحابة: ماذا قال (**الساعة**) على جهة الاستهزاء ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ بالإيمان واستماع القرآن ﴿زَادَهُمْ﴾ الله ﴿هُدًى﴾ أي بصيرة وعلمًا أو شرح صدورهم ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ (**أعانهم عليها أو آتاهم جزاء تقواهم أو بين لهم ما يتقون**).

بالتسكين. اهـ. **قوله**: (**مكابرة**) في المصباح كابرته مكابرة غالبته مغالبة وعاندته. اهـ. **قوله**: (**بين المتمسك بالبينة**) هذا معنى قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ والتابع لهواه معنى قوله: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ﴾... الخ.

قوله: (**الساعة**) أشار إلى أن آنفًا ظرف حاليّ بمعنى الآن. **قوله**: (**أعانهم عليها**) فالإيتاء مجاز عن الإعانة والتقوى على حقيقتها وحمله على الإعانة لأن إعطاء التقوى حاصل قبل هذا. **قوله**: (**أو آتاهم جزاء تقواهم**) فآتى على حقيقته لكن المراد جزاؤها مجازًا لما عرفته من حصول التقوى فلا جرم أن المراد جزاؤها فعلم منه أنه لو فسّر بخلق التقوى بناء على المذهب الحق لكان تحصيل الحاصل إلّا أن يراد بالتقوى الزيادة على ما منحوه من التقوى. **قوله**: (**أو بين لهم ما يتقون**) حمل آتى بمعنى أعطى والتقوى بمعنى ما يتقون ليحسن التقابل بقوله:

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ **(أي ينتظرون)** ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ أي إتيانها فهو بدل اشتمال من ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَقَدْ جَآءَ (أَشْرَاطُهَا)﴾ علاماتها **(وهو مبعث محمد ﷺ وانشقاق القمر)** والدخان. وقيل: قطع الأرحام وقلّة **(الكرام)** وكثرة **(اللئام)** ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ قال الأخفش: التقدير فأنى لهم ذكراهم إذا جاءتهم.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ﴾ أن الشأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ والمعنى **(فاثبت على ما أنت)** عليه من العلم بوحدانية الله وعلى التواضع

﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ كما تقابل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ﴾ فالإيتاء مجاز عن التبيين لأنه من لوازم الإعطاء والتقوى مجاز عن ما يتقون من المعاصي لكونه متعلقة.

قوله: **(أي ينتظرون)** أي النظر هنا بمعنى الانتظار والترقب لكونه متعديًا بنفسه. **قوله**: **(﴿أَشْرَاطُهَا﴾)** الأشراط جمع شرط بفتحتين وهو العلّامة مثل سبب وأسباب وجمع الشرْط شروط مثل فلس وفلوس. **قوله**: **(وهو مبعث محمد ﷺ)** المبعث مصدر بمعنى البعث أو اسم زمان وهو لكونه ﷺ خاتم الرسل وشريعته آخر الشرائع كانت بعثته علامة للساعة كما ورد في الحديث. «بعثت أنا والساعة كهاتين»(١). **قوله**: **(وانشقاق القمر)** من علاماتها لقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: الآية ١] وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. **قوله**: **(الكرام)** جمع كريم. **قوله**: **(اللئام)** جمع لئيم.

قوله: **(فاثبت على ما أنت)**... الخ أوله به لأنه عليه السلام عالم بالوحدانية فالمراد الأمر بالثبات عليه وعدم الثبات غير متوقع منه عليه الصلاة

---

(١) ويشير بإصبعيه يمدهما إلى الوسطى والتي تلي الإبهام. منه. برّد الله مضجعه ورحمه الله تعالى.

و (**هضم النفس**) باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك. (**وفي شرح التأويلات**) جاز أن يكون له ذنب فأمره بالاستغفار له ولكنا لا نعلمه، غير أن ذنب الأنبياء ترك

والسلام، فالمراد ترغيب أمته وتحريض عليه تعريضًا للمنافقين. اهـ قونوي. وجعل الأمر بالاستغفار كناية عما يلزمه من التواضع وهضم النفس والاعتراف بالتقصير لأنه معصوم أو مغفور لا مصر ذاهل عن الاستغفار والتحقيق أنه توطئة لما بعده من الاستغفار لذنوب المؤمنين فتأمل. اهـ شهاب.

وقوله: (**هضم النفس**) أي كسرها. **قوله:** (**وفي شرح التأويلات. . .**) الخ عبارته قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: الآية ٥٥] إنما هو لافتتاح الكلام وابتدائه على ما يؤمر المرء أن يبتدىء بالدعاء لنفسه عند أمره بالدعاء لغيره وكان حقيقة الأمر بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات دون نفسه، ولكن أمر بالدعاء لنفسه استحسانًا والله أعلم. وجائز أن يكون له ذنب فأمره بالاستغفار له لكن نحن لا نعلم وليس علينا أن يكلف حفظ ذنوب الأنبياء عليهم السلام وذكرها وكل موهوم فيه الذنب نحو أن يؤمر بالاستغفار لقول إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: الآية ٨٢] لكن ليس ذنب الأنبياء وخطاياهم كذنب غيرهم فذنب غيرهم ارتكاب القبائح من الصغائر والكبائر وذنبهم ترك الأفضل دون مباشرة القبيح في نفسه والله الموفّق ثم أرجى آية للمؤمنين هذه الآية لأنه عزّ وجلّ أمر رسوله عليه السلام أن يستغفر لهم فلا يحتمل أن لا يستغفر وقد أمره مولاه بالاستغفار ثم لا يحتمل أيضًا أنه إذا استغفر لهم على ما أمره به فلا يجب له ولذلك دعا سائر الأنبياء عليهم السلام نحو دعاء نوح عليه السلام، ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [نوح: الآية ٢٨]، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٤١]. ونحو ذلك وكذا استغفار الملائكة لهم أيضًا بقوله: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورى: الآية ٥]، وقوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: الآية ٧] الآية.

هذه الآيات أرجى آيات للمؤمنين ودعوات الأنبياء عليهم السلام أفضل وسائل يكون إلى الله تعالى وأعظم قرب عنده والله الموفّق. اهـ بحروفه. **قوله:**

الأفضل دون مباشرة القبيح، وذنوبنا مباشرة القبائح من الصغائر والكبائر. **(وقيل: الفاءات في هذه الآيات لعطف جملة على جملة بينهما اتصال)** ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في معايشكم ومتاجركم ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ ويعلم حيث تستقرون من منازلكم أو متقلبكم في حياتكم ومثواكم في القبور، أو متقلبكم في أعمالكم ومثواكم في الجنّة والنار، ومثله حقيق بأن يتقى ويخشى وأن يستغفره وسُئِلَ **(سفيان بن عيينة)** عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله: ﴿(فَٱعْلَمْ) أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم.

(وقيل: الفاءات في هذه الآيات لعطف جملة على جملة بينهما اتصال) قال العلّامة شيخ زاده في حاشيته على البيضاوي قوله تعالى: (﴿فَٱعْلَمْ﴾) قال أبو العالية وابن عيينة هو متصل بما قبله معناه إذا جاءتهم الساعة فاعلم أنه لا ملجأ ولا مفزع عند قيامها إلّا الله. اهـ. وقال الطيبي رحمه الله المراد باستغفار القوم دعوتهم إلى ما يزيل أوضارهم من الكفر بالله والنفاق وسائر المعاصي والنظم يقتضي هذا لأن قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هو مرتب بالفاء على قوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ يعني إذا تيقنت أن الساعة آتية وقد جاء أشراطها فخذ بالأهم فالأهم والأولى فالأولى فتمسك بالتوحيد ونزّه الله عما لا ينبغي ثم طَهّر نفسك بالاستغفار عما لا يليق بك من ترك الأولى فإذا صرت كاملًا في نفسك فكن مكملًا لغيرك فاستغفر للمؤمنين فإذا المراد باستغفار المؤمنين والمؤمنات ما به يزول كفرهم ونفاقهم ومغاصيهم من العلم والعمل وبالمؤمنين العموم سواء كان مخلصًا أو كافرًا منافقًا تغليبًا يدلّ على الأول قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [محمد: الآية ٢٠] الآيات فالاستغفار محمول على عموم المجاز.

قوله: (سفيان بن عيينة) بن أبي عمران ميمون الهلالي أبو محمد الكوفي ثم المكيّ كان إمامًا عالـمًا ثبتًا زاهدًا ورعًا مجمعًا على صحة حديثه وروايته وحج سبعين حجة، وروى عن الزهري وأبي إسحٰق السبيعي وعمرو بن دينار ومحمد بن المنكدر وأبي الزناد وعاصم بن أبي النجود المقري والأعمش وعبد الملك بن عمير وغير هؤلاء من أعيان العلماء. وروى عنه الإمام الشافعي وشعبة بن الحجاج ومحمد بن إسحٰق وابن جريج والزبير بن بكار وعمه مصعب وعبد الرزاق بن همام

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها ذكر الجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ في معنى الجهاد ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجهًا إلا وجوب القتال. **(وعن قتادة)**: كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة لأن النسخ لا يرد عليها من قبل أن القتال نسخ ما كان من الصفح **(والمهادنة)** وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي أمر فيها بالجهاد ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق أي رأيت المنافقين فيما بينهم **(يضجرون)** منها ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ **(أي تشخص أبصارهم جبنًا)** وجزعًا كما ينظر من أصابته الغشية عند

الصنعاني ويحيىٰ بن أكثم القاضي وخلق كثير رضي الله عنه. وقال سفيان: دخلت الكوفة ولم يتم لي عشرون سنة، فقال أبو حنيفة لأصحابه ولأهل الكوفة: جاءكم حافظ علم عمرو بن دينار قال: فجاء الناس يسألوني عن عمرو بن دينار فأوّل مَن صيّرني محدثًا أبو حنيفة فذاكرته فقال لي: يا بني ما سمعت من عمرو إلا ثلاثة أحاديث يضطرب في حفظ تلك الأحاديث ومولد سفيان بالكوفة في منتصف شعبان سنة سبع ومائة وتُوفي يوم السبت آخر يوم من جمادى الآخرة وقيل: أول يوم من رجب سنة ثمان وتسعين ومائة بمكةً ودُفن بالحجون رحمه الله تعالى وعيينة بضم العين المهملة وفتح الياء الأولى وسكون الثانية المثناتين من تحتهما وفتح النون وبعدها هاء ساكنة والحجون بفتح الحاء المهملة وضم الجيم وبعد الواو الساكنة نون جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها وله ذكر في الأشعار. اهـ وفيات الأعيان باختصار. وفي الجواهر المضيئة روى له الشيخان. اهـ.

قوله: **(وعن قتادة)** بن دعامة كان تابعيًا وكان عالمًا كبيرًا وكانت ولادته سنة ستين للهجرة وتُوفي سنة سبع عشرة ومائة بواسط وقيل: ثماني عشرة رضي الله تعالى عنه. **قوله**: **(والمهادنة)** في المصباح هادنته مهادنة صالحة. اهـ. **قوله**: **(يضجرون)** في الصحاح الضجر القلق من الغمّ. اهـ. **قوله**: **(أي تشخص أبصارهم)** يقال: شخص بصر فلان أي فتحه فلم يغمضه. **قوله**: **(جبنًا)** في المصباح جبن جبنًا وزان قرب قربًا وجبانة بالفتح وفي لغة من باب قتل فهو جبان أي ضعيف القلب. اهـ.

الموت ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ وعيد بمعنى فويل لهم وهو أفعل من الولي وهو القرب ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنف (أي ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ **خير لهم**) ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ فإذا جدّ الأمر ولزمهم فرض القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الإيمان والطاعة ﴿لَكَانَ﴾ الصدق ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من كراهة الجهاد.

ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب بضرب من التوبيخ والإرهاب فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ أي فلعلكم إن أعرضتم عن دين رسول الله ﷺ وسنّته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض (**بالتغاور**) والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضًا (**ووأد البنات**). وخبر عسى ﴿أَن تُفْسِدُوا۟﴾ والشرط (**اعتراض**) بين الاسم والخبر والتقدير: فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم إن توليتم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أبعدهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الموعظة ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ عن إبصارهم طريق الهدى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فيعرفوا ما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد (**العصاة**)

قوله: (**أي ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ خير لهم**) فعلى هذا (**طاعة**) مبتدأ خبر محذوف وهي وإن كانت نكرة لكنها في قوة قول معروف أو في قوة طاعة عظيمة. **قوله**: (**بالتغاور**) في لسان العرب تَغاوَرَ القوم أغارَ بعضهم على بعض. اهـ. **قوله**: (**ووأد البنات**) في المصباح وأد ابنته وأدًا من باب وعد دفنها حية فهي موؤودة. اهـ. **قوله**: (**اعتراض**) أي معترض.

قوله: (**العصاة**) جمع عاصٍ.

حتى **(لا يجسروا)** على المعاصي. و«أَمْ» في ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ بمعنى بل وهمزة التقرير للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر. ونكرت القلوب لأن المراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك، والمراد بعض القلوب وهي قلوب المنافقين، وأُضيفت الأقفال إلى القلوب لأن المراد الأقفال المختصة بها وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح نحو **(الرين)** والختم والطبع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ أي المنافقون رجعوا إلى الكفر سرًّا بعد وضوح الحق لهم ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ﴾ زيّن ﴿لَهُمْ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرًا لـ «إن» نحو: **(إن زيدًا عمرو مرّ به)** ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ **(ومدّ لهم في الآمال والأماني ﴿وأُمْلِي﴾ أبو عمرو)** أي امهلوا ومدّ في عمرهم

قوله: (لا يجسروا) في لسان العرب جَسَر على كذا يجسر جَسَارة وتجاسر عليه أقدم. اهـ. **قوله: (الرين)** في المصباح ران الشيء على فلان رينًا من باب باع غلبه ثم أطلق المصدر على الغطاء. اهـ. وفي مختار الصحاح الرين الطبع والدَّنس يقال: ران ذنبه على قلبه من باب باع ورُيُونًا أيضًا أي غلب، وقال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: الآية ١٤] أي غلب، وقال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب، وقال أبو عبيد: كل ما غلبك فقد ران بك ورانك وران عليك. اهـ.

قوله: (إن زيدًا عمرو مرّ به) مرّ بفتح الميم وتشديد الراء. **قوله: (ومدّ لهم في الآمال)** معنى المدّ التوسيع بأنواع الحيل والوسوسة بأن يغريهم إن عمرك طويل تنال في الدنيا كذا وكذا وإن الله غفور رحيم ولا يعاقبك بلطفه وكرمه وإسناد المدّ إليه مجاز كإسناد التزيين إليه. **قوله: (والأماني)** بالتخفيف والتشديد وهو الأفصح. **قوله: (﴿وأُمْلِي﴾ أبو عمرو)** أي قرأه أبو عمرو بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء مبنيًا للمفعول ونائب الفاعل لهم وقيل: ضمير الشيطان والباقون بفتح الهمزة واللام وبالألف مبنيًا للفاعل وهو ضمير الشيطان وقيل: للباري تعالى.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي المنافقون قالوا لليهود ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي عداوة محمد والقعود عن نصرته ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ على المصدر من أسر: حمزة وعلي وحفص. ﴿أسرارهم﴾ غيرهم جمع سرّ.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي فكيف يعملون وما حيلتهم حينئذٍ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتوفى أحد على معصية إلا يضرب من الملائكة في وجهه ودبره ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التوفي الموصوف ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿ٱتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من معاونة الكافرين ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُۥ﴾ من نصرة المؤمنين ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ أحقادهم. والمعنى أظن المنافقون أن الله تعالىٰ لا يبرز بغضهم وعداوتهم للمؤمنين.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ لعرّفناكهم ودللناك عليهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلامتهم وهو أن يسمهم الله بعلامة يعلمون بها. **(وعن أنس)** رضي الله عنه: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية أحد من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ في نحوه وأسلوبه الحسن من فحوى كلامهم لأنهم كانوا لا يقدرون على كتمان ما في أنفسهم. واللام في ﴿فلعرفتهم﴾ داخلة في جواب «لو» كالتي في ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ كررت في المعطوف، وأما اللام في ﴿ولتعرفنهم﴾ فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فيميّز خيرها من شرّها.

قوله: **(وعن أنس)** بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي خادم رسول الله ﷺ خدمه عشر سنين صحابي مشهور مات سنة اثنتين وقيل: ثلاث وتسعين وقد جاوز المائة.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالقتال إعلامًا لا استعلامًا أو نعاملكم معاملة المختبر ليكون أبلغ في إظهار العدل ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الجهاد أي نعلم كائنًا ما علمناه أنه سيكون ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ أسراركم (**﴿وليبلونكم حتى يعلم﴾**، **﴿ويبلو﴾**) أبو بكر. **(وعن الفضيل)** أنه كان إذا قرأها بكى وقال: اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذّبتنا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ وعادوه يعني المطعمين يوم بدر وقد مرّ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ من بعد ما ظهر لهم أنه الحق وعرفوا الرسول ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي عملوها في مشاقة الرسول أي سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ بالنفاق أو بالرياء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾ قيل: هم أصحاب **(القليب)** والظاهر العموم ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ فلا تضعفوا ولا تذلوا للعدو ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ **(وبالكسر: حمزة وأبو بكر)** وهما المسالمة أي ولا

قوله: (**﴿وليبلونكم حتى يعلم﴾ ﴿ويبلو﴾**) بالياء التحتية في الثلاثة أبو بكر والباقون بنون العظمة. **قوله**: **(وعن الفضيل)** بن عياض بن مسعود التيمي أبي علي الزاهد المشهور أصله من خراسان وسكن مكّة ثقة عابد مات سنة سبع وثمانين ومائة وقيل: قبلها.

قوله: **(القليب)** بفتح القاف بوزن فعيل بئر طرح فيها قتلى بدر من المشركين. **قوله**: **(وبالكسر)** أي بكسر السين **(حمزة وأبو بكر)** والباقون بفتحها

تدعوا الكفار إلى الصلح ﴿وَأَنتُمُ (ٱلۡأَعۡلَوۡنَ)﴾ أي الأغلبون وتدعوا مجزوم لدخوله في حكم النهي ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ بالنصرة **(أي ناصركم)** ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ ولن ينقصكم أجر أعمالكم.

﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ٣٦ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ٣٧﴾

(﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾) تنقطع في أسرع مدة ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الشرك ﴿يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾ **(أي لا يسألكم جميعها)** بل ربع العشر، والفاعل الله أو الرسول * وقال سفيان بن عيينة: **(غيضًا من فيض)** ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ﴾ **(أي يجهدكم)** ويطلبه

وهما المسالمة وهي الصلح. **قوله**: (﴿ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾) أصله الأعلوون بواوين الأولى لام الكلمة والثانية واو جمع المذكر السالم فيقال: تحركت الواو الأولى وانفتح ما قبلها فقلبت ألفًا فالتقى ساكنان فحذفت الألف. اهـ جمل. **قوله**: **(أي ناصركم)** فإنه لا يتصوّر في حقه المعيّة الحقيقية فيحمل في كل مقام على ما يلايمه تعالى.

قوله: (﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾) أي باطل وغرور يعني كيف تمنعكم الدنيا عن طلب الآخرة وقد علمتم أن الدنيا كلها لعب ولهو إلا ما كان منها في عبادة الله عزّ وجلّ وطاعته واللعب ما يشغل الإنسان وليس فيه منفعة في الحال ولا في المآل ثم إذا استعمله الإنسان ولم يشغله عن غيره ولم ينسه أشغاله المهمة فهو اللعب وإن أشغله عن مهمات نفسه فهو اللهو. اهـ خازن. **قوله**: **(أي لا يسألكم جميعها)** إشارة إلى إفادة الجمع المضاف للعموم. **قوله**: **(غيضًا[1] من فيض)** أي قليلًا من كثير كذا في الصحاح وهو ربع العشر في أموال التجارة ونصف العشر في نماء الأرض وخارجها. **قوله**: **(أي يجهدكم...)** الخ أي يشق عليكم طلبه

---

(١) يقال: غاض الكرام أي قلوا وفاض اللئام أي كثروا وقولهم: أعطاه غيضًا من فيض أي قليلًا من كثير.

كله والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء. يُقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئًا من الإلحاح، وأحفى (**شاربه**) إذا (**استأصله**) ﴿تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ﴾ أي الله أو البخل ﴿أَضْغَٰنَكُمْ﴾ عند الامتناع أو عند سؤال الجميع لأنه عند مسألة المال تظهر العداوة والحقد.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ ها للتنبيه ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ موصول بمعنى الذي صلته ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أي أنتم الذين تدعون ﴿لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هي النفقة في الغزو أو الزكاة كأنه قيل: الدليل على أنه لوأحفاكم لبخلتم وكرهتم العطاء أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ بالرفع لأن من هذه ليست للشرط أي فمنكم (**ناس يبخلون به**) ﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ بالصدقة وأداء الفريضة ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي يبخل عن داعي نفسه لا عن داعي ربه. وقيل: يبخل (**على نفسه يقال: بخلت عليه وعنه**) ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أي أنه لا يأمر بذلك لحاجته إليه لأنه غني عن الحاجات ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ وإن تعرضوا أيها العرب عن طاعته وطاعة رسوله والإنفاق في سبيله. وهو معطوف على ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلق قومًا خيرًا منكم وأطوع وهم فارس. (**وسُئِلَ رسول الله ﷺ**) عن القوم (**وكان سلمان**) إلى جنبه فضرب على فخذه وقال: هذا

للكل. **قوله**: (**شاربه**) في المصباح الشارب الشعر الذي يسيل على الفم.اهـ. **قوله**: (**استأصله**) أخذ أصله وهو كناية عن أخذ الجميع.

قوله: (**ناس يبخلون به**) إشارة إلى من تبعيضية. **قوله**: (**على نفسه**) أي متعديًا على نفسه. **قوله**: (**يقال: بخلت عليه وعنه**) فيعدّى بعلى وعن لتضمينه معنى الإمساك والتعدي والإمساك يعدى بعن والتعدي بعلى.

قوله: (**وسُئِلَ رسول الله**) ﷺ. . . الخ حديث صحيح رواه الترمذي وغيره وهو على شرط مسلم. **قوله**: (**وكان سلمان**) الفارسي بكسر الراء ويسكن يكنى أبا

وقومه، والذي نفسي بيده **(لو كان الإيمان منوطًا بالثريا لتناوله رجال من فارس)** ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمۡثَـٰلَكُم﴾ أي ثم لا يكونوا في الطاعة أمثالكم بل أطوع منكم.

عبد الله مولى رسول الله ﷺ وهو أحد الذين اشتاقت إليهم الجنة وكان من المعمرين قيل: عاش مائتين وخمسين سنة وقيل: ثلاثمائة وخمسين سنة والأول أصح، وكان يأكل من عمل يديه ويتصدق بعطائه ومناقبه كثيرة وفضائله غزيرة وأثنى عليه النبيّ ﷺ ومدحه في كثير من الأحاديث ومات بالمدائن سنة خمس وثلاثين. روى عنه أنس وأبو هريرة وغيرهما.

قوله: (لو كان الإيمان منوطًا بالثريا) نجم معروف وفي رواية لأبي يعلى والبزار «لو كان الإيمان معلقًا بالثريا **(لتناوله رجال من فارس)**» قال ابن عربي وفي تخصيصه ذكر الثريا دون غيرها من الكواكب إشارة بديعَة لمثبتي الصفات السبعة لأنها سبعة كواكب فافهم في الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان للشيخ الأجلّ أحمد بن حجر المكيّ رحمهما الله المقدمة الثالثة فيما ورد من تبشير النبيّ ﷺ بالإمام أبي حنيفة رضي الله عنه.

اعلم أن أعظم ذلك وأجلّه وأوضحه وأكمله ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة وأبو نعيم عنه والشيرازي والطبري عن قيس بن سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه والطبراني عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس» ولفظ الشيرازي وأبي نعيم «لو كان العلم معلقًا عند الثريا» ولفظ الطبراني عن قيس «لا تناله العرب له رجال من أبناء فارس»، قال الحافظ المحقق الجلال السيوطي: هذا أصل صحيح يعتمد عليه في البشارة بأبي حنيفة وفي الفضيلة التامة له نظير الحديث الذي في مالك رضي الله تعالى عنه وهو قوله ﷺ: «يوشك أن يضرب أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة» والحديث الذي في الشافعي رضي الله تعالى عنه وهو قوله ﷺ: «لا تسبّوا قريشًا فإن عالمها يملأ الأرض علمًا» وهو حديث حسن له طرق كثيرة، وزعم بعضهم وضعه وزيّفوه وشنعوا على زاعمه ومخترعه. قال العلماء عالم المدينة في الحديث الأول مالك وعالم قريش في الحديث الثاني الشافعي. قال بعض تلامذة الجلال وما جزم به شيخنا من أن الإمام أبا حنيفة هو المراد من هذا الحديث ظاهر لا شك فيه لأنه لم يبلغ أحد في زمنه من أبناء فارس

....

في العلم مبلغه ولا مبلغ أصحابه، وفيه معجزة ظاهرة للنبيّ ﷺ حيث أخبر بما سيقع وليس المراد بفارس البلد المعروف بل جنس من العجم وهو الفرس وأن جد الإمام أبي حنيفة منهم على ما عليه الأكثرون وفي خبر عن الديلمي خير العجم فارس، قال الجلال وبهذا الخبر أي المتفق على صحته يستغنى عن الخبر الموضوع المروي في حق أبي حنيفة انتهت بحروفها.

هذا آخر ما يتعلق بسورة محمد ﷺ والحمد لله وحده
وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم